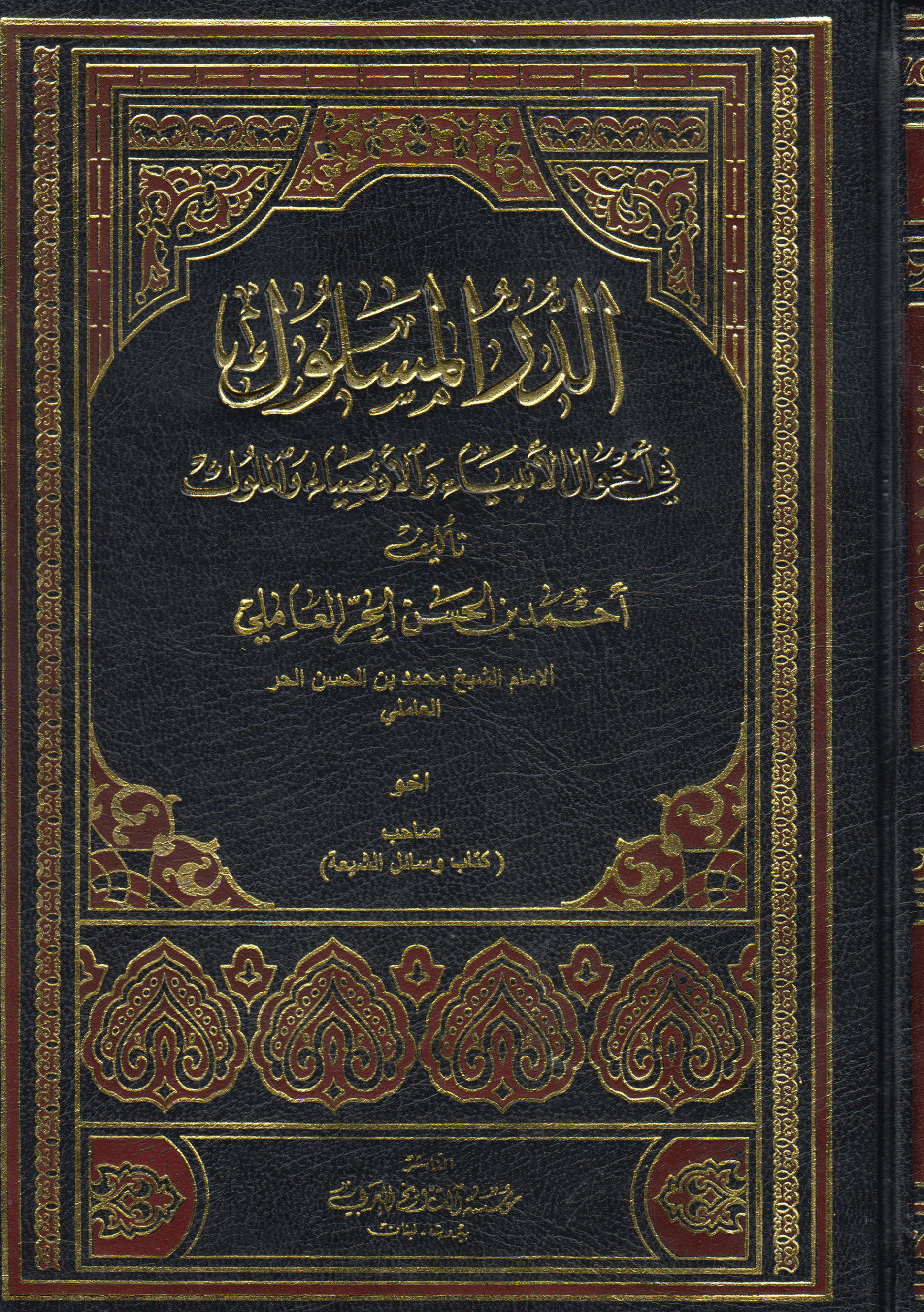
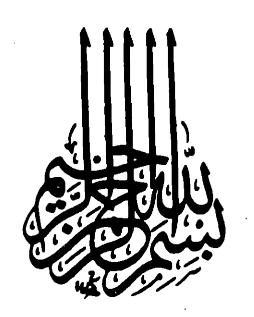


الدر المسلول
في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك
تأليف
أحمد بن الحسن الحر العاملي
الامام الشيخ محمد بن الحسن الحر
العاملي
اخو
صاحب
(كتاب وسائل الشيعة)
الناشر
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت - لبنان
الحر العاملي
الدر المسلول
١
مؤسسة التاريخ العربي

الدُّرُّ المسلوك

في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك



الدر المسلوك

في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك

تأليف

أحمد بن الحسن الحر العاملي

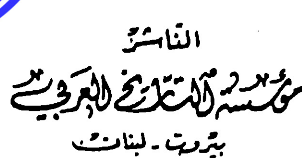
ألامام الشيخ محمد بن الحسن الحر
العاملي

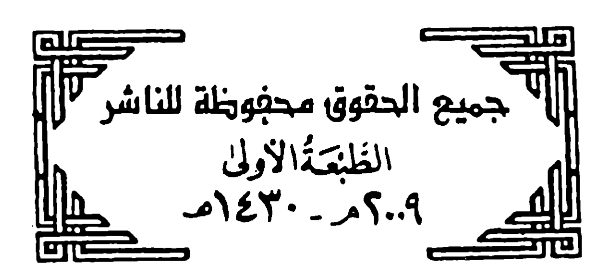
اخو

صاحب
(كتاب وسائل الشيعة)



الجزء الأول





دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٠١/٥٤٠٠٠٠ - ٠١/٤٥٥٥٥٩ - فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/540000 - 01/455559 - Fax: 850717 - p.o.box 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد المصطفى واله الطيبين الطاهرين سيما بقية الله في الارضين واللعنة الدائمة على اعدائهم اجمعين من الاولين والاخرين الى قيام يوم الدين.

وبعد فان كتاب الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والاوصياء والخلفاء والملوك ؛ اصحاب الفضل والصبر والبطش والامامة من مبدا الدنيا الى يوم القيامة هو من الكتب القيمة التي الفها الفقيه المحدث الفذ الشيخ أحمد بن الحسن الحر العاملي، أخو الشيخ الحر صاحب الوسائل.

وقد احببت ان انقل ما نقلوه في مؤلف الكتاب واعرف به من لسان من ترجم له من العلماء باختصار فاقول:

وقال اقا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة ج ٨ ص ٧١: الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك) للشيخ أحمد ابن الحسن الحر العاملي أخ المحدث الشيخ محمد بن الحسن صاحب الوسائل كان أصغر من أخيه وكان حيا إلى (١١٢٠) وصار شيخ الاسلام في مشهد خراسان بعد وفاة أخيه الشيخ الحر في (١١٠٤) يظهر بعض تواريخه من آخر المجلد الأول من هذا الكتاب الذي انتهى فيه من ذكر سنى الهجرة ووقايعها إلى (٨٠٦) ثم ذكر جملة من تواريخ نفسه وأولاد، والظاهر أن هذه النسخة بخط المؤلف رأيتها في مشهد خراسان في مكتبة الحاج عماد الفهرسي وفي آخر هذه النسخة بخط المصنف ما صورته : [في (١٠٧٠) توجهت إلى العراق، وفي (١٠٧١) حججت البيت، وفي (١٠٨٤) تجاورت مشهد الرضا عليه السلام، وفيها حدثت زلزلة وقعت منها قبة الرضا (ع) ومنارتيا المسجد الجامع وهلك جماعة فأمر الشاه سليمان بإعادة القبة، وفي (١٠٩٥) ولد ابني محمد الحر، وفي (١٠٩٨) ولد ابني إبراهيم الحر، وفي (١١٠٠) ولدا بنى موسى الحر وتوفى. وفي (١١١٥) طلبني الشاه سلطان حسين إلى أصفهان. وفي (١١٢٠) ولد ابني صالح بن محمد بن الحر المذكور، وبالجملة هذه نسخة نفيسة من المجلد الأول من هذا الكتاب، وتوجد نسخة أخرى من وبالجملة هذه نسخة نفيسة من

المجلد الأول من هذا الكتاب، وتوجد نسخة أخرى من المجلد الأول في مكتبة (الصدر). والنسخة التامة منه في مجلدين ضخمين في النجف في كتب الشيخ محمد حسن مظفر. أوله [الحمد لله الذي أحسن كل شئ خلقه وبدء خلق الانسان من طين] وهو مرتب على مقدمة وأركان خمسة كما في نسخة (الصدر) فالمقدمة في ابتداء خلق السماوات والأرض وما بينهما، والركن الأول في أحوال الأنبياء والمرسلين، والثاني في الأئمة (ع) وأعمار المعمرين والثالث في الملوك المتقدمين والأمم الماضين، وبه يتم هذه النسخة الصدرية. وفي آخرها [ويتلوه المجلد الثاني من أول الركن الرابع الذي هو في أحوال الخلفاء المسلمين والحكام والسلاطين، والركن الخامس في وفيات الصحابة والتابعين والحوادث في الدنيا والخاتمة فيما هو كالغايات مما يكون في آخر الزمان في فصول آخرها في الأهوال والحساب] وأما النسخة المظفرية فهي مرتبة على ستة أركان وخاتمة. والركن السادس منها في حياة مجموع الدنيا من هبوط آدم (ع) إلى حين التأليف وذكر في اخرها مآخذ الكتاب ومنها (الكشكول) المنسوب إلى العلامة الحلي و(مصارع الحسين) و(وفاء الثارات) و(الكمال في أسماء الرجال) ولعله تأليف عبد الغني المقدسي المتوفى (٦٠٠) إلى غير ذلك، وأما تاريخ فراغه فقد ذكر في آخر النسخة التي رأيتها في الشام في مكتبة سيدنا المحسن الأمين. ويظهر منه تأريخ ولادة المؤلف أيضا حيث ذكره انه [فرغ منه (١٠٩٤) وله ثلاث وخمسون سنة] فيظهر انه ولد (١٠٤١) وأما أخوه الشيخ المحدث الحر فقد ولد (٨ رجب - ١٠٣٣]

ولكن السيد الأمين في (ج ٧ - ص ٤٨٤) من (أعيان الشيعة) في ذيل ترجمة المؤلف ذكر قوله في آخر الكتاب [نقلته إلى البياض سنة (..) ولى من العمر ثلاث وخمسون سنة] فاقتصر في تعيين السنة بالنقطة ولعله لم يتبين العدد عنده ثم انه في (ج ٨ - ص ٣٥) أورد ترجمة أحمد بن الحسن الحر وقال [مرت ترجمته ولكن كررناه لذكر ما ظفرنا له بثلاث إجازات وأورد الإجازات كما هي، وهي كلها للشيخ أحمد بن الحسن الحر الذي هو ابن أخت المحدث الحر لا أحمد بن الحسن الذي هو أخوه فالترجمة الثانية أيضا في محلها ولبست مكررة.

قال في كتاب تكملة امل الامل ص ٩٤: الشيخ أحمد بن الحسن الحر العاملي، أخو الشيخ الحر صاحب الأصل لأبيه وأمه وقد ذكره في الأصل، وذكر له مصنفاته، وذكر منها كتاب «التاريخ الكبير» وكتاب «التاريخ الصغير» ولم يسمهما، وعندي كتاب

«الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك» بخط الشيخ احمد المذكور وقلم يده، وهو في مجلدين، وقد وصل في المجلد الأول إلى آخر أيام الأمم من العرب والعجم، وجعل الكتاب مبنيا على مقدمة في ابتداء خلق السماوات والأرض وما بينهما من العجائب، وخمسة أركان : الأول في الأنبياء والمرسلين، والثاني في الأئمة المعصومين وأعمار المعمرين، والثالث في الملوك المتقدمين والأمم الماضين، وكل هذا هو المجلد الأول الموجود عندنا. والمجلد الثاني وآله الركن الرابع في الخلفاء من المسلمين والحكام والسلاطين، والركن الخامس في وفاة الصاحبة والتابعين والحوادث في الدنيا والدين، وخاتمة في أحوال آخر الزمان، وفصل في أحوال القيامة والحساب.

واكتفيت بهذا القليل لعدم الاطالة وارجو من القارئ الكريم ان يسامحنا على التقصير.

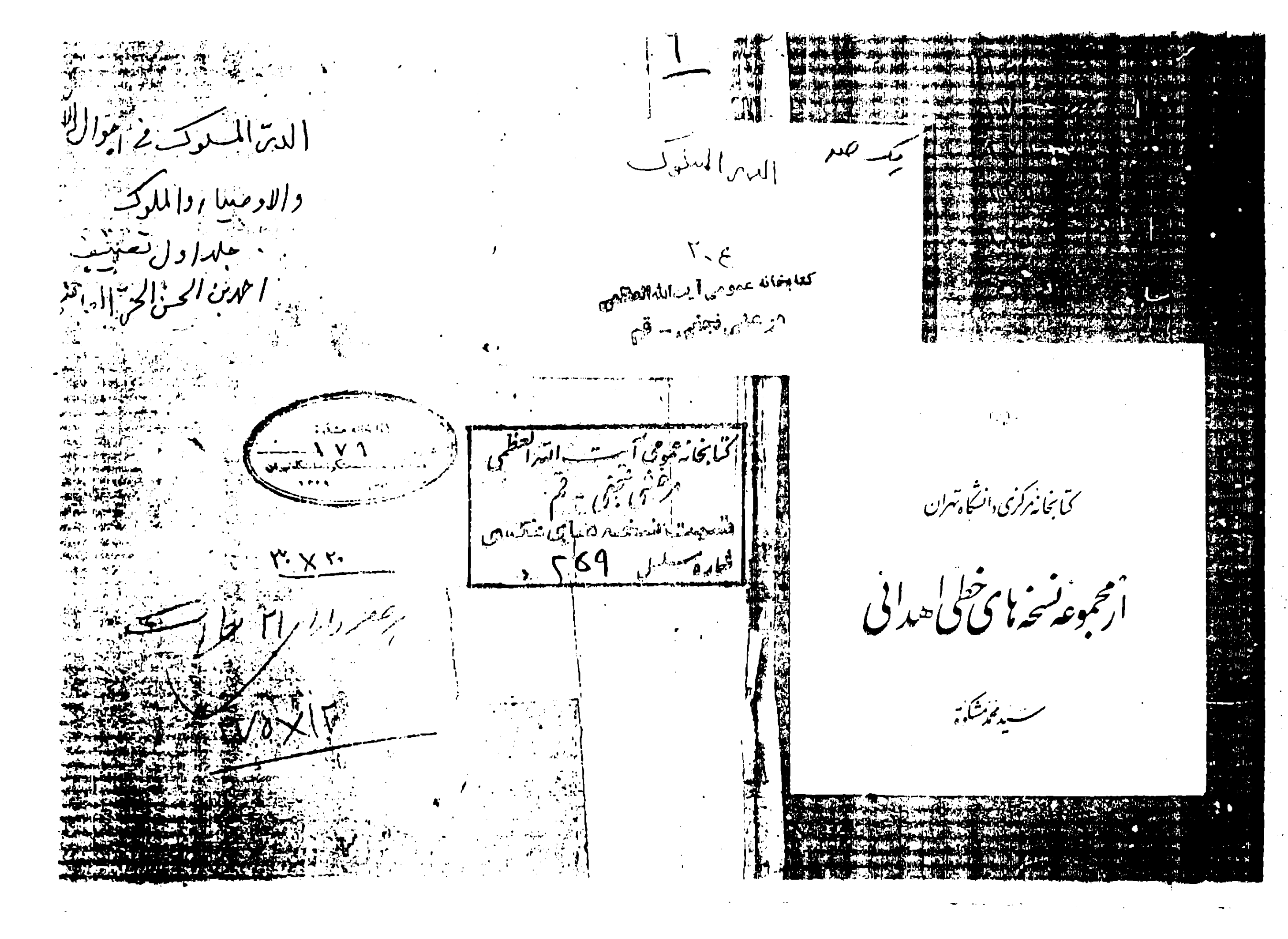
وللمؤلف كتب اخرى لا يسعنا المجال لذكرها في هذه العجالة.

ولما كان الاخوة في دار احياء التراث العربي يهتمون باظهار وبنشر الكتب الاسلامية بعد تحقيقها وحيث ان لهذا الاثر الذى بين ايدينا من اهمية في مجال التاريخ وغيره اثراً كبيراً باعتبار نفسه وباعتبار انه من المصادر المهمة للآثار التي الفت بعده ولم نرى له طبعة محققة ومصححة فقد قام بعض الاخوة في مؤسسة التحقيق في دار احياء التراث العربي بتحقيق هذا السفر ولم يدخروا جهداً في تحقيقه ليخرج باحلى حلة فجزاهم الله افضل الجزاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دار احياء التراث العربي

بيروت لبنان



الدرّ المسلوک فی احوال الا
والاوصیاء والملوک
جلد اول تصنیف
احمد بن الحسن الحرّ العاملی
الدر المسلوک
یک صد
کتابخانه مرکزی دانشگاه تهران
از مجموعه نسخه های خطی اهدائی
سید محمد مشکاة

فيكون ... تغيبه نكتة سود الكافر وقيل هي الجساسة روي ان طولها ستون ذراعا لها
قوائم وزغب وريش وجناحان لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب وفي النبوي ورد في صحيح مسلم
عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان اول الآيات خروجا طلوع
الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وايهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على اثرها
قريبا يريد اول الآيات التي لا ينفع الايمان بعدها نفسا لم تكن آمنت لا تكون الساعة الا بعد ... رجل
۞ مسلم بن الحجاج في صحيحه جاء رجل الى عبد الله بن عمرو فقال ما هذا الحديث الذي
تحدث به تقول ان الساعة تقوم الى كذا وكذا فقال سبحان الله او لا اله الا الله لقد هممت
ان لا احدث احدا شيئا ابدا انما قلت انكم سترون بعد قليل امرا عظيما يحرق البيت ويكون
ويكون ومن حديث جبرئيل عليه السلام حين جاء في صورة اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم وسأل عن
الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما المسؤول عنها باعلم من السائل ولكن سأحدثكم باشراطها اذا
رأيت المرأة تلد ربها فذلك من اشراطها واذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك
الارض فذلك من اشراطها واذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان فذلك من اشراطها
في خمس لا يعلمهن الا الله عز وجل ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله ان الله عنده علم
الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري
نفس باي ارض تموت ان الله عليم خبير ۞ في عيون المعاني رأى بعض الخلفاء صورة
ملك او نبي في المنام فسأله عن موته فاشار اليه باصابعه الخمس فقال لبعض المعبرين
يدل على خمس سنين او خمسة اشهر او خمسة ايام ۞ ابو يوسف القاضي من اصحاب ابي
حنيفة بل هو اشارة الى قوله تعالى ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في
الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس باي ارض تموت ان الله عليم خبير ان
هذه العلوم الخمس لا يعلمها بالحقيقة الا الله عز وجل والله سبحانه وتعالى مدح هذه الامة
في كتابه العزيز بانهم الذين يؤمنون بالغيب يريد بهما الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله المغيبي

من الجهة الامام وبدء الخلق والاتي مما ورد عنه بطريق الصحة وما ثبت عنه صلى الله عليه وآله
انه اخبر عن قيام الساعة وما يتقدمها وخلق الملائكة والجنان وعذاب القبر ونتنه
واثره وضمه وبلص الحشر وحفرة من حفر النار والحشر والبعث والحساب والصراط والميزان
والشفاعة وغرفات الجنات ودركات النيران والحور والولدان والكرسي وغير ذلك مما يقع
سامعه موقع العيان بل فوقه فان المخبر عنه من الصادقين يرى بعين اليقين التي لا يجد الطها
ريب ولا شبهة بخلاف رؤية العين فقد ترى العين الشيء على خلاف ما هو عليه لضعف في
المزاج وتخييل الحس وقد وقع هذا المعنى لبعض علماء حلب في ذاليل قصيدة كتب بها الى
نايب الشام ولم يكن رآه قبل ذلك وهو قوله نسيما بلين معاطف الاغصان ورغا الحمام على
فروع البان وتمايل الدوح المرنح بالصبا سحرا فنفحة روضة الريحان وبجنة الفردوس
والعيش الذي يقضى بها والحور والولدان ما مر حلو حديثكم في مسمعي الا واغرى حبكم بجناني
فانا المحب على السماع وقيل ما تهوى العيون عشقت بالاذان طابت كؤوس الراح من ادابكم
ممزوجة بالعدل والاحسان وشربت عن ظما فصرت بهيما سكران دون بقية الندمان
نشوان من طيب السماع وطالما فاق السماع مكان ذوق عيان برهان الايمان بالمسموع
من قول النبي ومحكم القرآن ... لجل ما ورد في الآثار الصحيحة والحسنة من طريق الخاص و
العام بما يكون بين يدي الساعة ونقل غير ذلك فقد تكلمت اصحاب الملاحم على مجموعها
وكيفيته ووقوعها وترتيبها وذكر اماكنها واسماء اصحابها واشكالهم وملتها واقرب في ذلك
الى الصحة ما ذكره الكسائي في كتاب الملكوت والله تعالى اعلم

قال الزمخشري خل الونا ودع الهوينا فالامر ما تتوهم اهم والخطب
مما تستعظم اعظم داع للموت صيت حتى لا محالة الزميت وميت منشور وخلق محشور وعمل
محسوب وميزان منصوب وجبار قادر وكتاب لا يغادر وثواب وكل آت وعقاب يقل
الناجي العمر وان طال فالحذر طايل وكل نعيم لا محالة زايل فغنيمة سرب ولست لا ملك

الاوس فقال عمر لابي بكر ما تنتظر ثم اخذ بيده وقال قم بنا فقام معه وتبعهما المغيرة بن
شعبة وابو عبيدة بن الجراح فقال عمر للمغيرة ان اقبلت معنا علمت الانصار انك اخبرتنا
الخبر ولكن كن بباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجسس عن اخبار علي بن ابي طالب وبني
هاشم الى ان نعود اليك ثم اقبل عمر مع ابي بكر ومعهما ابو عبيدة حتى انتهوا الى سقيفة بني
ساعدة والانصار قد اجتمعوا في السقيفة كانهم يتشاورون على سعد بن عبادة
فلما صادفوا اليهم سلموا عليهم ثم قعدوا بينهم فقال ابو بكر ما هذه الجماعة معاشر الانصار
قالوا نحن انصار الاسلام وبنا نصر هذا الدين وقد مضى رسول الله صلى الله عليه وآله
سبيله ولا بد من امارة او فاجرة فنحن لا ندعها تخرج عنا الى غيرنا فقال ابو بكر الستم
تعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وآله خطبنا فقال في خطبته الائمة من قريش ابرارها
لابرارها وفجارها لفجارها ونحن قريش انتم حتى لا تدعوها تخرج عنكم فاتقوا الله معاشر
الانصار ولا تدعوا ما ليس لكم ولا تنازعوا الامر اهله فتفشلوا فتهلكوا فبايعوا اي هذين
شئتم ابا عبيدة بن الجراح او عمر بن الخطاب فكل واحد منهما معوض لصاحبه ثم اومأ و
قال اما ابو عبيدة فامين واما عمر فاعز الله به الدين فقالوا بل نبايعك ايها الشيخ المقدم
وكان ابو بكر احب الى المهاجرين والانصار من عمر بن الخطاب لللين جانبه فضرب عمر يده الى يد
ابي بكر ففتحها وصفق بيده عليها وقال السلام عليك يا خليفة المؤمنين فلما نظر الناس
بايع ابو عبيدة واقبل بشير وابنه النعمان فبايعا واقبلت الاوس فبايع ابا بكر واختلف
الخزرج فمنهم من بايع ابا بكر ومنهم من توقف عنه حتى بقي سعد بن عبادة في نفر قليل من
اهل بيته فقال اما انا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك والله لاردنها وارتفعت
الاصوات من كل ناحية وقال قائل من الانصار منا امير ومنكم امير فقال ابو بكر نحن الامراء
وانتم الوزراء ونحن وانتم في هذا الامر سواء فاقبلت الايدي الى ابي بكر تصفق وتبايعه
ويوطوا سعدا فقال بعض اهله اتقوا الله معاشر الانصار ولا تقتلوا سيدكم سعدا فقال

انشره

عمر اقتلوا سعدا قتل الله سعدا فلما سمعها قيس بن سعد اخترط سيفه وقال لعمر والله
لو نالته شوكة لم ينفعه منك شيء فلما سمع ابو بكر ذلك خاف الفتنة فقال رفقا يا ابا
حفص ان الرفق لم يكن في شيء الا زانه ولا خرج من شيء الا شانه فقال سعد بن عبادة انه
اخرق راس كل بلية وامام كل فتنة فقال ابو بكر مهلا انا نحن اصحاب رسول الله صلى الله عليه
وآله ومن المهاجرين اليكم فاحسنوا القول والمجاورة نحوكم فانا لسنا اليكم ما ملكنا احلانا
الى انفسنا الم نكن نحن وانتم بالامس على امر واحد فما لنا اليوم لا نكون كما كنا على امر واحد
فقال قيس بن سعد لو كنت بموضع الخلافة فيما امر عليك رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى
صاحبك ابو عبيدة وعمر اسامة بن زيد ولكنا نخرجك من هذا الامر كالشعرة من العجين
فرد هذا الهذي لم يزل يبوح الاحلام الغوايل ويعد له المخايل فقال عمر اتاذن لي يا خليفة
المسلمين في قتله فوالله لئن اذنت لاقتلنه فقال ابو بكر سبحان الله هؤلاء اخواننا في
الامر وشركاؤنا فيه فمن احب معاقدتنا عليه والا لم نكرهه واخذ بيد عمر فاقامه ثم افترقا
فاتبعهما الجميع المبايعين حتى دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فصعد ابو بكر
المنبر فوقف دون مرقاة رسول الله صلى الله عليه وآله وخطب ثم نزل وانثال الناس عليه
فبايعوه خلا جماعة من بني هاشم والزبير بن العوام وعتبة بن ابي لهب وخالد بن سعيد بن
العاص والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وابي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والبراء بن
عازب وابي بن كعب ومالوا مع علي بن ابي طالب عليه السلام وتخلف عن البيعة سعد بن عبادة
سيد الخزرج في نفر من اهله وقومه وابو سفيان بن حرب وكان باليمن عاملا على صدقاتها
فلما ورد نعي رسول الله صلى الله عليه وآله قال ابو سفيان خطب جليل فمن ملك الامر
بعده قالوا ابو بكر بن ابي قحافة قال ابو فصيل لحال النعم قال فما فعل بنو هاشم قالوا الارذلين منازلهم
قال فما فعل اميرهم علي بن ابي طالب وسيفه قالوا لازم بيته متشاغلا بكتاب الله فقال
اما والله اني لارى غبرة لا يطفيها والذي نفسي بيده لئن قمت لارفعن له اعضاده ثم قال

يا لعجباه من قوم لو كانوا من أقتاب العرب وأشراف قريش حتى كان ابن أبي قحافة في الجاهلية يساوي قرشيا

في أمرهما فمنهم تكلم أبو سفيان فقال لابي بكر لعمر ان ابا سفيان من ولد عبد شمس والله ما

كان ينقاد لصاحبنا فما ترى قال اقوى على فضله فانه من اهل الدنيا لا يرى غيرها فكتب اليه

ابو بكر يقره على عمله فابى واتى المدينة فاعرض عن ابي بكر ودخل مسجد رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم فوجد جماعة من قريش متحجبين في المسجد بنو هاشم ومواليهم فقاموا اليه

متعجبين فقال لعلي ما لقريش الا الاوصياء رضيتم بالاقل قبيلة من قريش يا ابا فضيل والله لئن شئت

لاملأنها عليه خيلا ورجالا ولا افسد نفا عليه من اقطارها فقال له علي عليه السلام لا

حاجة لنا في خيلك ورجالك فكلم عمر ابا بكر فقال ان ابا سفيان قد قدم ولا نأمن شره

فدع له ما في يده من مال اليمن فتركه له فرضي ولما دعاه للبيعة توقف فجعل ابو بكر يصيح عليه

فقال ابو قحافة لغليم يعلي بن يصيح ابني قال على ابي سفيان بن حرب قال ادنني منه فادناه فقال

له يا ابا فضيل على مثل ابي سفيان تصيح لقد جهلت قدرك وتعديت طورك فقال يا ابت

ان الله اعز بالاسلام قوما واذل به اخرين قيل ان ابا قحافة كان بالطائف لما توفي رسول الله

صلى الله عليه وآله فارسل اليه ابنه ابو بكر كتابا يخبره فيه ان الناس قد اجتمعوا عليه وبايعوه

فقال للرسول لما منعهم من علي قال هو حدث السن وقد اكثر القتل في قريش وابو بكر اسن منه

فقال ان كان الامر في ذلك بالسن فانا احق من ابي بكر لقد ظلموا عليا حقه ثم ان عمر جاء الى بيت

علي فلقيته فاطمة عليها السلام فقالت لا تدخلوا فيما دخلت فيه الامر وقام ابو بكر خطيبا وذكر انه

كان امرا عظيما ما لا بد منه لتلك الا ان يقي به الله تعالى ولوددت ان اقوى الناس عليها مكاني

اليوم فقبل المهاجرون ما قال له واعتذر به وقيل انه قال لست بخيركم وعلي فيكم فقال

عمر لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله فمن يؤخرك وروي عن عايشة انها قالت لم

يبايع علي ابا بكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها فطلب علي ابا بكر الى منزله فبايعه وروي

عن ابي عبد الله ع ان ابا بكر لقي الحسن لعلي وقال له والله يا ابا الحسن ما كان هذا الامر [illegible]

وانى قد اوصيتك بوصية ان قبلتها لم تزل بخير فاحفظ وصيتي ولا تنس عهدي قال يزيد قل يا ابة

[illegible] قال يا بني عليك باهل الحجاز فانهم منك وانت منهم فمن قدم عليك

منهم فاكرمه ومن غاب عنك فاتفقده وعليك باهل الشام فانهم جلدة ما بين عينيك ان دهمك

عدو فسر بهم اليه فاذا انصرفت بهم فردهم الى بلادهم فانهم متى صاروا الى غير بلادهم تخلقوا بغير

اخلاقهم وانظر الى اهل العراق في امرهم فان سالوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل

العامل اهون عليك من شق العصا والعداوة الشحنا فانى قد وطيت لك البلاد وذللت لك

الرقاب الصعاب من العباد ولست اخشى عليك بعد وفاتي الا من اربعة نفر لا يبايعونك على هذا

الامر ولا يتابعونك قال يا ابتاه من هولاء الاربعة قال عبد الرحمن بن ابي بكر وعبد الله بن عمر

وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي بن ابي طالب فاما عبد الرحمن بن ابي بكر فانه رجل ترضيه الدنيا

فارضه بالمال واما عبد الله بن عمر فانه رجل صاحب قران ومحراب قد عمر وذاك انه لم يبق

احد غيره لبايعك واما الذي يجاثيك جثاث الاسد ويراوغك روغان الثعلب فعبد الله

ابن الزبير فان جانبك فجانبه وان جاذبك فجاذبه وان سالمك فسالمه وان ظفرت به فقطعه

اربا اربا واما الحسين بن علي فانه سيدعوه الناس من المتعصبين حتى يخرجوه عليك وربما انفروه

فان ظفرت به فاحفظ قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعلم ان جده خير من جدك وابوه

خير من ابيك وامه خير من امك وبجده استنقذنا الله من الضلالة الى الهدى وعرفنا الحلال من

الحرام وبلغنا الدرجة العليا والمرتبة الرفيعة المنيعة من الملك والسلطان يا بني كيف تحكم من بعد

وفاتي قال احكم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال يا بني ان ابا بكر ولي هذا

الامر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسار في الناس بالرفق ولين الجانب فخرج من الدنيا

والناس عنه راضون ثم وليه عمر بن الخطاب وكان قويا في ذات الله [illegible] فسلك مسلك

ابو بكر وصارت الخلافة من بعده الى رجل تقدمونه تولاها بالحلم والسخا والتدبير والاحتمال

١٩

ثم قبضوها وسيرتها وقد عزم على عمل ذلك في شهر رجب سنة ستين فبويع ولده يزيد بالخلافة وصلى

على ابيه ودفنه ودخل الى منزله فلم يظهر للناس ثلثا فلما كان في اليوم الرابع خرج متعصبا اغبر [illegible]

فقعد على المنبر فحمد الله واثنى عليه وذكر النبي صلى الله عليه ثم قال ايها الناس [illegible]

جبلا من جبال الله مده ما شاء ان يمده ثم قطعه حين شاء ان يقطعه وكان دون من كان قبله

وفوق من يكون بعده ان يغفر الله له فهو اهله وان يعذبه فبذنبه وقد وليت هذا الامر من

بعده وما من [illegible] طلبا و[illegible] ولست اعتذر من جهل ولا اشتغل بطلب علم فعلى

رسلكم فان [illegible] كان ثم نزل عن المنبر وعزاه الناس في ابيه فكان احسنهم تعزية عبد الله بن

هلال السلولي فقال اجرك الله يا امير المؤمنين على الرزية وبارك لك في العطية واعانك على الرعية

فلقد رزئت عظيما واعطيت جسيما فاشكر الله على ما اعطيت واصبر على ما رزيت ثم انشا يقول اصبر يزيد فقد

فارقت ذا ثقة واشكر حباء الذي بالملك حاباكا لا رزء اعظم في الاقوام نعلمه مما رزئت ولا عقبى كعقباكا

اصبحت امير الناس كلهم وانت ترعاهم والله يرعاكا [illegible] وامر الامر ان ارسل

اهل الكوفة الى الحسين عليه السلم ليبايعوه فارسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل فبايعه ثلثون الفا منهم

فكان من امرهم ما قد سنذكره في الركن الثاني من هذا الكتاب وفي سنة اثنتين وستين اتفق اهل

المدينة المنورة على خلع يزيد لعنة الله عليه واخرجوا نائبه عثمان بن محمد بن ابي سفيان منها ودخلت

سنة ثلث وستين فجهز يزيد جيشا مع مسلم بن عقبة فسار اليها في عشرة الاف فارس وحاصرها

وعمل اهل المدينة خندقا وجرى قتال شديد قتل فيه الفضل بن العباس وربيعة بن الحرث بن عبد

المطلب وجماعة من الاشراف والانصار ثم انهزم اهل المدينة واباح مسلم المدينة لعسكره ثلثة ايام يقتلون

الناس وينهبون الاموال ويفسقون في النساء وبايع من بقي من الناس على ان يكونوا عبيدا ليزيد كل

ذلك بحسب وصية يزيد وكانت الوقعة يوم الاربعا لثلث بقين من ذي الحجة وتعرف بالحرة لانها

اتفقت بظاهر المدينة الشريفة ثم سار مسلم بالجيش الى مكة فهلك في الطريق في اول سنة اربع وستين

واقام مقامه الحصين بن نمير ومن اقبح القبائح انه استباح المدينة وشهد الوقعة من بقي من [illegible]

فلم يمهله الله عز وجل ولا امهله يزيد بل هلك بعد بضعة وسبعين يوما ووصل الحصين الى مكة وحاصر

الدر المسلوک

تاریخ خلفاء [illegible] سال

این کتاب مؤلف آن بدست نیامد و تا حال نوشته شده که [illegible] لکن در زمان شاه سلیمان صفوی تألیف شده است در سنه ۱۰۹۱

و از ابتدای آن و انتهای آن مقداری سقط شده است و از اوائل آن دو سه ورق از کتاب سقط دارد و [illegible] از جای سوره [illegible] افتاده باشد و لکن بیاض کتاب بخوبی [illegible] و نام کتاب هم در بالا از سابق نوشته شده تاریخ خلفای سید المرسلین صلی الله [illegible] نوشته شده به تقلید [illegible] و ممکن است که بخط توصیف با این نحو نوشته شده باشد و کتاب [illegible] اسم دیگر هم داشته باشد والله العالم

المستعین بالله [illegible] الخوانساری عفی عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن كلّ شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، فتبارك الله أحسن الخالقين، وصلى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد، فهذا كتاب الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك، أصحاب الفضل والصبر والبطش والإمامة، من مبدأ الدنيا إلى يوم القيامة.

ألّفه المحتاج إلى كاشف الضرّ أحمد بن الحسن الحرّ، وجعله مبتنياً على مقدمة وخمسة أركان وخاتمة، المقدمة في ابتداء خلق السموات والأرض وما فيهما من عجائب خلق الله تعالى، والركن الأوّل في الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، والثاني في الأئمة المعصومين وأعمار المعمرين، والثالث في الملوك المتقدمين والأمم الماضين، والرابع في خلفاء المسلمين والحكّام والسّلاطين، والخامس في وفاة الصحابة والتابعين، والحوادث في الدنيا والدين[1]، وأمور مشتملة على ما هو كالعيّان، مما يكون في آخر الزمان وجاءت به الأخبار، وأشتهر كالشمس في رابعة النهار، فصل في أحوال القيامة والحساب، وهو آخر فصول الكتاب والأركان.

يشتمل على فصول ليهتدي الطالب إلى المطلوب، ويجتمع المحبّ بالمحبوب، ليقضي منه كل قوم مآربهم، ويعلم كل عالم أُناس مشربهم.

وفي كل فصل تلق درّاً مؤلفاً ... كنظم عقود زينتها جواهر

فان تنظم العقد الذي فيه جوهر ... على غير تأليف فما الدرّ فاخر

ويستدلّ على عقل الرجل بميله إلى مكارم الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، وإن كان غائباً فبكتابته أو هديته أو رسوله، فإنّ كتابه يصف نطق لسانه، وهديّته عنوان همّته، ورسوله قائم مقام نفسه كما قيل:

فاعلم هُديت ولا إخا لك جاهل ... أن الرسول بيان عقلِ المرسلِ

واختلف في عدد الأنبياء، في الخبر الصحيح أنّهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، المرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، المذكور منهم في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون، أصحاب الشرائع منهم

---

(١) النسخة الخطية للجزء الثاني في مكتبة السيّد المرعشي تحتوي على ست أركان، والركن السادس هو: في الحوادث في الدنيا والدين من هبوط آدم إلى هذا الحين، أمّا هنا فقد أدرجه المؤلف في الركن الخامس.

ستّة مع أُولي العزم، ومدتهم من هبوط آدم إلى هجرة سيدّهم محمّد ﷺ وعليهم أجمعين. على الأرجح ستّة آلاف سنة ومائتان وست عشرة سنة، ونقصها المنجمون عن ذلك مائتي سنة وتسعاً وأربعين سنة.

وعدد الأئمة أثني عشر كعدد البروج، أوّلهم أبو الحسن وآخرهم محمّد بن الحسن، استشهد أوّلهم سنة أربعين، وغاب آخرهم سنة مائتين وخمس وستين.

وعدد الملوك نحو ألف ملك من ملوك الفرس واليونان والرّوم ومصر واليمن وحمير والشام والعراق وكندة والحجاز، إلى أن جاء الإسلام. وابتداء ملكهم من بعد الطوفان بمائة وستين سنة إلى السنّة التّاسعة من خلافة عثمان، أوّلهم كيومرث وآخرهم يزدجرد.

فصل في الأُمم من العرب والعجم، وعدد الخلفاء الذين حكموا ست وخمسون.

الخلفاء الأربعة والحسن عليه وعلى أبيه السلام، ومدة خلافتهم ثلاثون سنة وستة أشهر.

وخلفاء بني أمية أربعة عشر، أوّلهم معاوية وآخرهم مروان بن محمّد الحمار[1]. ومدة خلافتهم ألف شهر من سنة أربعين إلى سنة اثنين وثلاثين ومائة.

وخلفاء بني العباس سبعة وثلاثون، أوّلهم السّفاح وآخرهم المستعصم، ومدة خلافتهم خمسمائة وأربعة وعشرون سنة، من سنة اثنين وثلاثين ومائة إلى سنة ست وخمسين وستمائة. وستأتي الأركان والفصول بالمرويّ والمنقول.

---

(١) قيل لقب بالحمار لثباته في الحرب [فوات الوفيات: ٤/١٢٨].

فصـل

المقدمة

قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه»[1]، واختلف في أوّل شيء خلقه الله تعالى؛ فرجّح بعضهم قول سعيد بن جبير: أن أوّل شيء خلقه الله تعالى اللوح، ثم القلم، ثم الدّواة، وقيل: القلم، ثم اللوّح، وكتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقيل: العقل، وقيل: نور محمّد ﷺ. وقيل: الماء لقوله تـعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[2]؛ لأنّ الله خلق الماء وجعل بعضه ريحاً، فخلق منه الملائكة وبعضه ناراً، وخلق منها الجنّ وبعضه طيناً، فخلق منه آدم وبعضه زبداً فخلق منه الأرض وبعضه دخاناً، فخلق منه السماوات، وقال رسول الله ﷺ: «أوّل ما خلق الله تعالى القلم، فقال: له أكتب، قال: يا ربّ! ما أكتب؟ قال: أكتب القدر، فجرىٰ القلم في تلك الساعة بما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

وسئل عليّ ﷺ عن اللوّح فقال: «هو لوح خلقه الله تعالى من درّة بيضاء، قلمه نور، وكلامه درّ معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك يقال له: ماطيرون، محفوظ من الشياطين، لله تعالى فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة، ما من نظرة إلّا يحيي بها ويميت، ويعز ويذلّ، ويغني ويفقر، وله في كل نظرة شأن لا يعلمه إلّا هو». ثم خلق الله تعالى درّة بيضاء، صيرّها ماء، وجعل عرشه على الماء، وذلك قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ**﴾[3]، ثم خلق كرسيّه، ثم خلق الهوامّ، ثم الأرواح.

وقال كعب: أوّل ما خلق الله الأرواح، ثم حملة العرش ملائكة أربعة: أحدهم إسرافيل وهـو أقرب الملائكة، ويمدهم يوم القيامة بأربعة أُخر: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾[4]، وتتابع خلق الملائكة، وما شاء الله تعالى ممّا لا يعلمه إلّا هو كـما قـال تـعالى: ﴿**وَيَـخْلُقُ مَـا لَا**

---

(١) عوالي اللئالي: ١/٥٥، بحار الأنوار: ٢٥/١٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) سورة هـود: ٧.

(٤) سورة الحاقة: ١٧.

تَعْلَمُونَ﴾[١].

ثم لمّا أراد الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، خلق جوهرة بيضاء ونظر إليها نظر هيبة؛ فذابت وغلت وصعد لها دخان وزبد، فخلق من الزبد الأرض، ومن الأمواج الجبال ومن الدّخان السموات، وجعل مدة خلق ذلك في مقدار ستة أيام ـ لأن اليوم المتعارف وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ـ لم يكن حينئذٍ يوماً لمادة الأرض ويوماً لصورتها ويوماً لمادة السماء ويوماً لصورتها ويومين لكمالاتها.

ثم خلق الكواكب والنفوس وغير ذلك، وكان ابتداء خلق ذلك من يوم الأحد إلىٰ يوم الجمعة. وسمي يوم الجمعة لاجتماع تكامل أُصول الخلق فيه، وأقرب ما روي من ترتيب ذلك أنّ الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، والجبال وما فيها من المنافع يوم الثلاثاء، والشجر والنبات يوم الأربعاء، والسماء يوم الخميس، والشمس والقمر والنجوم والملائكة يوم الجمعة، ويدل على ذلك قوله تعالى: **﴿قُلْ ءَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾**[٢]، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدرّ فيها أقواتها في أربعة أيام، سواء للسائلين أي: في تتمة الأربعة، فاليومان الأوّلان داخلان في أربعة أيّام.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٣].

ثم فتق الله السماء سبعاً طباقاً، بعضها فوق بعض، وأقرب ما ذكر أنّ سماء الدنيا من زمردة خضراء، والثانية من فضة بيضاء، والثالثة من درّة بيضاء، والرابعة من ياقوتة حمراء، والخامسة من ذهب أحمر، والسادسة من ياقوتة صفراء، والسابعة من نور يتلألأ. وخالف الكسائي في بعض ذلك، وفي هذه السماوات السبع من الخلائق ما لا يعلمه إلّا الله تعالى.

وفوقها بحار النور سبعة، وبحار الحجب سبعة مضاعفة إلى ما لا نهاية له، والكل مشحون بالملائكة على أصنافهم ومراتبهم.

وفوق ذلك الجنان، واختلف في عددها، فقيل: أنها ثمانية أوّلها: دار الجلال من اللؤلؤ الأبيض، وثانيها: دار السّلام من الياقوت الأحمر، وثالثها: جنة المأوىٰ من الزبرجد الأخضر، ورابعها: جنة

---

(١) سورة النحل: ٨.

(٢) سورة فصلت: ٩.

(٣) سورة فصلت: ١١ و١٢.

الخلد من المرجان الأحمر، وخامسها: جنة النعيم من الفضّة البيضاء، وسادسها: جنة الفردوس من الذهب الأحمر، وسابعها: دار القرار من المسك الأذفر، وثامنها: جنة عدن من الدرّ مشرفة على الجنان، وسقفها عرش الرحمان، أعد الله فيها لعباده الصالحين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي: الدار الآخرة ووجه الله الذي لا يبيد ولا يفنى.

وعنه ﷺ: عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها إلّا ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبىٰ لمن دخلك **﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾**(١).

وروي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله! فقال: «ما بي من وجع، غير إني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتىٰ ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك، لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإن دخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك فيه أبداً»(٢).

فنزل قوله تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾**(٣).

وأمّا الدنيا: فهي السماوات والأرض والبيت المعمور، ومنها في السماء السادسة أو الأُولى وقيل: في السابعة حيال الكعبة، وليس المراد بسماء الدنيا إلّا السماء القريبة، لا سماء دار الدنيا، فهي بالإضافة فيها كالكعبة في المسجد الحرام أو كحلقة ملقاة في فلاة، وقد سمّت الحكماء هيكل السماء فلكاً وزادوا فلكين آخرين وقالوا: سماء الدنيا فلك القمر، والثانية فلك العطارد، والثالثة فلك الزهرة، والرابعة فلك الشمس، والخامسة فلك المريخ، والسادسة فلك المشتري، والسابعة فلك زحل، وهذه الأنجم هي السيّارة يجمعها قول الشاعر:

زحل شرى مريخه من شمسه ... فتزاهرت بعطارد الأقمار

وأما الثوابت فهي: إثنا عشر بروجاً يجمعها قول الشاعر:

حمل الثور جوزة السرطان ... ورعى الليث سنبل الميزان
ورمت عقرب بقوس لجدي ... فالتقى الدلو حوتها بأمان(٤)

---

(١) سورة الزخرف: ٧١.

(٢) مجمع البيان: ٧٢/٣، تفسير البيضاوي: ٢٢٩/١.

(٣) سورة النساء: ٦٩.

(٤) مصباح الكفعمي: ٥٢٠ باختلاف في البيت الثاني.

وقال آخر في معرفة حلول القمر في تلك البروج:

إذا رمت عرفان الأهلة والبدر فخذ حصر أيام مضين من الشهر
وضم إليها مثلها ثم خمسة واسقط على الأبراج خمساً لكي تدري
فأبداً ببرج حلت الشمس عنده فان كسرت فالبدر في ذلك الكسر

قالوا: والفلك الثامن فلك هذه الكواكب الثابتة، وسيره من المشرق إلى المغرب، وسير الأفلاك السبعة على عكس ذلك من المغرب إلى المشرق، والفلك التاسع فلك الأفلاك ويسمىٰ الفلك الأعظم والفلك الأطلس لأنه لا كوكب فيه.

قال ابن الأثير: وهذا الفلك هو الذي يسير من المشرق إلى المغرب والباقية بالعكس.

وقال صاحب كتاب عجائب المخلوقات: ان الأفلاك حركاتها أسرع من كل شيء، حتى صحّ في الهندسة أن الفرس في حالة الركض الشديد، من الوقت الذي تتحرك يده إلى أن يضعها، يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف فرسخ، وحركته من المشرق إلى المغرب عكس فلك الثوابت وأفلاك السيارة.

وفلك القمر يتم دورته من المغرب إلى المشرق، في ثمانية وعشرين يوماً، والقمر مركوز فيه يتحرك بحركته، وزعموا أن ثخن فلك القمر مائة ألف وثمانية عشر وستّة وستون ميلاً، والقمر أصغر الكواكب فلكاً وأسرعها سيراً، لأنه يقطع منازله في شهر. ودور القمر أربعمائة واثنان وخمسون ميلاً، والوجه الموجّه للشمس مضيء أبداً، فإذا قارنها كان النصف المظلم مواجهاً للأرض، فإذا مال عنها ظهر من الوجه المضيء قطعة وهي الهلال. ثم يزداد البعد فيزداد الضوء فإذا قابلها كان النصف الموجّه للشمس، هو المواجه لنا فيضيء كلّه ثم يقرب منها فينقص الضوء على الترتيب.

سبب خسوفه توسط الأرض بينه وبين الشمس، من خواصّه أن أبدان الحيوانات في وقت زيادة ضوئه يكون أقوىٰ، والسخونة والرطوبة والنموّ عليها أغلب، وكذلك الألبان والشعور والأشجار والثمار والزروع والرياحين والبقول والأعشاب يكون زيادتها في أوّل الشهر أكثر من آخره.

وفلك عطارد يتم دورته من المغرب إلى المشرق في سنة، وثخنه ثلثمائة ألف وثمانمائة وثمانون ألفاً وأربعمائة واثنان وثمانون ميلاً، ودور جرم عطارد مائتان وستة وثمانون فرسخاً.

وفلك الزهرة يتم دورته من المغرب إلى المشرق في سنة، وثخن جرمه ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وسبعون ميلاً، والنظر إلى الزهرة مما يوجب فرحاً وسروراً، وإن كان بالنّاظر إليها حرارة العشق تخففت عنه، ومن شأنها الشبق والباه والألفة، حتى لو نكح رجل امرأة والزهرة حسنة الحال، وقع بينهما من المحبّة والألفة ما يتعجب منه.

وفلك الشمس يتم دورته من المغرب إلى المشرق في ثلاثمائة وستين يوماً وربع يوم، وثخن جرمه ثلاثمائة ألف وخمسة وستون ميلاً، وهي أعظم الكواكب جرماً وأشدّها ضوءاً، ومن لطف الله تعالى جعلها في وسط فلك الكواكب السبعة، إذ لو كانت في فلك الثوابت لفسدت الطبائع من شدة البرد، ولو انحدرت إلى فلك القمر لأحرقت العالم، وخلقها سائرة غير واقفة وإلّا لاشتدت السخونة في موضع والبرودة في آخر ولا يخفىٰ فسادهما، وجرمها ضعف جرم الأرض مائة وستة وستين مرّة، وقطر جرمها أحد وأربعون ألفاً وتسعمائة وثمانية وتسعون ميلاً.

وسبب كسوفها كون القمر حائلاً بين جرمها وبين أبصارنا، ولا يطول مكثها مكسوفة لسرعة انحراف القمر عنها، وقد لا ينكسف ببعض البلاد أصلاً، من خواصها إخفاء جميع الكواكب وإعطاء القمر النور، فجميع فوائد القمر فائدة من فوائد الشمس.

وفي الحديث أن وجه الشمس إلى السماء وقفائها إلى الأرض، ولو كان وجهها إلى الأرض لأحرقت من عليها، قال الله تعالى: **﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾**[1]، أي في سرعة سيره فتقطع منازلها في شهر مثله، فإن ذلك مخلّ بتكوين النّبات وتعيش الحيوان، بل تقطعها في سنة.

وفلك المريخ يتم دورته من المغرب إلى المشرق في ستة وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وثخن جرمه عشرون ألف ألف وثلاثمائة وستة وسبعون وألف وتسعمائة وثمانية وتسعون ميلاً، وجرم المريخ مثل جرم الأرض مرة ونصف.

وفلك المشتري يتم دورته من المغرب إلى المشرق في إحدى عشر سنة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوماً، وثخن جرمه عشرون ألف ألف وثلاثمائة واثنان وثلاثون ألفاً وأربعمائة واثنان وثلاثون ميلاً. وجرم المشتري مثل جرم الأرض أربعة وثمانين مرة وثلاث وربع.

وفلك زحل يتم دورته من المغرب إلى المشرق في تسعة وعشرين سنة وخمسة أشهر وستة أيّام، وثخن جرمه إحدىٰ وعشرون ألف ألف وستمائة وست وثلاثون ألفاً وستمائة وستة أميال. وجرم زحل كجرم الأرض إحدىٰ وثمانين مرّة، زعموا إن النظر إليه يفيد غماً وحزناً.

وفلك الثوابت يتم دورته من المشرق إلى المغرب في ست وثلاثين ألف سنة، وجميع الكواكب الثابتة مركوزون في جرم هذا الفلك، وثخن جرمه أربعة وثلاثون ألفاً وسبعمائة وأربع وأربعون ميلاً. وجرم الكواكب الذي هو في العظم الأوّل، مثل جرم الأرض أربعة وتسعين مرّة، وجرم أصغر

---

(١) سورة يس: ٤٠.

الكواكب الثابتة، وهو الذي يكون في العظم السّادس. مثل جرم الأرض ثمانية عشر مرة.

وأجرام السماوات شفّافة من شدة صفائها، فلذلك ترىٰ الكواكب السبعة وغيرها كما في سماء الدنيا.

والقمر نوره من نور الشمس وبسبب ذلك يزيد نوره وينقص، ويكون الخسوف.

وقال وهب: خلق الله الشمس من نور عرشه، والقمر من نور حجابه.

وعن كعب: يؤتى بهما يوم القيامة فيقذفان في النّار.

وعن ابن عبّاس: في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[1]، يكوّر الله الشمس والقمر يوم القيامة في البحر، وينبعث ريحاً دبوراً، فيضرمها ناراً فيصير البحر جهنم.

وقال علي عليه السلام: المجرّة باب في السماء منه تنزل الملائكة ومنه نزل الماء في الطّوفان، والدّنيا كلّها سماواتها وأراضيها، وكلّها في ذلك كرة واحدة مثل حبّة خردل، في جوف الكرسي، ونسبة الكرسي إلى العرش كذلك، فسطح هذه الكرة من كل جوانبها هو فوق، وما فوقه فهو أعلى عليين من أي جهة فرضت لهذه الكرة وأعلاها هو الفلك، وأسفل منه الفلك الذي يليه وهلمّ جرّا إلى سماء الدنيا المحيطة بكرة الأرض من كل جوانبها غير متصلة بشيء منها، بل هي واقعة في الهواء بإذن الله تعالى، بخصوصة الموضع اللائق ويطرد ذلك في كل ذلك.

وكرة الأرض بجبالها وبحارها سبعة، قيل: بعضها في جوف بعض على السّطح الأعلى منهن بنو آدم وملائكة الأرض، وما شابه ذلك من الحيوان والنبات وخفيف[2] الجان، وفي الأرض التي أسفل منها وهلّم جرّا، إلى السّابعة من خلق الله تعالى ما لا يعلمه إلّا الله تعالى براً وبحراً، فالأسفل جوف الأرض السابعة كما ان الأعلى فوق السماء السّابعة.

واختلف في أن الأرضين السبع مثل السماوات إذ ليس في القرآن إنه يدل على أنها سبع إلّا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾[3]، ويحتمل في العدد لا في الكيفية.

وقال ابن عباس «أنها سبع أرضين ليس بعضها فوق بعض يفرق بينهنّ البحار، وتظل جميعهنّ السماء، يعني: الأقاليم السبعة.

---

(١) سورة التكوير: ١.

(٢) في مخطوطة مكتبة المرعشي (حفيف)، وما اثبتناه من نسخة مكتبة «قدس رضوي». وخفيف: بفتح الخاء وكسر الفاء التي تليها فجماعة. اكمال الكمال: ٣/١٦٩.

(٣) سورة الطلاق: ١٢.

وأسفل من جوف الأرض السابعة بحار الظلمة سبعة مضاعفة، إلى ما لا يعلمه إلّا الله تعالى.

وأسفل من ذلك طباق جهنم سبعة: النار ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية في أسفل السافلين، فأعلاها للموحدين العصاة، يعذبون فيها على قدر ذنوبهم ثم يخرجون، والثانية للنصارى، والثالثة لليهود، والرابعة للصّابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وكرة الأرض غائصة في البحر المحيط بها كالبيضة في الماء قليلها بارز، وعلى ذلك القليل بحار وجبال وأنهار عديدة، وحيوان لا يعلم عددها إلّا الله تعالى على اختلاف أجناسها وأنواعها.

البحار التي على وجه الأرض سبعة كلّها متصلة بالبحر المحيط الذي لم يعرف ساحله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[2].

منها بحر الصين ليس على وجه الأرض بحر أعظم منه إلّا المحيط فيه مغاصّ الدرّ، وفي بعض جزائره ينبت الذّهب، وبها دابة الزباد شبه الهر، وحيات منها ما يبلع الفيل، وقردة بيض، وأُناس حفاة عراة، وبها دابة المسك تشبه الظباء، وفيه الدردور[3] إذا وقعت السفينة فيه دارت ولم تخرج.

وبحر الهند في بعض جزائره جبال يسمع منها صوت الطبل، يقال: ان الدّجال فيها ويخرج منها، وبها يبتاع القرنفل، يضعون التجار بضاعتهم فيها ويصعدون إلى مراكبهم، فإذا أصبحوا وجدوا جنب كل بضاعة شيئاً من القرنفل، فإن رضيه أخذه وإلّا ترك البضاعة والقرنفل، فيزاد له، وإن أخذها لم تقدر مراكبهم على السير.

وبحر فارس بحر مبارك كثير الخير قليل الهيجان، فيه مغاص اللؤلؤ الجيّد الذي لا يوجد مثله، وفي جزائره معدن العقيق واليواقيت والذّهب والفضة والنحاس والعنبر والطيب، وفيه الدردور الذي قلّما يسلم منه مركب.

وبحر القلزم الذي غرق فيه فرعون بجنوده، وفيه جزيرة الجساسة، وهي: دابة تتجسس الأخبار وتأتي بها إلى الدجال، وفيه جبل المغناطيس.

وبحر الزنج وفيه سمكة يقال لها المنشار مثل الجبل العظيم، من رأسها إلى ذنبها كأسنان المنشار من عظام سود مثل الأبنوس، تقطع السفينة إذا عبرت تحتها.

وبحر المغرب هو بحر الشام، فيه جزيرة كثيرة الأشجار والأزهار، من شمّ منها شيئاً نام من

---

(١) سورة النساء: ١٤٥.

(٢) سورة الّم: ٢٧.

(٣) الدردور: موضع في البحر يجيش ماؤه ويدور، ويخاف منه الغرق.

ساعته، واصطيد منه سمكة فإذا خلف أُذنها اليمنى لا إله إلّا الله، وخلف أُذنها اليسرى محمّد رسول الله ﷺ، وفيه حوت موسى ويوشع المشوي الذي اتخّذ سبيله في البحر سبرياً.

وبحر الخزرج من جزائره جزيرة الحيات، فيها شجر كثير وحشيش، والحيات في وسطها، والطير تبيض وتفرخ في الجزيرة ولا تؤذيهم الحيات.

وهذه البقعة السابعة من الأرض كانت تتحرك فأمسكها الله، بجبل قاف محيطاً بها، والجبال كلّها عروقه، وقيل: لمّا خلق الله الأرض جعلت تمور، فقالت: الملائكة ما هي بمقر أحد على ظهرها، فاصبحت وقد أُرسيت بالجبال.

منها جبل الأندلس، فيه عينان بينهما قدر شبر، ينبع من أحدهما ماء شديد الحرارة، ومن الأخرى ماء شديد البرودة.

وجبل ثور بقرب مكة، فيه الغار الذي كان فيه النبي ﷺ.

وجبل جوش غربي حلب، فيه معدن النحاس الأحمر، بطل مذ عبر عليه سبي الحسين عليه السلام، كانت زوجة الحسين عليه السلام حامل فاسقطت هناك، وطلبت الماء من أهل ذلك الجبل فمنعوها فدعت عليهم، فإلى الآن من عمل فيه لم يربح.

وجبل الحيات بأرض تركستان، فيه حيّات من نظر إليها مات.

وجبل رضوي من المدينة على سبعة مراحل، زعم الكيسانية أن محمّد بن الحنفيّة مقيم هناك حيّ بين أسد ونمر يحفظانه، وعنده عينان تجريان بماء وعسل، ويعود بعد هذه الغيبة فيملأ الأرض عدلاً.

وجبل دراتل[1] بأرض تركستان، فيه ذهب وفضة، قطع كبار وصغار فمن أخذ من الصغار انتفع بها، ومن أخذ من الكبار مات هو ومن في بيته، ولا يزال الموت فيهم حتى يردوها إلى مكانها، وإذا أخذ الغريب لا يضره.

وجبل رغوان بقرب تونس، يرى من مسيرة أيام لعلوّه ويرى السماء دونه، ومن كان بيته بأعلاه لم يصبه المطر.

وجبل ساوة وهو على مرحلة منها، فيه غار كبير، وقد برز من أسفله أربعة أحجار، يتقاطر من ثلاثة منها ماء طيب، والرابع قالوا مصه كافر فيبس.

وجبل سيلان من جبال أرمينية وآذربايجان، فيه عين من عيون الجنة، وقبر من قبور الأنبياء.

---

(١) في خريدة العجائب وفريدة الغرائب: (تانك).

وجبل سرنديب بأعلى الصين، هبط عليه آدم ﷺ، وفيه أثر قدمه في الصخر، ولابدّ له كل يوم من مطر، وبه العود والياقوت الأحمر.

وجبل سمرقند فيه غار يتقاطر منه الماء في الصيف فيجمد، وفي الشتاء يكون حاراً يحرق.

وجبل الشب في اليمن، فيه ماء يجري، وينعقد حجراً، والشب الأبيض اليماني من ذلك الجبل.

وجبل الصفا بمكة، في الحديث أن الدابة التي هي من اشراط الساعة، تخرج منه.

وجبل طارق بطبرستان، به مغارة فيها دكّة تعرف بدكّة سليمان بن داود ﷺ، إذا لطخت بشيء من الأقذار، لم تزل السماء تمطر حتى يزول القذر.

وجبل الطاهرة به كنيسة، فيها حوض يجري إليه من الجبل ماء عذب حتى يمتلئ ويجري من جوانبه، فإذا ورد الحوض جنب أو حائض وقف الماء ولا يجري حتى يراق جميع ما في الحوض ويتنظف تنظيفاً جيداً ثم يجري الماء.

وجبل طبرستان به حشيش يسمى جوز مائل، من قطعه وأكله وكان ضاحكاً غلب عليه الضحك، وإن كان باكياً أو على أي صفة غلبت عليه تلك الصفة.

وجبل طور سيناء بوادي طوبى، بالأرض المقدسة ـ كلّم الله تعالى موسى ﷺ ـ، ورفع فوق بني إسرائيل كأنه ظلة أو غمامة.

وجبل غزوان في ذروة الطائف، ليس بالحجاز أبرد منه، ولا فيها موضع يجمد فيه الماء غيره.

وجبل أبي قبيس مطل على مكّة، قيل: من أكل عليه الرأس المشوي يأمن وجع الرأس.

وجبل لبنان بالشام، فيه الفواكه من غير أن يزرعها أحد، تأوى إليه الأبدال لما فيه من القوت الحلال.

وجبل نهاوند مطل على همدان أخضر نظر، فيه عينان من عيون الجنّة.

وجبل قاف محيط بالدنيا، وهو من زبرجد أخضر كخضرت السماء، ووراءه خلائق وعالم لا يعلمهم إلّا الله تعالى.

وينفجر من الجبال أنهار، منها:

نهر جيحون نهر عظيم، يجمد عند اشتداد البرد ويصير ثخنه في أكثر الأوقات خمسة أشبار، والماء يجري تحت الجمد، والقوافل تعبر عليه، ويحفرون فيه آبار لسقي الماء، يشرب منها أهل خوارزم، ويبقى كذلك شهرين.

ونهر دجلة من أعذب الماء وأخفها، وأكثرها نفعاً، روي أن دجلة والفرات فجرهما دانيال ﷺ.

وروي أن أربعة أنهار من الجنة النيل والفرات وسيحون وجيحون.

ونهر بردا بدمشق، أوّله يبتاع بالميزان وآخره بالمكيال؛ فإن أوّله يزرع عليه الحبوب والأشجار وآخره يصير ملحاً.

ونهر زندرود بأصفهان موصوف بالعذوبة.

ونهر سنجة بأرض مصر، عليه قنطرة من الشط إلى الشط، مقدار مائتي خطوة.

ونهر طبرية نهر عظيم، يجري الماء فيه نصفه حار ونصفه بارد لا يختلط أحدهما بالآخر.

ونهر اليمن يجري من طلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وعند غروبها من المغرب إلى المشرق.

وأوّل ما ظهر من الجبال أبو قبيس، ومن الأرض مكّة، ولذلك سميت أم القرى.

روي أنها كانت سعفة على وجه الماء يعبد الله عليها ملكان قبل خلق الأرض بألفي عام.

ودحيت الأرض من تحت الكعبة في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة، قال الله تعالى: **﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّماءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَٱلأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾**[١].

وكرة الأرض غائصة في البحر محمولة بإذن الله تعالى، على ملك عظيم في صورت حوت، اسمه بهموت.

قال ابن عباس ودون الحوت البحر ودون البحر جهنم، وخص بجانب البارز من الكرة المشبهة بالبيضة بهذا الحمل لشرفه على سائر النواحي لسكنى بني آدم في الربع المعمور منه، قال الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[٢]، بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جنس الملائكة أو الخواص منهم. واستدل بها على تفضيل خواص الملائكة على البشر.

وهذا الربع المعمور من الأرض قسّمه الذين طافوا به كافريدون النبطي، وتُبّع الحميري، وسليمان بن داود، والإسكندر ذو القرنين الحميري، وأرد شير بن بابك الفارسي أقاليم سبعة طولها من المشرق إلى المغرب، من الشمال مدار الجدي، إلى الجنوب مدار سهيل، وأطولها الأقليم الأوّل وهو عشرة آلاف ميل ومائتا ميل، مقسوم على مائة وثمانين جزءاً. وسموا لكلّ جزءٍ درجة وهذا هو نصف دور الأرض، من أقصى بلاد الصين بالمشرق إلى طنجة أقصى بلاد المغرب، أرجل

(١) سورة النّازعات: ٢٧ ـ ٣٣.

(٢) سورة الاسراء: ٧٠.

هولاء مقابلة لأرجل أولئك وابتداؤه عرضاً من ناحية الجنوب، تحت معدل النهار حيث يكون الليل والنهار متساويين أبداً، إلى الأقليم الثاني الملاصق له من جهة الشمال، وكذلك إلى آخر الأقاليم في جهة الشمال طوله أربعة آلاف وثمانون ميلاً، وجميع مسافة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل وقيل: ثمانية آلاف فرسخ، وقطر الأرض يبلغ ألفين وخمسمائة وخمسة وأربعين فرسخاً ونصف فرسخ تقريباً.

وروي الأصمعي عن ابن هلال: أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ اثنى عشر ألفاً للسودان، وثمانية آلاف للروم، وثلاثة آلاف للفرس، وألف للعرب، وما خلف الأقاليم من جهة الجنوب عمارته قليلة متفرقة من بلاد السودان لا يعيش ورائها حيوان من شدة الحر، ومن جهة الشمال من بلاد الصقالبة، ويأجوج ومأجوج كذلك من شدة البرد، وطول كل مدينة بعدها من أقصى المغرب، وعرضها بعدها عن خط الإستواء، فالتي في أقصى المغرب لا طول لها والتي تحت خط الإستواء لا عرض لها، والتي في الوسط طولها سبعون درجة، وهي: وسط الأرض، قالوا: هو وادي سرانديب[1] حيث هبط آدم عليه السلام.

وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: ان وسط الأرض هي الكعبة فبالنسبة إلى المعمور[2] منها.

والأقاليم السبعة أعدلها رابعها، وهو: أقليم الأنبياء والحكماء، والمستولي عليه الشمس ولأهلة من البروج الجوزاء.

ومن الكواكب عطارد، وعرضه ثلاثمائة ميلاً من مدينة خراسان والري وأصفهان والعراق وديار بكر والشام وبيت المقدس، ويليه في الإعتدال الأقليمان الثالث والخامس، فالمستولي على الثالث المريخ، ولأهله من البروج العقرب.

ومن الكواكب الزهرة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ميلاً من بلاد مصر والحجاز إلى بلاد القيروان وقرطاجنة، والمستولي على الخامس الزهرة ولأهلة من البروج السرطان.

ومن الكواكب المريخ وعرضه مائتان وخمسة وخمسون ميلاً من مدينة خوارزم وأُرمينة وقسطنطينة الكبرى إلى بلاد الأندلس.

والأقاليم الباقية أهلها ناقصون عن طبيعة الأفضل كالزنج والحبشة في الأولين ويأجوج ومأجوج والصقالبة في الآخرين.

روي كعب الأحبار: «ان الأرض سكنها الجنّ سبعمائة ألف سنة فلمّا عصوا وسفكوا الدّماء

---

(١) سرانديب: جزيرة في بحر الهند.

(٢) الامالي: ٢٥٥.

أهلكهم الله تعالى وأسكنها الملائكة ألفي سنة ثم خلق الله آدم».

وروي أن الله سبحانه لمّا خلق نار السموم خلق منها الجان وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1]، وسماه مارجاً، وخلق منه زوجته وسمّاها مارجة فواقعها فولدت الجانّ، ثم ولد للجان ولد سماه الجن، ومنه تفرعت قبائل الجنّ، ومنهم: إبليس اللعين، وكان يولد للجان الذكر والأنثى ويولد للجن تؤمين فصاروا تسعين ألفاً ذكوراً وإناثاً وازدادوا حتى بلغوا عدد الرمل.

فتزوج إبليس بإمرأة من ولد الجن، يقال لها روحا بنت سلسائيل، فولدت منه عدة بطون، فكثر ولد إبليس حتى صاروا لا يحصون وكانوا يهيمون على وجوههم كالذر والبعوض وكانوا يسكنون المفاوز والقفار وكل موضع وحش حتى امتلأت الأرض منهم، ثم تخلقوا بولد آدم بعد ذلك وهم على صورة الخيل والحمير والأنعام والكلاب والسباع والسلاحف فلمّا امتلأت الأرض من ذرية إبليس أسكن الله الجانّ في الهواء دون السماء، ثم أسكن الجنّ في سماء الدنيا، وأمرهم بالعبادة والطاعة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، فبقيت الأرض خالية فافتخرت عليها السماء إذ ليس فيها من يذكر الله تعالى.

وتقول: إنّ ربي رفعني فوقك وأنا مسكن الملائكة، وفيّ العرش والكرسي والشمس والقمر والنجوم وخزائن الرحمة ومني ينزل الوحي.

فقالت الأرض: إنّ ربي بسطني أرضاً واستودعني عروق الأشجار والنبات والعيون وخلق في الثمرات والأنهار والأشجار، فقالت لها السماء: ليس عليك أحداً يذكر الله تعالى. فشكت الأرض إلى ربها، فقالت: يا رب إنّ السماء تفتخر عليّ إذ ليس عليّ أحد يذكرك، فنوديت أن اسكني فإنّي أخلق من أديمك صورة لا مثل لها من الجن، وأرزقها العقل والعلم واللسان وأنزل عليها من كلامي ثم أملي ظهرك وبطنك منها، فافتخري يا أرض على السماء بذلك فاستقرت الأرض، فسألت الأرض ربّها أن يهبط إليها خلقاً يذكرونه فأذن لها بذلك على أن يعبدوه ولا يعصوه، فأهبط الجنّ وإبليس وسكنا الأرض فأعطوا على ذلك العهد ونزلوا وهم سبعون ألف قبيلة، فعبدوا الله حق عبادته دهراً طويلاً، وإبليس عليه اللعنة حاكماً فلمّا عصوا وسفكوا الدّماء، بعث الله إليهم الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه إلى السماء الأولى فعبد الله فيها ألف سنة، ثم رفعه الله إلى السماء الثانية فعبد الله منها ألف سنة، فرفعه إلى الثالثة ولم يزل يرفعه من سماء إلى سماء، ويعبد الله تعالى

---

(١) سورة الحجر: ٢٧.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

في كل سماء ألف سنة، حتى رفعه إلى السماء السابعة وعبدالله فيها ألف سنة.

فلمّا كان بعد ذلك أمر الله جبرئيل أن يهبط إلى الأرض ويقبض منها قبضة من التراب، ليخلق منها آدم عليه السلام، فأخذ إبليس الحسد لآدم، فنزل إلى الأرض وقال لها: أيتها الأرض أني جئتك ناصحاً لك، إنّ الله يريد أن يخلق منك خلقاً يفضّله على جميع خلقه، وأخاف أن يعصيه ذلك الخلق فيعذبه بالنار، وقد أرسل الله إليك جبرئيل فإذا جائك فاقسمي عليه أن لا يقبض منك شيئاً، فلمّا هبط جبرئيل إلى الأرض فقسمت عليه بالله أن لا يقبض منها شيئاً، فرجع فبعث الله ميكائيل ليقبض منها فأقسمت فرجع، فبعث الله عزرائيل فلمّا همَّ أن يقبض منها أقسمت عليه بالله، فقال: وعزّة ربي لا أعصيه أمراً، ثم قبض منها ورجع بالقبضة.

فقال الله: وعزتي وجلالي لأسلطنّك على قبض أرواح هذا الخلق الذي أخلقه لقلّة رَحْمِك، فجعل الله نصف تلك القبضة في الجنة، والنصف الآخر في النّار. ثم خلق منها آدم وأمر الملائكة فحملوه ووضعوه على باب الجنة، وكان جسداً لا روح فيه، وكان إبليس يطيل النظر إليه، ويقول: ما خلق الله هذا إلّا لأمر فربما أدخل فيه وأخرج منه، فإنّه خلق ضعيف خلق من طين وهو جوف، والجوف لابدّ له من مطعم، فقال: يوماً للملائكة ما تعملون أنتم إذا فضل عليكم هذا الخلق؟ قالوا: نطيع ربنا ولا نعصيه، فقال إبليس: لأن فضّله عليّ لاعصيّنه! ولئن فضلت عليه لأهلكنّه.

فلمّا أراد الله أن ينفخ فيه الرّوح وهي روح فضّلها الله على جميع أرواح الخلق من الملائكة وغيرها لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[1]، فلمّا خلق الله روح آدم أمر بغمسها في الأنوار، ثم أمرها أن تدخل في جسد آدم بالثاني فرأت مدخلاً ضيّقاً، فقالت: يا ربّ كيف أدخل من الفضاء إلى الضيق! فنوديت أن ادخلي كرهاً وأُخرجي كرهاً، كما قال: ابن سينا في تعلق الرّوح بالجسد ومفارقتها إيّاه:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ... ورقاء ذات تعزّز وتمنّع

محجوبة عن كلّ مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجع

أنفت وما سكنت فلمّا استأنست ... ألفت مجاورة الخراب البلقع

وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... من ميم مركزها بذات الأجرع

---

(١) سورة الحِجرِ: ٢٩.

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضّع
تبكي إذا ذكرت عهودا بالحمى بمدامع تهمي ولم تقطع
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدها قفص عن الأوج الفسيح الأريع
وتظل ساجعة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدّت مفارقة لكلّ مخلّف عنها حليف الترب غير مشيع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجّع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلأي شيء أهبطت من شاهق عال إلى قعر الخسيس الأوضع
أن كان أهبطها الإله لحكمة خفيت عن القلب اللبيب الأروع
فهبوطها أن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم يسمع
وتكون عالمة بكل حقيقة في العالمين وخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزّمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكانها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

الركن الأوّل

في الأنبياء والمرسلين

وأوّلـه:

فصل
في أيام آدم صفي ربّ العالمين

وهو أوّل هذا النوع الإنساني، سمي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض، خلقه الله تعالى يوم الجمعة بعد العصر، آخر خلق خلقه الله في الأرض من قبضة قبضت من جميعها.

ومكث فيها ما شاء الله، قيل: أربعين سنة لم يكن شيئاً مذكوراً، بل طين ملقى بين مكة والطائف. ثم نقله إلى السماء ونفخ فيه من روحه، وأخرج ذريته من ظهره وعلمه أسماء كل شيء، فتكلّم بسبعمائة ألف لغة وأسجد له الملائكة.

وإبليس أبى أن يسجد قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[1]، تعليل لفضله عليه، وقد خلطه في ذلك بأن رأي الفضل كلّه باعتبار العنصر، وغفل عمّا يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ**﴾[2]، ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي**﴾[3]، فلمّا قال له: ﴿**فَاخْرُجْ**

---

(١) سورة الأعراف: ١١ و١٢.

(٢) سورة ص: ٧٥.

(٣) سورة الحجر: ٢٩.

﴿مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[1]، تغيّرت خلقته إلى خلقه كريهة، فوثبت عليه الملائكة بحرابها ويرجمونه ويقولون له رجيم ملعون، فهرب من بين أيديهم وبقيت الملائكة في اضطراب والسماوات في رجفان من جرأة إبليس وعصيانه.

ثم أمر الله الملائكة أن يحملوا آدم على أكتافهم ليكون عالياً عليهم فحملوه، وأسكنه الله تعالى الجنة ضحوة، وقرّب له قطفاً من عنب أبيض فأكله ثم نام.

فخلق الله من فضل طينة ضلعه الأيسر حواء لقوله تعالى: **﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**[2]، وإنّما سمّيت حواء لأنها خلقت من شيء حيّ.

وأُخرجا من الجنّة بين الصلاتين، فكانت مدّة إقامتهما في الجنة نصف يوم خمسمائة عام في عدد أهل الدنيا، قال الله تعالى: **﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾**[3].

وذلك إنّ إبليس لمّا سمع أنّ الله أباح لآدم وحواء جميع ما في الجنّة إلّا شجرة الخلد، فرح وقال: سوف أغويهما.

فجاء إلى باب الجنّة فرأى الطاووس فخدعه ووعده أن يعلمه ثلاث كلمات من قالهنّ لم يمت، فقال له: من أنت؟ قال: أنا من ملائكة الصفح الأعلى جئت أنظر إلى الجنّة، فهل لك أن تدخلني إليها وأعلمك الكلمات الثلاث التي من قالهن لم يمت، قال: إنّي أخاف من رضوان خازن الجنان، ولكن أبعث إليك الحيّة فإنّها سيدة دواب الجنّة، ودخل وأرسلها إليه فخدعها فحملته في فمها فصار السم في نابها. وذهبت به إلى حواء وكانت صديقتها، فقال إبليس من فم الحية يا حواء ما الذي أحل الله لكما في الجنّة، وما الذي حرّم عليكما فيها، فأخبرته وهي تتوهم أنّ الكلام من الحيّة، فقال: أنا أعلم إنّما نهيكما ربكما إلّا عن شجرة الخلد، وأراد أن يفعل بكما كما فعل بذلك العبد الذي مأواه تحت الشجرة الذي أدخله الجنة قبل دخولكما بألفي عام.

فوثبت حواء لتنظر إلى ذلك العبد فخرج إبليس من فم الحيّة كالبرق الخاطف فقعد تحت الشجرة فأقبلت حواء، فلمّا قربت منه، نادته: من أنت؟ فقال: أنا خلق من خلق الله تعالى، خلقني كما خلقكما بيده، ونفخ فيّ من روحه، وأسجد لي ملائكته، وأسكنني جنّته، ونهاني عن هذه الشجرة، فكنت لا أكل منها حتى نصحني بعض الملائكة، وقال: لي كل منها فإنّ من أكل منها كان مخلداً في الجنّة، فأكلت منها فأنا في الجنة من ألفي عام إلى يومي هذا، ثم قال:

---

(١) سورة الحجر: ٣٤.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الحج: ٤٧.

والله ما نهاكما ربكمّا عن هـذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، فكلي منها فإنّها أطيب ما أكلـت من ثمار الجنة، واسرعي إليها واسبقي زوجك، وإنّ من سبـق كان له الفضل على صاحبه.

فتقدمت حواء إلى تلك الشجرة وأخذت منها سبع سنابل من سبعة أغصان، فأكلت واحدة وادّخرت لها أخرى، وجاءت بخمس منها إلى آدم فـتناول مـن السـنابل واحـدة، ونسـي العـهد المأخوذ عليه بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**﴾[1]، أي على الذنب له لأنّه لم يتعمد أو لم يكن نبيّاً حينئذٍ، أو ظنّ أنّ النهي عن تلك الشجرة، فتناول من غيرها من نوعها.

عن النبي ﷺ أنّه قال: «لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه»، ثم قال: والذي نفسي بيده ما ساغ آدم من تلك السنابلة إلّا سنبلة واحدة حتى طار التاج عن رأسه، وتعرّى من لباسه، وانتزعت خواتيمه من يده، وناداه لباسه وتاجه: يا آدم طال حزنك، وكسرت حسرتك، وعظمت مصيبتك، فعليك السلام، فهذه ساعة الفراق إلى يوم التلاق، فإنّ ربّ العزّة عهد إلينا أن لا نكون إلّا على عبد مطيع خاشع، وانتفض السرير من فراشه، وطار في الهواء، وهو ينادي آدم المصطفى قد عصى الرحمن وأطاع الشيطان، وحواء قد انتفضت ذوائبها مما كان عليها من الدر والجوهر، وسقط كلما كان عليها من لباسها، وجعل كل منهما ينظر إلى عورة صاحبه، وهرب إبليس وغضّ أهـل الجنّة أبصارهم عن آدم وحواء.

وقالوا لهما: أخرجتما من الجنة وانتفضت أشجار الجنة عنهما، حتى لم يتمكنا أن يستترا بشيء منها، فكلّما قرب آدم من شجرة نادته إليك عني يا عاصي، فلمّا كثرت عليه الملامة والتوبيخ فرّ هارباً، وإذا هو بشجرة الطلح قد التفت على ساقيه ونادته! إلى أين تهرب يا عاصي؟ فوقف آدم! فزعاً مرعوباً، وظن أنّ العذاب قد أتاه وجعل يقول: الأمان الأمان، وحواء تجتهد أن تستر نفسها بشعرها وهو ينكشف عنها، وناداها شعرها يا بادية السوءة، هل تقدرين أن تستري بي وقد عصيت ربك، فقعدت حواء عند ذلك ووضعت ذقنها على ركبتها كي لا يراها أحد، وهـي تـحت تـلك الشجرة التي قبضت على آدم.

فنودي جبرئيل الأمين يا جبرئيل ألا ترى إلى آدم بديع فطرتي كيف عصاني، ألا ترى إلى حواء أمتي كيف عصتني وطاوعت عدويّ، فاضطرب جبرئيل الأمين لمـا سـمع نـداء ربّ العـالمين،

---

(١) سورة طه: ١١٥.

وداخله الخوف وخرّ ساجداً، وحملة العرش قد سكنت حركاتهم، وهم يقولون: سبحانك قدّوس قدّوس، الأمان الأمان، فأخذ جبرئيل يعدد على آدم ما أنعم الله به عليه، ويعاتبه على المعصية، فاضطرب آدم فزعاً، وارتعد خوفاً حتى ذهب كلامه، وجعل يشير إلى جبرئيل دعني أهرب من الجنّة خوفاً من ربّي، وجاء منه فقال: إلى أين تهرب يا آدم وربك أقرب الأقربين، ومدرك الهاربين؟ فجعل ينظر إلى الجنّة نظر الوداع، وجبرئيل لا يفارقه حتى خلّصه من الشجرة التي قبضت عليه.

ومضى إلى باب الجنة، وناداه الرب جلّ جلاله: يا آدم خلقتك لتكون عبداً شكوراً، لا لتكون عبداً كفوراً! فقال: يا ربّ أسألك أن تعيدني إلى التربة التي خلقتني منها كما كنت أوّلاً، فأجابه الربّ جلّ جلاله، يا آدم قد سبق في علمي، وكتب في اللوح المحفوظ أنّي أملأ من ظهرك الجنة والنار، فسكت آدم مفكّراً.

وأمرت حواء بالخروج فوثبت إلى ورقة من أوراق تين الجنة لتستتر بها، فلمّا أخذتها سقطت من يدها، ونطقت يا حواء إنك لفي غرور أنّه لا يسترك شيء من الجنة بعد أن عصيت الله تعالى، فعندها بكت حواء بكاءاً شديداً، فأمر الله الورقة أن تجيبها فاستترت بها.

فقبض جبرئيل بناصيتها حتى أتى بها إلى باب الجنّة، فلمّا رأت آدم صاحت صيحة وقالت: يالها من حسرة.

فنوديت: يا حواء من الذي صرف عنك الخيرات؟ فقالت: إلهي وسيدي ومولاي وربي صرف عني ذلك خطيئتي، قد ذهبت زينتي وعظمت مصيبتي وحلّت شقوتي، وبقيت عريانة لا يسترني شيء من جنّتك، وقد خدعني إبليس بغروره وأقسم لي بحقك أنّه لي لمن الناصحين، وما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً!

قال: فاخرجي من الجنة فقد جعلتك ناقصة العقل والدين والميراث والشهادة، وأحرمتك أفضل الأشياء: الجمعة والجماعة، وجعلتك دائمة الأحزان، ولم أجعل منكن حاكماً، ولا أبعث منكنّ نبيّاً.

وآدم واقف عرياناً قد وضع يده اليمنى على رأسه واليسرى على سوْته، ودموعه تجري على خدّيه. فناداه الربّ جلّ جلاله: يا آدم قد سبق في علمي إذا تاب العاصي تبت عليه وأتفضّل عليه برحمتي، يا آدم ما أهون الخلق عليّ إذا عصوني وما أكرمهم عليّ إذا طاعوني، فتاب آدم عليه السلام كما

قال الله سبحانه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[١].

قيل: تاب عليه يوم عاشوراء، وأهبط إلى الأرض هو وحواء وإبليس والحية والطاووس هبوطاً واحداً. آدم من باب التوبة، وحواء من باب الرحمة، وإبليس من باب اللعنة، والحيّة من باب السخط، والطاووس من باب الغضب.

قال كعب: هبطوا جميعاً ونزلوا في بلاد متفرقة، آدم بالهند وقيل بسرنديب، وحواء بجدّة، وإبليس بموضع من البصرة، والحية بنصيبين وقيل بأصفهان، والطاووس بأطراف البحر.

فإن يك آدم أشقى بنيه — بذنب ماله منه اعتذار
ولم تنفعه بالأسماء علم — ولا نفع السجود ولا الجوار
فأخرج ثم أهبط ثم أودي — فترب السافيات له شعار
لقد بلغ العدو بنا مناة — وحل بآدم وبنا الصغار
وتهنا ضائعين كقوم موسى — ولا عجل اضلّ ولا خوار
فيالك أكلة ما زال منها — علينا نقمة وعليه عار

وأخذ آدم عليه السلام في البكاء ثلاثمائة عام لا يرفع رأسه نحو السماء، وهو يقول: بأي وجه أنظر إلى سماء أهبطت منها عرياناً عاصياً، ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢]، أي استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علّمها، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣].

قيل: لبعض فضلاء المعتزلة كيف تاب الله سبحانه على آدم ولم يتب على إبليس مع اشتراكهما في المخالفة؟ فقال: لإن إبليس أسند الغواية والضلال إلى الله سبحانه لقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[٤]، وآدم أسند ذلك إلى نفسه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٥].

فقيل له: يا آدم قد قبل الله توبتك، فذهب ليقوم من سجوده فلم يقدر لأنّ رجليه رسخت في الأرض كعروق الشجر فاقتلعه جبرئيل، وقد تغير لونه ونحل جسمه وذهب نوره وبهاؤه، فضرب

---

(١) سورة طه: ١٢١ و١٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: ٢٣.

(٤) سورة الحجر: ٣٩.

(٥) سورة الأعراف: ٢٣.

جبرئيل عليه السلام بجناحه الأرض فانفجرت عين ماء أشد رائحة من المسك، فاغتسل آدم فيها وهو يقول: «اللّهم طهّرني من خطيئتي وأخرجني من كربي». فكساني حلتين من حلل الجنّة، وبعث الله ميكائيل إلى حواء فسترها وكساها فلمّا عرفت قبول توبتها انطلقت إلى الساحل واغتسلت وهي تبكي شوقاً إلى آدم.

فلمّا حجّ آدم إلى موضع البيت ماشياً كما أمره الله تعالى، اجتمع بحواء في أعلى جبل عرفات فلذلك سميت عرفات، فلمّا فرغ من أفعال الحج أمره الله تعالى فبنى البيت العتيق، وأقام آدم وحواء بمكّة أو بجدّة، فولد لهما هابيل وقابيل فلمّا بلغا أنزل الله لهما حوريّة أو جنّية على الخلاف، وقيل: ولد هابيل وأُخته توأماً وقابيل وأخته توأماً، فأوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوّج كل واحد منهما توأمه الآخر، فسخط منه قابيل لأنّ توأمه أو الحوريّة كانت أجمل، فقال لهما آدم: قرّبا قرباناً فمن أيّكما قبل تزوجها، فقرب هابيل أحسن غنمه وقرب قابيل أردئ زرعه، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار بلا دخان على صورة عنقاء لها جناحان أخضران فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وبنى للنار بيتاً وعبدها.

ثم إن إبليس أتاه فقال له: يا قابيل قد تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانك، فاقتله كيلا يكون له عقب يفتخرون على عقبك، فذهب في طلبه فوجده نائماً عند غنمه في جدّة، وقيل: عند عقبة حراء، وقيل: في البصرة في موضع المسجد الأعظم، فقتله وعمره عشرون سنة فأصبح من الخاسرين ديناً ودنياً، متحيراً في أمر هابيل لم يدر ما يصنع به، إذ كان أوّل ميّت من بني آدم، فبعث الله غرابين يقتتلان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفيرة وطمّه، فتعلم من الغراب وطمّ أخاه في التراب. وقال: ﴿يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ﴾[1] ـ على قتله أو على تلمذة الغراب ـ إذ لو ندم على قتله لكان ندمه توبة وهو هلك بغير توبة وأسودّ لونه لمّا قتله.

وكان آدم قد ذهب إلى حج بيت الله فلمّا رجع استقبله جميع ولده إلّا هابيل، فسأل قابيل! عنه فقال: ماكنت عليه وكيلاً، قال: بل، قتلته ولذلك اسودّ جسدك، وتبرأ منه.

ومكث قابيل بعد ذلك مائة سنة لم يضحك وعدم الظفر بما فعله من أجله، واغتم آدم عليه السلام وبات تلك الليلة فرأى في منامه هابيل يناديه يا أبت الغوث! الغوث! فانتبه آدم من نومه مذعوراً وبكى حتى غشي عليه، فنزل جبرئيل فرفع رأسه ووضعه في حجره، فلمّا أفاق من غشوته قال:

(١) سورة المائدة: ٣١.

يا جبرئيل أين ولدي هابيل؟ فقال: أعظم الله أجرك في هابيل قد قتله قابيل، فقال: آدم أنا بريئ من قابيل، فقال: إنّ الله يقول أيضاً أنا بريئ منه، ثم قام آدم وقال: يا جبرئيل أرني قبره، فأراه قبره فكشفه ورآه متلطّخاً بالدم، فصاح يا حسرتاه، يا ويلاه، يا ابناه، يا حبيباه، وبكى حتى بكت ملائكة السماوات السبع لبكائه.

وقالوا: يا إلهنا بكى آدم ثلاثمائة عام فلم يسترح إلّا مدّة قليلة ثم اشتغل بالبكاء، فقال: الله تعالى نعم إنّ الدنيا دار البكاء والعناء وكان آدم ينوح ويبكي ويقول:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح!
تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه مليح
أيا أسفي على هابيل ابني ... قتيل قد تضمنه الضريح

فأجابه إبليس يقول:

تنوح على البلاد وساكنيها ... ترى في الخلد ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك في نعيم ... وقلبك من أذى الدنيا مريح
فلم تنفك من كيدي ومكري ... وحتى فاتك الثمن الربيح

وكان كلمّا بلغ آدم وادياً بكى الوادي لبكائه، فإذا صعد جبلاً بكت الأشجار لبكائه، وإذا لقى قابيل وحوش فرت منه، وقالت: ليس له وفاء لم يرحم أخاه فكيف يرحمنا ولذلك قيل:

مذ غال قابيل أخاه لفضله ... وجب الحذار على ذوي الحساد

ثم ولد لآدم شيث هبة الله بعدما مضى مائتان وثمانون سنة من عمره، وقيل: مائة وخمس وثمانون.

وتوفي آدم عليه السلام وعمره تسعمائة وثلاثون سنة ودفن بمسجد الخيف بمنى، وقيل: في كهف في جبل أبي قبيس بمكّة، ونبشه نوح وحمله معه في السفينة، ثم دفنه بالنجف الأشرف بالكوفة، وكان نبياً رسولاً إلى بنيه وبني بنيه، وكان عدّتهم عند موته أربعون ألفاً منهم من عمود النسب المحمدي شيث.

وتوفّيت حواء بعده بمدة يسيرة ودفنت بجدّة ولذلك سميت جدّة.

وفي الحديث لما أخرج الله عزّ وجلّ ذريّة آدم من ظهره ليأخذ عليهم الميثاق بالربوبيّة وبالنبوّة لكلّ نبيّ، فنظر آدم إلى ذرّيته وهم ذر قد ملؤوا السماء.

فقال: يا ربّ ما أكثر ذريتي؟ ولأمر ما خلقتهم؟ فما تريد منهم بأخذك الميثاق عليهم؟

قال الله تعالى: يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً، ويؤمنون برسلي ويتبعونهم.

قال: يا ربّ فما لي أرى بعض الذر أعظم من بعض، وبعضهم له نور كثير وبعضهم له نور قليل وبعضهم ليس له نور.

فقال الله عزّ وجلّ: لذلك خلقتهم لأبلوهم في كل حالاتهم.

فقال: يا ربّ فلو كنت خلقتهم على مثال واحد، وقدر واحد، وطبيعة واحدة، وجبلّة واحدة، وأرزاق واحدة، وأعمار سواء، لم يبغ بعضهم على بعض، ولم يكن بينهم تحاسد ولا تباغض، ولا اختلاف في شيء من الأشياء.

فقال الله عزّ وجلّ: يا آدم بروحي نطقت، وبضعف طبيعتك تكلمت مالا علم لك به!! إني أنا الله الخلّاق العليم، بعلمي خالفت بين خلقي، وبمشيئتي يمضي فيهم أمري، وإلى تدبيري وتقديري صائرون لا تبديل لخلقي، إنّما خلقت الجنّ والإنس ليعبدوني، وخلقت الجنّة لمن عبدني وأطاعني منهم واتبع رسلي ولا أبالي، وخلقت النار لمن كفرني وعصاني، ولم يسمع رسلي ولا أبالي، وخلقتك وخلقت ذريتك من غير فاقة بي إليك وإليهم، وإنّما خلقتك وخلقتهم لأبلوك وأبلوهم أيّكم أحسن عملاً في دار الدنيا في حياتك وقبل مماتك، وكذلك خلقت الدنيا والآخرة والحياة والممات والطاعة والمعصية والجنّة والنار، وبعلمي النافذ فيهم خالفت بين صورهم وأجسامهم، وأعمارهم وأرزاقهم، وطاعتهم، ومعصيتهم، فجعلت منهم الشقي والسعيد، والبصير والأعمى، والقصير والطويل، والجميل والذميم، والعالم والجاهل، والغني والفقير، والمطيع والعاصي، والصحيح والسقيم، ومن به الزمانة ومن لا عاهة به، فينظر الصحيح إلى من به العاهة فيحمدني على عافيته، وينظر الذي به العاهة إلى الصحيح فيدعوني ويسألني أن أعافيه، ويصبر على بلائي فأثيبه جزيل عطائي، وينظر الغني إلى الفقير فيحمدني ويشكرني، وينظر الفقير إلى [الغني فيدعوني ويسألني، وينظر المؤمن إلىٰ الكافر، فيحمدني على ما هديته، فلذلك خلقتهم لأبلوهم في السراء والضراء، وفيما أعافيهم، وفيما أبتليهم وفيما أعطيهم، وفيما أمنعهم، وأنا الله الملك القادر، ولي أن أمضي جميع ما قدّرت على ما دبّرت، وليّ أن أغيّر من ذلك ما شئت إلىٰ ما شئت، وأقدّم من ذلك ما أخّرت، وأؤخر من ذلك ما قدمت، وأنا الله الفعّال لما أريد، لا أسأل عمّا أفعل وأنا أسأل خلقي عمّا هم فاعلون[١]][٢].

---

(١) الكافي: ٢/٨.

(٢) بين المعقوفين أضفناه من المصدر، لسقوطه من النسخة المعتمدة.

[فصل
في ذكر قصّة نوح عليه السلام

ذكر أنّه عاشر أب إلىٰ آدم وأنّ بينهما ألف ومئتان سنة وهو أوّل أولي العزم على الصحيح، أرسله الله تعالى إلىٰ قومه وكانوا عبدة][1] أصنام على الصحيح فاجتهد في دعوتهم، كما قال: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾**[2].

قيل: لمّا طالت دعوتهم وتمادى إصرارهم حبس الله عنهم المطر أربعين سنة وأعقم أرحام نسائهم، فوعدهم نوح لقوله تعالى: **﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً﴾**[3]، ولمّا طال عليه طغيان قومه واستطالوا في اذاه وآيس من إيمانهم قال: **﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾**[4]، فاستجاب الله له.

وحين بلغ عمره خمسمائة سنة ولد له سام وحام ويافث، وابتدأ الطوفان فعمل السفينة من خشب السّاج في سنتين وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وقيل: ألف ومائتان وعرضها خمسون ذراعاً، وقيل: مائة، وسمكها ثلاثون ذراعاً وقيل: ثمانون، وجعل لها ثلاثة بطون أسفلها للدّواب، وأوسطها للإنس، وأعلاها للطير، وأمره الله أن يحمل فيها سام وحام ويافث، ونسائهم وزوجته المسلمة، وترك الكافرة واسمها واعلة، وابنه الكافر واسمه يام أو كنعان، واثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة من غيرهم كلّهم من ولد شيث، وأدخل معهم من أمر الله تعالى من الحيوان من كل زوجين اثنين، أي ذكر وأنثى، وقال: **﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ**

---

(١) بين المعقوفين أضفناه من النسخة الخطية من مكتبة «استان قدس رضوي».

(٢) سورة نوح: ٥ ـ ١٢.

(٣) سورة هـود: ٥٢.

(٤) سورة نوح: ٢٦ و٢٧.

رَحِيمٌ﴾[١].

وتخلّف عنه ابنه يام، أو كنعان وكان كافراً، وجاء أمر الله وفار التنور، ومحله مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٢]، وحمل نوح ومن معه على ذات الواح ودسر **﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُن مَعَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾**[٣]، بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل.

روي أنّه جبل النجف ولم يكن على وجه الأرض جبل أعظم منه، فأوحى الله إليه يا جبل أيعتصم بك منّي فتقطع قطعاً إلى الشام وصار رملاً. وعلا الماء على رؤوس الجبال خمسة عشر ذراعاً، ستة أشهر وعشر ليال، أوّلها حين صاروا في السفينة غرة رجب وآخرها يوم عاشوراء من المحرّم.

وهلك جميع من على وجه الأرض، فصام نوح ذلك اليوم وصار سنة: **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾**[٤]، واستقرت السفينة على جبل بالموصل يقال له الجودي في يوم عاشوراء.

روي أنّه مات كل من كان مع نوح في السفينة غير بنيه وأزواجهم، فجميع الناس من ولد نوح لقوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾**[٥]، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج والفرنج والقبط من ولد يوف[٦] بن حام، وكذلك كنعان فإنّه كنعان بن مازيغ بن حام، وقيل: كنعان من ولد سام، وكانت بنو كنعان بالشام إلى أن غزتهم بنو إسرائيل، وعمليق الذي هو أبو العماليق، وفارس أخوه هما ولد لاوذ[٧] بن سام وأرم ولد

---

(١) سورة هود: ٤١.

(٢) سورة القمر: ١١ و١٢.

(٣) سورة هود: ٤٢ ـ ٤٣.

(٤) سورة هود ٤٤.

(٥) سورة الصافات: ٧٧.

(٦) في الكامل (قوط)، وفي المختصر في تاريخ البشر (نوح بن حام).

(٧) في المخطوط (أزد).

سام أيضاً وولد لأرم عابر ولعابر ثمود وولد أيضاً لأرم عوض ولعوض عاد. وكان كلام ولد أرم العربية.

وسكنت بنو عاد الرمل بلاد الاحقاف إلى حضرموت، وسكنت بنو ثمود الحجر بين الحجاز والشّام. وولد لسام عمود النسب أرفخشد بعد الطّوفان بسنتين، وولد لأرفخشد قينان ولقينان شالخ ولشالخ عابر ولعابر فالغ ولفالغ رغو، وعند تولد رغو تَبلبلت الألسن وقسمت الأرض وتفرّقت بنو نوح.

وقد أنكر الطوفان جماعة من المجوس والهند والفرس يقولون إنّه لم يكن عامّاً ولم يتجاوز عقبة حلوان وكذبوا.

وبعد الطّوفان بمائتي سنة وقيل بخمسمائة وقيل بثلاثمائة وخمسين سنة توفّي نوح عليه السلام وعمره ألف وأربعمائة سنة.

في قول ابن عبّاس وغيره أنه بعث وهو ابن مائتي سنة وخمسين وبقي في الدعوة ألف سنة إلّا خمسين، وعاش بعد الطوفان مائتين.

وفي رواية علي بن إبراهيم بن هاشم، عن علي بن الحكم، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله، أنّه قال: «عاش نوح عليه السلام ألفي سنة وخمسمائة، منها ثمانمائة وخمسين قبل أن يبعث، وألف سنة إلّا خمسين عاماً في قومه يدعوهم، ومائتي عام في عمل السفينة، وخمسمائة بعد الطوفان بنوا الأمصار، وأسكن ولده البلدان.

وفي قول قتادة أن عمره تسعمائة وخمسون سنة، منها ثلاثمائة سنة قبل الدعوة، وثلاثمائة في الدعوة، وثلاثمائة وخمسين بعد الطوفان، وهذا غلط لأن الله سبحانه أخبر عنه أنّه لبث في قومه: **﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾**[1]، وهو بقي بعد الطوفان على قوله ثلاثمائة وخمسين سنة.

وفي كتاب ورّام أنّ نوح عليه السلام: كان في بيت شعر ألفاً وأربعمائة سنة، فكلّما قيل له: يا نبي الله لو اتخذت بيتاً من طين تأوي إليه؟ قال: أنا ميّت غداً وتاركه، فلم يزل فيه حتى فارق الدنيا. وقال له جبرئيل: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الأخرى.

وفي الحديث أن ملك الموت جاءه وهو في الشمس، فقال: السلام عليك، فرد عليه السلام، وقال: ما جاء بك يا ملك الموت؟ فقال: جئت لأقبض روحك، فقال: له تدعني أتحول من الشمس

---

(١) سورة السجدة: ١٤.

إلى الظل، فقال: له نعم، فتحول نوح عليه السلام، ثم قال: يا ملك الموت كان ما مرّ بي من الدنيا مثل تحولي من الشمس إلى الظل!! فامضِ لما أمرت به، فقبض روحه.

والمشهور أن قبره وقبر آدم بالنجف عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام، وقيل: بمكّة.

ثم ولد لرغو الذي تبلبلت الألسن، أي: تفرقت ساروغ ـ واسمه في التوراة سرور ـ، وثم ولد لساروغ تاخور ولتاخور تارخ ولتارخ إبراهيم، وذلك لمضي ألف واحدى وثمانين سنة من الطوفان، وسبب تبلبل الألسن أنّ بني نوح اجتمعوا على بناء حصن خوفاً من مجيء الطوفان ثانياً يبلغ رأسه السماء وكان اثنين وسبعين شعباً، فجعلوا فيه بعدد الشعوب أبرجة على كل برج كبير شعب فانتقم الله منهم، وفرق ألسنتهم إلى لغات شتى وردّ عليهم لقوله تعالى: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾[1]، ولم يوافقهم عابر على ذلك وأبقاه الله تعالى على اللغة العبرانية.

فتفرقت بنو نوح فصار ولد سام إلى الشام والعراق وفارس والروم وما يلي ذلك إلى الهند، وصار ولد حام إلى الجنوب ومصر والحبشة والنوبة وما يلي ذلك مغرباً، وصار ولد يافث إلى الترك والصين وما يلي ذلك شرقاً، وأرسل الله تعالى فيما بين نوح وإبراهيم هود وصالح عليهما السلام.

فصل
في أيام هود

وهو ابن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وقيل: هود هو عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

أرسله تعالى إلى قوم عاد بن عوص بن ارم بن سام ابن نوح. وكانت بلادهم متصلة باليمن، وهي بلاد الاحقاف إلى بلاد سنجار إلى بلاد عمان إلى بلاد حضرموت.

وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم هود فكذّبوه فخوّفهم بقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[2]، وازدادوا عتوّاً فأمسك الله القطر منهم ثلاث سنين حتى جهدهم، فكان الناس

---

(١) سورة الشعراء: ١٢٨ و١٢٩.

(٢) سورة الاعراف: ٦٩ و٧٠.

حينئذٍ مسلمهم ومشركهم إذا نزل بهم بلاء توجّهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج.

وجهّزوا إليه قيل: ابن عنز ومرثد بن سعد بن عفير ولقمان بن عاد صاحب النسور في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكّة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، فلمّا قدموا عليه وهو بظاهر مكّة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ فتاتان له ـ فلمّا رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له همّه ذلك واستحي أن يكلّمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم، فشكا ذلك إلى الجرادتين فقالت لهم: قل شعراً نغنيهم به لعل ذلك يخرجهم، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهنئهم ... لعل الله يصبحنا غماماً
ويسقي أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يثبون الكلاما
من العطش الشديد فليس يرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخيرٍ ... قد أمست نساؤهم أياما
وانّ الوحش يأتيهم جهاراً ... ولا يخشى لعاديّ سهاما
وأنتم هيهنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحيّة والسلاما

فغنّت بهذا الشعر إحدى الجرادتين واسمها قعاد، ثم غنت الثانية واسمها ثمار فقالت:

إننا قوم جعلنا من بني عاد بن سام ... كالشماريخ من الطود المناجيب العظام
فسقى الله بني عاد معاً صوب الغمام ... ويلقى وفدهم منهم بأنعاس الزمام

فلمّا سمع ذلك القوم أزعجهم، فقال بعضهم لبعض: يا قوم إنّما بعثكم قومكم تتغوثون للبلاء الذي نزل بهم، فادخلوا الحرم نستقي لقومنا.

فقال مرثد بن سعد بن عفير: ـ وهو المؤمن منهم ـ والله لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيّكم وتبتم إلى الله سُقيتم وأظهر إيمانه، فقالوا: لمعاوية احبسه عنّا لا يقدمنّ معنا مكّة، فقال معاوية يخاطبه:

أبا سعد إنّك من قبيل ... ذوي كرم وأمّك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا ... ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد ... ورمل والصداء مع الصمودي
أنترك دين آباء كرام ... ذوي رأي ونتبع دين هود

ورفد ورمل وصدى والعنود قبائل من عاد، فحبسه عنهم وخرجوا إلى مكّة، فلمّا ولوّا خرج

مرثد بن سعد فلمّا انتهى إليهم ومعه لقمان بن عاد صاحب النسور، وكان رأس وفد عاد وقد تخلف مع مرثد، فقال: قيل بن عنز اللّهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاث بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء، يا قيل: اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنّها أكثرهن ماء، فناداه مناد: اخترت رماداً أرمد لا يبقي من عاد أحداً! فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا.

وكان أوّل من عرفت أنّها ريح امرأة من عاد يقال لها: مهدد، فصاحت به ثم صعقت فلمّا أفاقت قالوا لها: ما رأيتي يا مهدد؟ قالت: ريحاً كشهاب النار أمامها رجال يقودونها، فسخّرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾[1]، والحسوم: الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلّا أهلكته.

واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حضيرة؛ ما يصبهم منها إلّا ماتلين جلودهم، وإنّها لتمر من عاد بالطعن من السماء والأرض وتشدخهم بالحجارة، فقال سبعة نفر يقال لأحدهم الخلجان، قوموا حتى نقف على شفير الوادي فنرد هذه الريح، فجعلت الريح تأخذ من السبعة الواحد بعد الواحد فترمي بهم، حتى لم يبق منهم إلّا الخلجان.

فقال له هود: يا خلجان أسلم تسلم، فقال: ومالي عند ربّك إن أسلمت؟ قال الجنّة، قال: فما بال هؤلاء الذين آراهم في السحاب، قال: هؤلاء ملائكة ربّي، قال: فإن أسلمت ينقذني ربّك منهم، قال: ويلك وهل رأيت ملكاً لا ينقذ من جنده، فقال: إذاً لو فعل ما رضيت ثم جاءته الريح فألحقته بأصحابه، وفي ذلك يقول سهل بن الخليل:

لو أن عاداً سمعت من هود ... ما أصبحت غابرة الخدود

ضامرة الأحشاء بالوصيد ... ماذا جنى الوفد من الوفود

أحدوثة للأبد الأبيد

وأمّا مرثد بن سعد ولقمان بن عاد، فإنهما دخلا مكّة فدعوا الله لأنفسهما قبل هلاك قومهما، فقيل لهما: قد أعطيتما مُناكما، فاختار أوّلاً سبيل إلى الخلود، فقال: مرثد اللهمّ أعطني براً وصدقاً فأعطي ذلك.

وقال: لقمان اللّهم اعطني عمراً فأوحى الله إليه اختر لنفسك عمر سبعة أنسر وعزاً لا يناله القتر وأحسن الأعمار، واختار الأنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة، حتى إذا مات أحد غيره وكان يعيش كل نسر مائتي سنة، وقيل: خمسمائة وقيل ثمانمائة، وكان اسم النسر الذي مات معه

---

(١) سورة الحاقة: ٧.

لبيد، وتوفّي هود بمكّة وعمره أربع مائة وستون سنة.

وروي في مجمع البيان أن قبر نوح وهود وصالح وشعيب بمكّة، بين زمزم والركن والمقام.

فصل
في أيام صالح عليه السلام

وهو صالح بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح، وقيل ابن عبيد بن حاذر بن ثمود.

أرسله الله تعالى إلى ثمود وهم قبيلة من العرب، سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن أرم ابن سام بن نوح.

وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى.

روي أنّهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلّفوهم وكثروا فسمّوا عاد الثانية، وعمروا أعماراً طوالاً لا تفيء بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً**﴾[1]، أي: تنقبونها في الصخر، وكانوا في سعة من العيش، فعثوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام.

فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم فسألوه آية، فقال: أيّ أية تريدون؟ فقال: أخرج معنا إلى عيدنا، فتدعوا إلهك وندعوا آلهتنا، فمن أستجيب له أُتبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة يقال لها: الكاثبة، وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء[2]! فإن فعلت صدقناك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ فقالوا: نعم، فصلّى صالح ودعا ربّه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون إليها، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم.

فآمن به جندع في جماعة، ومنع الباقين من الإيمان ذؤاب بن عمر وحاكمهم، والحباب صاحب أوثانهم ورباب من صمغر كاهنهم.

فمكثت الناقة مع فصيلها ترعى الشجر وترد الماء غباً، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل

---

(١) سورة الأعراف: ٧٤.

(٢) جوفاء: ذو الجوف الواسع المؤنث أجوف، ووبراء مؤنث أوبر: ماله وبر أي صوف. (القاموس المحيط: مادة وجوف ووبر).

ما فيها، ثم يحلبون منها ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون.

وكانت تصيف بظهر الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشقّ ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم عنيزة أم الغنم وصدقة بنت المختار فعقروها مصدع وقدار.

فقالوا: ما كنّا نفعل، قال: إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها، ويكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يلد لنا إبن في هذا الشهر إلّا قتلناه، فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبنائهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح إبنه، وكان لم يولد له قبل ذلك شيء، وكان أزرق أحمر أشقريّ ثمود، اسمه قذار بن سالف، وكان ولد زنا، ولم يكن لسالف الذي يدعي إليه، ولكنه ولد على فراشه ونبت نباتاً سريعاً، فكان إذا مرّ بالتسعة فرأوه، قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضبت التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم، وهم الذين ذكرهم الله سبحانه بقوله: ﴿**وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾[1]، وهم غواة قوم صالح الذين سعوا في عقر الناقة.

وقال بعضهم لبعض: تقاسموا بالله لنبيّتنه وأهله يعنون صالحاً، فقالوا: نخرج فيرى الناس إنّا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار، فنكون فيه حتى إذاكان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم رجعنا إلى الغار فكنّا فيه ﴿**ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾[2].

فانطلقوا إلى الغار وبقوا فيه إلى الليل، فلمّا أرادوا أن يخرجوا سقط الغار عليهم فقتلهم، فانطلق رجال ممن اطلع على ذلك منهم، فإذا هم رضخ فرجعوا وجعلوا يصيحون في القرية، أي عباد الله أما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم إذ قتلهم!! فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة.

فانطلق إليها قذار بن سالف ومصدع فرماها مصدع بسهم، فانتظم بساقها وضربها قذار بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة، ثم طعنها قذار في لبتها فنحرها، فخرج أهل البلد واقتسموا لحمها، فرقي في سقبها[3] جبلاً اسمه قارة فرغا[4] ثلاثاً.

فأقبل صالح فاعتذروا إليه وقالوا إنّما عقرها فلان ولا ذنب لنا، فقال لهم: ادركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب؟ فلم يقدروا عليه، إذ انفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها!

فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ثم

---

(١) سورة النمل: ٤٨.

(٢) سورة النمل: ٤٩.

(٣) السقب: الذكر من ولد الناقة.

(٤) رغا البعير والناقة ترغو: صوتت فضجت. والرغاء: صوت ذوات الخف. لسان العرب ١٤: ٣٢٩ «رغا».

يصبحكم العذاب، فلمّا رأوا العلامات طلبوا صالحاً ليقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين بين دمشق وبيت المقدس، ولما كان ضحوة اليوم الرابع، تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع[1] فأتتهم صيحة من السماء فقطعت قلوبهم فهلكوا.

ثم انتقل صالح من فلسطين إلى الحجاز، وعبد الله حتى مات وعمره ثمانية وخمسون سنة على ما ذكروا.

قال الضحّاك: أن صالحاً سار بأربعة آلاف ممن آمنوا به إلى بلدة يقال لها: حاصورا فلمّا حضروها مات صالح فسمي المكان حضرموت، ثم أنّهم كثروا فكفروا وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نبيّاً يقال له: حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح، فقتلوه في السوق فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم.

وعطلت بئرهم وخرب قصر ملكهم، وذلك معنى قوله تعالى: **﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾**[2]، والله أعلم.

فصل
في أيام إبراهيم عليه السلام

وهو عاشر أب إلى نوح، فإنّه إبراهيم بن تارخ بن تاخور بن ساروغ بن رغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، ولد بالأهواز في أوّل يوم من ذي الحجّة، وقيل: ولد ببابل وهي العراق. وذلك لمضي ألف وإحدى وثمانين سنة من الطوفان.

وكان نمرود عاملاً على سواد العراق من قبل جمشيد الملك الفارسي، قيل: كان ملكاً مستقلاً وهو أوّل من تجبّر وادّعي الربوبية، وقال أنا أُحيي وأميت.

روي أن تارخ أبو إبراهيم كان منجّماً لنمرود بن كنعان، فنظر في علم النجوم ليلة من الليالي، فقال: لقد رأيت في ليلتي هذه مولوداً يولد في أرضنا، يكون هلاكنا على يده! ولا يلبث إلّا قليلاً حتى يحمل به، فحجب نمرود النساء عن الرّجال، وباشر أبو إبراهيم امرأته فحملت بإبراهيم، فلمّا وضعته أراد أبوه أن يذهب به إلى نمرود فمنعت من ذلك أُمّه فذهبت به إلى غار فتركته فيه!

فلم يزل إبراهيم في ذلك الغار وأُمّه تأتيه فترضعه وتنصرف. حتّى ظهر فصدع بأمر الله، فبدأ

---

(١) الانطاع: جمع نطع وهو ما يفرش على الأرض كالبساط، ويصنع من الجلد الأحمر.

(٢) سورة الحج: ٤٥.

بأبيه تارخ ولقبه آزر، وقيل: هما اسمان له كإسرائيل ويعقوب، وقيل: اسمه تارخ وآزر، وصف معناه الشيخ المعوج، وقيل: آزر اسم صنم كان يعبده، فلقب به، وقيل: آزر اسم جدّه لأمّه أو عمّه.

فقال: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾**[١]، ولم يسمّ أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق، **﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾**[٢]، قابل استعطافه ولطفه بالإرشاد؛ بالفظاظة وغلظ، وناداه باسمه ولم يقابل يا أبتي بـ: يابني.

فلم يزل إبراهيم يحاجج أباه وقومه حتى قال: **﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾**[٣]، فيحاججهم بقوله: **﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾**[٤]، لأنه غضب من عبادتكم الصغار **﴿فَسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾** كما تزعمون؟ إنهم يشفعون لكم **﴿فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾**، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، والقائل: رجل من أكوار فارس اسمه هيون خسف الله به الأرض.

وروي أنّهم بنوا حضيرة بكوثى[٥] واججّوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً ليرموا به فيها، فقال له جبرئيل: هل لك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، قال: فسأل ربّك قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فلمّا طرحوه في النار، قال: يا الله يا واحد يا أحد، يا من لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فحسرت النار عنه، ولم يحرق منه إلّا وثاقه، وطفئت كلّ نار على وجه الأرض، عند قوله تعالى: **﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾**[٦]، وقيل: كانت النار بحالها، لكنه تعالى دفع عنه أذاها.

كما يروي في السمندل[٧] وهو جنس من الطير يسكن النار ولا تؤذيه، قال الشاعر:

---

(١) سورة مريم: ٤٣.

(٢) سورة مريم: ٤٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٥٧ و٥٨.

(٤) سورة الأنبياء: ٦٣.

(٥) وهي موضع من سواد العراق في أرض بابل.

(٦) سورة الأنبياء: ٦٩.

(٧) السمندل: ذكره الجوهري بـ (السندل) بدون ميم، وابن خلكان (السمند) بدون لام: طائر بالهند، وقيل انه يبيض ويفرخ في النار، حياة الحيوان للدميري: ٣٣/٢.

درع داود آتــيه ليـلة الغــار[١] وكــان الفــخار للــعنكبوت[٢]
وطـيور السمندل في لجج النّار اضــاعت فـضيلة اليــاقوت

قيل وكان آنذاك إبراهيم ابن ست عشر سنة.

ولمّا خرج إبراهيم سالماً من النار، بأن جعلها الله تعالى برداً وسلاماً عليه، آمن به لوط ابن أخيه هارون، وسار هو وزوجته سارة بنت عمّه هارون ولوط وأبوه تارخ وجماعة من قومه إلى حران، وبها تزوج بسارة ثم سار من حران إلى الشام فنزل فلسطين، ونزل لوط سدوم[٣]، ثم سار هو وسارة ولوط إلى مصر.

وطلب فرعون مصر سارة، وقيل: طليس، فحماها الله تعالى من الفاجر.

قال ابن هشام في التيجان: جعل الله عزّ وجلّ القصر كالزجاج، فرأى إبراهيم ما اتفق للفاجر، ورده خاسئاً زيادة في تطيب خاطر إبراهيم.

ثم ساروا إلى الشام وأقاموا بين إيليا والرّملة، وكانت سارة لا تلد فوهبت هاجر من إبراهـيم، فجاءت بإسماعيل، ومعناه: مطيع الله تعالى، وكانت ولادة إسماعيل لمضي ست وثمانين سنة من عمر إبراهيم، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾[٤]، فحزنت سارة لذلك، فوهبها الله تعالى إسحاق، وعمرها تسعون سنة وعمر إبراهيم مائة سنة.

وغارت سارة من هاجر! وابنها إسماعيل لمّا نحّى أخاه إسحاق من حجر أبيه وجلس مكانه، فقالت سارة: يا إبراهيم ينحي ابن هاجر إبني من حجرك ويجلس مكانه! فوالله لا تجاورني هاجر مع إبنها في بلاد، فنحّهما عنّي.

فسار بهما إبراهيم إلى الحجاز وتركهما بمكّة، فأظهر الله تعالى عين زمزم، كما جاء في الحديث الصحيح، ثم انّ جرهماً رأوا ثمة طيوراً! فقالوا: لا طير إلّا على الماء، فقصدوه فرأوهما وعندهما عين، فقالوا: أشركينا في مائك ونشركك في ألباننا، ففعلت. [ونشأ][٥] إسماعيل بـمكّة، ومـاتت هاجر، وتزوّج إسماعيل من جرهم، وقدم إليه أبوه وبنيا الكعبة.

ثم أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح ولده ـ والأكثر أنّه إسماعيل ـ، وكان له يومئذٍ ثلاثة عشر سنة، فرأى إبراهيم في منامه ليلة التروية بمكّة، قائلاً يقول له: يا إبراهيم قرب لله قرباناً لتـنال بـه فـوزاً

(١) في نهاية الأرب، وحياة الحيوان للدميري: «نسج داود لم يفد صاحب الغار».
(٢) قيل: انها نسجت على نبي الله داود عليه السلام حين طلبه طالوت انظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم: ١٤٢/١.
(٣) سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، معجم البلدان ٣/ ٢٠٠، مراصد الاطلاع ٢/ ٧٠٠.
(٤) سورة إبراهيم: ٣٩.
(٥) أضفناها من نسخة (استان قدس رضوي).

وغفراناً، فلمّا أصبح ظنّ أنّه من الله أو من الشيطان، فذبح كبشاً من غنم، فلمّا نام ثانياً نودي يا إبراهيم قرّب قرباناً أكبر من هذا، فلمّا أصبح أمر بذبح بعير، وعرف أنّه من الله تعالى، فلمّا نام في اليلة الثالثة وهو بمنى ليلة النحر، نودي يا إبراهيم إنّما يرضى المعبود ذبح المولود، أرادك أن تذبح لديه قرباناً إليه، فانتبه الخليل من منامه قلقاً مرعوباً مفكّراً مكروباً، فهم بنحره واستشاره في أمره بأن قال له: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾[1]، في أمر خالق الورى؟ ﴿**قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ**﴾.

فانطلق به إلى عند الجمرة الوسطى وهناك جرد الخليل عن ذراعيه، ووضعه بين يديه ورمى بطرفه إلى السماء، ونادى: يامن يدّبر الأمر بلطفه تسليماً للرحمن وصبراً للملك الديان، فقال: له ولده يا أبت كن على الفراق صابراً ولله في الشدّة والرخاء شاكراً.

فقعد الخليل على صدره وجر على حلقومه مديته فانقلبت المدية في يده! فأعادها فمالت، والجوّ قد أظلم والأفق قد أقتم، وقلب الخليل قد انكلم، والذبيح لا يتكلم، فاهتزت قوائم العرش واضطربت وانكسفت الشمس، واحتجبت وتشققت السماء بالغمام، وماجت الأرضون تحت الأقدام رحمة للطفل الصغير، وتعجباً من الشيخ الكبير، فاطلع الله على شدة صبره وعظم بليته ورحم حاله وشيبته.

فناداه أرحم الراحمين يا إبراهيم قد صدقت الرّؤيا، وصبرت على البلوى، وفضلت على أهل الدنيا، ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ** ـكبش ـ **عَظِيمٍ**﴾[2] هبط من جنّة النعيم، فبادر الخليل إلى الكبش بفرحة واهتمام.

وهبط الأمين جبرئيل وحلّ كتاف الغلام، وذبح الخليل القربان، وجهر ببسم الله والله أكبر بلا توان.

وفي حياة إبراهيم توفيت زوجته سارة، وتزوج امرأة من الكنعانيين، وأولدها ستة أولاد فجملة أولاده ثمانية.

ولمّا بلغ إسماعيل ثلاث عشرة سنة اختتن هو وأبوه، وعاش إبراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة، وأنزلت عليه الصحف.

وروى أبو ذر أنّ النبي ﷺ قال: «هي أمثال فمنها: أيها المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا ولكن لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها، ولو كانت من كافر، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه،

---

(١) سورة الصافات: ١٠٢

(٢) سورة الصافات: ١٠٧.

مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن عد كلامه من عمله قلّ كلامه، إلّا فيما يعنيه»[١].

وإبراهيم أوّل من اختتن، وأضاف الضيف ولبس السراويل، واتخذ الله إبراهيم خليلاً، أي: اصطنعه وخصّه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، لأنّه لم يسأل غير الله عزّ وجلّ.

فأوحى الله إليه: «إنّك لمّا سلّمت مالك للضيفان، وولدك للقربان، ونفسك للنيران، وقلبك للرحمن، اتخذناك خليلاً»[٢].

وروي أنّه بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه طعاماً، فقال: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريده للأضياف، وقد أصابنا الناس فاجتاز غلمانه ببطحاء[٣] رمل فملؤا منها بالغرائر حياء من الناس، فلمّا أخبروا إبراهيم أساءه الخبر! فغلبته عيناه فنام، وقامت سارة إلى غرارة منها فأخرجت واختبزت، فاستيقظ إبراهيم واشتم رائحة الخبز، فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من عند خليلك المصري؛ فقال: بل، من عند خليلي الله عزّ وجلّ، فسمّاه الله خليلاً قبل الممات، وجعله نبيّاً رسولاً معظّماً مقدّساً من الهفوات.

ثم قسم الخلق منه شطرين: فشطر للذبيح، وشطر للكليم، كما أراد سبحانه إتمام النور في السماوات والأرض، قضاءَ أزليّاً وحكماً ربانياً ملحوظاً بالعنايات، فسطع نور الذبيح على قبائل العرب، والأُصول المكيات وزهر كوكب الكليم في الإسرائيليات، حتى نزع النور المحمدي من هاشم إلى عبدالمطلب، رئيس قومه وسيدهم وهم في الجهالات، وظهر النور الحنيف بظهور محمّد بن عبدالله عليه أفضل الصلوات.

فصل
في أيام لوط

وهو لوط بن هارون أخو إبراهيم، أرسله الله تعالى في حياة عمّه إبراهيم إلى أهل سدوم، بعد أن هاجر مع عمّه إلى مصر وعاد إلى الشام.

وكان أهل سدوم كفّاراً يأتون الفاحشة، وقوم إبراهيم يعبدون الأصنام قال تعالى: ﴿**وَلُوطاً إِذْ**

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/٢٥.

(٢) معجم رجال الحديث: ١٦/٢٥٠.

(٣) أي صغار الحصى.

﴿قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾[١]، لم يسبقهم إليها أحد من الخلق لفاحشتها، لأنها اشمأزت منها النفوس والطباع، ثم فسّر سبحانه الفاحشة بقوله: **﴿أَءِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾**[٢]، أي تنكحون الرجال وتتعرضون للسابلة[٣] بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطعت الطرق، أو يقطعون سبيل النسل بالأعراض عن الحرث، وإتيان ما ليس بحرث.

وقيل: كانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة، فأيّهم أصابه كان أولى به يأخذ ماله وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم، وكان لهم قاض يقضي بذلك: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾**[٤]، في دعوى النبوة **﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾**[٥]، أي يبشرونه بإسحاق من سارة.

وكان إبراهيم لا يأكل إلّا مع الضيف فانقطعت الأضياف عنه ثلاثة أيام، فخرج في طلب الضيف فلم يجد ضيفاً، فرجع وقعد في داره يقرأ الصحف المنزلة عليه، وإذا بالملائكة وقد دخلوا إليه **﴿فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾**[٦]، أنكرهم لأنّه لم يعرف صورهم! فرحب بهم وأمرهم بالجلوس، ودخل على سارة وقال لها: قد دخل عليّ أربعة أضياف حسان الوجوه واللّباس، وقد دخلوا إليّ بسلام الأبرار، وحاجتي إليك أن تقومي تخدميهم، فقالت: عهدي بك يا إبراهيم وأنت أغير الناس، فقال: هو كما تقولين؛ غير أنّ هؤلاء أعز أخيار.

ثم عهد إبراهيم إلى عجل سمين فذبحه وشواه ووضعه على الخوان[٧]، ووضع الخبز من حوله وقدمه إليهم، ووقفت سارة تخدمهم، وإبراهيم يأكل ولا ينظر إليهم، فقالت سارة: يا إبراهيم إنّ أضيافك لا يأكلون شيئاً! فقال إبراهيم: ألا تأكلون! ودخله الخوف، وكانت العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم، ظنّوا أنّهم لم يبح بخير.

ثم قال: لو علمت أنّكم ما تأكلون ما قطعت العجل من أمه، فمد جبرئيل يده نحو العجل وقال:

---

(١) سورة الأعراف: ٨٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٢٩.

(٣) أي: المارة.

(٤) سورة العنكبوت: ٢٩.

(٥) سورة العنكبوت: ٣٠ و٣١.

(٦) سورة الذّاريات: ٢٥.

(٧) الخوان: بالضم والكسر: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل. وتسميه العامة (السفرة)، وهو فارسي معرب خوانجه.

قم بإذن الله، فقام وأقبل نحو البقرة والتقم ضرعها. فاشتد خوف إبراهيم: و﴿**قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ**﴾[١]، فضحكت سارة وقالت: أنا عجوز عقيم، وهي لا تدري أنّهم ملائكة! فرفع جبرئيل طرفه إليها وقال كذلك: ﴿**قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ**﴾.

فقال إبراهيم لمّا عرفهم: ﴿**فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ**﴾، قالوا: إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط لنرسل عليهم حجارة من طين، فاغتمّ إبراهيم شفقة على ابن أخيه لوط، و﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ**﴾[٢].

وخرجوا من عند إبراهيم فوقفوا على لوط وهو يسقي الزرع، فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن أبناء السبيل، أضفنا هذه الليلة، فقال: إنّ أهل هذه القرية قوم سوء، ينحكون الرجال ويأخذون أموالهم، فقالوا: قد أبطأنا فأضفنا.

فجاء لوط إلى أهله وكانت كافرة اسمها: واهلة، فقال: أتاني أضياف فاكتمي أمرهم، قالت: أفعل.

وكانت العلّامة بينها وبين قومها، أنّه إذا كان عند لوط ضيف بالنهار تدخن من فوق السطح، وإذا كان بالليل توقد النار. فلمّا دخل جبرئيل والملائكة معه بيت لوط، وثبتْ امرأته على السطح فأوقدت ناراً.

﴿**وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**﴾، أي يسرعون إلى لوط لطلب الفاحشة من أضايفه ﴿**قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾[٣]، قيل المراد بالبنات نساؤهم فإنّ كل نبي أبو أمّته، كما أنّ أزواجه أمّهاتهم، ﴿**قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ**﴾، أي من حاجة ولا رغبة، وأنّك لتعلم ما نريد! وهو إتيان الذكران ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾[٤].

روي أنّه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب، فتسور الجدار فلمّا رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ﴿**قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ**﴾[٥]، أي لن يصلوا إلى إضرارك أو إضرارنا، فهوّن عليك، ودعنا وأيّاهم.

فخلاهم أن يدخلوا فضرب جبرئيل بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، قال تعالى:

---

(١) سورة الحجر: ٥٢ و٥٣.

(٢) سورة العنكبوت: ٣٢.

(٣) سورة هود: ٧٨.

(٤) سورة هود: ٨٠.

(٥) سورة هود: ٨١.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[١]، فخرجوا وهم يقولون النّجاة النّجاة فإنّ في بيت لوط سحرة!

فقال جبرئيل: يا لوط ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾[٢]، قال: كيف أخرج وقد اجتمعوا حول داري؟ فوضع بين يديه عموداً من نور، فقال له: اتّبع هذا العمود، فخرجوا من القرية.

فلمّا طلع الفجر، ضرب جبرئيل بجناحه طرف القرية فقلعها من تخوم الأرض، ثم دفعها في الجوّ حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديوكهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وذلك بعد أن أمطر عليهم حجارة من سجّيل، وقيل: قلبت المدينة على الحاضرين وأمطرت الحجارة على الغائبين.

ومضى لوط إلى عمّه إبراهيم فأخبره بما نزل بقومه كما قال تعالى: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾[٣].

فصل
في أيام إسماعيل عليه السلام

وأُمّه هاجر مولاة سارة وهبتها لإبراهيم، فجاءت بإسماعيل ومعناه مطيع الله.

روي في مجمع البيان عن أبي عبدالله عليه السلام: إنّ إبراهيم كان نازلاً في بلاد الشام، فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل، اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً، لأنّه لم يكن منها ولد، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه. فشكا إبراهيم إلى الله عزّ وجلّ فأوحى إليه: إنّما مثل المرأة مثل الضلع المعوج، إن تركته استمتعت به، وإن رمت أن تقيمه كسرته. فقيل في ذلك:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إن تقويم الضلوع انكسارها[٤]

ثم أمر الله تعالى أن يخرج إسماعيل وأُمّه عنها. فقال: أي ربّ! إلى أي مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني، وأوّل بقعة خلقتها من أرضي وهي مكّة، وأنزل عليه جبرئيل بالبراق. فحمل هاجر

(١) سورة القمر: ٣٧.
(٢) سورة هود: ٨١.
(٣) سورة الأنبياء: ٧٤.
(٤) مجمع البيان: ٣٣٨.

وإسماعيل وإبراهيم، فوضعهم في موضع البيت، وكان فيه شجر فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلّت تحته، فلمّا أراد إبراهيم الانصراف إلى سارة، قالت له هاجر: لم تدعنا في هذا الموضع الذي ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال: ألا ربي الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان.

ثم انصرف فلمّا بلغ كدى[1] وهو جبل بذي طوى، التفت إليهم إبراهيم وقال: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾**[2]، ثم مضى وبقيت هاجر، فلمّا ارتفع النهار وعطش إسماعيل، فقامت هاجر في الوادي حتى صارت في المسعى، فنادت في الوادي هل من أنيس؟ فغاب عنها إسماعيل، فصعدت على الصفا فَلَمَعَ لها السراب في الوادي، فظنت أنه ماء، فنزلت إلى بطن الوادي وسعت، فلمّا بلغت المروة غاب عنها إسماعيل، ثم لمع لها السراب ناحية الصفا، فعادت إلى الصفا، فنظرت إلى إسماعيل حتى فعلت ذلك سبع مرّات، فلمّا كانت في الشوط السابع وهي على المروة، نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه! قعدت حتى جمعت حوله رملاً فزمته به فلذلك سمّيت زمزم. وأوّل من عمل لها الرخام المنصور[3].

وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات، فلمّا ظهر الماء بمكّة، نظرت جرهم إلى تعكف الطير فاتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبي نزولاً في ذلك المكان، قد ظهر الماء لهما، فقالوا لها: من أنت، وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ قالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرحمن، وهذا ابنه أمره الله أن ينزلنا هاهنا، فقالوا: أتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكما؟ فقالت: حتى أسأل إبراهيم عليه السلام، فزارها إبراهيم في اليوم الثالث، فقالت: يا خليل الله إن هاهنا قوم من جرهم يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في ذلك؟ قال: نعم فأذنت هاجر لجرهم فنزلوا بالقرب منهما، وضربوا خيامهم وأنست هاجر وإسماعيل بهم.

ووهب لإسماعيل كل منهم شاة وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يتعيشان بها، فلمّا بلغ

---

(١) وفيه أنه دخل مكة عام الفتح من كداء ودخل في العمرة من كدى، وكداء بالفتح والمد: الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وهو المعلا، وكدى بالضم والقصر الثنية السفلى مما يلي باب العمرة، وأما كدي بالضم وتشديد الياء فهو موضع بأسفل مكة: النهاية: ١٥٦/٤، باب الكاف مع الدال.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٧.

(٣) معجم البلدان: ١٤٨/٣.

إسماعيل مبلغ الرجال، تزوج منهم امرأة، وماتت هاجر، فروي في الفقيه أنّه دفنها في الحجر وحجر عليها لئلا يوطأ قبرها[١].

ثم أن إسماعيل طلق زوجته وتزوج أخرى من جرهم، وقدم أبوه إليه، وبنا الكعبة ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فوضعه إبراهيم في موضعه من البيت وخرج إلى منى حاجّاً وقضى نسكه ورجعا إلى مكّة فطاف في البيت سبعاً ثم انطلقا فلمّا صار في المسعى قال إبراهيم لإسماعيل: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ في الموسم عامي هذا فانظر ماذا ترى من أمر خالق الورى: ﴿**قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ**﴾[٢]، فلمّا فرغا من سعيهما انطلق به إبراهيم إلى منى وذلك يوم النحر فلمّا انتهى به إلى الجمرة الوسطى وأضجعه لجنبه الأيسر وأخذ المدية[٣] ليذبحه بها، نودي ﴿**أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا**﴾ وصبرت على البلوى وفضلّت على أهل الدنيا. وفدى إسماعيل بكبش عظيم هبط من جنّة النعيم فذبحه إبراهيم وتصدّق بلحمه على المساكين.

وأرسل الله تعالى بعد ذلك إسماعيل إلى قبائل اليمن والعماليق ثم توفّي بمكّة وعمره مائة وسبع وثلاثون سنة.

ودفن عند أمّه هاجر بالحجر بعد وفات أبيه إبراهيم بثمان وأربعين سنة وكان له اثني عشر ولداً منهم من عمود النسب المحمّدي قيدار جد المصطفى المختار.

فصل
في أيام إسحاق عليه السلام

وأمه سارة بنت هاران عمّ إبراهيم، حملت به من إبراهيم في الليلة التي خسف الله فيها بقوم لوط، وعمرها تسعون سنة، وعمر إبراهيم مائة سنة، ووضعته ليلة الجمعة يوم عاشوراء، وله نور شعشعاني.

---

(١) الكافي: ٤/٢١٠.

(٢) سورة الصافات: ١٠٢.

(٣) المدية: الشفرة ـ الصحاح ٦: ٢٤٩٠.

فلمّا سقط من بطن أمّه خرّ لله ساجداً ثم استوى قاعداً ورفع يديه إلى السماء بالثناء لله والتوحيد، وذهب بعض إلى أنّ الذبيح إسحاق، وإنّ ذبحه كان على ميلين من إيليا وهو بيت المقدس، وقيل: بين مدين والطور.

وفي مجمع البيان: إنّ إبراهيم رأى في المنام أن يذبح ابنه إسحاق، وكان قد حجّ بوالدته سارة وأهله. فلمّا انتهى إلى منى رمى الجمرة هو وأهله، وأمر سارة فزارت البيت، واحتبس إسحاق. فانطلق به إلى موضع الجمرة الوسطى، واستشاره في نفسه، فأمره أن يمضي ما أمر الله به، وسلّما لأمر الله. فأقبل شيخ فقال: يا إبراهيم ما تريد من هذا الغلام الذي لم يعص الله طرفة عين قط؟ قال: ربّي أمرني بذلك، قال: ربّك ينهاك عن ذلك، وإنمّا أمرك بهذا الشيطان، فقال: لا والله.

فلمّا عزم على الذبح، لحق الشيخ وهو إبليس بأُم الغلام حين زارت البيت، فقال لها: ما شيخ رأيته بمنى؟ قالت: ذاك بعلي، قال: فوصيف رأيته معه؟ قالت: ذاك ابني، قال: فإنّي رأيته قد أضجعه وأخذ المدية ليذبحه، قالت: كذبت! إبراهيم لم يذبح ابنه وهو أرحم الناس، قال: فورب السماء والأرض وربّ هذه الكعبة قد رأيته كذلك، قالت: ولم؟ قال: زعم أنّ ربّه أمره بذلك، قالت: حق له أن يطيع ربّه.

فوقع في نفسها أنّه قد أمر في ابنها بأمر، فلمّا قضت منسكها أسرعت في الوادي راجعة إلى منى، واضعة يدها على رأسها، وهي تقول: يا ربّ لا تؤاخذني بما عملت بأم إسماعيل! ولمّا جاءت سارة، واختبرت الخبر، فأتت إلى ابنها تنظر، فرأت أثر السكين في حلقه، ففزعت واشتكت، وكان بدو مرضها الذي قبضت فيه[١].

وقال ابن بابويه في الفقيه: الذبيح إسماعيل، لكنّ إسحاق لمّا ولد بعد ذلك، تمنّى أن يكون هو الذبيح، فسماه الله تعالى بين الملائكة ذبيحاً، لتمنيه لذلك[٢].

وذكر أنّ إسحاق تزوّج بابنة عمه لوط، واسمها: رباب، فحملت منه بولدين بعد مضيّ ثمانين سنة من عمره، فاختبرته بحملها، فقال لها: لا تعجبين من ذلك لأنّي رأيت في أوّل عمري في المنام كأنّ خرج من ظهري شجرة عظيمة خضراء لها أغصان وفروع، كل واحد على لون، فقيل لي في المنام، هذه الأغصان أولادك الأنبياء، فقالت: أنّهما اثنان لأنّهما يتضاربان في بطني، فقال: يكون خيراً إن شاء الله، فولدت له العيص ويعقوب، وهو إسرائيل وسمي يعقوب لأنّه أخذ يعقب أخاه العيص، أي: ولد بعده.

---

(١) تفسير مجمع البيان ٣٢٥/٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣٦٨/٤.

وتوفّي إسحاق بالشام وعمره قد بلغ مائة وثلاثين سنة، ودفن عند أبيه، وجميع الأنبياء الذين كانوا بعد إبراهيم من ولد إسحاق، ولم يبعث من ولد إسماعيل إلّا محمّداً صلى الله عليه وآله.

فصل
في أيام يعقوب ويوسف عليهما السلام

ويعقوب هو إسرائيل، ومعناه: عبدالله لأنّ إسر هو: عبد وإيل هو الله، وقيل أسر جنّياً اسمه: إيل، وذلك أنّ يعقوب كان يخدم بيت المقدس وينصرف بالمفتاح، وإذا جاء الصباح يجد الشموع كلّها مطفية، فكمن له ليلة في البيت المقدس، وأمر خادمه بغلق الباب، فجاء إيل فطفى بعض الشمع، فأسره يعقوب فسمّي إسرائيل لأسره الجنيّ الذي اسمه: إيل.

وسمّي يعقوب لمّا تقدم، وتزوج يعقوب ليا بنت لايان بن بتويل بن ناحور أخو إبراهيم، فولدت له روبيل وشمعون ولاوي ويهودا، ثم تزوّج عليها أُختها راحيل، ولم يكن الجمع حراماً بدليل قوله تعالى: ﴿**وان تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾[١]، فولدت له يوسف وبنيامين، وولد له من سريتين وهما زلفة وبلهة ستة أولاد أُخر ساخر وزبولون قبل يوسف وأخيه وبعدهما دان يعلوا وكاد وجادوا هؤلاء الإثني عشر آباء الأسباط[٢].

ولمّا كان ليعقوب من العمر أحدى وتسعون سنة ولد له يوسف، فلمّا بلغ ثمان عشر سنة كان فراقه ليعقوب، وكانت مدة الفراق إحدى وعشرين سنة، ثم اجتمعا بمصر مدة ست عشر سنة، أو أربع وعشرين سنة.

وكان سبب الفراق عن قول ابن عباس وغيره، ونطق به القرآن: إنّ يوسف عليه السلام رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر[٣]، أحد عشر كوكباً والشمس والقمر نزلن من السماء فسجدن له، فقال: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[٤]، ففهم يعقوب من رؤياه، إنّ الله يصطفيه لرسالته ويفوقه على أخوته فخاف عليه حسدهم، فقال: ﴿**يَـابُنَيَّ لاَ تَـقْصُصْ**

---

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) اختلفت كلمات المفسرين والمؤرخين في ضبط أسماء أولاد يعقوب ولا يخلو الكل من التصحيف. وفي الكشاف وتفسير البيضاوي والنيسابوري: دان ونتفالي وجاد واشر.

(٣) تفسير مجمع البيان ٣٥٩/٥، والبغوي في تفسيره: ٢١٣/٤.

(٤) سورة يوسف: ٤.

رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾[١]، قيل: فلم يكتم يوسف رؤياه وقصها على إخوته، وقيل: أخبرتهم بذلك أُخت لهم.

فقالوا: **﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾**[٢]، أي تائبين إلى الله.

فاحتالوا على يعقوب وذهبوا بيوسف إلى الجبّ، وهو: بئر بيت المقدس أو بأرض الأردن أو بئر مصر ومدين أو على ثلاث فراسخ من مقام يعقوب.

روي أنّهم لمّا برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال: يهودا أما عاهدتموني أن لا تقتلوه، فأتوا به إلى البئر فدلوه فيها، فعلق بشفيرها فربطوا يديه، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا أخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى به، فقالوا: أدع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر أن يلبسوك ويؤنسوك، فلمّا بلغ نصفها ألقوه، وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها، فقام عليها يبكي، فجاءه جبرئيل فقال له: يا غلام أتحب أن تخرج من هذا الجب، قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قال قل: «اللّهم إني أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلّا أنت بديع السماوات والأرض، ياذ الجلال والأكرام أن تصلي على محمّد وآل محمّد، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً»[٣].

وأتاه بالوحي كما قال تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾**[٤]، إنّك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم، وذلك إشارة إلى ما قال لهم: بمصر حين دخلوا عليه ممتارين، فعرفهم وهم له منكرون.

وجاءت سيّارة يسيرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجب، فأرسلوا واردهم الذي يرد الماء ويستقي لهم، وكان مالك بن دعر الخزاعي، فأدلى دلوه في الجب ليملأها، فتدلى بها يوسف، فلمّا رآه قال: يا بشرى غلام هذا! بشارة لنفسه أو لقومه، وقيل: هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه، فأخرجوه وأسروه بضاعة، أي: اخفوه الوارد وأصحابه من سائر الرفقة متاعاً للتجارة، وقيل: الضمير لأخوة يوسف في ذلك أنّ يهودا كان يأتيه كل يوم بالطعام، فأتاه يومئذٍ فلم يجده فيها، فأخبر إخوته فأتوا السيّارة، فقالوا: هذا غلامنا أبق منّا فاشتروه من أخوته بثمن بخس، قيل:

---

(١) سورة يوسف: ٥.

(٢) سورة يوسف: ٩.

(٣) مجمع البيان: ٣٧٣/٥.

(٤) سورة يوسف: ١٥.

كان عشرين درهماً، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه.

فباعه الذي اشتراه من عزيز مصر، الذي كان على خزائن مصر واسمه: قطفير أو إطفير، وكان الملك يومئذٍ الريّان بن الوليد العمليقي.

روي أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشر سنة، ولبث في منزله ثلاث عشر سنة، واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاثة وثلاثين، فآمن به الريان ومات في حياته، وتوفي يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة.

﴿**وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ**﴾[1]، واسمها: راعيل أو زليخا ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً**﴾، أي نتبناه وكان عقيماً، وتفرس الرشد فيه، ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: يا أبت استأجره، وأبو بكر لما استخلف عمر، والحق أنّ الثالث رسول الله ﷺ؛ لمّا قال: أنا مدينة العلم وعليّ بابها.

﴿**وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾، أي طلبت منه امرأة العزيز أن يواقعها ﴿**وَغَلَّقَتِ ٱلأَبْوَابَ**﴾، عليهما باباً بعد باب، وكانت سبعة أبواب ﴿**وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾، أي أقبل وبادر: تهيأت لك ﴿**قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي**﴾، أي أعوذ بالله من ذلك أنّه خالقي فلا أعصيه، وقيل الضمير في أنه عائد إلى زوجها: أي إنّه سيدي ﴿**أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾، فلا أخونه ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**﴾ همّت بالمعصية، وهمّ بدفعها، وقيل: قصدت مخالطته وقصد مخالطتها ﴿**لَوْلاَ أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾، في قبح الزنا وسوء مغبته، وقيل: رأى جبرئيل، وقيل: تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله[2]، وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! ﴿**وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ**﴾، أي مسابقاً إليه يوسف هارباً وامرأة العزيز طالبته فجذبته من ورائه، ﴿**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ**﴾، أي صادفا زوجها جالساً عنده، فلمّا رأته ﴿**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ تبرئة لساحتها عند زوجها، وتغرية على يوسف ﴿**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**﴾، قال: ذلك دفعاً لما عرضه له من السجن أو العذاب.

﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا**﴾، صبيّ في المهد، قيل: هو ابن عمها، وقيل: هو ابن خالها، فأنطقه الله لفصل القضاء، فقال: أيّها العزيز انظر إلى يوسف ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ**﴾، لأنّه يدلّ على أنّها قدّته بالدفع عن نفسها ﴿**وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ**﴾، لأنّه يدل عى أنّها الطالبة له وهو الهارب عنها، ﴿**فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن**

(١) سورة يوسف: ٢١.

(٢) تفسير غريب القرآن: ٥٣٢.

دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، فانّ كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب والخطاب لها ولأمثالها وقال: ليوسف **﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾**، أي اكتمه ولا تذكره لأحد.

﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أيّتها المرأة، فكتمه يوسف وأذاعه الله في المصر.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي في مصر وكنّ خمساً زوجة الحاجب، والسّاقي، والجنّاز، والسجّان، وصاحب الدواب، **﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾**، ليفجر بها **﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾**، فدعتهن للضيافة، وهيّأت لهن طعاماً ومجلساً، قيل: دعت أربعين امرأة فيهن الخمس، ثم أتتهن بأترج وفاكهة **﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾**، لقطع الفواكه، وقالت ليوسف: **﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾**، فخرج وهو كالبدر في تمامه، والغصن في قوامها **﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾** أي عظّمنه وهبن حسنه الفائق، وقدّه الرائق، وحضن له من شدة الشبق **﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾**، بأن جرحنها بالسكاكين! من فرط الدهشة **﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَراً إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**.

فإنّ الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة **﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾**، أي في الافتتان به، فقد أصابكنّ من رؤيته ذهاب العقل **﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ﴾**، أي فامتنع طالباً للعصمة أقرت لهنّ؛ حين عرفت أنّهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته، قيل: إنهنّ قلن له أطع مولاتك، واقض حاجتها فإنّها المظلومة وأنت الظالم.

قال علي ابن الحسين عليه السلام: «إنّ النسّوة لمّا خرجن من عندها، أرسلت كل واحدة منهنّ إلى يوسف سراً من صاحبتها، تسأله الزيارة، فأبى عليهنّ»[1].

ثم بدا لهم من بعدما رأوا آلايات، أي ثم ظهر للعزيز وأهله بعدما رأوا الشهادة الدالّة على براءة يوسف، كشهادة الصبيّ، وقدّ القميص، وقطع النساء أيديهنّ، واستعصامه عنهنّ ليسجننّه حتى حين، وذلك إنّها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تبصّر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنّه المجرم فيسجنه.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[2] **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾**[3]، من عبيد الملك الريان شرّابه وخبّازه، أرسل إليهما ملك الروم أموالاً ليجعلا في طعام الريان وشرابه سمّا، فقبله

---

(١) بحار الأنوار: ١٢/٢٧٦، تفسير الميزان: ١١/١٦٥.

(٢) سورة يوسف: ٤٢.

(٣) سورة يوسف: ٣٦.

الخبّاز ولم يقبله السّاقي، وأخبر بذلك الريان فسجنه، فبقيا في السجن ستة أو ثلاثة أيام، فرأى كل واحد منهما رؤيا في منامه، فقصّا ذلك على يوسف، قال أحدهما: وهو صاحب الشراب ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ ٱلأَخَرُ**﴾، وهو الخبّاز ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ**﴾، فعبّر لهما الرؤيتين بأن قال: ﴿**أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا ٱلأَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**﴾. فلم يمض من الزمان إلّا قليلاً حتى جاء أعوان الملك، وذهبوا بالخبّاز فصلبوه، حتى أكل الطير من رأسه، ومكث الساقي في السجن ثلاثة أيّام، فجاء رسول الملك فأخرجه من السجن وخلع عليه. وقال له يوسف عند خروجه: ﴿**ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾، أي اذكر حالي عند ربّك ـ وهو الملك ـ كي يخلّصني، قيل فجاء جبرئيل وقال: يا يوسف إنّ الله تعالى يقول: من ألقى حبّك في قلب يعقوب؟ ومن أنجاك من كيد إخوتك؟ ومن حفظك في قعر الجبّ؟ ومن حبّ زليخا فيك، ومن أنجاك من كيدها؟ وفي الجميع يقول: ربّي، فقال: إنّ الربّ أحسن إليك هذا الإحسان فأيّ عجز رأيت منه حتى استغثت بغيره! يا يوسف إنّ جدّك إبراهيم لم يستغث في حين ألقي في النار، حتى قلت له: هل لك من حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا. وجدّك إسماعيل لم يستغث من أبيه إبراهيم وقت القربان، ولكن قال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين. وأنت لم تصبر في السجن ثلاثة أيام حتى استغثت بالريّان، وتركت استغاثة الدّيان. فخر يوسف ساجداً وبكى أربعين يوماً، فجاء جبرئيل فقال: يا يوسف إنّ الله تعالى يقول: قد عفوت؛ ولكن حكمت بأن تسكن السجن سبع سنين بزلة واحدة ﴿**فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع.

فلمّا دنا فرجه رأى الملك الريان في نومه سبع بقرات سمان، وسبع مهازيل، وسبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأُخر يابسات قد أدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فطلب المعبرين وقصّ عليهم المنام، فقالوا: أضغاث أحلام ومنامات كاذبة لا يصح تأويلها.

فظن صاحب الشراب وتذكر يوسف وقال: ﴿**أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ**﴾، إلى يوسف فأرسل إليه، فذكر له المنام فقال له يوسف: ﴿**ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**﴾، كره يوسف أن يخرج ويراه الملك بعين مشكوك في أمره متّهم بفاحشة، حتى يبيّن براءة مما قذف به.

فلمّا حصحص الحقّ ﴿**وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾، أي أجعله خالصاً لها أرجع إليه في تدبير مملكتي، فجاءوا به إلى الملك، ﴿**فَلَمَّا كَلَّمَهُ**﴾ وعرّف فضله وأمانته وعقله، ﴿**قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾.

قال وهب: وكان الملك يتكلّم بسبعين لساناً، فلمّا كلم يوسف أجابه يوسف بتلك الألسن،

فأُعجب الملك ما رأى منه، فقال له: إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي منك، فقال يوسف: نعم أيّها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب؛ كشف لك عنهن النيل، ثم غار ماء النيل، فخرجت سبع بقرات عجاف، شعث غبر فافترسن السمان، ورأيت سبع سنابل خضر وسبع سود في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى، وهبّت ريح فذرّت اليابسات على الخضر فاشتعلت فيهن النار، فقال الملك: والله ما رؤياي بأعجب مما سمعته منك أيها الصديق.

فدعاه يوسف إلى الإيمان فآمن به، وأجلسه على السرير، وفوّض إليه أمره، فقال له يوسف: **﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾**.

وكان قد توفي العزيز وزير الملك في تلك الليالي، فنصب الملك يوسف منصبه، وزوّج راعيل امرأة العزيز منه فوجدها عذراء، فولد له منها إفرائيم وميشا، وقيل أنّها بعد موت زوجها احتاجت حتى سألت الناس، فأقبل يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً، فقال لها يوسف: أنت التي فعلت بي كذا وكذا، فقالت: يا نبيّ الله، لا تلمني فإنّي بليت بحبّك، ولم يخلق الله لك في الدنيا نظيراً، وبليت بزوج عنّين، ولم يكن بمصر امرأة أجمل منّي، فسأل الله فردّ عليها شبابها وتزوّجها وهي بكر.

وروي أنّه لمّا استوزره الملك أقام العدل، واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة، وعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما.

وتوجّه الناس إليه للميرة فباعهم الطعام، أوّلاً بالدّراهم والدّنانير، حتى لم يبق شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدوابّ والأسباب، ثم بالضيّاع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، ثم عرض الأمر على الملك، فقال الرأي رأيك فاعتقهم، وردّ عليهم أموالهم.

وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد، فأرسل يعقوب بنيه إليه للميرة ما عدا بنيامين، فلمّا دنوا من مصر جاء جبرئيل إلى يوسف، وقال له: جاءوا أخوتك إليك فكيف تعاملهم؟ فقال: إنّهم آذوني وقصدوا قتلي فما ترى؟ قال: العفو والتجاوز لأنّهم أتوك محتاجين، فلمّا دخلوا عليه قال لهم: من أنتم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله نحن بنو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم، وإنّه لمحزون قال: فلعل حزنه من قبل سفهكم وجهلكم؟ قالوا: لا ، ولكنّه كان له إبن فأكله الذئب، فقال: ما حمل أباكم لم يحبس واحداً ليستأنس به؟ قالوا: قد فعل، حبس أخا الذي أكله الذئب من أمّه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، **﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾**، قال فاتركوا بعضكم عندي رهينة، لتأتوني بأخٍ لكم من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا فأصابت القرعة، شمعون فتركوه عندهم.

﴿وَقَالَ ـ يوسف ـ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾، أي يعرفون حقّ

ردّها، وكانت نعالاً وأدماً. وإنّما فعل ذلك توسّعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به.

فلمّا دخلوا على يعقوب سلمّوا عليه سلاماً ضعيفاً، فقال: يا بني ما لكم تسلّمون سلاماً ضعيفاً؟ ومالي لا أسمع فيكم صوت شمعون؟ وكانت قد أبيضت عيناه من الحزن على يوسف، فقالوا: يا أبانا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً، ولم ير الناس مثله حكماً وعلماً وخشوعاً وسكينةً ووقاراً، ولئن كان لك شبه فإنّه يشبهك، ولكنّا أهل بيت خلقنا للبلاء، والله اتهمنا وزعم أنّه لا يصدقنا حتى ترسل معنا أخانا بنيامين برسالة منك إليه، يخبره عن حزنك وما الذي أحزنك، وعن سرعة الشيب وذهاب بصرك **﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾**، وقد قلتم فيه **﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**، ثم ضيعتموه، **﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾**، يرحم ضعفي وكبر سنّي ويردّه عليّ.

فروي أنّ الله سبحانه قال: «فبعزتي لأردّنهما عليك بعدما توكّلت عليّ»[1]، فدفعه إليهم ومضوا به، ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه، أي ضمّه معه على المائدة، أو في المنزل.

وروي أنهم لمّا دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا الذي أمرتنا بأن نأتيك به، فقال: أحسنتم، ثم أنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم، وقال لهم: ليجلس كل ابن أم على مائدة، فجلسوا فبقي بنيامين وحيداً فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لجلس معي، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال: إنّك قلت ليجلس كل ابن أم على مائدة فليس لي فيهم ابن أم، قال يوسف: فما كان لك ابن أم، قال: بلى، قال: فما فعل به، قال: زعم هؤلاء أنّ الذئب أكله، قال: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، قال: من يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، قال: إنّي أنا أخوك، أي مكان أخيك الهالك ـ ولم يعترف له بالنسبة ـ فأجلسه معه على مائدته، وأنزله معه في منزله.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي قضى حاجتهم وأخذوا ميرتهم، **﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾** من أمّه وأبيه، وهي المشربة التي كان يشرب بها الملك، وكانت من فضة مرصّعة بالجواهر فجعلت صاعاً، **﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾** أي نادى مناد **﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾**، وإنّما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره، أو أنّكم لسارقون يوسف من أبيه، فلمّا استخرجت السقاية من وعاء أخيه، أخذه منهم ولقولهم **﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ﴾**، نسترقه بالسرقة وهكذا كان شرع يعقوب فلمّا أخذ أخاه منهم **﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا**

---

(١) تفسير مجمع البيان ٥/٢٤٨.

ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ... * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾، ولم يقل من سرق، تحرزاً من الكذب، فإن أخذ غيره ظلم على فتواكم، أنّ **﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾**. **﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾** ورأوا شدّته في أمره، **﴿خَلَصُوا نَجِيّاً﴾**، أي خلا بعضهم ببعض يتناجون في أخذ أخيهم لا يختلط بهم أحد غيرهم، **﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾** في السنّ وهو روبيل أو في الرأي وهو شمعون، وقيل يهودا، **﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾**، أي فلن أفارق الأرض؛ وهي أرض مصر حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه، أو يحكم الله لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم.

روي إنّهم كلّموا العزيز في إخلائه، فقال روبيل: أيّها العزيز والله لتتركنا أو لأصيحنّ صيحة تضع منها الحوامل ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فمسّه، وكان بني يعقوب إذا غضب أحدهم فمسّه الآخر ذهب غيضه، فقال روبيل: من هذا؟ إنّ في هذا البلد لبزر من بزر يعقوب[1]!

ثم رجعوا إلى أبيهم وبقي كبيرهم وبنيامين عند يوسف، فلمّا أخبروا أباهم بالقصّة، **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِم جَمِيعاً﴾**، بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي قال: فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي.

فروي أنّ جبرئيل أتاه، وقال يا يعقوب: إنّ الله يقرء عليك السلام، ويقول: أبشر وليفرح قلبك، وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، فعندها قال: **﴿يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾** بالله.

روي أنّ يعقوب كتب معهم كتاباً هو: بسم الله الرحمن الرحيم إلى عزيز مصر مظهر العدل، موفي الكيل، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمان صاحب نمرود، الذي جمع النار ليحرقه بها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وأنجاه منها، أخبرك أيّها العزيز؛ إنّا أهل بيت لم يزل البلاء فينا، ليبلونا الله تعالى عند السراء والضرّاء، وإنّ مصائب تتابعت عليّ من عشرين سنة، أوّلها: إنّه كان لي ابن سميته يوسف، وكان سروري به من بين ولدي وقرّة عيني وثمرة فؤادي، واخوته من غير أُمّه سألوني أن أبعثه معهم يرتع ويلعب، فبعثتهم بكرة فجاؤني عشيّاً يبكوني **﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾**، وزعموا أنّ الذئب أكله، فاشتد حزني لفقده، وكثر عند فراقه بكائي حتى ابيضت

---

(١) جامع البيان ١٣/٤٢، تفسير البيضاوي: ٣/٣٠٣.

عيناي من الحزن، وإنّه كان له أخ فكنت به معجباً، وكان لي أنيس وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري، فسكن بعض ما أجد في صدري، وإنّ إخوته ذكروا لي إنّك سألتهم عنه وأمرتهم أن يأتوك به، وإن لم يأتوك به منعتهم الميرة، فبعثته معهم ليمتاروا لنا طعاماً، فرجعوا إليّ وليس هو معهم، وذكروا إنّه سرق مكيال الملك، ونحن أهل بيت لا نسرق، وقد حبسته عني وفجعتني به، وقد اشتد لفرقاه حزني حتى تقوس لذلك ظهري، وعظمت به مصيبتي مع مصائب تتابعت عليّ، فمنّ عليّ بتخلية سبيله وإطلاقه من حبسك، وعجّل سراح آل إبراهيم.

فمضوا بالكتاب إلى يوسف **﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾**، أي رديئة أو قليلة، قيل: كانت دراهم زيفاً، وقيل: سمناً وصوفاً، **﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾** بردّ أخينا، وهذا كتاب أبينا إليك يسألك تخلية سبيله فمنّ علينا به، فأخذ يوسف الكتاب وقبله ووضعه على عينه وبكى حتى بلّت دموعه قميصه.

ثم أقبل عليهم وقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه! إذ أنتم جاهلون قبحه، وتبسّم يوسف ورفع التاج عن رأسه فعرفوه، فعندها **﴿قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾**، بالسلامة والكرامة **﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾**، بالعلم والحلم وحسن الصورة وكمال السيرة، **﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾**، فيما كان منّا إليك.

﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ * ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فقال يهودا: أنا الذي ذهبت وهو ملطّخ بالدّم وأخبرته أنّ الذئب أكله، قال: فاذهب به وأخبره أنّه حي وأفرحه كما أحزنته، فخرج حافياً حتى أتاه وألقاه على وجهه، فعاد إليه بصره بعد العمى، وقوّته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن، فقال: له أتيتك به هوّن الله عليك سكرات الموت، وكانت المسافة ما بينهما ثمانين فرسخاً، وكان معه سبعة أرغف فلم يستوفيهم حتى أتى أباه.

ومن كرم يوسف عليه السلام أنّه لمّا عرفوه، أرسلوا إليه أنّك تدعونا بالغداة والعشي الى الطعام ونحن نستحي لما فرط منّا فيك، فقال: إنّ أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون سبحان من بلغ من عبد بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرّفت بكم وعظّمت في عيونهم، حيث علموا أنّكم أخوتي وأنّي من حفدة إبراهيم.

ثم وجّه إلى أبيه رواحل وأموالاً ليتجهّز إليه بمن معه وجميع ولده.

وأخوة يوسف جاؤا إليه ثلاث مرات، في الأولى محتاجين سائلين فأكرمهم وأعطاهم ميرتهم،

وقال: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم، وفي الثانية متكبّرين فرحين إذ جاؤا بأخيهم فرجعوا مغمومين لإخذه منهم، وفي الثالثة بالإبتهال والتضرع، فرجعوا مسرورين فرحين إذ عرفوا يوسف، فقال لهم يعقوب: تحملوا إلى يوسف من يومكم هذا بأهلكم أجمعين، وساروا إليه ويعقوب وزوجته معهم فحثوا السير فرحاً وسروراً تسعة أيام فلمّا دنوا من مصر استقبلهم يوسف والملك بأهل مصر.

وفي الحديث إنّ يعقوب ترجل ليوسف وعانقه ولم يترجل يوسف ليعقوب فأنكر عليه جبرئيل، ولعل يوسف ظنّ إنّ نزوله سبباً يصير سبباً لنزول الملك وخفّته، وعلم أنّ يعقوب لا ينكر عليه.

وكان أولاد يعقوب الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى لمّا أسرى بهم منها خوفاً من فرعون ستمائة ألف وخمسمائة وبضعاً وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى.

واعتنق يوسف أباه وخالته كما قال الله تعالى ﴿**آوَي إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ**﴾ من القحط وأصناف المكاره ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾، أي على سرير ملكه.

ثم دخل منزله ولبس ثياب العز والملك فلمّا رأوه ﴿**خَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾، تحيّة وتكرمة ليوسف أو شكراً لله تعالى، فقال يوسف عند ذلك: ﴿**يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ**﴾، التي رأيتها أيّام الصبى لمّا قال: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾، ﴿**قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ**﴾ من بادية فلسطين ﴿**مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**﴾، ولم يذكر الجب لئلا يكون تثريباً عليهم، لقوله: ﴿**لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ**﴾، ﴿**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾، الذي يفعل كل شيء في وقته على جهة الحكمة ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ** ـ أي بعض الملك ـ **وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾.

روي إنّ يعقوب أقام بمصر مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، ثم توفّي وأوصى أن يدفن بالشام الى جنب أبيه وجدّه، وذهب به يوسف ودفنه عندهما، ثم عاد الى مصر وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثمّ اشتاقت نفسه الى الملك المخلد فتمنّى الموت فتوفّاه الله تعالى طيباً طاهراً.

فتخاصم أهل مصر في مدفنه حتى همّوا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعاً فيه، وبقي إلى أن أوحى الله إلى موسى أن أخرج عظام يوسف من مصر بعد أربعمائة سنة تقريباً.

فسأل عمّن يعرف موضعه فأتى بعجوز مقعدة عمياء اسمها زينب، فقال لها: تعرفين موضع قبر يوسف؟ قالت: نعم، قال: فأخبريني بموضعه، فقالت: لا أفعل حتى تطلق رجلي وتعيد إليّ بصري وتردّ شبابي وتجعلني معك في الجنة؛ فدعى الله فأعطاه ما سألت فدلّته فاستخرجه من النيل في صندوقه المرمر، فلمّا استخرجه طلع القمر وحمله معه حين سار بني إسرائيل لحرب العمالقة، فلمّا وقعوا في التّيه ومات موسى فيه، حمله يوشع بن نون الى الشام مع بني إسرائيل لمّا خرج بهم من التّيه بعد ثلاثة أيام من وفاة موسى، ودفنه عند الخليل حسب وصيّته وقيل بالقرب من نابلس في الموضع الذي بيع فيه، فلذلك تحمل أهل الكتاب موتاهم الى الشام، وتحمل المسلمون موتاهم الى بلد فيها نبي أو إمام.

وكان يوسف قد دعا فرعون مصر الملك الريان الى الإيمان فآمن ومات في حياة يوسف، ولم يؤمن المتولي بعده قابوس ابن مصعب من العمالقة، ولمّا قبض يوسف كان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من زوجة العزيز التي اسمها راعيل أو زليخا افرائيم وميثا، وافرائيم هو جد يوشع ابن نون وأبو رحمة امرأة أيوّب.

فصل
في أيام أيّوب عليه السلام

وهو أيوب بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، تزوّج أيوب ليّا بنت يعقوب ورحمة بنت افرائيم بن يوسف، وكانت رحمة في غاية الجمال، وروي إنّها رأت جدّها يوسف في المنام، نزع قميصاً كان عليه فألبسها أيّاه، فقال: يا رحمة، هذا حسني وجمالي قد وهبته لك.

وتنبي أيوب في أيام يعقوب، وكانت له أموال عظيمة بعثه الله تعالى رسولاً إلى قومه، وهم أهل حوران من أعمال دمشق، فلم يخالفه أحد لشرفه وكثرة ماله، فشرع لهم الشرائع وبنى لهم المساجد، وكانت له موائد يصنعها للفقراء والمساكين، وبركة الله تزداد له كل حين.

فحسده إبليس ولم يقدر له على ضرر، وكان إبليس في ذلك الزمان يصعد إلى السماوات السبع، ويحجب من دون العرش، فصعد في زمان أيوب إلى دون العرش، فنودي: يا ملعون ما في قلبك من نعمة أيوب، فقال: يا ربّ! إنّك ذكرته فصلت عليه ملائكتك، وعافيته فقبل عافيتك، ولم تجربه بالبلاء والمصائب، فلو سلطّتني على ماله لرأيته كيف ينساك، فنودي قد سلطتك على ماله لتعلم أنّك كاذب، فانقض من السماوات حتى وقف على الصخرة التي رضخ[1] بها قابيل رأس أخيه

---

(١) رضخ رأسه: رضه ودقه.

هابيل، ورنّ رنّة حتى اجتمع عليه العفاريت المتمردين من المشرق والمغرب، فقالوا: يا أبانا ما دراك ومن دهاك؟ فقال: إنّي مكنّت من فرصة ما تمكنت من مثلها منذ أخرجت آدم من الجنة، وذلك أنّي سلّطت على مال أيوب لأفقره وألهيه عن طاعة الله.

فقال بعضهم: سلّطني على أشجاره فإنّي أتحول ناراً لا أمرّ على شيء إلّا أحرقته وصيّرته رماداً، فسلّطه فتحول ناراً فأحرقها، وقال آخر: سلطني على مواشيه حتى أصيح صيحة تخرج أرواحها، فسلّطه فصاح بها صيحة خرّت ميتة كلّها مع رعاتها. فرأى أهل القرية دخاناً عظيماً وسمعوا صيحة عظيمة ففزعوا فزعاً شديداً.

فأقبل إبليس إلى أيّوب وهو في صلاته، وجعل ينادي: يا أيوب أدركني فأنا الناجي من دون غيري، فما رأيت ناراً أنبلت من السماء فيها دخان، فاحرقت مالك وأصابني نفخة من نفخاتها فأسودّ وجهي وتمعط[1] شعري، وسمعت منادياً ينادي من السماء هذا جزاء من كان مرائياً في عبادته يريد بها الناس دون الله تعالى، وسمعت النار تقول: أنا نار الغضب، أنا نار السخط، فلم يلتفت أيوب إليه، حتى فرغ من صلاته، فقال: يا هذا ليست هي أموالي، وإنّما هي لله تعالى يفعل بها ما يشاء، فمن أنت أيّها العبد؟ كأنّك ممن أخرجهم الله تعالى من رحمته، وسلب عنك نعمته، ولو علم فيك خيراً لأخبرني بك، فسر عني مذموماً مدحوراً، فقال: صدق من قال لا تخدموا المتكبرين، يا أيوب الآن علمت أنّك مرائي في صلواتك، ألم أكن لك عبداً حريصاً على أموالك، فما جزائي منك إلّا أن تعيرني بما نالني من وهج الحريق، فلم يكلّمه أيوب، وأقبل على صلاته.

فانصرف عنه إبليس خاسئاً ذليلاً، وصعد إلى السماء فنودي يا ملعون كيف وجدت صبر عبدي على البلاء؟ فقال: إلهي إنّك متعته بعافية أولاده، وزخارف دوره، فلو سلّطتني على ذلك لرأيته ينساك، فنودي أذهب فقد سلّطتك على أولاده ودوره، فانقض على قصر أيوب الذي فيه أولاده فزلزله عليهم، وأقبل إلى أيّوب، وقال: يا أيّوب لو رأيت قصورك كيف صارت لأولادك قبوراً، وترابها لهم خيوطاً، وثيابها لهم أكفاناً، ولو أبصرت كيف تغيّرت تلك الوجوه الحسان؟ لبكيت عليهم وأكثرت عليهم الأحزان، ولم يزل يعدد عليه بافتجاع وانكسار وانتحاب، حتى بكى أيّوب وساعده على البكاء، فندم أيوب على بكائه، واستغفر الله وخرّ ساجداً، ثم أقبل على إبليس، فقال له: انصرف عنّي خائباً ذليلاً مدحوراً، فإنّ أولادي كانوا وديعة الله تعالى عندي، ولابدّ من اللحوق بهم.

---

(١) تمعط: تساقط.

وانصرف إبليس خائباً، وصعد إلى السماء فنودي يا ملعون كيف رأيت صبر عبدي أيوب وتوبته واستغفاره بعد بكائه؟ فقال: إلهي إنّك متعته بعافية بدنه وفيها عوض عن المال والولد، فلو سلّطتني على بدنه لرأيت كيف ينسى ذكرك ويترك شكرك، فنودي يا ملعون أذهب فقد سلطتك على بدنه ما خلا قلبه وعينيه ولسانه وأذنيه اللآتي لا يفتر بها عن عبادتي، فانقض إبليس فوجد أيوب في مسجده ساجداً لله تعالى، فنفخ في فيه ومنخريه ناراً فأسود وجه أيوب، وأبتلي بعظيم البلاء، حتى قيل أنّه دوّد وبقي مرمياً على مزبلة، لا يمكن أن يشم ريحه أحد.

فقالت زوجته رحمة: يا أيوب ذهب المال والولد، وبدا الضرّ في الجسد، فقال: إنّ الله تعالى ابتلى النبيين قبلي فصبروا، وإنّ الله وعد الصابرين خيراً.

قال ابن عباس: فلبث أيوب في بلائه ثمانية عشرة سنة، وقيل: سبع سنين وسبعة أشهر وسبع ساعات.

فروي أنّ زوجته رحمة قالت له يوماً: لو دعوت الله تعالى، فقال: كم كانت مدة الرخاء، فقالت: ثمانين سنة، فقال: «استحيي من الله أن أدعوه، وما بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي»[1].

وكانت زوجته رحمة تخدمه فرآها إبليس وقال لها: لأيّ شيء أصابتكم هذه المصيبة، قالت: إنّ الله أراد أن يختبر صبرنا على بلائه، قال: بئسما قلتي، ولكنّ إله السماء هو الله وإله الأرض أنا، فاردتكم لنفسي فعبدتم إله السماء ولم تعبدوني، ففعلت بكم ما فعلت، فاسجدي لي وأنا أرد عليكم أموالكم وأولادكم، وأراها أيّاها.

فاستأذنت أيوب في ذلك، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ويحك يا رحمة إنّه ليس مع الله إلهاً آخر، والذي أماته الله لا يقدر أحداً أن يحيه، وغضب عليها وحلف ليضربها مائة جلدة.

و﴿ **نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾، وصف ربه بغاية الرحم، فعافاه بأن أتاه جبرئيل وقال: ﴿ **ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾، فركض أيوب الأرض برجليه وإذا بعين ماء قد نبعت من تحت قدميه، فشرب منها واغتسل فيها، فخرج وجهه كالقمر ليلة البدر، فناوله جبرئيل حلّتين اتّزر بواحدة وارتدى بالأخرى.

وقام يصلّي فأقبلت زوجته رحمة مهمومة باكية، وكانت قد خرجت تطلب له قوتاً من القرية، فلم يتفق لها، فلمّا وصلت إلى الموضع الذي تركته فيه، رأت نضافة المكان بأن أرسل الله تعالى ريحاً أمام المطر فكنسته، وأنبت الله تعالى فيه روضة خضراء، ونظرت لرجل يصلّي فظنت أنّها أخطأت المكان، فقالت: أيّها المصلّي ألك علم بأيوب المبتلي؟ فإنّي أرى الموضع متغيراً ولقد

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/١٠٤، شرح الكشاف: ٥٨.

خلّفته هنا ولست أراه، فتبسم أيوب فقال: إذا رأيتيه تعرفيه؟ قالت: إنّك لأشبه الناس به قبل أن يصبه البلاء، فضحك وقال: أنا أيوب، فبادرت واعتنقته وسجدت لله تعالى شكراً.

وردّ الله تعالى على أيوّب ما ذهب من ماله، وأحسن امرأته وأفتاه عزّ وجلّ في يمينه بقوله تعالى: **﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾**[1]، واتاه **﴿أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾** بأن ولد له ست وعشرون ذكراً، وقيل أحيى الله تعالى له ولده، وولد له منهم نوافل، وقيل له: أيّ شيء أشدّ عليك من البلاء؟ فقال: شماتة الأعداء.

وتوّفي أيوب وعمره ثلاثة وتسعون سنة، وبعث الله تعالى ولده بشيراً، وسمّاه ذا الكفل.

فصل
في أيام ذا الكفل عليه السلام

سمّي به لأنّه كفل أخوته، أو أُمته، وكان مقامه بالشام.

واختلف في نبوّته ولقبه، فقيل: فرّ إليه مائة نبي من القتل فآواهم وكفلهم.

وقيل: تكفّل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة.

وقيل: إنّه كان في زمانه ملك يقال له لام بن عاد، تغلب على بلاد الشام، وجعل يؤذي أولاد أيوب.

ثم بعث إلى حزقيل، وكان أكبر أولاد أيوب، إنّكم ضيّقتم علينا بلاد الشام بكثرة مواشيكم، وأُريد أن تعطوني نصف أموالكم، أو تزوجوني بأُختكم تقيّة ـ وكانت ذات حسن وجمال ـ فاختاروا أحدهما، وإلاّ جئت إليكم بخيلي ورجالي، وجعلتكم غنيمة لي. فأجابه حزقيل أمّا الأموال التي في أيدينا فهي صدقات أبينا أيوب للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ولست منهم. وأمّا أُختنا، فلست على ديننا حتى نزوجك بها، وأمّا تخويفك لنا بخيلك ورجلك، فإنّا توكلنا على الله فهو حسبنا ونعم الوكيل.

فلمّا سمع الملك الجواب، جمع جنوده لحربهم، فعلم حزقيل بذلك فاستشار أخوته على الحرب، فقال أخوه بشير: لا أشور عليك بالحرب فإنّي أخاف أن يظفر بنا، لأنّه قويّ ويستأسرنا، ولكن الرأي أن تبعثوا له من الأموال ما سأله، فأبى حزقيل وأحبّ المحاربة، فجمع جيشه والتقى الجمعان واقتتلا قتالاً شديداً، فوقعت الهزيمة على حزقيل واخوته، واحتوى لام ابن عاد على

---

(١) سورة ص: ٤٤.

جميع أموالهم وغنمهم، وأسر من قومهم خلقاً كثيراً، وأسر من جملتهم بشير بن أيوب وهم بقتله، فاغتم حزقيل لذلك غما شديداً.

ثم إنّه جمع مالاً عظيماً ليحمله إلى الملك لام بن عاد ليخلص أخاه منه، فسار إليه بالمال، فبينما هو في طريقه إذ أتاه آتٍ في منامه وقال له: لا تحمل هذا المال ولا تخف على أخيك؛ فإنّه يخلص والملك يؤمن وتكون عاقبته خيراً، فأصبح حزقيل وقصّ رؤياه على أخوته، وأقام في موضعه.

وبلغ ذلك الملك لام بن عاد فبعث إلى حزقيل أن ادفع لي ما حمّلت وإلّا أحرقت أخاك في النّار، فبعث إليه حزقيل إنّي لا أدفع إليك شيئاً فاصنع ما أنت صانع، فغضب لام بن عاد وأمر بإلقاء بشير بن أيوب في النار، فأُلقي فيها فلم تحرقه، فتعجب الملك لام بن عاد من ذلك، ثم قال: يا بني أيوب إنّكم سحرة، فقال بشير: أيّها الملك لسنا بسحرة؛ ولكن كان لنا جدّ يقال له إبراهيم ألقاه النمرود بن كنعان في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ففعل بي كذلك، فوقع ذلك في قلب الملك فأسلم وحسن إسلامه وزوّجوه أختهم، فسمّى الله تعالى بشير بن أيوب ذا الكفل لما كان من كفالته، وجعله رسولاً إلى جميع أهل الشام، وكان بين يديه لام بن عاد يقاتل الكفّار، فلم يزل كذلك حتى مات ذو الكفل، ثم مات بعده لام بن عاد، وتغلّب على بلاد الشام العمالقة إلى أن بعث الله شعيباً.

فصل
في أيام شعيب عليه السلام

وهو شعيب بن ميكائيل بن يسخر بن مدين بن إبراهيم[1]، قيل: كان اسمه يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم[2].

أرسله الله إلى أولاد مدين بن إبراهيم، قال تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾، قيل صاح بهم جبرئيل صيحة فهلكوا عن آخرهم.

(١) تفسير البغوي: ٢٥٦/٣، وهو قول ابن إسحاق.

(٢) الكامل في التاريخ: ١٣٦/١.

وكان شعيب يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته إلى قومه.

وقال قتادة: أرسل الله شعيباً مرتين، إلى مدين مرة، وإلى أصحاب الأيكة أخرى، قال الله تعالى: **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾**[1]، الأيكة: غيضة بقرب مدين تنبت ناعم الشجر، وقيل الأيكة: شجر ملتف، وكان شجرهم الدوم وهو المُقل[2]، وكان يسكن الأيكة طائفة يعبدون تلك الشجرة، فبعث الله إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدين وكان أجنبياً منهم، فلذلك قال: **﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾**، ولم يقل أخوهم شعيب **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾**، على ما اقترحوه بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت أنهارهم، فدخلوا أجواف البيوت فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء، فأنضجهم الحر وأخذ بأنفاسهم، فأظلّتهم سحابة فيها ريح طيبة فتنادوا عليكم بها فخرجوا يتبعونها إلى البريّة، فلمّا اجتمعوا تحتها أمطرت عليهم ناراً فاحترقوا كما يحترق الجراد، **﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**.

وقال الباقر عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى شعيب إنّي معذب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من أشراهم، وستين ألفاً من أخيارهم، فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى إليهم أنّهم داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بكى شعيب عليه السلام لأجل حبّ الله تعالى حتى عمي ثلاث مرات ويرد الله عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى الله إليه يا شعيب إلى متى يكون هذا منك؟ إن يكون خوفاً من النّار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيّدي أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبّك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله إليه إذا كان هذا كذلك فسأخدمك كليمي موسى ابن عمران»[4].

فصل
في أيام موسى وهارون عليهما السلام

وهما من أم واحدة قيل اسمها حنة بالحاء المهملة، وأبوهما عمران بن فاهث بن لاوي بن

(١) سورة الشعراء: ١٧٦.

(٢) تفسير الثعلبي: ٣٤٧/٥.

(٣) الكافي ٥٦/٥، تهذيب الاحكام ١٨١/٦.

(٤) علل الشرائع ٥٧/١.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ.

روي أنّ يوسف ﷺ حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً فقال لهم: إنّ هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب، وإنّما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه: موسى بن عمران، فجعل الرجل منهم يسمي ابنه عمران ويسمي عمران ابنه موسى فما خرج موسى! حتى خرج قبله خمسون موسى من بني إسرائيل، كل يدعي أنّه موسى بن عمران الموعود به.

ورأى فرعون في منامه كأنّ ناراً من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، فهاله ذلك، ودعا السحرة والكهنة فسألهم عن رؤياه فقالوا: إنّه يولد في بني إسرائيل غلام يكون على يديه هلاكك، وزوال ملكك، وتبديل دينك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، وجمع القوابل من أهل مملكته، وقال لهنّ لا يسقط على ايديكنّ غلام من بني إسرائيل إلّا قتل، ولا جارية إلّا تركت، ووكل بهنّ فكنّ يفعلنّ كذلك.

فروي أنّه قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألفاً، وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون، فقالوا له: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت في كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا؟ فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة. فولد هارون قبل موسى بثلاث سنين في السنة التي لا يذبحون فيها فترك.

وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها فكتمت القابلة أمره، وخرجت إلى الحرس، فقالت: انصرفوا فإنّه خرج دم منقطع فانصرفوا، فارضعته أمّه فلمّا خافت عليه، أوحى الله إليها بالإلهام أو في المنام أن اقذفيه في التابوت، وهو صندوق من خشب الشمشار، مموهاً بالذهب نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين[1]، وكانت بنو إسرائيل بعد ذلك تقدمه بين أيديهم عند القتال فلا يقوم لهم أحد، وقيل وضعته في تابوت عمله لها ابن عمها حبيب النجّار، وألقته في اليم وهو النيل.

فألقاه اليم على الساحل، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر، فدفعه الماء إليه فأدلى إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع زوجته آسية بنت مزاحم، فأمر به فأخرج ففتح فإذا فيه صبيّ أصبح الناس وجهاً فأحبّه حبّاً شديداً، كما قال تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**﴾ قد زرعتها في القلوب.

فقالت له زوجته: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ**﴾ وكان لا يولد لهما، فقال: قرّة عين لكِ فأمّا لي فلا. قال رسول الله ﷺ «والذي يحلف به لو أقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته، لهداه

---

(١) ذكره زاد المسير ١/٢٥٨.

الله كما هداها، ولكنّه أبى إلّا الشقاء الذي كتب عليه»[١].

ثمّ همّ فرعون بقتل موسى فقالت له زوجته آسية: ﴿**لاَ تَقْتُلُوهُ**﴾، خطاباً بلفظ الجمع للتعظيم ﴿**عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ لما هو كائن في أمره وأمرهم.

﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً**﴾ من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿**إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ**﴾، أي لتظهر أمر موسى وقصّته من فرط الضجر ﴿**لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا**﴾، بالعصمة والصبر ﴿**لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ بوحينا وقولنا، ﴿**إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ وقالت لاخته مريم قصيه أي: اتبعي أثره وتعرفي خبره. وحرّم الله عليه المراضع، فجعله لا يقبل من امرأة ثدياً، فانطلقت أخته إلى باب فرعون ﴿**فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**﴾ لا يقصرون في رضاعه وتربيته.

فقال هامان: وزير فرعون إنّها لتعرفه وأهله، خذوها حتى تخبر بحاله. فقالت: إنّما أردت وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمّها وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله، فلمّا وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: لها فرعون من أنت؟ فقد أبى كل ثدي غير ثديك! فقالت: إنّي امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أُوتى بصبي إلّا قبلني، فدفعه إليها وأجرى النفقة عليها، فرجعت به إلى بيتها من يومها، كما قال تعالى: ﴿**فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ**﴾ بفراقه.

فنشأ موسى في آل فرعون إلى أن بلغ عمره ثلاثين سنة، وكان يركب في موكب فرعون فجاء في ذات يوم من قصر فرعون فقيل له: إنّ فرعون قد ركب فركب في أثره ﴿**وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا**﴾ وقت القيلولة، وهي مدينة مصر أو مدينة نيف أو عين شمس.

﴿**فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ**﴾ على ديْن أو دَين أو على نقل حَطب إلى مطبخ فرعون، أحدهما من شيعة موسى من بني إسرائيل، والآخر من أعدائهم من القبط، ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ**﴾، بيده في صدره ﴿**فَقَضَىٰ عَلَيْهِ**﴾، ولا يقدح ذلك في عصمته، لأنّه لم يتعمد القتل ﴿**فَأَصْبَحَ** ـ موسى ـ **فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ**﴾، فارتقى الخبر إلى فرعون وملائه فهمّوا بقتل موسى، فخرج مؤمن من آل فرعون وهو ابن عم فرعون واسمه جبريل فلمّا وصل إلى موسى ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ**﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان ٢٤١/٧، الكشاف ١٦٦/٣، البيضاوي ١٢٤/٤.

فخرج موسى من مصر هارباً بغير ظهر يركبه ولا خادم يخدمه ولا زاد يأكله، تحفظه أرض وترفعه أخرى، حتى انتهى إلى أرض مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ قرية شعيب ولم يكن في سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر ثمان مراحل ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، توكلاً على الله وحسن ظن به، وكان لا يعرف الطريق فأتى على ثلاث طرق فأخذ في أوسطيها وأخذوا الطلاب في الآخرين.

ولمّا ورد ماء مدين وهو بئر كانوا يسقون منها، وجد عليه أي على شفيره ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾، أي في مكان أسفل من مكانهم، ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أي تمنعان أغنامهما من الماء لئلا تختلط بأغنام الغير، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، أي ما شأنكما تذودان ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ﴾، مواشيهم حذراً من مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ في السنّ لا يستطيع أن يخرج للسقي، فيرسلنا اضطراراً ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشيهما رحمة لهما، من بئر أخرى يضعون الرعاة على رأسها حجراً لا يقله إلّا سبعة رجال أو أكثر، وأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم[1]!

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾، أي انصرف إلى ظل شجرة فجلس تحتها من شدّة الحرّ، وهو جائع محتاج إلى شق تمرة، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وكان قد نال منه الجوع، وكان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه[2].

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي التي تزوجها واسمها صفورا أو صفرا، ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ منه، قد سترت وجهها بثوبها، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فتبعها ليتبرك برؤية الشيخ، لا طمعاً في الجزاء، وكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسى عجزها، فناداها يا أمة، كوني خلفي وأريني السمت بقولك[3]، فإنّا بني يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء.

فلمّا دخل على شعيب وإذا هو بالعشاء مهيأ، فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعش، فقال: أعوذ بالله، فقال شعيب: ولم! ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنّا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملئ الأرض ذهباً، فقال شعيب: لا والله يا

(١) تفسير البيضاوي ٢٨٩/٤.

(٢) نهج البلاغة ٥٨/٢. والصفاق ككتاب هو الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر، أو هو ما بين الجلد والمصران أو جلد البطن كله. والتشذب: التفرق. وانهضام اللحم: تحلل الاجزاء وتفرقها.

(٣) تفسير القرطبي ٣٣٩/١.

شاب ولكنّها عادتي وعادة آبائي، نقرئ الضيف ونطعم الطعام. وجعل موسى يأكل ويقصّ ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الذي جرى له مع فرعون وقومه وقتل القبطي، وإنّهم يطلبونه ليقتلونه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾، يعني فرعون وقومه، فلا سلطان له بأرضنا ولسنا في ملكه.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ التي استدعته ﴿يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي الغنم، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فأخذت أباها الغيرة، فقال لها: وما يدريك بقوّته وأمانته؟ فذكرت له أقلال الحجر وأنّه صوّب رأسه حتى بلغته رسالته، وأمرها بالمشي خلفه، فازداد شعيب رغبة فيه، فعند ذلك ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ـ نفسك ـ ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ﴾ تفضلاً، لا من عندي إلزاماً عليك، وهذا استدعاء العقد لا نفسه ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بطلت الزيادة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وتزوّج موسى بابنة شعيب ورعى غنمه عشرة سنين، فلمّا قضى موسى الأجل وسار بأهله ـ بنت شعيب ـ متوجهاً نحو بيت المقدس أو مصر، وافى وادي طوى وفيه الطور، وكانت امرأته بنت شعيب في شهرها وقد ضربها الطلق، وولدت له ابناً في ليلة شاتية مظلمة باردة مثلجة وكانت ليلة الجمعة، وقد أضل الطريق وتفرقت ماشيته وأصابه المطر.

فبقي لا يدري أين يتوجه، فرأى ناراً من جانب الطور، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا﴾، أي: أقيموا مكانكم، ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: بشعلة من النار ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدىً﴾، أي: هادياً يدلّني على الطريق، أو يهديني أبواب الدين، فإنّ أفكار الأبرار مائله إليها[١]، فلمّا انتها وإذا النار في شجرة عناب أو عوسج[٢] تضطرم من أسفلها إلى أعلاها، فوقف متعجباً من حسن ضوء النار وخضرة الشجرة، فلمّا دنا منها تأخرت عنه فرجع وأوجس في نفسه خيفة، ثم دنت منه الشجرة فـ﴿نُودِيَ يَامُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، أمره بذلك لأنّ الحفوة تواضع وأدب، وقيل: ليباشر بقدميه الأرض لأنّها بوركت، ولذلك قال: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ سمي بذلك لأنّه طوي بالبركة، قيل: إنّه لمّا نودي قال: من المتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي أَنَا ٱللَّهُ﴾ فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام الشيطان! فقال: أنا أعرف أنّه كلام الله، فإنّي أسمعه من جميع الجهات وجميع الأعضاء ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ للنبوّة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ دالّ على أنّه مقصود

---

(١) تفسير البيضاوي ٤٢/٤.

(٢) العوسج: ضرب من الشوك الواحدة العوسجة.

على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم، والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل **﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾** خصها بالذكر وأفردها بالأمر، للعلة التي أناط بها إقامتها وهي تذكير المعبود وشغل القلب واللّسان بذكره، ثم قال: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ﴾** سأله عنها ليقرره أنّها خشبة فيريه فيها ما أراه من العجائب **﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾** إذا وقعت على رأس القطيع **﴿وَأَهُشُّ بِـهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾** أخبط الورق بها على رأس غنمي لترعاه **﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾** حاجات آخر، كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته[1]، وإذا نزل ألقى عليها الكساء واستظل بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها، فأراه الله فيها خصائص أخرى خارقة للعادة.

قال ابن عبّاس: «كان يحمل عليها زاده ويركزها فيخرج منها الماء، ويضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل، وإذا ظهر عدوّ حاربت، وتضيء في الليل كالشمعة، وتحدثه وتؤنسه وتحرسه إذا نام»[2]، ونحو ذلك.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، صارت حيّة صفراء لها عـرف كـعرف الفرس، وجعلت تتورم حتى صارت ثعباناً وهو ذكر الحيّات، وجعل يمرّ بالصخرة فيقسمها فيطعن بنابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، وعيناه يتوقدان ناراً، فولّى موسى هارباً ولم يعقب، ثم ذكر ربّه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى أرجع إلى حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف **﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ـ**منها **ـ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾**، أي عصاً كما كانت.

قال وهب: وعلى موسى يومئذٍ مدرعة من صوف فأدلى طرف المدرعة على يده، فقال: مالك يا موسى؟ أرأيت لو أذن الله بما تحاذر، أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكنّي ضعيف ومن ضعف خلقت، وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية، فإذا يده في الموضع الذي كان يضعها، إذا توكأ بين الشعبتين[3].

ثم أراه الله آية أخرى بأن قال: **﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾**، فأدخل يده في إبطيه ثم نزعها، ولها نور ساطع وشعاع يكاد يغشي الأبصار يضئ بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر **﴿آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾** الذي وجهتني إليه **﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ***

---

(١) الإداوة: المطهرة، والجمع: الأداوى، وهي إناء صغير من جلد يتطهر به ويشرب. انظر: الصحاح ٦: ٢٢٦٦ (ادا).

(٢) تفسير مجمع البيان ١٨/٧، تفسير الثعلبي ٢٤٢/٦ باختلاف يسير.

(٣) تفسير مجمع البيان ١٨/٧، وقريب منه في تفسير البغوي ٢١٥/٣.

يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، فإنّما يحسن التبليغ من البليغ، فكان في لسانه رتة[١] من جمرة أدخله فاه لمّا حمله فرعون فأخذ لحيته ونتفها، فغضب وأمر بقتله، فقالت زوجته آسية: إنّه صبيّ لا يفرق بين الجمر والياقوت. فأحضر بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فمه.

وأختلف في زوال العقدة فمن قال به تمسك لقوله: **﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ﴾**[٢] ومن لم يقل احتج بقوله: **﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾**[٣]، **﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾**، وأرسله معي إلى فرعون **﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ﴾**.

فرجع موسى إلى امرأته فقالت له: من أين جئت؟ قال: من عند ربّ تلك النّار.

واجتمع بأخيه هارون وأخبره إنّ الله تعالى أرسلهما إلى فرعون مصر الوليد بن مصعب، وأراه آية في عصاه التي كانت بيده حين ألقاها، فصارت حيّة ذكراً أشعراً فاغراً فاه، بين لحيبه ثمانون ذراعاً.

وغدا إلى فرعون وملائه بتسع آيات: بيده، وعصاه، ولسانه، والطوفان، والبحر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

قال الباقر عليه السلام: فوقف موسى على باب فرعون، وهو طويل الباع[٤] ذو شعر آدم، عليه جبّة من صوف، عصاه في كفّه، مربوط حقوه بشريط[٥] نعله من جلد حمار وشراكها من ليف. فقيل لفرعون: إنّ على الباب فتىً يزعم أنّه رسول ربّ العالمين، فقال لصاحب الأسد: حل سلاسلها فحلّاها، فقرع موسى الباب فدخل فجعلن الأسد يبصبصن تحت رجليه[٦].

وقال موسى: يا فرعون إنّي رسول من ربّ العالمين مبعوث إليك وإلى قومك.

وكان اسم فرعون الوليد بن مصعب القبطي، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر، واليوم الذي دخلها موسى أربعمائة سنة.

فقال فرعون لموسى: **﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ**

---

(١) الرتة: العجمة والحكلة في اللسان. قاموس المحيط ١: ١٥٣ (رتت).

(٢) قاله السدي: راجع تفسير الطبري ٨: ٤١٠.

(٣) سورة القصص: ٣٤.

(٤) الباع: قدر مد اليدين، يقال: طويل الباع ورحب الباع، أي كريم مقتدر.

(٥) الشريط: خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه.

(٦) تفسير مجمع البيان ٤٣٧/٧.

﴿ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾[1] يعني قتل القبطي **﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾**، **﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾**[2]، في إنّك رسول من ربّ العالمين.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ، روي أنّه لمّا ألقها صارت ثعباناً أشعر[3] مثل الجذع[4]، فاغراً فاه لأنيابه، صرير يخرج من فمه مثل لهيب النار، بين لحييه ثمانون ذراعاً، ووضع لحيه الأسفل على الأرض ولحيه الأعلى على سور قصر فرعون، ثم توجّه نحو فرعون فهرب منه وأحدث[5]، واهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً[6].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[7]، روي أنّه كان آدماً شديد الادُمّة[8]، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيضاء نورانية، غلب شعاعها شعاع الشمس[9].

فقال له فرعون: **﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً﴾**[10]، قال: لقد علمت ما أُنزل هؤلاء، يعني الآيات التسع، **﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾**، وشتان ما بين الظنّين، فإنّ ظنّ فرعون كذب، وظن موسى يحوم حول اليقين.

قيل: لمّا وعد فرعون موسى بالإيمان، وعده موسى شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا يزول إلّا بالموت، فإذا مات دخل الجنّة، فأعجبه ذلك فاستشار وزيره هامان، فقال له: أنت ربّ وتريد أن تكون مربوباً، فقلّبه عن رأيه.

---

(١) سورة الشعراء: ١٨ ـ ٢١.

(٢) سورة الأعراف: ١٠٦.

(٣) أي كثير الشعر طويله (قاموس المحيط: مادة شعر).

(٤) الجذع: من الدواب الشاب الفتى.

(٥) أراد أنه تغوط من شدة ذعره وفزعه.

(٦) انظر تاريخ الطبري ٢٨٦/١، والكشاف ١٣٨/٢، وتفسير جوامع الجامع: ٦٨٥.

(٧) سورة الأعراف: ١٠٨.

(٨) الادمة: بالضم، السمرة. الصحاح ١٨٥٩/٥.

(٩) انظر تفسير مجمع البيان ٣٢٢/٤.

(١٠) سورة الأعراف: ١٠١.

فعندها قال فرعون لقومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، عن دعوة الربوبيّة إلى مؤامرة القوم ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

فأرسل فرعون في طلب السحرة فاجتمعوا إليه، قيل كانوا خمسة عشر ألفاً، وقيل: ثمانين رجلاً، فواعدهم موسى يوم الزينة ـ وهذا يوم عاشوراء أو النيروز أو يوم عيد كان لهم في كل عام ـ، وإنّما عيّنه بقوله موعدكم يوم الزينة، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤس الأشهاد، ويشيع ذلك في أقطار البلاد، فعمدوا السحرة إلى الحبال والعصي فمسحوها بالزئبق، وألقوها في الوادي عند ارتفاع الشمس، فحميت وسعت وركب بعضها بعضاً، وقالوا لموسى: هذه أعظم من حيتك! فألقى موسى عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، فتلقف جميع ما ألقى السحرة!

وكان شيخهم رجلاً أعمى اسمه حطحط، فقال للسحرة: ما الذي فعل موسى؟ فحكوا له إنّ عصاه بلعت جميع حبالهم وعصيّهم، فقال: انظروا إلى بطن عصاه أكبرت؟ فقالوا: لا ، فقال: ليس هذا بسحر، وإنّما هو أمر إلهيّ، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقيل: إنّ السحرة قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً، فأروه إيّاه، وإذا بالعصى حارسة له، فقالوا: ليس هذا بسحر! فانّ الساحر إذا نام نام سحره.

قال علي عليه السلام: كن لما لا ترجو أرجا منك لما ترجو، فإنّ موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً [فكلمه الله عزّ وجلّ][1] فرجع نبياً، وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزة لفرعون فرجعوا مؤمنين»[2]، فقطع فرعون أيديهم وأرجلهم، وصلبهم على جذوع النخل.

وفي تلك الساعة ظهر برهان موسى، فآمنت به بنو إسرائيل، ولم يؤمن من آل فرعون من ذلك الوقت إلى أن أهلكهم الله، إلّا مؤمنهم حزبيل ابن عم فرعون، وزينب التي دلّت على عظام يوسف، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، فلمّا اطلع فرعون على إيمانها أمر أن تعذّب، فعذّبوها بأنواع العذاب، وقال لها فرعون: ارجعي إلى ديننا، فقالت: إنّك تعذّب بدني، وقلبي في عصمة ربّي، فلو قطّعتني أرباً أرباً ما أزد في الله إلّا حباً.

فمرّ موسى بين يديها، فقالت: يا موسى أخبرني عن أمري عند ربّي، أراضي هو عليّ أم ساخط؟ قال: يا آسية، ملائكة السبع سماوات في انتظارك والله يباهي بك، فاسألي حاجتك فإنّه

---

(١) أضفناه من المصدر.

(٢) الفقيه ٣٩٩/٤، والسرائر ٦٢٢/٣.

لا يردّ ذلك فـ**﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾**.

وبقي موسى بين أظهر القبط أربعين سنة يدعوهم إلى الحق، ويظهر لهم الآيات، فلم يقبلوا منه، **﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾**، فسلّط الله عليهم المحن كما قال: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ﴾**.

قيل: إنّهم أُمطروا ثلاثة أيام في ظلمة شديدة، لا يقدر أحدهم أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى أقاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشبكة ببيوتهم ولم يدخل فيها قطرة، ووكد الماء على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً أو أكثر، فقالوا لموسى: أدع لنا ربّك يكشف عنّا، ونحن نؤمن بك، فدعا ربّه فكشف عنهم فلم يؤمنوا. فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وأثمارهم، ففزعوا إليه فدعا وخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت الجراد إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلّط الله عليهم القمّل وهو القراد[1] وأولاد الجراد فأكل ما وجده، وكان يدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه، فرفع ذلك عنهم. فقالوا: قد تحققنا الآن إنّك ساحر، فأرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلّا وجدت فيه، وبثت في أفواههم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكشف الله عنهم، فنقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً، حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي فيكون ما يليه دما وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمصّ القبطي الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فمه، ففزعوا إليه، فكشف الله تعالى عنهم.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾، **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾**[2]، **﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً﴾** أي مفتوحاً **﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ﴾**.

فخرج موسى ببني إسرائيل من مصر في أوّل الليل، فأخبر فرعون بذلك فأتبعهم في ألف ألف حصان سوى الإناث، وعلى مقدمته سبعمائة ألف، وكان موسى في ستمائة ألف وعشرين ألفاً، فلمّا عاينهم فرعون، قال: إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون وإنّما استقلهم بالنسبة إلى جنوده **﴿فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾**، فقال له يوشع ابن نون: بم أمرت؟ قال: أمرت أن أضرب بعصاي البحر.

---

(١) القراد: هو ما يتعلق بالبعير ونحوه، وهو كالقمل للإنسان (مجمع البحرين ٤٨٣/٢ ـ قرد ـ).

(٢) سورة الشعراء: ٥٢.

وروي أنّ مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى، فقال له: أين أمرت؟ فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون، قال: أمرت بالبحر ولعلي أومر بما أصنع.

فأوحى الله تعالى: ﴿**إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ**﴾ وهو بحر القلزم، ما بين اليمن ومكّة شرقها الله إلى مصر، فضرب ﴿**ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ**﴾، أي كالجبل المنيف الثابت في مقره، وصار فيه أثنا عشر طريقاً، فدخلوا في شعابها وتبعهم فرعون وجنوده، فلمّا خرج آخر من كان مع موسى من البحر أطبق الله عليهم الماء: ﴿**فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾ فهلكوا جميعاً، ونجا موسى ومن معه: ﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ**﴾، أي وما هداهم كما وعدهم بقوله: ﴿**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**﴾[1].

ورجع موسى ببني إسرائيل إلى مصر فحمد الله وأثنى عليه، وخطب خطبة بليغة فأعجب بها، فقيل له: هل تعلم أحد أعلم منك؟ فقال: لا، فأوحى الله إليه بل عبدي الخضر وهو بمجمع البحرين.

وكان الخضر في أيام أفريدون، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر.

فسار موسى إليه، فجرى له معه ما قصّه الله سبحانه في سورة الكهف من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

وقيل: إنّ موسى سأل ربّه أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأيّ عبادك أقضى، قال: الذي يقضي بالحق ولا يتّبع الهوى، قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردا، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فدلّني عليه، قال: أعلم منك الخضر، قال أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة تأخذ حوتاً في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك.

فقال لفتاه يوشع بن نون: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان فلمّا بلغا مجمع البحرين، اضطرب الحوت المشوي ووثب في البحر، معجزة لموسى أو للخضر، وقيل: توضأ يوشع من عين الحياة فانتضح الماء عليه فعاش ووثب في الماء، وكان طوله أكثر من ذراع وعرضه شبراً، أكل موسى ويوشع نصفه واحيى الله النصف الآخر، وله نسل إلى الآن ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾ مجمع البحرين، قال موسى: ﴿**قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَباً**﴾، ولم يعي[2] موسى في سفر غيره ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ**﴾ التي دون نهر الزيت ﴿**فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَا**

(١) سورة غافر: ٢٩.

(٢) أي لم يتعب ولم يكل.

أنسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾، لأنه بقي أثره في الماء كالكوة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾، فوجد الخضر جالساً على طنفسة[1] خضراء فسلم عليه موسى، فقال: وعليك السلام يا نبيّ بني إسرائيل، قال: ومن أخبرك أنّي نبي؟ قال: من دلّك عليّ.

ثمّ كانت قصة موسى مع ابن عمه قارون، الذي كانت تحمل مفاتيح خزائنه أربعون بغلاً.

روي أنّه كان يؤذي موسى كل وقت وهو يداريه لقرابته، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكبره، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل ليرفضوه، فبرطل بغية لترميه بنفسها، فلمّا كان يوم العيد، قام موسى خطيباً، فقال في خطبته: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه، ومن زنى محصناً رجمناه، فقال له قارون: ولو كنت أنت؟ قال: ولو كنت، قال: إنّ بني إسرائيل يزعمون إنّك فجرت بفلانة! فأحضرت فناشدها موسى بالله أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي، ومعاذ الله أن أفتري عليك بهتاناً، فخرّ موسى شاكياً عليه إلى ربّه، فأوحى الله إليه أن مُرِ الأرض بما شئت، فقال: يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال: خذيه فأخذته إلى وسطه، ثم قال: خذيه فأخذته إلى عنقه، ثم قال خذيه فخسفت به، وكان قارون يتضرع إلى موسى في هذه الأفعال فلم يرحمه.

فقال: فأوحى الله تعالى إليه يا موسى استرحمك قارون مراراً فلم ترحمه، وعزّتي لو دعاني مرّة لأجبته، ثم قال بنو إسرائيل: إنّما فعل ذلك موسى بقارون ليرثه. فدعا الله فخسف به وبداره وأمواله الأرض[2].

وكان سبب هلاك قارون بثلاثة أشياء: أوّلها حب الدنيا، وثانيها منع الزكاة، وثالثها افترئ على موسى.

وروي أنّ موسى قال: إلهي دلّني على عمل إذا عملته رضيت به عنّي، فأوحى الله إليه، رضائي رضاك بقضائي.

ثم ابتلى الله بني إسرائيل بالتيه، حين أمرهم بالمسير إلى بيت المقدس، وحرب العمالقة لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فلمّا أمرهم الله تعالى وموسى بذلك ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا

---

(١) طنفسة: هي بساط الذي له خمل رقيق [النهاية: ١٤٠/٣].

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٠٥/٤.

مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ـ يعني الأرض المقدسة التي ـ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فوقعوا في التيه فصاروا كلّما ساروا تاهوا قدر خمس فراسخ أو ستة، فإذا أمسوا إذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه، فلمّا وقعوا في التيه ندموا على ما فعلوا وتابوا.

فألطف الله لهم بالغمام لمّا شكوا حرّ الشمس فأنزل عليهم المنّ والسّلوى، وكان ينزل عليهم في الليل عمود من نور يضئ لهم، وثيابهم لا تبلى ولا تنسخ، وإذا ولد فيهم مولود يكون عليه ثوب يطول بطوله كالجلد، وبقوا في التيه على ذلك أربعين سنة.

وفي التيه توفي هارون وموسى، قيل: أوحى الله إلى موسى أنّي متوفي هارون فأت به إلى جبل كذا، وقيل أنّ موسى بعد أن قتل عبدة العجل، أراد المضي إلى المناجات بجبل الطور، فقال له هارون: احملني معك لأنّي لا أمن أن يحدث ببني إسرائيل حادث فتغضب عليّ مرة أخرى، فانطلقا فإذا هما بسرير فناما عليه فأخذ هارون الموت، ورفع إلى السماء وكان أكبر من موسى بثلاث سنين، وتوفي وعمره مائة واثنان وعشرون سنة وشهر.

واتّهم بنو إسرائيل موسى بقتل أخيه هارون حين رجع إليهم وحده! فأنزل الله عليه السرير وعليه هارون، وقال: إنّي متّ ولم يقتلني أخي[1].

ثم توفّي موسى بعده بأحد عشر شهراً، وعمره مائة وعشرون سنة، ثلثها الأخير في التيه، فصاح صائح من السماء؛ مات موسى كليم الله، وأيّ نفس لا تموت، وكانت وفاته في التيه سابع آذار في أيّام الملك منوچهر الفارسي، لمضي ألف وستمائة وست وعشرين سنة من الطوفان[2].

واختلف في كيفية موته فقيل: كان هو ويوشع يمشيان فظهرت غمامة سوداء فاعتنق يوشع موسى من خوفه، فانسل موسى من قماشه ورجع يوشع بالقماش إلى بني إسرائيل، فاتهموه بقتل موسى، ووكّلوا به جماعة فرأى كل منهم في منامه أنّ يوشع لم يقتل موسى، بل رفعناه إلينا فتركوه.

قيل: بل نبّأ الله يوشع وأوحى إليه، فسأله موسى عن ذلك فأخفى عنه، فعظم ذلك عليه فسأل الله أن يتوفّاه.

وفي الحديث أنّ ملك الموت أتاه فقال: السلام عليك ياكليم الله، فقال موسى: وعليك السلام، من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت؛ جئت لأقبض روحك، فقال: من أين تقبضها؟ فقال: من فمك، فقال: كيف وقد كلّمت به ربّي؟ قال: فمن يدك، قال: كيف وقد حملت بها التوراة؟ قال: فمن رجلك، قال: كيف وقد وطئت بها طور سيناء؟ قال: فمن عينك، قال: كيف ولم تزل إلى ربّي بالرجاء

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٤١/١.

(٢) عمدة القاري للعيني: ٥٩/٢.

ممدودة؟ قال: فمن أُذنك، قال: كيف وقد سمعت بها كلام الله؟ فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت لا تقبض روحه حتى يكون هو الذي يريد ذلك.

فخرج ملك الموت وغاب موسى عن قومه، فمرّ برجل يحفر قبراً، فقال له: ألا أعينك على حفر هذا القبر؟ فقال: بلى فأعانه عليه، ثم اضطجع فيه لينظر كيف هو فكشف له عن الغطاء، فرأى مكانه من الجنّة، فقال: يا ربّ اقبضني إليك، فقبض ملك الموت روحه مكانه ودفن في القبر، وقال: قدر بقدر يا موسى، وكان الذي يحفر القبر ملك الموت في صورة آدمي، ولذلك لم يعرف قبر موسى، بل قال رسول الله ﷺ هو عند الطريق الأعظم عند الكثيب الأحمر[١].

فصل
في أيام يوشع عليه السلام

وهو ابن نون بن افراثيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل: إنّه ابن عاشر إلى يوسف.

ذكر أنّ بني إسرائيل كانوا تحت حكم فراعنة مصر على بقايا من شريعة يعقوب ويوسف، إلى أن خرج بهم من مصر بعد أن أقاموا بها مائتي سنة وخمس عشر سنة.

ولمّا مات موسى قام بتدبير بني إسرائيل يوشع بن نون، أقام بهم في التيه ثلاثة أيام ثم سار بهم إلى نهر الشريعة، وانكشفت الأرض حتى عبروا، ثم عاد الماء وذلك حين أمر يوشع حامل صندوق الشهادة والألواح أن يقفوا بها على حافة الشريعة لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى العبور. ونزل بهم يوشع على أريحا قرية الجبارين وصوّت حولها بالقرون فانهدمت أسوارها وأخذها بالسيف ثم سار إلى نابلس إلى الموضع الذي بيع فيه يوسف ودفنت عظامه هناك أو عند الخليل.

وملك يوشع الشام وفرّق فيه عمّاله ودبر بني إسرائيل ثمانية وعشرين سنة، فخرجت عليه صفراء بنت شعيب امرأة موسى في مائة ألف رجل، فغلبهم يوشع وقتل منهم مقتلة عظيمة، وهزم الباقين بإذن الله تعالى، وأسر صفراء بنت شعيب وقال لها: قد عفوت عنك في الدنيا إلى أن ألقى كليم الله موسى فأشكوا ما لقيت منك ومن قومك.

فقالت: والله لو أُبيحت لي الجنّة لاستحيت أن أرى فيها كليم الله وقد هتكت حجابه وخرجت

---

(١) كمال الدين وتمام النعمه: ١٥٣، بحار الأنوار ٣٦٥/١٣، والمقطع الاخير منه في عمدة القارئ للعيني ١٤٨/٨. والكثيب الأحمر: هو الرمل المجتمع.

على وصيّة من بعده.

ثم توفّي يوشع وعمره مائة وعشرون سنة ودفن في كفر حارس، وقيل: في المعرّة ولم يتول على بني إسرائيل ملك بعد موسى، ولكن حكّام يدبّرونهم كالقضاة مدة اربعمائة وثمانين سنة ولم يزالوا كذلك إلى شمويل النبي.

فصل
في أيام شمويل النبي عليه السلام

وهو آخر حكام بني إسرائيل قام بتدبيرهم أحد عشر سنة.

ثم حضروا إليه وسألوه أن يقيم فيهم ملكاً، فأقام شاول وهو طالوت ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ**﴾[1]، وكان أعلم بني إسرائيل في وقته كما قيل:

في العلم والجسم لا تخفى زيادته فهل أعادت لنا الأيام طالوتاً

وسمي طالوت لطوله؟

قيل: كان راعياً وقيل دباغاً من أولاد بنيامين أخو يوسف بن يعقوب ولم تكن فيهم النبوّة، وإنّما كانت النبوّة في أولاد لاوي بن يعقوب، والملك في أولاد يهود بن يعقوب.

فكرهوه وطلبوا من شمويل أنّه يدل على ملك طالوت عليهم، قال: ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ**﴾، وهو صندوق التوراة أو الذي وضعت أم موسى ولدها موسى فيه وألقته في اليم ﴿**فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ**﴾، سكون وطمأنينة، أو صورة من زبرجد، أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرّة وذنبها وجناحان، فتأتي فتزفّ التابوت نحو العدوّ وهم يتّبعونه بها، فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وكان موسى إذا قاتل قدّمه بين يديه فتسكن نفوس بني إسرائيل، قيل: رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة إلى طالوت.

وقيل: لمّا أفسدوا بني إسرائيل واستخفوا بالتابوت غلبهم الكفار عليه، وكان في أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت، فقاتل جالوت من جبابرة الكنعانيين وأصابهم ببلاء، حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالتابوت، فوضعوه على ثورين فساقهما الملائكة إلى طالوت، فقوى عزمه إلى

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٧.

حرب جالوت، وقال لبني إسرائيل لا يخرج معي إلّا الشاب النشيط، فاجتمع إليه ممن أختاره ثمانون ألفاً وكان الوقت قيضاً ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ**﴾.

قال ابن عبّاس والسّدي: هو نهر فلسطين[1]، ﴿**فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾، ﴿**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**﴾ لم يشربوا، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فلمّا تعدى النهر طالوت ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾، لكثرتهم وقوّتهم.

وكان جالوت من الشره وطول القامة لا يمكن أحد أن يبارزه فذكر شمويل علامة الرجل الذي يقتله فوجدت في داودعليه السلام فبرز لجالوت في جماعة من بني إسرائيل ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾، وكان عمره ثلاثين سنة، ومات شمويل وعمره إثنان وخمسون سنة، وأحب الناس داود فحسده طالوت وأراد قتله، ثم ندم وقصد فلسطين وقاتل المشركين إلى أن استشهد هو وأولاده في آخر سنة خمس وتسعين وأربعمائة لوفاة موسى فملك على أحد عشر سبطاً.

فصل
في أيام داود عليه السلام

وبينه وبين يهودا أو لاوي بن يعقوب عشرة أباء.

إذ روي في مجمع البيان عن الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى أوحى إلى شمويل إنّ جالوت يقتله من يستوي عليه درع موسى وهو رجل من أولاد لاوي بن يعقوب اسمه داود بن إيشاراع، وكان لإيشا عشرة بنين أصغرهم داود.

فلمّا بعث الله طالوت إلى بني إسرائيل وجمعهم لحرب جالوت، بعث إلى إيشا وبنيه أن احضروا، فلمّا حضروا دعا واحداً واحداً من ولده، فألبسهم درع موسى، فمنهم من طالت عليه ومنهم من قصرت عنهم.

فقال لإيشا: هل خلّفت من ولدك أحداً؟ قال: نعم أصغرهم تركته في الغنم يرعاها، فبعث إليه فجيء به، فلمّا دعي أقبل ومعه مقلاع، فناداه ثلاث صخرات في طريقه: يا داود خذنا فأخذها في

---

(١) تفسير البغوي: ٣٠١/١.

مخلاة[١]، وكان داود شديد البطش شجاعاً قوياً في بدنه.

فلمّا جاء إلى طالوت ألبسه درع موسى فاستوى عليه، فجاء فوقف حذاء جالوت وكان جالوت على الفيل، وعلى رأسه التاج، وفي جبهته ياقوتة تلمع نوراً وجنوده بين يديه، فأخذ داود حجراً من تلك الأحجار فرمى بها في ميمنة جالوت فوقعت عليهم فانهزموا، فأخذ حجراً آخر ورمى به في ميسرة جالوت فانهزموا، ورمى بالثالث إلى جالوت فأصابه في موضع الياقوتة في جبهته فوصلت إلى دماغه، فوقع إلى الأرض ميتاً[٢].

فمن ذلك الوقت قال الناس: قتل داود جالوت واتاه الملك، واجتمعت عليه بنو إسرائيل حتى لم يكن يسمع لطالوت ذكراً.

وأنزل الله تبارك وتعالى عليه الزّبور، وعلّمه صنعة الحديد فليّنه له وصنع الدروع، وأمر الجبال والطير أن تسبّح معه، وأعطاه صوتاً لم يسمع بمثله حسناً، وأعطي قوة في العبادة، وقام في بني إسرائيل نبيّاً، واستوثق له الملك، ودخلت جميع الأسباط تحت طاعته.

وانتقل إلى القدس وفتح أرض فلسطين ومأرب وحلب ونصيبين وبلاد الأرمن أو الأردن، وملك أربعين سنة، وتزوّج تسعة وتسعين امرأة، وولد له عشرون ولداً، وجزّء زمانه يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصته.

قيل: فخطب أوريا بن حيّان امرأة فأراد أهلها أن يزوجّها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها وزوجها منه، ولذلك قال الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ: **﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**[٣]، أي واذكر لكفّار مكّة قصّة داود، تعظيماً للمعصية في أعينهم فإنّه مع علو شأنه لمّا أتى صغيرة نزل من منزلته ووبّخته الملائكة لمّا دخلوا عليه، كما قال تعالى: **﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾**، لأنهم نزلوا عليه من فوق الغرفة في يوم الاحتجاب، والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه، فلمّا تمثّل له الملائكة في صورة البشر: **﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ... وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾** إلى الله بالتوبة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/٤٧٩.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٢/١٥١.

(٣) سورة ص: ١٧.

قيل: مكث أربعين يوماً ساجداً، لا يرفع رأسه إلّا لصلاة مكتوبة أو إلى حاجة لابدّ منها.

فروي: أنّه خرج بقراءة الزبور، وكان إذا قرأ لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّا أجابه. فانتهى إلى جبل عليه نبي عابد يقال له حزقيل، فقال له: يا حزقيل تأذن لي فأصعد إليك؟ قال: لا، فبكى داود، فأوحى الله إليه يا حزقيل لا تعيّر داود وسلني العافية، فأخذ حزقيل بيد داود ورفعه إليه، فقال داود: يا حزقيل هل هممت بخطيئة؟ قال: لا، قال: فهل دخلك العجب مما أنت فيه من عبادة الله؟ قال: لا، قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهواتها ولذاتها؟ قال: بلى ربّما عرض ذلك بقلبي، قال: فما تصنع إذا كان ذلك؟ قال: أدخل هذا الشعب فاعتبر بما فيه.

فدخل داود الشعب فإذا سرير من حديد عليه جمجمة بالية وعظام فانية، وإذا لوح من حديد فيه كتابة فيها: أنا أروى سلم! ملكت ألف سنة، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، فكان آخر عمري أن صار التراب فراشي، والحجارة وسادي، والديدان والحيات جيراني، فمن زارني لا يغتر بالدنيا[1].

ولله در القائل:

هـي الدنـيا تـقول بـملء فـيها ... حذار حذار من بطشي وفـتكي

فـلا يـغرركم حسـن ابـتسامي ... فقولي مضحك والفـعل مـبكي

أنـا الدنـيا كشـهد فـيه سـم ... وإلّا جـيفة طـليت بـمسك

وعن رسول الله ﷺ إنّ داود أراد أن يستخلف سليمان لأنّ الله أوحى إليه يأمره بذلك، فلمّا أخبر بني إسرائيل ضجّوا، وقالوا: يستخلف علينا حدثاً؛ وفينا من هو أكبر منه، فدعا أسباط بني إسرائيل.

فقال لهم: قد بلغني مقالاتكم فأروني عصيّكم فأيّ عصا أثمرت فصاحبها وليّ الأمر بعدي؟ فقالوا: رضينا، فقال: ليكتب كل واحد منكم اسمه على عصاه، فكتبوا ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه، ثم أدخلت بيتاً وأغلق الباب، وحرسه رؤوس بني إسرائيل، فلمّا أصبح داود صلّى بهم الغداة، ثم أقبل ففتح الباب فأخرج عصيهم وقد أورقت، وعصا سليمان قد أثمرت، فسلّموا ذلك لداود، فأختبره بحضرة بني إسرائيل، فقال له: يا بنيّ فأيّ شيء أبرد؟ فقال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض، قال يا بنيّ، أي شيء أحلى؟ قال المحبة وهي روح الله في عباده، فافتر داود ضاحكاً[2] فسار به في بني إسرائيل، فقال: هذا خليفتي فيكم من بعدي[3].

---

(١) كمال الدين ٢٨٩ ـ ٢٩٠، أمالي الصدوق: ٦١.

(٢) افتر أي ضحك ضحكاً حسناً.

(٣) بحار الأنوار: ١٣/٤٤٧.

وتوفّي داود وعمره سبعون سنة، وأوصى بالملك لولده سليمان وعمره أثني عشر سنة، وكان له تسعة عشر ولداً غيره.

وكان لقمان الحكيم في زمن داود، وعمّر قبله بأعوام كثيرة وأدرك أيّامه، وكان معه يوم قتل جالوت، وإلى أن ابتلي بالخطيئة، وإلى أن تاب الله عليه، وكان داود يقول له طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة، وصرفت عنك البليّة، وأُعطي داود الخلافة وابتلي بالخطاء والحكمة، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾**[1]، وهو لقمان بن باعورا من أولاد ازر بن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود وأخذ العلم منه، وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنّه كان حكيماً ولم يكن نبياً، بل خدم أربعة آلاف نبيّ.

ومن حكمته أنّه صحب داود شهوراً، وكان ليسرد الدّروع فلم يسأله عنها فلمّا أتمّها لبسها، وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله، وقال له داود: يوماً كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في يدي غيري، فتفكر داود فصعق صعقة.

قال لقمان الحكيم: كنت أسير في طريق، فرأيت رجلاً عليه مسح، فقلت له: من أنت أيّها الرجل؟ فقال: آدميّ، فقلت: ما اسمك؟ قال: حتى أنظر ما اسمى به، فقلت: ما تصنع؟ قال: ترك الأذى، فقلت: ماذا تأكل؟ قال: ما يطعمني ربّي ويعطيني، فقلت: من أين يعطيك؟ قال: من حيث يشاء، فقلت: طوبى لك، قال: فما يمنعك من هذه الطوبى.

فصل
في أيام سليمان ﷺ

وبينه وبين إبراهيم أربعة عشر أباً.

وكان داود شاور ابنه سليمان في أموره مع صغر سنّه لوفور عقله وعلمه، كما قال تعالى: **﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾**[2]، واستدل بها على أنّ خطأ المجتهد لا يقدح فيه، إذ روي أنّ داود حكم بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان: ـ وهو ابن أحدى عشرة سنة ـ غير هذا أرفق بهما، فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث، فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، والحرث إلى

---

(١) سورة لقمان: ١٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٧٨ و٧٩.

أرباب الغنم، يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادّان، وكان الحرث كرم قد ظهرت عناقيده فرعاه الغنم. وقد منّ الله على سليمان وآتاه من الملك ما لم يؤت أحداً من العالمين.

قال محمّد بن كعب القرطبي: بلغنا أنّ عسكر سليمان كان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، ومثلها للجنّ، ومثلها للطير، ومثلها للوحش[1].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ وورث علمه ونبوّته وملكه دون سائر أولاده، بأن قام مقامه في ذلك ولا يمنعه ذلك عندنا عن سهمه من المال **﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾**، بأن ناداهم جبرئيل أجيبوا داعي الله، فخرجوا وهم يقولون: لبيك لبيك، تسوقهم الملائكة سوق الراعي للغنم، حتى حشرت بين يديه طائعة ذليلة، وسخّر الله له الريح، كما قال تعالى: **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** وهي أرض الشام لأنّها كانت مأواه.

وكان يسكن بعلبك ويبني له في بيت المقدس، ويحتاج إلى الخروج إليها وإلى غيرها، وكان يخرج إلى مجلسه فيعكف عليه الطير، وتقوم له الإنس والجن حتى يجلس فوق سريره على بساطه، ويجتمع مع جنوده، ثم تحملهم الريح إلى حيث أراد، وكان بساطه من الحديد الصيني، أربع فراسخ في أربع فراسخ، ثمان طبقات تحمله الريح حيث شاء، وكان يوضع له عليه ستمائة كرسي لجلسائه، وكان له سوط من حديد يصير ناراً، فيعاقب به من يزغ عن أمره من الجن، وكان يفهم إشارات سائر الحيوانات، وكان له ألف امرأة سبعمائة سرية وثلاثمائة امرأة مهرية.

وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في تجديد عمارة بيت المقدس، حسب ما أوصاه والده في السنة الرابعة من ملكه، وهي سنة لتسع وثلاثين وخمسمائة لوفاة موسى، وأقام سبع سنين يعمّر، وكان ارتفاع البيت الذي عمّره ثلاثين ذراعاً، وطوله ستين في عرض عشرين، وعمل خارج البيت سوراً محيطاً به، امتداده خمسمائة ذراع في خمسمائة، وكان البيت قد بناه قبله يعقوب، ثم شرع في بناء دار مملكته بالقدس، وشيّدها في ثلاث عشرة سنة، ثم جاءته بلقيس ملكة اليمن، وأطاعه جميع ملوك الأرض، وحملوا إليه نفائس أموالهم.

روي أنّه لمّا أتمّ عمارة بيت المقدس، تجهّز لحجّ بيت الله الحرام، فوافى الحرم وأقام به ما شاء، ثم توجّه إلى اليمن فخرج من مكّة صباحاً فوافى صنعاء اليمن ظهراً، فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها فلم يجد الماء، وكان الهدهد رائده لأنّه يحسن طلب الماء **﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى**

---

(١) بحار الأنوار: ٨٠/١٤.

ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾، كنتف ريشه وإلقائه في الشمس حيث النمل يأكله أو جعله مع ضده في قفص.

وكان الهدهد قد ارتفع في الهواء حين نزل سليمان، فرأى هدهداً واقفاً فانحط عليه، فتواصفا فطار معه لينظر ما وصف له من حال بلاده، ثم رجع بعد العصر **﴿فَقَالَ** ـ لسليمان ـ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ** ـ يعني بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الرّياش ولدها أربعون ملكاً آخرهم أبوها[1]، فملكت سبأ ـ **وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾** يحتاج اليه الملوك من زينة الدنيا **﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾**، أي سرير أعظم من سريرك، وكان مقدمه من ذهب مرصّع بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، ومؤخرّه من فضّة مكلل بألوان الجواهر، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق، وطوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين عرضاً أي ثلاثين سمكاً **﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾**، **﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾** بالميل إليهم.

ثم كتب كتاباً في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، وختمه بخاتمه ودفعه إليه، وقال له: **﴿ٱذْهَب بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾** إليه من القول، فذهب الهدهد إلى بلقيس فدخل من كوة، وكانت مستلقية في بيت مغلق، فألقى على نحرها الكتاب، فقامت تنظر إليه فلمّا خرجت **﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾** لكرم مضمونه أو مرسله، **﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾** ولم يزد الكتاب عن ذلك شيئاً، فتشاوروا فيما بينهم وردّوا الأمر إليها، بأن **﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾** أدفعهم بها عن ملكي **﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾** من حال سليمان حتى أعمل بحسب ذلك.

روي أنّها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زيّ الجواري، وجواري على زي الغلمان، وحُقاً فيه درّة عذراء، وجزعة معوجة الثقبة، وعصا لا يعرف رأسها من أسفلها، وقالت: إن كان نبيّاً ميّز بين الغلمان والجواري، وثقب الدرّة ثقباً مستوياً، وسلك في الجزعة خيطاً، وميّز أعلى العصا من أسفلها، وقالت للرسول: أنظر إليه إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنّه ملك، فلا يهولنّك أمره، فانا أعزّ منه، وإن نظر إليك نظر لطف، فأعلم أنّه نبيّ مرسل.

---

(١) تفسير البغوي: ١٥٥/٦، بحار الأنوار: ١١٧/١٤.

فلمّا وصلوا إلى معسكره ورأوا عظيم شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم، فلمّا وقفوا بين يديه أخبره جبرئيل بالحال كما هو عليه، فطلب الحق وأخبر عمّا فيه، وأمر أرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرّة، وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، وأمر العصا فألقيت من علو عرضاً وقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه.

وقيل: أمرهم أن يمشوا بين يديه، فمن قدم رجله اليمنى عزله وكان ذكراً، ومن قدمت رجلها اليسرى عزلها وكانت أنثى.

ثم ردّ الهدية وكانت مفاتيح من الذهب في أوعية الديباج، وتاجاً مكللاً بالدرّ والياقوت، والجواري أُلقي عليهم أفخر الثياب والحلّي، كل منهم على فرس برخت ولجام من ذهب مرصّع بالجواهر، وألف لبنة من ذهب وفضة وغير ذلك من التحف، ثم قال للرّسول: ومن معه **﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي ٱللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾**.

فلمّا رجع إليها الرّسول وأخبرها بما رأى من لطافته وعلمه وفضله! عرفت أنّه نبيّ وأنّها لا تقاومه؛ تجهزت للمسير إليه.

وأخبره جبرئيل إنّها خرجت نحوه **﴿قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾**، أراد أن يريها بعض ما خصّه الله به من العجائب، ويختبر عقلها، بأن تنكر عرشها، **﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾** ـ اسمه ذكوان أو صخر ـ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾** للحكومة كان يجلس إلى نصف النّهار، فقال: أريد أسرع من ذلك، فعندها **﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَابِ﴾** المنزل أو اللوح وهو آصف بن برخيا أو جبرئيل **﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾**، بعد مده إلى السماء، فمدّ سليمان بصره نحو السماء، فقال العالم: بالإسم الأعظم يا إلهنا وإله كل شيء اتيني بعرشها، فغار العرش في المكان الذي كان فيه، ثم نبع من تحت الأرض بين يديّ بقدرة الله **﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾** عليّ، بإحضار العرش في مدة إرتداد الطرف من مسيرة شهرين.

ثم **﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾** بتغيير هيئته، فنزع ماكان عليه من الجواهر وكان أحمر، فجعل أخضر **﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾** إلى معرفته بعد تغيير هيئته، أو إلى الإيمان بالله ورسوله سليمان، إذا رأت تقدم عرشها وقد خلّفته مغلقة عليه الأبواب، موكّل عليه الحرّاس **﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾**.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾!! ولم تقل هو هو، لاحتمال أن يكون مثله،

وذلك من كمال عقلها ﴿**وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**﴾ أي أوتينا العلم بكمال قدرة الله، وصحة نبوّتك قبل هذه الحالة.

﴿**قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ**﴾ أي القصر أو عرصة الدار ﴿**فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا**﴾.

روي أنّه أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه حيوانات البحر، ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلمّا رأته ظنت أنّه ماء راكد، فكشفت عن ساقيها لتخوض الماء إلى سليمان، قيل: أراد أن يرى ساقيها لأنّه أخبر أنّها ذات شعر، وأنّ رجلها كحافر حمار ﴿**قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ**﴾ أي قال لها سليمان: أنّه بناء مشيد من زجاج، ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾، بعبادتي الشمس، أو بظنّي بسليمان أن يغرقني في اللجّة ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾، فيما أمر به عباده.

قيل إنّه تزوّجها وأقرّها على ملكها، وولد له منها ولد سمّاه داود، أمر الجنّ فعملت من أجلها الحمام، وقيل: إنّه زوجها من [ذا] تبع ملك همدان(١).

وردّها إلى أرضها وأمر زوبعة أمير الجنّ أن يعمل له ويطيع، فصنع له المصانع باليمن(٢).

وروي أنّ سليمان غزا دمشق ونصيبين، وأصاب ألف فرس فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر أو عن ورد كان له، فاغتم لما فات واستردها، فعقرها متقرباً إلى الله تعالى بلحومها، وكانت أعزّ ماله وأحبّها إليه لقوله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ**﴾.

ثم فتن سليمان كما قال الرحمن: ﴿**وَلَقَدْ فتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ**﴾، وأظهر ما قيل فيه، ما روي عن النبي: إنّ سليمان قال: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، فتأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهنّ فلم تحمل إلّا امرأة جاءت بشق ولد، ثم قال والذي نفس محمّد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً.

وقيل: ألقي على كرسيّه شيطان اسمه صخر، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، وكانت له أم ولد اسمها أمينة، إذا دخل الكنيف أعطاها خاتمه وكان ملكه فيه، فأعطاها خاتمه يوماً فجاء

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٢١٠، وتفسير البيضاوي: ٤/٢٧٠.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٧/٣٨٨.

صخر من جهة الكنيف في صورة سليمان، فأخذ منها الخاتم فتختم به، وجلس على كرسيّ سليمان، فاجتمع عليه الخلق، وأقام أربعين يوماً في ملكه، وسليمان هارب يدور في البلاد حتى مضى أربعون يوماً، فطار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة، فوقعت في يد سليمان، فبقر بطنها فوجد الخاتم فيه، فتختم به، وخرّ ساجداً، وعاد إليه الملك، فعند ذلك **﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾**، أن يسلبه منّي بعد هذه الغلبة، ووصولي إليه وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين.

واستمر ملكه إلى أن توفّي وعمره اثنان وخمسون سنة أو ثلاث وخمسون، وما دل الجن **﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾**، أي عصاه حتّى قطعتها **﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ** -كما يزعمون- **مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾**، أي في الأعمال الشاقّة، وذلك أنّ داود أسسّ بيت المقدس موضع فسطاط موسى، فمات قبل تمامه فوصى به إلى سليمان فاستعمل الجن فيه، فلم يتم التمام الكلي إذ دنا أجله، فأعلم به فأراد أن يعمي عليهم موته ليتموه، فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي فيه متوكئاً على عصاه، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على عصاه، فبقي كذلك سنة حتى أكلت عصاه الإرضة فخرّ، فوجدوه قد مات منذ سنة.

وملك بعده ولده رحبعم، وكان رديء الشكل شنيع المنظر، فشدّد على بني إسرائيل، وقال لهم: خنصري أغلظ من ظهر أبي، فلم يبق معه غير سبط يهودا وبنيامين، وملك على العشرة الأسباط الباقية عبد من عبيد سليمان اسمه يربعم وكان كافراً فاسقاً، فتفرق الملك فصارت أولاد سليمان بمنزلة الخلفاء للمسلمين وملوك الأسباط مثل ملوك الأطراف، ودخلت الأسباط الشام واستقر[١] ولد سليمان بالقدس، واستمر الحال على ذلك مائتي وأحدى وستين سنة، إلى أن اجتمعت لولد سليمان المملكة على جميع الأسباط بعد فترة في أنبيائهم، خرجت فيها امرأة من جواري سليمان أصلها، اسمها عثلياهو، وتتبعت ولد سليمان فأفنتهم، وسلم منها طفل أخفوه عنها وكان اسمه يؤاش، واستمر حكمها لتسع سنين[٢] ثم عدمت، وملك يؤاش وهو ابن سبع سنين فملك أربعين سنة ثم ملك ابنه بعده، ولم يزل الملك فيهم إلى أن ظهر يوثم على أبيه، وملك بعد يوثام ابنه، وملك بعده ابنه حزقيا، وعليه انقرضت دولة الخوارج ملوك الأسباط، وكان رجلاً صالحاً مظفراً فانضم إليه من سلم من الأسباط، وكان قد فرغ عمره قبل موته بخمس عشرة سنة، فزاده الله خمس

(١) في المخطوط (واستقرت).

(٢) في المختصر في أخبار البشر: (سبع سنين).

عشر سنة أخرى وأمره أن يتزوج؛ أخبر بذلك نبيّ كان في زمانه، وتوفي بعد أن هادته الملوك، وانقادت له في سنة وثمانمائة بوفاة موسى، واستمر الملك في ولده إلى أن ولي بخت نصر على بابل في سنة اثنين وخمسين وتسعمائة لوفاة موسى.

فصل
في أيام أشعيا عليه السلام

وكان في آخر أيام حزقيا ملك بني إسرائيل.

قال وهب: أوحى الله إلى أشعيا، أن قل لحزقيا ملك بني إسرائيل، أن يختار من عبّاد بني إسرائيل رجلاً قويّاً، يبعثه إلى نينوى يدعوهم إلى طاعتي، فإنّهم قد جحدوا معرفتي وأنكروا حقّي وعبدوا غيري.

فقال أشعيا ذلك فأمر حزقيا من ينادي في بيت المقدس، وبه يومئذ عشرة آلاف عابد، طعامهم العدس ولباسهم الصوف والشعر، فلمّا اجتمعوا إليه اختار منهم ثلاثة، وأختار من الثلاثة يونس بن متي، فأرسله إلى نينوى.

فصل
في أيام يونس عليه السلام

وهو ابن متي ومتي أُمّه لم يشتهر من الأنبياء باسم أُمّه إلّا هو وعيسى بن مريم! وقيل متي اسم أبيه، وأُمّه اسمها صديقة من ولد هارون بن هارون.

ويونس من سبط بنيامين بن يعقوب، حملت به أُمّه في ليلة عاشوراء، وولد بعد وفاة أبيه، ولمّا بلغ عمره خمسة وعشرين سنة، تزوّج عفاف بنت زكريا بن عبدان من أهل الرملة غير زكريا النبي، وولد له من عفاف ولدين ذكرين.

وأرسله الله تعالى إلى أهل نينوى اتجاه الموصل، يفصل بينهما دجلة، وكانوا عبدة أصنام ولهم ملك جبّار، يقال له: تغلب.

فودّع يونس أُمّه وحمل ماله وأهله وولديه، وانطلق برسالة ربّه، ولم يزل يمشي من بيت المقدس حتى بلغ شاطئ الدجلة، فنزل قبال بلد نينوى، وجعل يُفكّر في نفسه، فقال: إنّي ضعيف

كثير العيال، فكيف لي بمطاولة الجبابرة والفراعنة، وعزم على الفرار فنهته أهله عن ذلك فترك الفرار.

ثم حمل ولده الأكبر وعبر به في شط الدجلة، ووضعه على ذلك الجانب، ورجع فحمل الثاني، فلمّا صار في وسط الدجلة، ازداد الماء حتى غرق الولد الذي معه، وكان في يده صرّة ورثتها زوجته من أبيها زكريا فغرقت أيضاً، وجاء ذئب إلى ولده الأكبر فحمله، فصاحت امرأته: يا يونس ولدك أخذه الذئب، فخرج يونس من الماء وجعل يعدو خلف الذئب، فالتفت الذئب إليه وقال: يا يونس أرجع عنّي؛ فإنّي مأمور ولا سبيل إلى ولدك، فرجع يونس باكياً على ولديه، فلمّا وصل إلى الموضع الذي ترك فيه زوجته لم ير لها أثراً، فجلس باكياً حزيناً فأوحى الله إليه يا يونس إنّك شكوت كثرة العيال فأرحتك منهم، فاذهب الآن إلى القوم فإنّي رادّ عليك أهلك وأولادك ومالك، وأنا على كلّ شيء قدير.

فوثب يونس وقد طابت نفسه حتى دخل مدينة نينوى، فلمّا توسط السوق نادى بأعلى صوته: يا قوم قولوا: لا إله إلّا الله وإنّي رسول الله إليكم جميعاً، وآمنوا بالله ربّي وربّكم. فأمر الملك بحبسه وهم بقتله.

وكان للملك وزير من أهل بيت المقدس، يقال له: سبحين، فقال للملك: أريد أن تهبه لي فقال: على شرط أن لا يكون في بلدي، ولا يقول مثل ما قال أوّلاً، فدعاه الوزير وأورد عليه ذلك، فقال له يونس: أمّا القتل فلا تخوفني فانّ ربّي على كلّ شيء قدير، وأمّا الرسالة والدّعوة فلا أتركهما حتى يحكم الله بيني وبينكم.

ثم أنّ الملك خلا سبيله على أنّه مجنون، فلم يزل يونس يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته طول نهاره، حتى إذا مسى المساء جاء إلى شاطئ الدجلة يصلي إلى طلوع الفجر، ثم يعود إليهم والناس يشتمونه ويضربونه.

فاستغاث بالله تعالى، فأوحى الله إليه أن يا يونس إنّك دعوت القوم فلا تعجل، وادعهم تمام أربعين يوماً، فإن هم أمنوا وإلّا جائهم العذاب، فأوعدهم يونس بنزول العذاب في يوم كذا إن لم يتوبوا، فقالوا: لم نجرّب عليه كذباً، فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أنّ العذاب مصبحكم، فلمّا كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بينهم، فلمّا أصبحوا تغشاهم العذاب.

قال ابن عباس: كان العذاب فوق رؤسهم قدر ثلثي ميل، فلمّا رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك وطلبوا يونس من بينهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا

المسوح[1]، وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النيّة، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام، فحنّ بعضها إلى بعض وعلت أصواتها، وتضرعوا إلى الله سبحانه وقالوا: آمنّا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم واستجاب لهم، وكشف العذاب عنهم بعدما أظلّهم.

وقيل: إنّهم لمّا طلبوا يونس ولم يجدوه، أقبل سبحين وزير الملك وقال: لا عليك أيّها الملك إن كان يونس غائباً عنّا، فإنّ إلهه قريب منّا لم يغب فادعوه، فدعوه وتضرعوا إليه فلعلّه يرحمُنا.

وخرج بهم إلى ظاهر البلد فقال بأعلى صوته وهو باكياً حافياً مكشوف الرأس ـ والملك وغيره كذلك ـ: يا إله يونس إنّك أمرتنا عن لسان نبيّك يونس أن تعفوا عمّن ظلم، فقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنّا، وأغفر لنا وارحمنا، اللّهم فهؤلاء عبيدك وإمائك فاعتقنا من عذابك، وأجرنا من النّار، وأمرهم بالسجود لله الواحد الجبّار، فسجدوا بأجمعهم، فكشف الله عنهم العذاب كما قال في كتابه العزيز: **﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾**[2]، وكان كشف العذاب عنهم يوم الجمعة يوم عاشوراء.

قال وهب: ورجع يونس لينظر إلى المدينة وكيف حال القوم من العذاب. فاستقبله إبليس في صورة شيخ كبير وبيده عكاز وهو يرتعش من عظم الكبر، فقال له يونس: أيّها الشيخ من أين أنت؟ قال: أنا من أهل نينوى، قال: ما نزل بكم اليوم؟ قال: سبحانه بيضاء مطرتنا مطر جيداً، وكان يونس أوعدنا بالعذاب ولم يصبنا ذلك، فعلمنا أنّه كاذب.

فغضب يونس وقال: لا أرجع إلى قوم يكذّبوني، وفرّ على وجهه قبل أن يأمره الله كما قال الله تعالى: **﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾**[3]، أي لن نضيق عليه أو لن نقضي عليه بالعقوبة، فركب في سفينة فوقفت بأهلها فجاء رئيسها، فقال: فيكم من له ذنب فساهموا فوقعت على يونس فرموه في البحر **﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾**، أي داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه **﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾**، مدة عمره أو في بطن الحوت **﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾**، وهو قوله تعالى: **﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾** في ظلمة بطن الحوت والبحر والليل **﴿أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾** لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة قبل الوحي **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾**، بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه، وقيل بعد ثلاثة أيام، وقيل سبعة، وقيل

---

(١) المسوح: ما يلبس من نسيج الشعر تقشعاً وقهراً للبدن.

(٢) سورة يونس: ٩٨.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٧.

أربعين يوماً.

روي أنّ الحوت سار به رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهى إلى البرّ **﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾**، ممّا ناله، قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تظلّه، والأكثر على أنّها كانت الدباء[١] غطّته بأوراقها عن الذباب فإنّه لا يقع عليه. ويدلّ عليه أنّه قيل لرسول الله ﷺ إنّك لتحب القرع؟ قال: أجل هي شجرة أخي يونس. وقيل التين، وقيل الموز، يتغطى بورقه ويستظل بأغصانه ويفطر على ثماره[٢].

قال ابن مسعود: ابتلع الحوت حوت آخر فأهوى به إلى قرار الأرض، وكان في بطنه أربعين ليلة، ونبذه على ساحل البحر وهو كالفرخ الممتعط[٣]، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ليستظل تحتها ووكّل به وعلة[٤] ليشرب من لبنها، فيبست الشجرة وهربت الوعلة فبكى يونس عليهما، فأوحى الله تبكي على شجرة يبست ووعلة هربت، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم[٥]!

قال ابن مسعود: وبلغ من توبة أهل نينوى أن ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويرده إلى صاحبه.

ثم هبط على يونس ملك وقال: قم يا يونس إلى قومك فإنّهم يتمنّون أن يروك، وأتاه بحلتين فاتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، وسار يريد قومه حتى آوى إلى قرية، فالتقاه رجل من أهلها وسأله أن ينزل عنده، وكان الرجل فاخراني ـ يصنع الفخار ـ، فقدّم إليه الزاد والماء فلمّا أكل وشرب، نظر وإذا بالرجل قد وضع فخارة وهو يريد أن يطبخه، فأوحى الله إلى يونس: أن قل لهذا الرجل أن يكسر فخاره، فأمره يونس بذلك، فقال: يا هذا إنّي أضفتك وأنا أظنّ فيك خيراً وإذا أنت مجنون، تأمرني أن أكسر فخاراً أتعبت فيه نفسي لأنتفع بثمنه! فأخرجه من منزله نصف الليل[٦].

فبقى لا يدري أين يتوجّه، فقال: إلهي قد علمت بي، فأوحى الله إليه أنّ هذا الفاخراني أشفق على فخاره وسمّاك مجنوناً حين أمرته بكسره، وأخرجك من منزله وأنت بعثت إلى مائة ألف أو يزيدون، فدعوت عليهم ولم تشفق عليهم ولا على إهلاكهم، فقال: إلهي لا أعود إلى مثلها أبداً.

---

(١) الدباء: بضم الدال المهملة ثم الباء المشددة: القرع.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٨/٥.

(٣) أي: تساقط من داء ونحوه. الصحاح ١١٦١/٢.

(٤) الوعل: تيس الجبل. قال الدميري: في طبعه أنه يأوي إلى الأماكن الوعر الخشنة.

(٥) تفسير مجمع البيان ٢٣١/٥، تفسير البغوي ٣٧٠/٢.

(٦) نهاية الارب للنويري: ٢/٧.

فمضى يونس إلى قرية فوجد امرأةً ورجلاً يقول: أيّها الناس من يحمل هذه المرأة إلى نينوى فيردها إلى زوجها يونس فله مائة دينار؟ فنظر يونس إليها فإذا هي امرأته، فقال يونس: أيّها الرجل ما قصّة هذه المرأة؟ قال: كانت على شاطئ الدجلة تنتظر زوجها يونس بن متي، فمرّ بها ملك هذه القرية فاحتملها وهمّ بها، فأيبس الله يديه ورجليه ولم يقدر عليها، وقد دفعها إليّ ودفع معها مائة دينار. فأخذها يونس وأخذ المائة دينار ودخل على قرية أخرى، وإذا برجل يبيع سمكة فاشتراها يونس، فلمّا شق بطنها وجد فيها الصرة التي ورثتها زوجته من أبيها زكريا.

فقال: الحمد لله الذي [ردّ] عليّ أهلي ومالي، اللّهم ردّ عليّ ولدي فسار فإذا هو برجل على دابة ومن ورائه غلام، وإذا به ولده فتعلق به، فقال له الرجل: من أنت؟ فقال: أنا يونس بن متّي نبي نينوى، فقال: أنا في طلبك، ثم سلّم الغلام إليه، وقال: الحمد لله الذي أخرج الأمانة من عنقي، فسأله يونس عن قصّة الغلام، فقال: أنا رجل صيّاد ألقيت الشبكة في طرف الدجلة، فوقع هذا الغلام فيها وهو حيّ، فإذا بهاتف يهتف بي احفظ هذا الغلام حتى إذا لقيت يونس بن متّي فادفعه إليه فإنّه ولده.

ومضى يونس حتى بلغ قريباً من نينوى، وإذا براع على قارعة الطريق يرعى غنماً، وإذا به ولده فتعانقا وبكيا ساعة، فقال الغلام: يا أبت إنّ هذه الأغنام لرجل من تلك القرية فسر معي حتى أردّها إليه، فساروا جميعاً وإذا بشيخ قاعد على باب داره، فلمّا أخبره الغلام أنّ هذا الرجل أبوه، قام الشيخ إلى يونس وقبّل ما بين عينيه، وقال له: أنت يونس؟ قال: نعم، قال: فما قصّة هذا الغلام؟ فقال: أنا رجل راعي، فبينما أنا ذات يوم وإذا بذئب وعلى ظهره هذا الغلام، فكلّمني الذئب وقال: خذ هذا الغلام، فإذا أتاك يونس بن متّي فسلّمه إليه، وإلّا كسرت عظمك، وأكلت لحمك، فخذ ولدك يا نبيّ الله!

فأخذه وسار حتى قرب نينوى، وإذا هو براع يرعى غنماً، فقال له يونس: هل من لبن؟ فقال: يا هذا والذي بعث يونس نبياً ماذقنا لبناً منذ غاب عنا يونس بن متّي، فقال: أنا يونس بن متّي، ففرح الراعي وقبّل ما بين عينيه ويديه ورجليه، ثم قال له: يا نبي الله لو رأيتنا ونحن نجول تحت العذاب لرحمتنا ولم تذهب عنّا، فقال له يونس: فاذهب الآن إلى المدينة وأخبر أهلها بأنّك رأيتني، فانطلق وأخبرهم.

فخرج أهل المملكة إلى يونس فاحتملوه ودخلوا به إلى المدينة، وأقعده الملك مكانه ووقف بين يديه يخدمه إلى أن مات الملك، ومات أولاد يونس وزوجته، فدعى يونس بالغلام الرّاعي فاستخلفه على نينوى، وخرج يونس ومعه سبعون رجلاً من العبّاد الزهّاد، حتّى وصلوا إلى جبل

صهور، وكانوا يعبدون الله حق عبادته إلى أن ماتوا وقبورهم هناك، وقيل: أنّ يونس أرسل إلى قوم غير قومه الأولين وتوفي ودفن بالكوفة والله أعلم.

فصل
في أيام إلياس عليه السلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[١].

وهو إلياس بن يس سبط هارون[٢]، وقيل: هو إلياس بن فنحاص من ولد هارون بن عمران، بعثه الله إلى أهل بعلبك، وكانوا يعبدون صنماً لهم اسمه بعل، فنهاهم إلياس عن عبادته بقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، فلم يقبلوا منه ولم ينتهوا من عبادة الصنم.

فأوحى الله إليه: إنّي قد جعلت أرزاقهم بيدك، فدعا إلياس عليهم فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين، فهلكت زروعهم ومواشيهم فشكوا ضرّهم إليه، فقال لهم: أخرجوا أصنامكم فادعوها فإن أجابتكم ورفعت الضرّ عنكم، فأنتم على الحق فالتزموا عبادتها، فإن لم تجبكم فاتركوا عبادتها، فأخرجوها ودعوها فلم تجبهم، فلم يتركوا عبادتها!

فدعا إلياس عليهم فصعدت سحابة فأمطرت عليهم عذاباً، فلم يرجعوا عن عبادتها، فدعا إلياس ربّه أن يقبضه إليه، فأمره بالخروج فخرج ومعه اليسع بن أخطوب، فأقبل عليه فرس فركبه فانطلق به، وكساه الله الريش فطار مع الملائكة إنسياً سماوياً[٣]، وأهلك الله قومه، وقيل: أكرمه الله وأصعده إلى السماء حيث كذّبه قومه، وعبدوا الصنم الذي يقال له بعل[٤].

عن ابن عباس ومقاتل وقيل: إنّ إلياس صاحب البراري، والخضر صاحب الجزائر، ويجتمعان في كل يوم عرفة بعرفات[٥]، وهذا الفصل من مجمع البيان والله اعلم.

---

(١) سورة الصافات: ١٢٣.

(٢) فتح القدير ٤٠٩/٤، وفى الطبري والعرائس والكامل إلياس بن ياسين، واما البغدادي في المحبر فقال: إلياس بن تشبين بن العازر بن الكاهن بن هارون.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٣٠٨/٦، تفسير ابن كثير ٢٢/٤.

(٤) تفسير الميزان: ١٦٠/١٧، تفسير ابن كثير: ٣٧/٧، تفسير البغوي: ٥٢/٧.

(٥) مجمع البيان ٣٢٩/٨، بحار الأنوار ٣٩٧/١٣.

فصل
في أيام جرجيس عليه السلام

قيل: أنّه من أهل فلسطين، أرسله الله إلى ملك يقال له: ذاديانة[١]، يعبد الأصنام، فدعاه إلى عبادة الله عزّ وجل.

فقال: إنّ المال والملك والنعمة عندي منذ عبدت الصنم، فأين أثر عبادتك لربّك، فقال: إنّ نعم الدنيا فانية والله يعطيني نعيم الآخرة، فجرى بينهما مباحث كثيرة وأمر بقتله فقتلوه سبعين مرّة، فيحيه الله، وعذّبوه مرّة بعد أخرى، حتى قال له الملك: يا جرجيس أريد منك أن تسجد لصنمي سجدة واحدة، وأطيعك في كل ما تأمرني، فسكت جرجيس ولم يجيب بشيء، فظن الملك أنّه قبل كلامه، فقال له: يا جرجيس قد عذبتك واذيتك كثيراً، فاذهب معي إلى بيتي لتستريح الليلة، فذهب معه إلى منزله فقام إلى الصلاة وقرء الزبور حتى طلع الفجر، فأثّرت قرائته في قلب امرأة الملك، فبكت وقامت إليه وأسلمت.

فلمّا أصبح الملك دعا جرجيس إلى السجدة، فلم يجيبه فحبسه في بيت عجوز لها ابن أصمّ وأبكم وأعمى، ومنعوا منه الطعام والشراب، وكان في بيت العجوز شجرة، فدعا جرجيس ربّه فاخضرت الشجرة وأثمرت أنواع الثمار، وأكل منها فأسلمت العجوز، وسألت جرجيس أن يدعوا الله لابنها المعلول، فدعا له فأزال الله عنه ما كان فيه، فقال له جرجيس: يا غلام أذهب إلى بيت الأصنام، وقل لها: إنّ جرجيس يدعوكنّ، فذهب الغلام ودخل بيت الأصنام، وكان فيه سبعون صنماً، فلمّا بلّغ الغلام رسالة جرجيس، خرّت الأصنام وأتت إلى جرجيس، فلمّا رآها جرجيس أشار إليها وركض الأرض برجله فانخسفت بالأصنام.

فلمّا رأت امرأة الملك ذلك صعدت أعلى القصر ونادت يا أهل البلدة ارحموا أنفسكم وأسلموا، فقال لها زوجها: إنّي رأيت من جرجيس منذ سبع سنين معجزات كثيرة وما أسلمت، وأنت أسلمت برؤية معجزة واحدة، فقالت: ذلك من شقاوتك وهذا من سعادتي، فأمر بقتلها فقتلت.

ثم ناجى جرجيس ربّه فقال: إلهي قاسيت منذ سبع سنين أذى المشركين، فلم يبق لي طاقة بعد اليوم، فارزقني الشهادة وعذّبهم عذاباً شديداً، فلمّا فرغ من دعائه رأى ناراً تنزل من السماء، فلمّا

---

(١) في الكامل: دازانة، وفي تاريخ الطبري: داذانه، وفي العرائس: راذانة.

دنت النّار إليهم، سلوا سيوفهم وقتلوا جرجيس، فنزلت النار وأهلكتهم على ما ذكر والله أعلم.

فصل
في أيام دانيال وعزير وأرميا عليهم السلام

ذكر أنّه لمّا ولي بخت نصر على بابل، في سنة اثنين وخمسين وتسعمائة لوفاة موسى عليه السلام، سار في السنة الأُولى لولايته إلى نينوى ففتحها وقتل أهلها، وفي السنة الرابعة سار إلى الشام وغزا بني إسرائيل فلم يحاربوه وصالحوه وأطاعوه، واستقر صدقيا آخر ملوك بني إسرائيل تحت حكم بخت نصر بالقدس[١].

فعصى صدقيّا آخر ملوك بني إسرائيل على بخت نصر سنة عشرين من ولايته، فسار بخت نصر بالجيوش، ونزل على بارين[٢]، وجهّز وزيره لحصار صدقيّا بالقدس، فحاصره سنتين ونصف ففتحها بالسيف، وأُسر صدقيّاً وخرّب القدس وحرقها، وأباد بني إسرائيل قتلاً، وكان لبيت المقدس عامراً اربعمائة وخمسين سنة، وأقامت خراباً بعد ذلك تسعين سنة.

وهرب جماعة من بني إسرائيل من بخت نصر إلى مصر، وطلبهم بخت نصر من فرعون مصر، فمنعه منهم فقصده بخت نصر، والتقى هو وفرعون الأعرج، وأنتصر بخت نصر عليه وقتله وصلبه وخرّب مصراً وبقت خراباً أربعين سنة.

وسار إلى الغرب وخرّب البلاد وسبى العباد، فحمل معه دانيال النبيّ وحزقيل[٣]، وجماعة من أولاد الأنبياء، وجعل دانيال في جب عظيم واسع، وجعل الأسد معه ليأكله فلم يقربه، وأمر أن لا يطعم فكان الله يأتيه بطعامه وشرابه على يد نبي من أنبياء بني إسرائيل، وكان دانيال يصوم النهار ويفطر الليل على ما يدلى إليه من الطعام، فلمّا تناهى البلاء بدانيال، رأى بخت نصر في المنام كأنّ ملائكة من السماء قد هبطت إلى الأرض أفواجاً إلى الجب الذي فيه دانيال مسلمين عليه ويبشّرونه بالفرج، فلمّا أصبح ندم على ما فعل بدانيال، فأمر أن يخرج من الجب، فلمّا أخرج اعتذر إليه لما ارتكب منه من التعذيب.

وفسّر دانيال لبخت نصر منامه فأنعم عليه، ثم فوض إليه النظر في أمور ممالكه والقضاء بين

---

(١) تفسير الميزان ٣/٣٠٩.

(٢) قرية من قرى حماة، وهي بين حلب وحماة من جهة الغرب. [معجم البلدان ١/ ٣٢٠].

(٣) في المخطوط (حزقال)، والصحيح ما اثبتناه.

الناس، فظهر من كان مستتراً من بني إسرائيل، ورفعوا رؤسهم واجتمعوا إلى دانيال موقنين بالفرج، فلم يلبث دانيال إلّا قليلاً على تلك الحال، حتى مضى لسبيله وأفضى الأمر بعده إلى عزير.

فكانوا بني إسرائيل يجتمعون إليه، ويأنسون به ويأخذون منه[١] معالم دينهم، فمرّ عزير على قرية بيت المقدس وهي خراب، فـ﴿**قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾[٢] فأتى قومه على حماره، فقال أنا عزير فكذّبوه، فقرأ عليهم التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا: عزير ابن الله وكذّبوا؛ تعالى الله عن ذلك.

وفي مدة خراب بيت المقدس أوحى الله إلى أرميا إنّي عامر بيت المقدس، فاخرج إليها فخرج إليها وعمّر بيت المقدس بعد خرابه تسعين سنة، فتراجعت إليه بنو إسرائيل ومن جملتهم عزير، ولبث عزير فيهم يدبرهم أربعين سنة، وتوفّي لسنة ثلاثين ومائة لولاية بخت نصر، وهو من ولد فنحاص بن العزير بن هارون بن عمران.

واشتدت البلوى على بني إسرائيل حتى ولد يحيى بن زكريا عليه السلام، وكانت مدة ملك بخت نصر سبعاً وخمسين سنة وشهراً وثمانية أيام، وقيل: تسعين سنة.

وتفسير بخت نصر بالعربية: عطارد، منطاق، وكان بخت نصر من عمال لهراسف[٣] الملك الفارسي.

واستمرّ في بني إسرائيل حكّام منهم تحت حكم الفرس، إلى أن ظهر الإسكندر اليوناني في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لولاية بخت نصر، وغلبت اليونان على الفرس.

ونقلت التوراة من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية وهي أصحّ نسخ التوراة، لأنّه اتفق عليها اثنان وسبعون عالماً منهم، ثم بعد مضي ثلاثمائة وثلاث سنين للإسكندر، ولد المسيح عيسى ابن مريم بنت حنّة، وأبوها عمران بن ماتان من ولد سليمان.

فصل
في أيام زكريا عليه السلام

ذكر أنّ زكريا تزوّج ايساع أُخت حنة أم مريم بنت عمران بن ماتان، من ولد سليمان بن

---

(١) في مخطوطة مكتبة المرعشي (ويأخذونه)، والصحيح ما اثبتناه، انظر الزام الناصب: ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٣) في المخطوط (بستاسف) والصحيح ما اثبتناه.

داود ﷺ، فلمّا ولدت حنة مريم كفلها الله تعالى زكريا.

روي أنّ حنّة لمّا ولدت مريم لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم النذيرة فتنافسوا فيها؛ لأنها بنت إمامهم وصاحب لهم، فقال: زكريا أنا أحقّ بها لأنّ عندي خالتها، فأبوا إلّا القرعة وكانوا سبعة وعشرين، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسب أقلامهم فتكفّلها زكريا.

ولمّا رأى منزلتها عند الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾[1] من ثمار الجنّة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ﴾[2] فأرسل الله تعالى جبرئيل يبشّر زكريّا ﴿بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾، يعني عيسى بن مريم، لأنه حصل بكلام الله تعالى من غير أب.

وولد يحيى قبل عيسى لستة أشهر ولمّا ولد عيسى اقترف اليهود الكذب على زكريا واتّهموه بمريم، وحاشاهما ـ أعاذهما الله من ذلك ولعن اليهود والكذبة ـ، وطلب اليهود زكريا فاختفى عنهم في شجرة فدلّهم عليه إبليس فشقوا الشجرة بالمنشار وشقوا زكريا نصفين، ليعلم العالمون إنّ الله تعالى يشدد البلاء على الأنبياء والأوصياء والأولياء.

كما حكي عن يحيى ابن معاد الرازي أنّه ناجى ربّه في ليلة فقال: إلهي إن أطلبك أتعبتني وإن هربت منك أدركتني وحرمتني وإن أحببتك قتلتني فلا منك فرار.

وكان قتل زكريا يوم الثلاثاء وكان عمره مائة سنة على ما ذكر والله أعلم.

فصل
في أيام يحيى بن زكريا ﷺ

سمّاه الله تعالى بهذا الأسم قبل مولده؛ لأنّ الله تعالى احيى به عقر أمّه وآتاه النبوّة في حال صباه، وهو ابن ثلاث سنين كما قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[3]، فدعى الناس إلى عبادة الله ولبس الشعر، واجتهد في العبادة حتى نحل جسمه.

---

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

(٢) سورة آل عمران: ٣٨.

(٣) سورة مريم: ١٢.

روي أنّه مرّ في صباه في صبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت[١].

وكان عيسى قد حرّم نكاح بنت الأخ وكان لهيرودس هو اسم لكل من حكم على بني إسرائيل من قبل اليونان بنت أخ، فأراد أن يتزوّجها فنهاه يحيى عن ذلك، فطلبت أم البنت من هيرودس أن يقتل يحيى، فلم يجبها فعاودته وسألته البنت أيضاً وألحّتا عليه فأجابهما، وأمر بيحيى فذبح لديهما كما تذبح الشاة[٢].

فبكت عليه ملائكة السماء وقالت: إلهنا بأي ذنب قتلوا يحيى، فقال تعالى: ما أذنب يحيى ولاهمّ بالذنب قط ولكن أحببني واحببته فلابدّ في الحب من القتل.

على ما ذكر محمّد بن عبدالرحمن الهمداني وكان قتل يحيى يوم الثلاثاء قبل رفع عيسى بمدّة يسيرة، ودفن بسبسطية[٣] ويحيى ومريم ابنا خالة.

ولم يزل دم يحيى يغلي ويفور، حتى سلّط الله الفرس على بني إسرائيل، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه: جوذرز وقيل خردوس، فدخل بيت المقدس فذبح قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي، فسألهم عنه، فقالوا: دم قربان لم يقبل، فقال: ما صدقوني؟ فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم، فقال: إن لم تصدّقوني ما تركت منكم أحداً، فقالوا: إنّه دم يحيى بن زكريا، فقال: لمثل هذا ينتقم منكم ربّي، ثم قال: يا دم يحيى قد علم ربّي وربّك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله قبل أن لا أبقي منهم أحداً، فهدأ الدم بإذن الله، وهو قوله تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**﴾[٤] أوّلهما: مخالفة أحكام التوراة، وقتل شعيب، فسلّط الله عليهم بخت نصر عامل لهراسف الملك الفارسي على بابل، وثانيهما: قتل زكريّا ويحيى، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ** ـ أي وعد عقاب فساد المرة الآخرة ـ **لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾[٥] وذلك أن سلط الله عليهم الفرس هذه المرة.

---

(١) تفسير الالوسي ١٤٨/٣.

(٢) قصص الانبياء: ٣٩٦.

(٣) في المخطوط (صبطية)، وما اثبتناه هو الصحيح، انظر الكامل في التاريخ ٤٩٩/٢.
وهي بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان. معجم البلدان باب السين والباء وما يليهما.

(٤) سورة الإسراء: ٤.

(٥) سورة الإسراء: ٧.

فصل
في أيام عيسى عليه السلام

بينه وبين يهودا بن يعقوب ثلاثون أباً، حملت به أمّه مريم بنت عمران بن مأتان من ولد سليمان ابن داود، وكان سنّها ثلاثة عشر سنة، وقيل: عشرة سنين بأن نفخ جبرئيل في روعها فدخلت النفخة في جوفها، وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، وقيل: ستة.

وقال ابن عباس ساعة واحدة كما حملته نبذته قال الله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾[١] ﴿فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ ولم يذكر بينهما فصلاً.

وولد عيسى سنة أربع وثلاث مائة لغلبة الإسكندر في بيت من قرى القدس، وكان بينه وبين موسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وبين موسى وإبراهيم ألف سنة، وجرى لأمه ما قصّه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾[٢] أي بديعاً منكراً يا ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ في الزهد والعبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ فمن أين جئت بهذا الولد؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي كلّموه ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله به أوّلاً لأنه أولى المقامات، فقدّم إقراره بالعبودية ليبطل قول من يدعي الربوبية ﴿آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ مبعوثاً إلى الناس في ذلك الوقت.

قيل: إنّه كلّمهم وهو ابن أربعين يوماً عن وهب، وقيل: يوم ولد عن ابن عبّاس وأكثر المفسرين.

فلمّا كلّمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلّم فيها الصبيان، وبقيت مريم وعيسى في بيت المقدس. ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ والربوة: المكان المرتفع، وهو بيت المقدس.

قال كعب: هي أقرب الأرض إلى السماء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[٣] ينادي إسرافيل من على صخرة بيت المقدس.

ثم جاءت به أمّه إلى مصر، ولمّا بلغ اثنى عشرة سنة عادت به إلى الشام، ونزلا بالناصرة محلة

---

(١) سورة مريم: ٢٢.

(٢) سورة مريم: ٢٧.

(٣) سورة ق: ٤١.

بدمشق، يقال لها: الناصرية، وبها سميّت النصارى لأنّ أصل دينهم نبع منها[١].

وأقام بها عيسى حتى بلغ عمره ثلاثين سنة، فأوحى الله إليه وأرسله إلى الناس، وسار به يحيى ابن زكريا إلى الأردن، وهو نهر الغور المسمّى بالشريعة، وأغمره فيه لستة أيام خلت من كانون الثاني.

وأظهر عيسى المعجزات وأنزل الله عليه الإنجيل، وأحيا ميتاً يقال له عازر بعد ثلاثة أيام من موته، فخرج من قبره وبقي وولد له، وقيل: إنّه أحيى سام بن نوح ورجلين آخرين وامرأة وجارية، وأبرئ الأكمة والأبرص، وكان يجتمع عليه ألوف من المرضى، وما يداوي إلّا بالدعاء، وجعل من الطين طائراً قيل: هو الخفاش الذي يطير في أوّل الليل، وكان يمشي على الماء ويلبس الشعر، ويأكل ورق الشجر، ولا يدّخر شيئاً لغد، ويقول: مع كل يوم رزقه، ولم يكن له بيت فينخرب، ولا ولد فيموت، وأينما أمسى بات، ولم يضع لبنة على لبنة.

وكان الحواريون الذين له اثنى عشر رجلاً وهم شمعون الصفا، وشمعون القنابي[٢]، ويعقوب بن زندي، ويعقوب ابن خلقي، وقولوس[٣]، ومارقوس، واندرواس، وتمريلا، ويوحنا، ولوقا، وتوما، ومتي، وهم الذين سألوه المائدة، فأنزلها الله عليه، وهي سفرة حمراء مغطاة بمنديل[٤].

روي في أنوار التنزيل أنّها نزلت بين غمامتين وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام، وقال: اللّهم اجعلني من الشاكرين، اللّهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلّى وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين فإذا سمكة مشويّة بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها ألوان البقول ما خلا الكرّاث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وقيل: تمر، وعلى الخامس قديد، وقيل: رمّان، فقال شمعون الصفا ـ رأس الحواريين ـ: يا روح الله أمن طعام الدنيا أو من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما؛ ولكن اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتم، واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله.

فقالوا يا روح الله: لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة أحي بإذن الله، فاضطربت،

---

(١) بحار الأنوار ٢٦٨/١٤، فتح القدير للشوكاني ٩٤/١.

(٢) في المخطوط (الصاي)، وما اثبتناه من المصدر.

(٣) في المخطوط (عربوس).

(٤) المختصر في أخبار البشر: ٢٠/١.

فقال لها: عودي كما كنت فعادت مشوية، فأكل منها خلق كثير ولم تنقص، ولم يأكل منها ذو عاهة إلّا برئ، ولا فقير إلّا استغنى، وكانت تنزل يوماً وتغيب يوماً أربعين ليلة.

ثم طارت المائدة، ثم عصى بعدها جماعة من بني إسرائيل، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً.

وبعد ثلاث سنين من رسالة عيسى، طلبه قبلاطوس ليقتله، فتوفاه الله وفاة نوم، كما قال تعالى: ﴿**يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾، وقيل: أماته سبع ساعات ورفعه إليه، وألقى شبهه على شخص، فمسك ذلك الشخص وصلب ست ساعات وهو الذي دلّهم عليه، وارتشى على ذلك بثلاثين درهماً، ثم استوهبه يوسف النجّار ابن عم مريم ودفنه في قبر كان أعدّه لنفسه.

وأنزل الله المسيح عيسى ابن مريم إلى أمّه وأخبرها إنّ الله رفعه إليه ولم يصبه إلّا خيراً، فزال حزنها وبكاؤها.

وجمعت له الحواريين فبثّهم في الأرض رسلاً، فأرسل اثنين إلى انطاكية فلمّا قربا منها رأيا حبيب النجّار يرعى غنما، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا : نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرئ، فآمن حبيب، وفشى الخبر فشفى على أيديهما خلق.

وبلغ حديثهما إلى الملك فطلبهما، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ ـ وكانوا عبدة أصنام ـ قالا نعم، من أوجدك وآلهتك، فحبسهما ثم بعث شمعون الصفا رأس الحواريين، كما قال تعالى: ﴿**وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾[1]، فهو شمعون، فدخل متنكراً وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فأنس به، فقال له: يوماً سمعت إنّك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ قال: لا ؛ حال الغضب بيني وبينهم، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي هو خالق كل شيء ليس له شريك، فقال صفاه وأوجزا، قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال: وما آيتكما؟ قالا : ما يتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعوا الله فانشق بصره، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك لصنع مثل هذا حتى يكون لك وله الشرف؟ قال: ليس لي منك سر، إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت أمنّا به، فدعوا بغلام مات منذ سبعة أيّام، لم يدفن حتى يحضر أبوه، فدعوا، فقام وقال: إنّي دخلت ستة أودية من النّار وأنا أحذّركم ما أنتم فيه، فأمنوا به، وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة، شمعون وهذان، فلمّا رأى شمعون أنّ قوله قد أثّر في الملك نصحه فآمن في جمع، ومن لم

---

(١) سورة يسّ: ١٣ و١٤.

يؤمن صاح عليهم جبرئيل فهلكوا، كما قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[١].

ورفع الله عيسى إلى السماء وعمره ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر، وعاشت أمّه مريم بعد رفعه ست سنين ثم توفّيت وعمرها نحو ثلاث وخمسين سنة، وبعد رفع المسيح بأربعين سنة غزا طيطوس ملك الروم بيت المقدس وخرّبه وقتل اليهود وأسرهم، ولم يبق لهم بعد ذلك دولة ولا رئاسة، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾[٢] على غضب.

وكان بيت المقدس عامراً منذ عمره اردشير بهمن سبعمائة وأحدى وعشرين سنة، ثم بعد تخريبه الثاني تراجع إلى العمارة قليلاً قليلاً واستمر عامراً العمارة الثالثة إلى أن خرّبته أم قسطنطين ملك الروم، وبنت كنيسة أمامه على القبر الذي تزعم النصارى أنّ عيسى ابن مريم دفن فيه، وصار موضع الصخرة مزبلة، إلى أن قدم عمر بن الخطاب وفتح القدس في وقت خلافته سنة خمس عشرة من الهجرة، واستدل على هيكل بيت المقدس فنظّفه من الزبائل وعمّره وبنى به مسجداً، إلى أن ولي الوليد بن عبدالملك بن مروان الأموي في سنة ست وثمانين، فهدمه وأعاده إلى الأساس القديم، وهو المسجد الأقصى والصخرة، وبنى قباباً هناك سمّى بعضها قبّة الميزان وقبّة المعراج وقبّة السلسلة، والأرض على ذلك إلى يومنا هذا أبقاه الله كذلك.

وكانت الفترة من رفع المسيح عيسى ابن مريم روح الله، إلى مولد النبيّ العربيّ محمّد بن عبدالله خمسمائة وخمساً وأربعين سنة، وبدولة النبيّ ﷺ انقضت سائر الدول، وانتسخت الملل وظهر دين الإسلام على الدين كلّه.

وقال رسول الله ﷺ: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده[٣].

فصل
في أيام المصطفى ﷺ

وهو محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن

---

(١) سورة يسٓ: ٢٩.

(٢) سورة الفاتحة: ٦١.

(٣) كتاب الام ٤/١٨٠، ابن شهرآشوب ١/١٢١.

نزار بن معد بن عدنان[١] بن أد بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن النبت بن حمل بن قيدار ابن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن.

اسمه محمّد، كنيته أبو القاسم، لقبه المصطفى، مكان ولادته شعب أبي طالب، يوم ولادته الاثنين، شهر ولادته سابع عشر ربيع الأوّل أو ثاني عشر، سنة ولادته عام الفيل، ملك وقت ولادته انو شيروان، اسم أُمّه آمنة بنت وهب، نقش خاتمه الشهادتان، عدد أزواجه خمس عشرة، عدد أولاده ثمانية، مدت عمره ثلاث وستون سنة، يوم وفاته الاثنين، شهر وفاته ليلتين بقيتا من صفر أو ثاني عشر ربيع الأوّل، سنة وفاته أحدى عشر من الهجرة، مكان وفاته مسجد المدينة، سبب وفاته مرض مرضاً قبض فيه، مكان قبره مشهده الآن، ملك وقت وفاته هرقل، اسم بوابه علي بن أبي طالب.

ذكر أنّ عبدالمطلب ولد له إثنا عشر ولداً وست بنات، ورأى في منامه آمراً له بحفر بئر زمزم، لأنّ جرهماً طمّته حين خرجوا من مكّة، فرأى شدة حين حفره، فنذر إن ولد له عشرة ذكور يعينونه لينحرنّ أحدهم عند الكعبة، فلمّا منّ الله عليه بذلك ضرب القداح فخرجت على عبدالله. فعظم ذلك على قريش لحبّهم فيه، فقالوا: والله لا تفعل حتى تستفتي فيه، فسألوا امرأة في قريش كانت متبوعة[٢] اسمها سجاح، وقيل: قطبة، فقالت: كم الدّية عندكم، فقالوا: عشرة من الأبل، فقالت: يقدح مع عشرة، وكلمّا وقعت عليه تزداد الأبل عليها مرة بعد أخرى، ففعلوا ذلك عشر مرات وهي تقع عليه، ثم فعلوا ذلك فوقعت على الأبل مائة ثم فعلوا فوقعت على الأبل ثلاثاً فخرجت، وبقيت عند الكعبة لا يصد عنها أحد، ولذلك قال: أنا ابن الذبيحين، لأنّ الذبح الأوّل جدّه إسماعيل، والثاني أبوه عبدالله.

[وتزوّج عبدالله][٣] آمنة بنت وهب بن عبدمناف سيّد بني زهرة، فحملت بسيّد البشر صلّى الله عليه وآله الغرر، قالت آمنه: لم أر له ثقلاً، ورأيت في نومي أنّه خرج منّي نور أضاءت به الدنيا، كما قيل:

كشف الدجى بجماله بلغ العلا بكماله
حسنت جميع خصاله صلوا عليه وآله

---

(١) الاجماع منعقد على هذا النسب إلى عدنان وما بعده مختلف فيه.

(٢) التابع والتابعة: الجني والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب. تاج العروس ٣٨/١١.

(٣) بين المعقوفين اثبتناه من نسخة (استان قدس رضوي).

ولذلك قال ﷺ: «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمّي»[١].

وتوجّه عبدالله ليمتار فتوفّي بيثرب، وخلّف خمسة أجمال وجارية حبشية هي أم أيمن، خاصة رسول الله اسمها [بركة][٢] زوّجها رسول الله ﷺ لمّا كبر بعبده زيد بن حارثة، فأولدها أُسامة بن زيد.

وهتف بأمه هاتف إنّك حملت بسيّد هذه الأمّة فإذا وقع على الأرض فسميّه محمداً، وقولي أعيذه بالواحد من شرّ كل حاسد، ووضعته مختوناً مسروراً مكحولاً لسبعة عشر ليلة خلت من ربيع الأوّل أو لاثني عشر منه عام الفيل.

وكانت قصّة الفيل في منتصف المحرم سنة إحدى وثمانين لغلبة الإسكندر على الصحيح.

وفي الليلة التي ولد فيها أرتجس[٣] أيوان كسرى، وسقط منه أربعة عشرة شرافة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، وحرست السماء بالشهب كما قال البوصيري:

وتداعى بناء كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل يوم بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كانت لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان في طالع الكفر وبال عليهم ووباء
فهنيئاً به لآمنه الفضل الذي شرفت به حواء

إلى آخر القصيدة.

ولد ﷺ في قبة الأرض في البيت القديم، ومقام إبراهيم في البلد الحرام، والمشاعر العظام، من أشرف أب وأطهر نسب، في أكثر جبلٍ، وأكرم قبل، في أسعد طالع، وأيمن ساعة، في أجمل عشيرة، وأفصح أمّة، في أصدق صحب، وأعظم خطب، فليس معه في المقاومة ضدّ، ولا في المساواة حدّ، وقال به جبرئيل: يا محمّد حرمت النار على ظهر أنزلك، وبطن حملك وحجر كفلك[٤].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١٩٩/١، مختصر تاريخ دمشق: ١٥/١، عيون الأثر: ٥٠/١.

(٢) بين المعقوفين اثبتناه من نسخة (استان قدس رضوي).

(٣) الارتجاس: الاضطراب والتزلزل.

(٤) علل الشرائع: ٧٠، معاني الأخبار: ٥٥.

ورأى الموبذان[1] ـ وهو القاضي للفرس ـ في منامه إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلمّا أصبح كسرى أرسل خلف القاضي لارتجاس الإيوان، فقصّ عليه المنام، وقال: لعل أمراً يحدث من العرب.

فأرسل كسرى أنوشروان إلى النعمان بن المنذر، أن يرسل إليه عالم العرب، فأرسل عبدالمسيح ابن عمرو الغساني، فأخبره كسرى بما جرى من ارتجاس الإيوان، وخمود النيران، فقال عبدالمسيح: علم هذا عند خالي سطيح بالشام قال: فأته وأخبرني بجوابه.

فتوجّه إليه وقدم عليه وهو عند الموت، فسلّم عليه وحيّاه فلم يرد عليه جواب ما حكاه فأنشده أبيات من الشعر، ليفهمه إنّه أتى رسولاً من ملك العجم، لتفسير طيف القاضي وارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ففتح سطيح عينه ونظر إليه، وقال عبدالمسيح: على جبل يسبح[2]، أتى إلى سطيح وقد وافى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها، وأصلحت فسادها، يا عبدالمسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة[3]، وفاض وادي سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، فليست الشام لسطيح شاماً ولا العراق لبني ساسان مقاماً، يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت وقضى سطيح وعاد عبدالمسيح بجواب سطيح، قال أنوشروان: إلى أن يملك منّا أربعة عشر ملكاً تكون أمور، فملك منهم أربعة عشر ملكاً من بعد أنوشروان إلى السنة التاسعة من خلافة عثمان، وانتسخ ملك الفرس وغيرهم بالإسلام.

وأوّل مرضعة أرضعت رسول الله صلى الله عليه وآله ثويبة، مولاة عمّه أبي لهب مع ولدها مسروح، وأرضعت أيضاً بلبن مسروح عمّه حمزة بن عبدالمطلب، وأبا سلمة بن عبدالأسد، ولمّا قدمت المراضع مكّة، أخذته حليمة بنت أبو ذؤيب السعديّة، ومضت به إلى بادية بني سعد، ووجدت من الخير والبركة ما هو من بعض معجزاته.

ولمّا ترعرع خرج معه رعيه حليمة فعاد ابنها، وقال: إنّ أخي القرشي أخذه رجلان فشقّا بطنه، فخرجت حليمة وزوجها يستبقان إليه فوجداه قائماً، فقال لهما: جائني رجلان فشقا بطني وأخرجا

---

(١) في القاموس الموبذان ـ بضم الميم وفتح الباء فقيه الفرس، وحاكم المجوس كالموبذ. والجمع الموابذة والهاء فيها للعجمة.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب ٢/٥٠٠: وفي حديث سطيح «على جمل مشيح» أي جاد مسرع. وفي كمال الدين: «يسبح».

(٣) اراد به النبي صلى الله عليه وآله، لانه كان يمشي بالعصا بين يديه.

منه شيئاً وقال هذا خط الشيطان منك فاحتملته حليمة وعادت به إلى أُمّه[١].

وبهذا حديث رواه ابن بابويه في كمال الدين عن أبي الحسن علي بن عثمان بن مرة بن مزيد الهمداني، المعروف بأبي الدنيا معمر المغربي، قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كنت أرعى الغنم إلى أن قال: فإذا أنا بثلاثة أملاك جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فلمّا رأوني قالوا: هذا محمّد، بارك الله فيه، فاحتملوني وأضجعوني وشقوا جوفي، وأخرجوا قلبي من موضعه، وغسلوا جوفي بماء بارد حتى نقي من الدم، ثم ردوا قلبي إلى موضعه، وأمروا أيديهم على جوفي فالتحم الشق بإذن الله، وخرجت أعدوا إلى أمّي ـ يعني حليمة ـ فخبرتها بالخبر، فقالت: سوف يكون لك في الجنة منزلة عظيمة[٢].

ونظم البوصيري هذا المعنى وما قبله بقوله:

وبدت في رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء

إذ أتته ليتمه مرضعات قلن ما في اليتيم عنا غناء

فأتته من آل سعد فتاة قد أبتها لفقرها الرضعا[٣]

إلى الاخر.

فأخوة رسول الله من رضاع حليمة: عبدالله، وأنيسة، وجذامة وهي الشيماء، أبوهم الحارث بن عبدالعزى[٤].

فلمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ست سنين توفّيت أُمّه بالأبواء بين مكّة والمدينة، فكفله جدّه عبدالمطلب، فلمّا بلغ ثمان سنين مرض عبدالمطلب فبعث إلى أبي طالب واسمه عبد مناف، فدخل عليه ومحمّد صلى الله عليه وآله على صدره وهو في غمرات الموت، فقال له: أوصيك يا عبدمناف بعدي بواحد بعد أبيه فرد، ثم قال: يا أبا طالب! انظر إن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشمّ رائحة أبيه، ولم يذق شفقة أُمّه، أن يكون من جسدك بمنزلة كبدك، فإنّي قد تركت بنيّ كلّهم وأوصيتك به، لأنّك من أم أبيه فاحفظه لوحدته وأنصره بلسانك ويدك ومالك، فإنّه والله سيسودكم، ويملك ما لم يملك أحد من بني آبائي، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، هل قبلت وصيتي؟ قال: نعم قد قبلت والله عليّ بذلك شاهد، فقال: عبدالمطلب الآن خفف عليّ الموت،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الايمان: ٢٢٦.

(٢) كمال الدين واتمام النعمة: ٥٤٢.

(٣) السيرة الحلبية ١/١٤٩.

(٤) ما اثبتناه من نسخة «استان قدس رضوي»، وفي نسخة مكتبة «السيّد المرعشي» (الحرث بن عبدالعزيز).

فمات عبدالمطلب ورسول الله صلى الله عليه وآله عمره ثمان سنين.

فضمّه عمّه أبو طالب إلى نفسه لا يفارقه ساعة من ليل ولا نهار حتى بلغ، ولمّا بلغ ثلاث عشر سنة أو نحوها خرج به عمّه أبو طالب في تجارة إلى الشام.

فلمّا رآه بحيرى الراهب ببصرى(١)، ورأى له نوراً أمامه ما بين السماء والأرض، قال له: يا غلام أسألك عن ثلاث خصال بحق اللات والعزى ألا ما أخبرتنيها، فغضب رسول الله عند ذكر اللات والعزى، فقال: لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً كبغضهما، إنّما هما صنمان من حجارة لقومي. فقال بحيرى: هذه واحدة، ثم قال: فبالله ألا أخبرتني، فقال: سل عمّا بدا لك فإنّك قد سألتني إلهك وإلهي الذي ليس كمثله شيء، فقال: أسألك عن نومك ويقظتك، فأخبره فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفة التي عنده.

فأكبّ بحيرى عليه فقبّل يديه ورجليه، وهو يقول: يا بنيّ ما أطيبك وأطيب ريحك، يا أكثر النبيين اتباعاً، يا من بهاء نور الدنيا من نوره، يا من بذكره تعمر المساجد، كأنّي بك قد قدت(٢) الأجناد والخيل الجياد، وتبعك العرب والعجم طوعاً وكرهاً، وكأنّي باللات والعزى قد كسرتهما وقد صار البيت العتيق لا يملكه غيرك، تضع مفاتيحه حيث تريد، كم من بطل من قريش والعرب تصرعه؟! معك مفاتيح الجنان والنيران، معك الذبح الأكبر وهلاك الأصنام، أنت الذي لا تقوم الساعة حتى تدخل الملوك كلّها في دينك صاغرة ذليلة، لئن أدركت زمانك لأضربن بين يديك بالسيف ضرب الزند بالزند(٣)، أنت سيّد ولد آدم وسيّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، [و]دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، أنت المقدّس المطّهر من أرجاس الجاهلية(٤).

ثم التفت إلى أبي طالب فقال له: ما يكون هذا الغلام منك، فإنّي أراك لا تفارقه، فقال أبو طالب: هو ابني، فقال: ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون والده الذي ولده حياً، ولا أُمّه، فقال: إنّه ابن أخي وقد مات أبوه وأُمّه حاملة به، وماتت أمّه وهو ابن ست سنين، فقال: صدقت هكذا هو؛ ولكن أرى لك أن تردّه إلى بلده عن هذا الوجه، فإنّه ما بقي على ظهر الأرض يهودي ولا نصراني ولا صاحب كتاب إلّا وقد علم بولادة هذا الغلام، ولئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت أنا لاتبعوه شراً وأكثر ذلك من اليهود، قال أبو طالب: ولم ذلك؟ قال: لأنّه كائنة لابن أخيك هذه النبوة والرسالة،

---

(١) بليدة بحوران، وهي قصبة الكورة من أعمال دمشق.

(٢) من قاد الدابة، مشى أمامها آخذ بقيادها، وقاد الجيش، كان رئيساً عليهم.

(٣) الزند: الذي يقدح به النار.

(٤) كمال الدين للشيخ الطوسي: ١٨٥، سيرة ابن هشام: ١٩١/١.

ويأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، فقال أبو طالب: كلا إن شاء الله لم يكن الله ليضيعه.

ثم خرج به إلى الشام ورآه جماعة من الرهبان، وعرفوا منه ما عرف بحيرى، وكفاه الله كل همّ وضير.

ورجع به إلى مكّة وشب رسول الله، وكان أعظم النّاس مروّة وصدقاً وعفافاً وأحسنهم خلقاً وخلقاً وجواباً، وأعظمهم أمانة حتى سمّوه الأمين.

وحضر مع عمومته حرب الفجّار وعمره أربعة عشرة سنة، وقيل عشرون، لمّا انتهك فيها من حرمة الحرم وانتصرت قريش آخراً(١).

وسألته خديجة بنت خويلد أن يسافر لها في تجارة إلى الشام، ومعه غلامها ميسرة فأجابها، فلمّا عاد حدّثها ميسرة بما رأى من كرامة رسول الله ﷺ، وإنّ ملكين كانا يظلانه من الحرّ، فعرضت نفسها عليه، فذكر ذلك لأعمامه فخرج معه عمّه حمزة بن عبدالمطلب، حتى دخلا على خويلد ابن أسد فخطبها إليه، فتزوجها وأصدقها عشرين بكرة وكان عمره خمساً وعشرين سنة على الصحيح، وعمرها أربعين سنة على الصحيح أيضاً كما قال البوصيري:

ورأته خديجة والتقى	والزهد فيه سجيّة والحياء
وأتاها أن الغمامة	والسرح أظلته منهما أفياء
وأحاديث أنّ وعد رسول الله	بالبعث حان من الوفاء
فدعته إلى الزواج وما	أحسن ما تبلغ المنى الأذكياء
وأتاه في بيتها جبرئيل	ولذا اللب في الأمور ارتياء
فأماطت عنها الخمار لتدري	أهو الوحي أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأس جبرئيل	فما عاد بل اعيد الغطاء
فاستبانت خديجة أنه الكنز	الذي حاولته والكيمياء

ولم يتزوّج قبلها ولا عليها، وكل أولاده منها إلّا إبراهيم، فإنّه من مارية القبطة، وأخذها أيّماً كانت عند عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، فولدت له جارية. ثم تزوّجها بعد عتيق أبو هالة هند بن زرارة التميمي، فولدت له هند بن هند، ثم تزوّجها رسول الله ولم يتزوّج بكراً إلّا عائشة.

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/١٢٨.

فلمّا بلغ خمساً وثلاثين سنة وأرادت قريش أن تجدد بناء الكعبة، اختصموا عند وضع الحجر الأسود، حتى غمسوا أيديهم في الدماء للقتال وتعاقدوا على الموت. فقال لهم أبو أميّة ابن المغيرة: ـ وكان أسنّ قريش يومئذٍ ـ اجعلوا بينكم حكماً أوّل داخل الحرم، فأجابوه فكان أوّل من دخل الحرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا كلهم: هذا محمّد الأمين! رضينا به، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله ببرد ووضع الحجر فيه، وقال: ليأخذ كل قبيلة بطرف فأخذوه ورفعوه إلى موضعه، فثبّته رسول الله صلى الله عليه وآله بيده في مكانه.

فلمّا بلغ صلى الله عليه وآله أربعين سنة، أرسله الله تعالى إلى كافّة الخلق، ناسخاً بشريعته الشرائع كلّها، فجائه الملك بغار حراء لسبع وعشرين من رجب، وكان لا يمرّ بحجر ولا مدر إلّا ويقول: السلام عليك يا رسول الله.

روي أنّه صلى الله عليه وآله قال: كنت بحرّاء فنوديت يا محمّد، فنظرت من يميني وشمالي فلم أر شيئاً، فنظرت فوقي فإذا الملك على العرش، بين السماء والأرض، فرعبت ورجعت إلى خديجة، فقلت: دثروني! فدثروني، فنزل جبرئيل وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾[1]، فأيقن أنّه الوحي:

ثم قام النبي يدعوا إلى الله	وفي الكفر نجدة وآباء
أنما أشربت قلوبهم الكفـ	ـر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا	وإذا جاء الحق زال المراء
ربّ إن الهدى هداك وايـ	ـاتك نور تهدي بها من تشاء
كم رأينا ما ليس يعقل قد ألـ	ـهم ما ليس تلهم العقلاء
والجمادات أفصحت بالذي أخـ	ـرس عنه لأحمد الفصحاء

وأوّل من أسلم من الناس خديجة رحمها الله، ثم علي عليه السلام ـ وعمره عشر سنين ـ وضمّه رسول الله صلى الله عليه وآله حين شكا أبو طالب كثرة العيال في مجاعة أصابت قريش، ثم زيد بن حارثة اشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله فاعتقه، وقيل وهبته خديجة له، وكان قد أخذ من أبيه حارثة الكلبي وأنشد:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	أحي يرجى أم أتى دونه الأجل
يذكرنيه الشمس عند طلوعها	وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره	فيا طول ما حزني عليه ويا وجل

---

(١) سورة المدثر: ١ ـ ٣.

ولقيه أبوه بعد ذلك وأسلم، وخيّر رسول الله صلى الله عليه وآله زيداً فاختار رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال حارثة: يا معشر قريش أشهدوا أنّ زيداً ليس ابني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أشهدوا أنّ زيداً ابني، فكان يدعى زيد بن محمّد.

ثم أسلم بعد ذلك عبد العزى وكنيته أبو فصيل، فسمّاه رسول الله عبدالله وكنّاه أبو بكر، وكانت له يد في بعض علوم الجاهلية، كأنساب العرب والتواريخ والانواء وتعبير الرؤيا، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبدالله، ثم أسلم بعدهم أبو عبيدة بن الجرّاح واسمه عامر، وأبو سلمة واسمه عبدالله بن عبدالأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون وأخوه، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ابن هاشم، وسعيد بن زيد بن الخطاب أخ عمر، وعبدالله بن مسعود، ثم جماعة بعد جماعة من السابقين الأوّلين، بعضهم خوفاً وبعضهم طمعاً وبعضهم حياءاً.

قال عثمان بن مظعون: إنّي أسلمت استحياءاً من رسول الله صلى الله عليه وآله، فكنت عنده فنزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[1] فقرّ الإسلام في قلبي، فأتيت عمّه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش اتبعوا محمّد ترشدوا، فإنّه لا يأمركم إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق[2].

وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأتها عليه فقال: إن كان محمّد! قال: فنعم ما قال، وإن كان قاله ربّه فنعم ما قال، فأتاه النبيّ وقرأها عليه، فقال أعد يابن أخي! فأعاد، فقال: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة[3]، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق[4]، وما هو قول البشر[5]!!

وحنّ إلى الإسلام فقلبه ابن أخيه أبو جهل فنزل في حقه: ﴿**أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ**﴾[6].

وكانت دعوة رسول الله سراً ثلاث سنين ثم أظهرها، وكانت قريش لا تعارضه، بل منهم مصدّق ومنهم مكذّب فيما بينهم، إلى أن عاب آلهتهم ونسبهم إلى الضلال، فأظهرا عداوة ما كان في

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/١٠٠.

(٣) أي: الحسن والبهجة.

(٤) المغدق: من الغدق المطر الكثير الغامر.

(٥) تفسير مجمع البيان ٦/١٩٤.

(٦) سورة النجم: ٣٣ و٣٤.

نفوسهم من الحقد وحشّدوا عليه فذبّ عنه عمّه أبو طالب، فجاءت إليه رجال من أشراف قريش عتبة وشيبة أبنا ربيعة بن عبدمناف، وأبو سفيان بن أميّة بن عبدشمس، وأبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبدالعزى، والأسود بن المطلب، وأبو جهل بن هشام، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل، فقالوا: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد عاب ديننا، وسفه أحلامنا، وظلل آباءنا فانهه عنّا أو خلِّ[1] بيننا وبينه، فردّهم بالحسنى وأنشد:

أرقت وقد تصوبت النجوم ... وبت ولا تسالمك الهموم
لظلم عشيرة ظلموا وعقوا ... وغب عقوقهم لهم وخيم
هم انتهكوا المحارم من أخيهم ... وكل فعالهم دنس ذميم
وقالوا خطة جوراً وظلماً ... وبعض القول أبلج مستقيم
لنخرج هاشماً فتصير منها ... بلاقع بطن مكة والحطيم
فمهلاً قومنا لا تركبونا ... بمظلمة لها أمر عظيم
فيندم بعضكم ويذل بعض ... وليس بمفلح أبداً ظلوم
أرادوا قتل أحمد ظالميه ... وليس لقتله فيهم زعيم
ودون محمّد منا ندي ... هم العرنين والعضو الصميم

ثمّ عادوا إليه بذلك مرة أخرى، وأخذت كل قبيلة تعذّب من أسلم منها، وضربوا أبا بكر ضرباً أشرف منه إلى الهلاك.

وكان رسول الله ﷺ يوماً بالصفا، فمرّ به أبو جهل فشتمه، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ، وكان حمزة بن عبدالمطلب في قنص، وكان أعزّ فتى في قريش، وأشدّهم شكيمة[2] وبأساً، فلمّا عاد بلغه الخبر، فغضب وجاء إلى أبي جهل، فضربه بالقوس على رأسه فشجّه، فقال: أتشتم محمّداً؟ وأنا على دينه! وأسلم ثم علا إسلامه وعزّ رسول الله في قومه.

ثم كان عمر بن الخطاب من أشدّ أعداء رسول الله ﷺ، فأخذ يوماً سيفه وقصده ليقتله، فقال له نعيم بن عبدالله النحام: لا تدعك بنو عبد مناف بعده تمشي على الأرض، ولكن أردع أُختك وابن أخيك سعيد بن زيد وخباباً فإنّهم قد أسلموا، فقصدهم فسمعهم يتلون سورة طه، فقال: ما أحسن هذا! وتوجّه إلى رسول الله ﷺ ـ فأسلم بعد إسلامهم حمزة بثلاثة أيام ـ وكان خاتم الأربعين من المسلمين.

---

(١) في النسخ الخطية «وادخل» والصحيح ما اثبتناه. انظر شرح احقاق الحق ٩٠/٢٢.

(٢) الانتصار من الظلم.

وقيل: إنّ رسول الله ﷺ قال: اللّهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين يريد عمراً وأبا جهل ـ واسمه عمر ـ.

فلمّا أسلم حمزة وعمر، شق ذلك على قريش، فأتوا أبو طالب وقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنّا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضره وقال له: هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تميلن كل الميل عليهم، فقال: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، قالوا: نعم وعشراً، فقال: قولوا لا إله إلّا الله، فقاموا وقالوا: **﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾**[١]، بنا فلا مرد له[٢].

فروي أنّ رسول الله ﷺ استعبر[٣] ثم قال: يا عم! والله لو وضعت الشمس في يميني، والقمر في شمالي، ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه، فقال له أبو طالب: امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً وأنشد تيماً يخصهم:

ألا أبــلغا عــني لويـا رسـالة	بـحق وما تـغني رسالة مـرسل
بني عمنا الأدنـين تـيما نـخصهم	وإخواننا من عبد شـمس ونـوفل
اظــاهرتم قـوما عـلينا ولايـة	وأمـراً غـويا مـن غـواة وجـهل
يــقولون: لو إنــا قـتلنا مـحمّداً	أقـرت نـواصي هـاشم بـالتذلل
كذبتم وربّ الهدى تدمى نحوره	بـمكة والركـن العـتيق المـقبل
تــنالونه أو تـصطلوا دون نـيله	صوارم وتغري كل عضو ومفصل
فمهلا ولما تـنتج الحـرب بكـرها	فــبين تـمام أو بـآخر مـعجل
وتـلقوا ربيع الأبـطحين مـحمداً	على ربوة في رأس عنقاء عـيطل
ويأوي إليــه هــاشم إن هـاشماً	عـرانـين كـعب آخـر بـعد أول
وقـد كـنتم تـرجـون قـتل مـحمّد	فـروموا بـما جـمعتم نـقل يـذبل
فــإنا ســنحميه بكـل طـمرة	وذي ميعة نهد المـراكـل هـيكل
وكــل رديــني ظـماء كـعوبة	وعضب كايماض الغمامة مفصل

---

(١) سورة ص: ٥ و٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/٢١٥.

(٣) أي جرت عبرته، والعبرة: الدمعة.

بـإيمان شُـمٍ فـي ذوائب هـاشمٍ   مغايل بالأخطار فـي كـل مـحفل

وأذن رسول الله لمن ليس له عشيرة تحميه في الهجرة إلى أرض الحبشة، فخرج إليها عثمان بن عفان وزوجته رقيّة بنت رسول الله، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وعثمان بن مظعون، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وركبوا في البحر وتوجّهوا نحو النجاشي ملك الحبشة، وتتابع المسلمون إلى أن بلغا ثلاثة وثمانين رجلاً، سوى النساء والصغار ومن ولد هناك، قيل منهم: عمّار ابن ياسر.

وأرسلت قريش في طلبهم عبدالله بن ربيعة وعمرو بن العاص ومعهما هدية إلى النجاشي فلم يجبهما وردّ الهدية، فقال له عمرو بن العاص: سلهم ما يقول نبيّهم في نبيكم عيسى ابن مـريم؟ فسألهم فقالوا: يقول كلمة الله ألقاها إلى مريم البتول، فلم ينكر النجاشي ذلك، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد بعث إليه سورة مـريم، فـدعا جـعفر بـن أبـي طـالب والمـهاجرين مـعه، واحـضروا الرهـبان والقسّيسين فأمر جعفر أن يقرأها عليهم، فقرأها فعادت **﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾**(١)، وردّهما خائبين.

فاجتمع جماعة من قريش عند الكعبة، وبـعثوا إلى رسـول الله صلى الله عليه وآله إنّ أشـراف قـومك قـد اجتمعوا لك، فبادر إليهم، فقالوا: يا محمّد! إنّا دعوناك لنعذر إليك ممّا أدخلت على قومك شتمت الآلهة وعبت الدين وسفهت الأحـلام وفرقت الجـماعة، فـإن كـنت تـطلب مـالاً وشـرفاً ورفـعة أعطيناك.

فقال: لست أبغي ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، فإن قبلتم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإلّا فهو يحكم بينكم وبيني، فأبوا **﴿وَقَالُوا لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾**(٢)، **﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَـفاً أَوْ تَأْتِـيَ بِـاللَّهِ وَٱلْـمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾**(٣).

وقام عنهم فقام معه عبدالله بن أميّة المخزومي ـ ابن عمته عاتكة بنت عبدالمطلب ـ فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله! ثم سألوك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ سلّماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون

---

(١) سورة المائدة: ٨٣.

(٢) سورة الإسراء: ٩٠.

(٣) سورة الإسراء: ٩٢ و٩٣.

لك وكتاب يشهد لك.

فقال أبو جهل: إنّه أبى إلّا سبّ الآلهة وشتم الآباء، وأنا أعاهد الله لأحملنّ حجراً فإذا سجد ضربت به رأسه[١].

فانصرف رسول الله ﷺ حزيناً، فأنزل الله: ﴿**وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً**﴾[٢].

ومضى أبو جهل إلى رسول الله ﷺ ليضرب رأسه بحجر كما عاهد، فرآه ساجداً فقرب منه ثم نكص على عقبه، فقيل له: مالك؟ فقال: إنّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال رسول الله ﷺ: لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً فأنزل فيه: ﴿**أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ**...﴾[٣] إلى آخر سورة العلق[٤].

ولمّا جعل الإسلام يفشو في القبائل، تعاهد المشركون على بني هاشم وبني عبدالمطلب، أن لا يبايعوهم ولا يناكحوهم، وكتبوا بذلك صحيفة ووضعوها في جوف الكعبة، فانحازت بنو هاشم كافرهم ومسلمهم إلى أبي طالب في شعبه كافرهم يحامي عن الأهل ومسلمهم يرجو الثواب، وخرج من بني هاشم أبو لهب، وعبدالعزى بن عبدالمطلب وامرأته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان عمّة معاوية، سمّاها الله تعالى حمالة الحطب؛ لأنها كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق رسول الله، أو تحمل زوجها وأمثاله الذين هم حطب جهنّم على إيذائه، ولمّا بلغها ما نزل فيها من الذّم في سورة تبت يدا أبي لهب، غضبت وجاءت كما قال البوصيري:

يوم جاءت غضبى تقول أفي مثلي من أحمد يقال الهجاء
وتولت وما رأته ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء

وأقام رسول الله ﷺ في الشعب ثلاث سنين، وقال لأبي طالب: يا عم إنّ الله سلّط الأرضة على الصحيفة، فلم تدع فيها غير اسم الله تعالى، فأعلم أبو طالب قريشاً بذلك، وقال لهم: إن كان خبره صحيحاً فانتهوا عن قطيعتنا، وإن كان غير صحيح سلمته إليكم، فرضوا وكشفوا عن الصحيفة فوجدوها كما أخبر رسول الله، فأنشد أبو طالب:

---

(١) بحار الأنوار ١٢١/٩، تفسير الثعلبي ١٣٤/٦.

(٢) سورة الاسراء: ٩٤ و٩٥.

(٣) سورة العلق: ٩ و١٠.

(٤) بحار الأنوار ١٧١/٩، والسنن الكبرى للنسائي ٥١٨/٦.

ألا مـن لهـم آخـر الليل منصب وشعب العصا من قومك المتشعب

إلى آخر قصيدته فاختلف فيما بينهم؛ ونقض جماعة منهم عقد الصحيفة، منهم: هشام، وزمعة، وزهير، والمطعم بن عدي، وأبو البختري، كما قيل:

بـالامر أتـاه بـعد هشام زمـعة انـه الفـتى الاتـاء
وزهـير والمـطعم بـن عـدي وأبو البختري من حيث شاؤوا
نـقضوا مبرم الصحيفة إذ شـد دت عـليه مـن العدا الانـداء
أذكـرتنا بأكـلها أكـل مـنسا ة سـليمان الأرضـة الخـرساء
وبـها أخـبر النـبي وكـم أخـرج خـبئاً له الغـيوب خباء

واشتد انتصار أبي طالب لابن أخيه وأنشد:

ودعـوتني وعـلمت أنك صـادق فلقد صـدقت وكـنت ذاك ثـم أمينا
ولقـد عـلمت بـان ديـن مـحمّد مـن خـير أديـان البـرية ديـنا
والله لن يـصلوا إليك بـاسرهم حـتى أوسـد فـي التـراب دفـينا
فـاصدع بأمـرك مـا عـليك غـضاضة وابشـر وقـر بـذلك مـنك عـيونا
ودعـوتني وزعـمت أنك نـاصحي ولقـد صـدقت وكـنت ثـم أمـينا
لولا المـلامة أو حـذاري سـبه لوجـدتني سـمحا بـذلك مـبينا

ومن هنا اختلف في إسلامه، والأرجح إنّه مات مسلماً، إذ روي عن ابن عبّاس: أنّه حين أدركته الوفاة سنة عشرة من النبوّة، وكان قد بلغ عمره بضعاً وثمانين سنة، قال له رسول الله ﷺ: قلها يا عمّ؛ استحل لك بها الشفاعة، فلمّا تقارب منه الموت جعل يحرك شفتيه، فاصغى إليـه العبّاس بإذنه، وقال: والله يابن أخي لقد قال الكلمة التي أمرته بها، فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي هداك يا عم[1].

وتوفّيت خديجة بعد أبي طالب بقليل، فسمى النبي ﷺ ذلك العام عام الحزن؛ لحزنه على عمّه وزوجته، فعن حكيم ابن حزام[2] أنّه قال: توفيت خديجة في شهر رمضان سنة عشر من النبوّة، فخرجنا بها من منزلها حتى دفنّاها بالحجون. ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها ولم يكن يـومئذٍ

(١) تاريخ أبي الفدا ١/١٢٠، كشف الغمة للشعراني ٢/١٤٤.
(٢) وهو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى الأسدي، أبـو خـالد المكـي، ابـن أخـي خـديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

صلاة على الجنازة[١].

وطمع المشركون في رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أبي طالب، وكثر أذاهم له، فسافر إلى الطائف، ودعا ثقيفاً إلى الله وإلى القيام معه، فقالوا له: ما وجد الله أحداً يرسله إلى الناس غيرك، وكان منهم أُمية بن أبي الصلت[٢]، وقد قرء الكتب المنزلة وعلم أنّ الله يرسل رسولاً في ذلك الزمان، وهو رجا أن يكون هو لكماله وفصاحته، فلمّا بعث محمّد حسده وكفر به لشقاوته. فعاد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكّة وهمّ أن يدعوا على ثقيف فنزل قوله تعالى: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾**[٣]، كنوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم صبر على النّار وذبح ولده، والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد ولده وبصره، ويوسف على الجب والسجن، وأيّوب على الضر، وموسى قال له قومه: **﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾**[٤]، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة[٥].

فلمّا وافى رسول الله صلى الله عليه وآله وادي النخلة عند منصرفه من الطائف، قرأ القرآن في تهجّده فسمعه نفر من الجنّ، من جنّ نصبين مشهودين فـ**﴿وَلَّوْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[٦].

وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يعرض بنفسه على القبائل، ووجد شدّة حتى دعا دعاؤه المشهور عند الجمهور: «اللّهم إليك اشكوا ضعف قوّتي وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، لكن عافيتك أوسع لي».

فلمّا أراد الله سبحانه وتعالى إعزاز دينه وإظهاره على الدين كلّه، سخّر لرسوله الأنصار الطيبين الأطهار، وهم أهل المدينة المنورة أوسها وخزرجها، والأوس والخزرج كانا أخوين أصلهما من

---

(١) بحار الأنوار ١٣/١٦، تفسير القرطبي ١٦٤/١٤.

(٢) أمية: بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، من الشعراء المبرزين ممن التمس الدين، نشأ بالطائف: وقد أدرك الإسلام إلّا أن حسده حمله على عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله ورثائه لقتلى بدر من المشركين، مات بالطائف في السنة التاسعة للهجرة.

(٣) سورة الاحقاف: ٣٥.

(٤) سورة الشعراء: ٦١ و٦٢.

(٥) تفسير أبي السعود ٩٠/٨.

(٦) سورة الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

اليمن من ولد قحطان، فأوقع الشيطان بين ذريتهما العداوة والبغضاء، فقامت الحرب بينهم مائة وعشرين سنة، لم يسمع بقوم وقع بينهم ما وقع بين هؤلاء، ثم أنّ الله لمّا أراد سعادة هاتين القبيلتين ونصر دينه بهما؛ لكونهما أشدّ العرب بأساً وأشرفهم مراساً.

وكان سويد بن الصامت منهم قد قدم مكّة، فدعاه رسول الله ﷺ إلى دين الإسلام، فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي، قال: وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان؛ اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فقال: إنّ هذا كلام حسن، ومعي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ نوراً وهدًا، وتلا عليه شيئاً منه ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إنّ هذا لقول حسن، ثم أنصرف سويد إلى المدينة، فقتلته الخزرج يوم بعاث وكان قومه يرونه قتل مسلماً[1].

ثم قدم من المدينة أنس بن رافع ومعه فئة من بني عبدالأشهل فيهم أياس بن معاذ إلى مكّة، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم الخزرج.

فقال لهم النبيّ ﷺ: هل لكم في خير مما جئتم له؟ وذلك إنّي رسول الله ﷺ إلى العباد بعثني أدعوهم أن لا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي الكتاب، وتلا عليهم منه شيئاً، فقال أياس بن معاذ: ـ وكان حدثاً ـ أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فزجره أنس بن رافع، وقال: لقد جئنا لغير هذا فصمت أياس، وقام عنهم النبي ﷺ وانصرفوا إلى المدينة. ومات أياس بن معاذ.

وخرج رسول الله ﷺ إلى القبائل في الموسم، فبينما هو عند العقبة، لقي ستة نفر من الخزرج، أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وجابر بن عبدالله، وعبادة بن الصامت، فأعرض عليهم الإسلام وتلا القرآن ووعظهم، فهداهم الله فأسلموا، وقالوا: إنّا تركنا قوماً بينهم من العداوة مالا تحصى، وعسى الله أن يجمع بينهم بك، وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ووصلوا إلى المدينة وأخبروا قومهم، فآمن خلق كثير، وفشا الإسلام في دورهم.

ووافى الموسم في العام الثاني منهم اثنا عشر نفرا، أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك، وذكران بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وزيد بن قلان[2]، وعبادة بن عامر، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر وهؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة من الأوس، فبايعوا رسول الله ﷺ وبعث معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، وهو أوّل مقرئ قرأ بالمدينة.

---

(١) تفسير البغوي ١: ٣٣٤.

(٢) هكذا في نسخة مكتبة السيد المرعشي. وفي الأنساب للسمعاني: ٣٥٦/٤، واللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير الجزري: ٤١٦/٢ يزيد بن ثعلبة الفراني (من بني فران بن بلي).

وكان معه ابن أم أكتم فتلقّاهما أسعد بن زرارة أحد الستة الأول، وأنزلهما في منزله وكان سعد بن معاذ سيّد الأوس وهو ابن خالة أسعد بن زرارة، وكان أسيد بن حضير ابنه سيداً فبلغهما نزول مصعب بن عمير عند أسعد بن زرارة، فجاء أسيد بن حضير بحربته، فوقف على أسعد ومصعب، وقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا عنّا إن كان لكما حاجة بأنفسكما، فقال له مصعب: أو ما تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، قال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس فأسمعه مصعب القرآن وعرّفه الإسلام فقال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الأمر، قالا : تغتسل ثم تطهر ثيابك، وتشهد شهادة الحق، وتصلي ركعتين، ففعل ذلك.

وقال: ورائي رجل إن يتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ـ يعني سعد بن معاذ ـ وانصرف إليه فلمّا أقبل إلى قومه، قال سعد بن معاذ: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به، فقال له سعد بن معاذ: ما فعلت؟ فقال: ما وجدت بالرجلين بأساً، وبعث به إليهما فلمّا وقف عليهما قال لسعد بن زرارة: لولا قرابتك منّي، ما صبرت على أن تغشنا في دارنا بما نكره، فقال له مصعب: أو ما تسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإلّا عزلنا عنك ما تكره، فقال: أنصفت فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن فأسلم، وانصرف إلى النادي فلمّا رآه قومه مقبلاً قالوا: والله لقد رجع سعد بغير الوجه الذي ذهب به، فقال: يا بني عبدالأشهل كيف تعرفون أمري فيكم؟ فقالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نفساً، قال: فإنّ كلامكم وكلام رجالكم ونساؤكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار بني الأشهل أحد حتى أسلم ما عدا الأصيرم فإنّ إسلامه تأخّر إلى يوم أحد فأسلم واستشهد. وبقي سعد بن معاذ، ومصعب بن عمير في دار أسعد بن زرارة يدعون الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلّا وبها مسلمون، إلّا دار بني أمية بن زيد وحطمة ووائل وواقف، ثم أسلموا بعد ذلك بمدة[١].

ورجع مصعب بن عمير إلى مكّة، ومعه من الذين أسلموا ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان مع حجاج من قومهم من أهل الشرك، فواعدوا رسول الله ﷺ إلى العقبة من وسط أيام التشريق، وهي بيعة العقبة الثانية.

قال كعب بن مالك: وكان شهد ذلك فلمّا فرغنا من الحجّ وكانت الليلة التي وعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبدالله بن حرام بن جابر، وكنّا نكتم أمرنا ممن معنا من المشركين، فقلنا له: يا أبا جابر إنّا نراك سيداً من ساداتنا وشريفاً من أشرافنا، وإنّا نرغب بك عمّا أنت فيه أن تكون حطباً للنّار

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١٥١/١.

غداً، ودعوناه إلى الإسلام فأسلم وأخبرناه بالميعاد فشهد معنا العقبة، وكان نقيباً من النقباء، فبتنا تلك الليلة مع القوم في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا للميعاد، تسللنا تسلّل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب، ونحن سبعون رجلاً وامرأتان فجائنا رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه عمّه العبّاس وهو يومئذٍ مشرك إلّا أنّه أحبّ أن يحضر مع ابن أخيه، ويتوثق له فقال: يا معشر الأوس والخزرج إنّ محمّداً منّا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عزّ في قومه ومنعة في بلده وإنّه قد أبى إلّا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم، وإن كنتم ترون إنّكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فقلنا قد سمعنا قولك فتكلّم أنت يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساؤكم وأبنائكم، فأخذ البراء بن مغرور يده، وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب والحلفة ورثناها كابراً عن كابراً.

فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إنّ بيننا وبين اليهود حالاً ونحن قاطعوها فهل عسيت أن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسّم رسول الله، فقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم منّي وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، وأخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً كفلاً على قومهم كفالة الحواريين لعيسى، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

فقال سعد بن عبادة: سيد الخزرج، يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأسود والأبيض والأحمر، فإن كنتم ترون إنّكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فدعوه فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون إنّكم وافون له على نهك الأموال وقتل الأشراف، فهو خير لكم في الدنيا والآخرة.

قال: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأولاد والأشراف، فما لنا يا رسول الله في ذلك إن نحن وفيّنا؟

قال: الجنّة، قالوا: أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه على محاربة العرب كلّها، وأن لا يعبدوا إلّا الله عزّ وجلّ، وأوّل من ضرب بيده البراء بن معرور.

قال كعب بن مالك: فلمّا بايعناه صرخ إبليس من رأس العقبة بصوت ما سمعت مثله قط، يا أهل

الجباجب[١] هل لكم في مذمم[٢] والصباة قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ: اسمع عدو الله والله لأفرغنّ لك، ثم قال ﷺ: ارجعوا إلى رحالكم. فقال سعد بن عبادة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال ﷺ: [لم] نؤمر بذلك. فرجعنا فنمنا فلمّا أصبحنا غدت علينا جلة قريش، فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا إنّكم مخرجون صاحبنا من بين أظهرنا ومبايعوه على حربنا، وإنّا والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينكم منهم، قال كعب بن مالك: فانبعث إليهم من هناك من مشركي قومنا، يحلفون لهم بالله ما من هذا شيء وما علمناه وصدقوا فإنّهم لم يعلموا، وبعضنا ينظر إلى بعض.

ثم أنصرف الأنصار إلى المدينة، فاظهروا الإسلام وبلغ ذلك قريشاً، فآذوا أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: إنّ الله تعالى قد جعل لكم إخواناً وداراً، وأمرهم بالهجرة إلى المدينة، فتتابعوا إليها إرسالاً، ومكث رسول الله ينتظر الإذن حتى أذن الله في الهجرة.

وجمع بينه وبين أهل المدينة أوسها وخزرجها، وأصلح ذات بينهم وألّف بين قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِنْهَا**﴾[٣].

وأسري برسول الله ﷺ قبل الهجرة في تلك السنة من المسجد الحرام بعينه، وكان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان، فأتاه جبرئيل بالبراق فأركبه ومضى به إلى المسجد الأقصى، وهو مسجد بيت المقدس، ثم عرج به إلى السموات العلى في تلك الليلة بروحه وجسده في اليقظة، وذهب بعض إلى أنّ الإسراء كان في اليقظة والمعراج كان في النوم[٤].

وأنّ الإسراء كان بعد المبعث في ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة أو سنتين من بيت أم هاني بنت عمّه أبي طالب، لمّا روي أنّه ﷺ كان نائماً في بيتها بعد صلاة العشاء، قال: فأتاني جبرئيل، فقال: قم يا محمّد، فقمت معه فإذا ميكائيل وإسرافيل ومعهما البراق فوق الحمار ودون البغل، وعليه رحل من الجنّة، وله جناحان في فخذيه، خطوته منتهى طرفه، فركبت ومضيت إلى المسجد الأقصى، كما قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ**

---

(١) أي: المنازل.

(٢) كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم في النبيّ ﷺ لا يسمونه باسمه الدال على المدح (محمّد) فيعدلون إلى ضده فيقولون مذمم.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٤) فتح الباري ١٥١/٧، عمدة القاري ١٩/١٧.

ٱلْأَقْصَىٰ ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1] ببركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء من لدن يعقوب وموسى، ومحفوف بالأنهار والأشجار **﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾** كذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر، ومشاهدته بيت المقدس، وتمثيل الأنبياء له ووقوفهم على مقاماتهم فأمّهم وصلّى بهم، كما قال البوصيري:

يا خير من يمم العافون ساحته ... سعيا وفوق متون الأينق الرسم
ومن هو الاية الكبرى لمعتبر ... ومن هو النعمة العظمى لمغتنم
سريت من حرم ليلا إلى حرم ... كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى ان نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها ... والرسل تقديم المخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم ... في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق ... من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تعود بوصل كل مستتر ... عن العيون وسر أي مكتتم
فخرت كل فخار غير مشترك ... وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما اوليت من رتب ... وعز إدراك ما أوليت من نعم

وقال أيضاً:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء

إلى ان قال:

وطوى الأرض سايرا ... والسموات العلا فوقها له إسراء
فصف الليلة التي كان للمختار ... فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسين ... وتلك السيادة القعساء

فلمّا تلألأ النور الأقدس وتشعشع بصبحه وتنفّس وظهرت الإشارات، خاطبه الحق سبحانه (بلولاك ما خلقت الأفلاك) وأسري به إلى حضرته العليا، وقرّبه على مقرّبي الأملاك، فنال رتبةً وجاهاً جسيماً وناداه سبحانه بقوله: **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾**[2]، وشرّفه بوحيه **﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا**

---

(١) سورة الإسراء: ١.
(٢) سورة النساء: ١١٣.

عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١] وناجته القدرة الأزليّة **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾**[٢]، فصدع بما أمر وكان بالمؤمنين رحيماً.

فلمّا ظهر بالدين الحنيف تظاهرت العرب لحربه، فأيّده الحق سبحانه بآله وصحبه، ولمّا رجع من الإسراء إلى مكّة، وأصبح حدث النّاس بما رأى من آيات ربّه الكبرى، فكذّبه أبو جهل والمشركون وصدّقه أصحابه والمؤمنون كما قال البوصيري:

ثم وافى يحدث الناس شكرا	إذ أتــته مــن ربـه النـعماء

وكان ﷺ أفصح العرب لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعذبهم نطقاً، وأشدّهم لفظاً، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجّة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهديهم إلى طرق الصواب، تائيداً إلهيّاً، ولطفاً سماوية، وعناية ربانية، ورعاية روحانية.

فاطاعت لأمره العرب العرباء	والجــاهلية الجــهلاء
واســتجابت له بـفتح ونـصر	بـعد ذلك الخضراء والغبراء
وإذا مــا تــلا كـتابا مـن الله	تــلته كــتيبة خـضراء
وكـفاه المسـتهزئين وكـم سا	ء نـبياً مـن قـومه اسـتهزاء
ورماهم بـدعوة من فنا البيت	فـيها للـظالمين فـناء
خـمسة كـلهم أصـيبوا بـداء	والردى مـن جـنوده الأدواء
فـدهى الأسـود بـن مـطلب	أي عـمى مـبيت بـه الأحـياء
ودهى الأسود بن عبد يـغوث	إذ سـقاه كأس الردى اسـتسقاء
وأصـاب الوليـد خـدشة سـهم	قـصرت عـنه الحـية الرقـطاء
وقضت شوكة على مـهجة العا	ص فـلله النـقعة الشـوكاء
وعلى الحارث القيوح وقد سا	ل بـها وجـهه وسـال الانـاء
خـمسة طـهرت بـقطعهم الأر	ض فكـف الأذى بـهم شـلاء

وخافت قريش خروج رسول الله لمّا سمعوا بإسلام الأنصار، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**[٣]، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ[٤]، وقال:

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٢) سورة المدثر: ١ و٢.

(٣) سورة الأنفال: ٣٠.

(٤) في نسخة مكتبة السيّد المرعشي (ابليس صورة الشيخ).

أنا من نجد سمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولم تعدموا منّي رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدّوا منافذه غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه حتى يموت، فقال الشيخ: بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه وتخليصه من أيديكم، فقال هشام ابن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضرّكم ما صنع، قال: بئس الرأي يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم به، فقال أبو جهل: أنا أرى أن نأخذ من كل قبيلة رجال يقتلونه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل فلا تقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم، فقال: صدق هذا الفتى، فتفرّقوا على رأيه.

وأتى جبرئيل إلى رسول الله فأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فأمر رسول الله ﷺ عليّاً أن ينام على فراشه ويتخلف عنه ليرد ودائع الناس، فاجتمع الكفّار تلك الليلة على بابه يرصدونه ليثبوا عليه.

وأخذ رسول الله حفنة من تراب، وخرج وتلا أولّ سورة يسّ ورمى التراب على رؤوس الكفّار، فجاءهم آتٍ فقال: محمّد ﷺ خرج! وجعل على رؤسكم التراب، فجعلوا ينظرون عليّاً وعليه القطيفة، ويقولون: هذا محمّد نائم! فلمّا قام عند الصباح، وعرفوا انصرفوا خائبين، وأنشد علي عليه السلام في تلك الليلة:

وقيت بنفسي خير من وطي الحصى وأكرم خلق طاف بالبيت والحجر

وبت أراعي منهم ما يسئوني وقد صبرت نفسي على القتل والأسر

وبات رسول الله في الغار آمنا وما زال في حفظ الاله وفي الستر

ثم ردّ الودائع إلى أربابها، وتوجّه إلى المدينة بعيال رسول الله ﷺ.

قال بعض المؤرخين: وكان رسول الله حين خرج، توجّه إلى بيت أبي بكر وأعلمه أنّ الله أذن له في الهجرة، قال: فبكى أبو بكر سروراً، وقال: الصحبة يا رسول الله، وقال الزهري إنّه رآه في الطريق فأخذه معه، واستاجرا عبدالله ابن أريقط، وكان كافراً حين ذاك ليدلهما على الطريق، ومضيا إلى غار ثور، وهو جبل بأسفل مكّة في يمناها على مسيرة ساعة، ومكثا فيه ثلاثة أيام.

فروي أنّ المشركين طلعوا فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، وقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال ﷺ: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما»! وأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه، وقيل لمّا دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه كما قيل:

درع داود ما يقع ليلة الغار[١] وكان الفخار للعنكبوت

(١) في وفيات الأعيان: (نسج داود لم يفد ليلة الغار)، وفي البداية والنهاية: (نسج داود ما حمى صاحب الغار).

وطيور السمندل في لجج النار اضاعت فضائل الياقوت

وقال البوصيري:

وما حوى الغار من خير ومن كرم وكل طرف من الكفار عنه عم
فالصدق في الغار والصديق لم يرِ ما وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم
تبارك الله ما وحي بمكتسب ولا نبي على غيب بمتهم
آياته الغر لا تخفى على أحد بدونها العدل بين الناس لم يقم
وعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم
فما تطاول امال المديح الى ما فيه من كرم الاخلاق والشيم
كفاك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

وخرجا من الغار بعد ثلاثة أيّام، ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وجاءت قريش في طلبهم، ولحقهم سراقة فارتطمت فرسه إلى بطنها في أرض صلبة، فقال: يا محمّد خلّصني ولك إن أرد عنك، فدعا له فخلص، فنكث وعاد إلى الطلب فدعا عليه فارتطمت فرسه ثانياً، فسأله الخلاص فدعا له فتخلّص، فرجع عنه وجعل يقول: لكل من لقيه كفيتم ما ههنا.

فلمّا بلغ رسول الله الجحفة اشتاق إلى مولده ومولد آبائه، فنزل قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾**[1] وهو المقام المحمود أو مكّة، وعدل بالردّ إليها قال البوصيري:

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والظباء
وسلموه وحن جذع اليه وقلوه ووده الغرباء
اخرجوه منها وآواه غارا وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسيجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآه ومن شدة الظهور والخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتاقت اليه من مكة الأنحاء
وتغنت بمدحه الجن حتى أطرب الإنس منه ذاك الغناء
واقتفى أثره سراقة واستهوته في الأرض صافن جرداء
ثم ناداه بعدما سميت الخسف وقد ينجد الغريق النداء

(١) سورة القصص: ٨٥.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة ظهر يوم الاثنين، ثاني عشر ربيع الأوّل سنة أحدى من الهجرة، ونزل بقبا على بني عمرو بن عوف، فراودوه الأنصار على الدخول إلى المدينة فأبى، إلى أن قدم علي ابن أبي طالب بامّه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت الزبير، وفاطمة بنت عبدالمطلب، وأم أيمن مولاة رسول الله وابنها أيمن، ونساء النبي ﷺ بعد تخلفه بمكّة ثلاثة أيام.

وأمر رسول الله ﷺ بكتابة التاريخ فكتب من حين الهجرة، وهذا ابتداء التاريخ الإسلامي، وغيره هبوط آدم، والطوفان، ووفاة موسى عليه السلام، وغلبة الاسكندر، وعام الفيل، ولفظة التاريخ معربة ماه روز، وعن الصولي تاريخ كل شيء غايته ووقته.

وروي عن ميمون بن مهران، أنّه رفع إلى عمر أيام خلافته صك معجلة شعبان، فقال: أي شعبان هو؟ وجمع وجوه الصحابة وأجمعوا على وضع يعرف به التاريخ، واستحضروا الهرمزان عالم الفرس، فقال: إنّ له حساباً يقال له: ماه روز، ومعناه حساب الشهور، فجعلوا اسمه التاريخ، وطلبوا وقتاً يجعلونه أوّلاً لتاريخ دولة الإسلام، فاجتمع رأيهم على أن يكون أوّل عام الهجرة.

وأقام رسول الله ﷺ بقبا بقيّه يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسّس مسجد قبا فهو المسجد الذي أسّس على التقوى من أوّل يوم، وخرج من قبا يوم الجمعة.

فما مرّ على دار من دور الأنصار إلّا اعترضوا ناقته، وقالوا: هلّم إلى العدد والعدة، ويقولوا: خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة، إلى أن وصلت موضع المسجد فبركت فيه، ونزل عنها وأقام بمنزل أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر إلى أن بني المسجد ومساكنه، وصلّى الجمعة في ذلك اليوم في دار لبني سالم بن عوف وهي أوّل جمعة جمعها، وكانت العرب تسمّي الجمعة العروبة، وإنّما سمّي يوم الجمعة لاجتماع النّاس فيه للصلاة، وسمّي في القديم جمعة لاجتماع تكامل اُصول الخلق فيه.

وتزوّج علي عليه السلام بفاطمة بالمدينة وهي ابنة تسع سنين.

وكان رسول الله ﷺ قد عقد على عائشة بمكّة قبل الهجرة، فدخل بها بعد الهجرة بالمدينة في شوال وهي ابنة تسع سنين أيضاً.

وكان ﷺ قد اتخذ عليّاً أخاً حين آخا بين المهاجرين والأنصار، بمكّة قبل الهجرة، بين أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبدالرحمن، وبين طلحة والزبير، وبين سعد وسعيد، وآخا بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر وعتبان بن مالك، وبين عثمان وأوس ابن ثابت، وبين طلحة وكعب بن مالك، وبين الزبير وعبدالله بن مسعود، وبين سعد بن أبي وقّاص ومحمّد بن مسلمة، وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وبين

عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة، وبين جعفر الطيّار ومعاذ بن جبل، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب الأنصاري، وبين عمّار بن ياسر وحذيفة اليماني، وبين أبي ذر[١] وحاطب بن أبي بلتعة، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وبين المقداد بن عمر وعبدالله بن رواحة.

وفي سنة اثنين من الهجرة يوم الثلاثاء منتصف شعبان، حوّلت القبلة إلى الكعبة، وكانت الصلاة إلى بيت المقدس، وقيل: حوّلت يوم الاثنين منتصف رجب بعد الزوال، بعد قتال بدر بشهرين، وقد صلّى صلى الله عليه وآله بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فنزل قوله تعالى: **﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾**[٢]، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبدّل الرجال والنساء صفوفهم، فسمّي المسجد مسجد القبلتين، وتحوّل أهل قبا وهم في الصلاة[٣].

وفيها فرض صيام شهر رمضان. وفي رمضان نزلت آية الزكاة وهي: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾**[٤]، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله مناديه، فنادى في النّاس: أنّ الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة، كما فرض عليكم [الصلاة][٥] فزكّوا أموالكم تقبل صلواتكم[٦].

وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وآله ابن عمّته عبدالله بن جحش، في ثمانية أنفس، وقيل: في إثنى عشر نفساً، إلى نخلة بين مكّة والطائف، ليعرفوا أخبار قريش فغنموا عيراً لقريش عليها تجارة الطائف، وقتلوا عمر بن عبدالله الحضرمي وأسروا اثنين، وكانت أوّل غنيمة غنمها المسلمون، وكان ذلك غرّة رجب وهم يظنّونه من جمادي فقال قريش: استحل محمّد الشهر الحرام، فشق على أصحاب السريّة، وقالوا: لا نبرح حتى تنزل توبتنا، فنزل قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ**

---

(١) وقع سقط من الناسخ وهو: (والمنذر بن عمرو، وبين حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة). انظر تاريخ ابن خلدون، والتدوين في أخبار قزوين. وانكره الواقدي لغيبة أبي ذر عن المدينة فقال: لم يشهد بدرا ولا أحدا ولا الخندق وإنما قدم بعد ذلك.

(٢) سورة البقرة: ١٤٤.

(٣) السيرة الحلبية: ٢/٣٥٢.

(٤) سورة التوبة: ١٠٣.

(٥) في نسخة السيّد المرعشي (الزكاة) وما اثبتناه من المصدر.

(٦) وسائل الشيعة: ٩/٩، ب١ من أبواب ما تجب فيه الزكاة وما يستحب فيه، حديث ١، تفسير البرهان: ٢/١٥٦.

فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١] أي مما فعلته السريّة، ونزل قوله تعالى: **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾**[٢] على طريقة قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

إلى قوله تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾**[٣].

وكان المشركون يؤذونهم بمكّة، وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله من مضروب ومشجوج يتظلّمون إليه، فيقول لهم اصبروا فإنّي لم أومر بالقتال حتى هاجروا إلى المدينة، فنزلت وهي أوّل آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية، ورمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلّا في الصلاح ولا يصبحون إلّا فيه، فقالوا: ترون أن نغشى حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلّا الله فنزل قوله تعالى: **﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾**.

وفي سنة اثنين من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، قدم لقريش قفل من الشام مع أبي سفيان بن حرب في ثلاثين أو أربعين راكباً، منهم عمرو بن العاص فأخبر جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله فبعث إليهم المسلمين، وبلغ أبا سفيان وأرسل إلى قريش وأعلمهم، فخرج المشركون سراعاً لم يتخلف منهم غير أبي لهب بعث مكانه العاص بن هشام، وكان عدّتهم تسعمائة وخمسين رجلاً فيهم مائة فرس، وخرج رسول الله لثلاث خلون من شهر رمضان، ومعه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعون من المهاجرين والباقي من الأنصار، فيهم فرسان واحدة للمقداد بن عمرو الكندي، والثانية للزبير بن العوام وكانت الإبل سبعون، فيعاقبون عليها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يتعاقبون على بعير كان بينهم.

فلمّا وصلوا وادي وفران نزل جبرئيل بالوعد بإحدى الطائفتين، أمّا العير وأمّا قريش، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه فقال بعضهم: هلّا ذكرت لنا القتال حتى نتأهّب له، إنّا خرجنا للعير، فقال:

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) سورة الحج: ٣٩ و ٤٠.

(٣) سورة الحج: ٤١.

إنّ العير مضت إلى ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع النقير، فغضب رسول الله فقام أبو بكر وعمر وسعد بن عبادة وسعد بن معاذ فأحسنوا الكلام، ثم قام المقداد بن عمرو الكندي وقال: يا رسول الله امض لما أنزل الله، فإنّا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى فـ﴿**اَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[1]، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا معكما قاتلون، فتبسّم رسول الله وقال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإنّ الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم، وجعل يلبس درعه ويقول: سيهزم الجمع ويولّون الدّبر، وسار بهم ونزل الصفراء[2] وجاءت الأخبار بأنّ قريشاً قاربت بدراً، فسبقهم رسول الله ونزل على أدنى ماء من القوم ببدر، وأشار سعد ببناء العريش فعمل وجلس عليه رسول الله ومعه أبو بكر.

وأقبلت قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللّهم هذه قريش أقبلت بخيلها وفخرها للتكذيب برسولك، اللّهم فنصرك الذي وعدتني».

وتقارب الفريقان، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن يكن عند أحد منهم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، وهو عتبة بن ربيعة إن يطيعوه يرشدوا، وخطب عتبة وقال: يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر، إنّ محمّداً له إل وذمّة وهو ابن عمّكم فخلّوا عنه، فقال أبو جهل: جبنت يا عتبة؟ قال: مثلي يجبن؟ فلبس درعه.

ثم برز عتبة وشيبة أبناء ربيعة بن عبد شمس، والوليد بن عتبة، فقالوا: يا محمّد ابعث لنا أكفّاءنا من قريش، فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار، فقالوا: ارجعوا ما نريد إلّا أكفّاءنا من قريش، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبرز لعتبة عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، ولشيبة حمزة بن عبدالمطلب، والوليد علي بن أبي طالب، فقتل حمزة شيبة، وعلي الوليد، وكرّا على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله فمات.

قال أبو علي في مجمع البيان: حمل علي على الوليد وضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه، فقال عليه السلام: لقد أخذ الوليد يمينه بيساره وضرب بها هامتي، فظننت أنّ السماء وقعت على الأرض وتراجف القوم، ورسول الله واقف على العريش، يقول: «اللّهم وعدك وعدك حتى خفق، ثم أفاق وقال: أبشروا فإنّ الله أنجز ما وعدني كما قال: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**

---

(١) سورة المائدة: ٢٤.

(٢) من ناحية المدينة، وهو واد كثير النخل والزرع والخير في طريق الحاج، وسلكه رسول الله صلى الله عليه وآله غير مرة، وبينه وبين بدر مرحلة.

أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[١].

ونزلت الملائكة على خيل بلق[٢] وعليهم عمائم صفر أرسلوها بين أكتافهم، فقيل: هبط جبرئيل في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها حمزة بن عبدالمطلب، وهبط ميكائيل في خمسمائة على الميسرة فيها علي بن أبي طالب، وخرج رسول الله ﷺ من العريش يحرّض المؤمنين على القتال، وأخذ حفنة من الحصى ورمى بها المشركين، وقال: شاهت الوجوه، وقال: للمؤمنين شدّوا عليهم، فحملوا عليه فانهزمت المشركون، فنزل قوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾**[٣]، بالرعب في قلوبهم فانهزموا.

وكان إبليس معهم في صورة سراقة بن مالك الكناني، فلمّا رأى الملائكة تنزل نكص على عقبه وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فقال له: إلى أين تخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إنّي بريئ منكم إنّي أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق، فانهزموا فلمّا بلغوا مكّة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغه ذلك فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلمّا أسلموا علموا أنّه الشيطان[٤].

وكانت الوقعة صبيحة الجمعة سابع عشر رمضان، واحضر عبدالله بن مسعود رأس أبي جهل بن هشام، فسجد رسول الله ﷺ لله شكراً، وكان عمر أبي جهل تسعين سنة واسمه عمرو، وقيل: أخوه العاص بن هشام، ونصر الله المؤمنين بالملائكة المقربين، واختلف في قتالهم.

وعن ابن مسعود إنّ أبا جهل قال له: من اين كان ذلك الصوت الذي كنّا نسمع ولا نرى شخصاً؟ قال: من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم[٥].

وروي أنّ رجلاً من الأنصار[٦] بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين، إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه، فنظر إلى المشرك وقد خر مستلقياً وشقّ وجهه، فحدث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذاك من مدد السماء[٧].

---

(١) سورة الأنفال: ٩.

(٢) كان في لونه سواد وبياض.

(٣) سورة الأنفال: ١٧.

(٤) تفسير البيضاوي: ٣/١١٣.

(٥) تفسير السمعاني ٢/٢٥٢.

(٦) في صحيح مسلم، ودلائل النبوة للبيهقي: (المسلمين).

(٧) تفسير الرازي ١٥/١٣٠.

وعن أبي داود المازني تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر، فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي[١].

وقيل: لم يقاتلوا وإنّما كانوا يكثرون السواد وبشرى للمؤمنين، وإلّا فملك واحد بأمر الله يهلك جميع أهل الدنيا كلّهم[٢].

وجاء الخبر إلى أبي لهب بمكّة، فمات غيضاً وكان اسمه عبدالعزّى.

وكانت عدّة القتلى من المشركين سبعين رجلاً والأسرى كذلك، فيهم العباس وعقيل ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، فنزل قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾** بأخذ الفداء إلى قوله **﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾** إنّهم لا يعذبهم وأنت فيهم **﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾** فيه **﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[٣].

وروي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كره أخذ الفداء يوم بدر، حتى رأى سعد بن معاذ كراهيّة ذلك في وجهه، فقال: يا رسول الله هذا أوّل حرب لقينا فيه المشركين، والإثخان في القتل أحب إليّ، وقال عمر: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك فقدّمهم واضرب أعناقهم، فإنّهم أئمة الكفر وأنّ الله أغناك عن الفداء، مكنّي من فلان ـ نسيب له ـ ومكّن عليّاً عليه السلام من عقيل، وحمزة من العباس، لنضرب أعناقهم، فقال أبو بكر: يا رسول الله أهلك وقومك استأن بهم واستبقهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوّة على الكفار فأخذ الفداء.

وكلّف العباس أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب.

فقال: يا محمّد تركتني اتكفف قريشاً ما بقيت.

فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك؟ وقلت لها: لا أدري ما يصبني في وجهي هذا؛ فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبدالله وعبيدالله والفضل وقثم.

فقال: وما يدريك!

قال أخبرني ربي تعالى.

قال: فأشهد أنّك صادق ولا إله إلّا الله وأنّك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلّا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، فنزل في حقه: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِمَن فِي أَيْدِيكُم مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ**

---

(١) تخريج الاحاديث والآثار: ١٥/٢.

(٢) تفسير النسفي ٥٧/٢، والرازي في تفسيره: ١٣٠/١٥.

(٣) سورة الأنفال: ٦٧ و٦٨.

﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرَاً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرِ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(١)].

قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك لي عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم وأنا أنتظر المغفرة من ربّكم[(٢)].

وأمر رسول الله بالقتلى فجر منهم القليب وهو بئر في بدر أربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، ورثاهم أميّة بن أبي الصلت الثقفي بقصيدته التي منها:

ألا بكيت على الكرام … بني الكرام أولى الممادح

كبكا الحمام على فروع … الأيك في الغصن الجوانح

وأقام رسول الله ثلاثة أيام، وقسم الغنائم ونزل قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلأَنْفَالِ قُلِ ٱلأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾** يقسّمها الرسول على ما يأمره الله به، قال سعد بن أبي وقاص: لمّا كان يوم بدر قتل أخي عمير، فقتلت سعيد بن العاص فأخذت سيفه، وأتيت به رسول الله ﷺ واستوهبته منه، فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض، فطرحته وبي ما لا يعلمه إلّا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي فما جاوزت إلّا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله: سألتني السيف ولم يكن لي فالآن قد صار لي فخذه، فأخذته[(٣)].

وجميع من استشهد من المسلمين أربعة عشر نفراً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، ولمّا وصل رسول الله إلى الصفراء عائداً، قال: عليّ بالنضر بن الحارث، فأخذ عليّ عليه السلام بشعره فجاء به إليه، فقال: يا محمّد؛ أسألك الرحم الذي بيني وبينك إلّا أجريتني، فقال: قطع الله الرحم بالإسلام، قدّمه يا علي فاضرب عنقه، ففعل وهو الذي قال عن القرآن: **﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ﴾**[(٤)]، ثم أمر عليّاً فضرب عنق عقبة بن أبي معيط أيضاً بالصفراء وصلبه وكان أوّل مصلوب صلب في الإسلام وهو الظالم الذي قال الله عنه: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾**[(٥)].

وكان عقبة يكثر مجالسة النبيّ ﷺ، فدعاه إلى ضيافة فأبى أن يأكل طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل، وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه، فقال: صبأت يا عقبه؟ فقال: لا ولكن حلف أن لا يأكل

---

(١) سورة الأنفال: ٧٠.

(٢) تفسير الثعلبي: ٣٧٤/٤.

(٣) مسند أحمد: ١٨٠/١، جامع البيان: ٢٣١/٩.

(٤) سورة الأنفال: ٣١.

(٥) سورة الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨.

من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له، فقال: لا أرضى منك إلّا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل به ذلك، فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجاً من مكّة إلّا علوت رأسك بالسيف»[١].

وكانت مدة غيبة رسول الله عن المدينة تسعة عشر يوماً.

وكان عثمان بالمدينة لسبب مرض زوجته رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يحضر بدراً[٢].

وفي سنة بدر كانت غزوة بني قينقاع[٣] وهم أوّل يهود نقضوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إليهم منتصف شهر شوال وحاصرهم خمسة عشر يوماً، ثم نزلوا على حكم رسول الله فكتفوا للقتل، وكانوا حلفاء الخزرج، فتشفّع فيهم عبدالله بن أبي سلول المنافق، ولحّ على رسول الله صلى الله عليه وآله فتركهم له، وغنم المسلمون أموالهم واجلوا[٤].

وفيها كانت غزوة السويق كان أبو سفيان بن حرب حلف أن لا يمسّ طيباً ولا نساءاً حتى يغزوا محمّداً بسبب قتلى بدر، ومنع النساء من البكاء عليهم، وقال: إنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن، وقال لإصحاب المال الذي كان مع الفضل الذي جاء معه من الشام، ساعدونا بهذا المال على حرب محمّد، وخرج في مأتي راكب فرس وبعير قدّامه رجال المدينة، فوصلوا إلى العريض وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً لهم.

فركب رسول الله صلى الله عليه وآله في طلبهم، فهرب أبو سفيان بجمعه وألقوا أجربة السويق، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله قرقرة الكدر، فقيل: لهذه الغزوة غزوة قرقرة، وقيل لها: غزوة السويق، وقيل: أنّ غزوة قرقرة الكدر كانت ثلاث وهي مما يلي جادة العراق إلى مكّة [بلغ][٥] رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ بها جمعاً من بني سليم وغطفان، فخرج إليهم فلم يجدهم فاستاق ما بها من النعم، وعاد إلى المدينة.

وفي سنة ثلاث في رمضان ولد الحسن بن علي عليهما السلام ودخل النبي صلى الله عليه وآله بحفصة بنت عمر.

وفيها كانت غزوة أحد اجتمعت قريش في سبعمائة درع ومأتي فرس، وخرجوا من مكّة في ثلاثة الآف فارس وألفي رجل، وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وعلى ميمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، ورايته مع طلحة بن أبي طلحة العبدي من بني عبدالدار، ومعه

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٢١٤.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ٢٢/٣٥.

(٣) في المخطوطة (قيقاع)، والصحيح ما اثبتناه.

(٤) الطبقات الكبرى ـ محمّد بن سعد ـ ٢/٢٩.

(٥) اضفناها من نسخة «استان قدس رضوي».

زوجته هند بنت عتبة أم معاوية في خمسة عشرة امرأة، يضربن بالدفوف يحرضن على ثار قتلى بدر، منهم أبوها وعمّها وأخوها وابنها.

ونزلوا بذي الحليفة نهار الأربعاء رابع شوال، فرأى رسول الله أن يكون قتالهم بالمدينة، فاستشار أصحابه وقد دعى عبدالله بن أبي ولم يدعه قبل ذلك لنفاقه، فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله ﷺ بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدواً لا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلّا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، فقال سعد بن معاذ وغيره من الأوس: يا رسول الله والله ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام، فكيف يعلمون وأنت فينا؛ لا نصبر حتى نخرج إليهم ونقاتلهم، فمن قتل منّا كان شهيداً، ومن نجا كان مجاهداً في سبيل الله، فقال ﷺ: رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي فأوّلتُها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأوّلتُها هزيمة، ورأيت كأنّي أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها بالمدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم، فقال رجال: قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد، أُخرج بنا إلى أعدائنا؟ وبالغوا حتى دخل ولبس لامته، فلمّا رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، فقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت؟ فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمَته فيضعها حتّى يقاتل»[1].

فخرج بعد صلاة الجمعة في ألف رجل من أصحابه، ووعدهم النصر إن صبروا، كما قال تعالى: **﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾**[2]، فلمّا لم يصبر بعضهم لم تنزل الملائكة، وذلك أنّهم لمّا بلغوا الشوط ـ مكاناً بين المدينة وأحد ـ اعتزل عنهم عدو الله بن أبي المنافق في ثلاثمائة، وقال: أطاعهم وعصاني علام نقتل أنفسنا وأولادنا، ورجع بمن معه من أهل النفاق، فسبقهم عمرو بن حزم الأنصاري، وقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال ابن أبي: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم يعني ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، فهم الحيان اتباعه فعصمهم الله كما قال تعالى: **﴿إِذْ هَمَّت طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾**، وهما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر فمضوا مع رسول الله ﷺ، وأصبحوا بشعب أُحد يوم السبت، ونزل رسول الله ﷺ في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أُحد.

---

(١) تفسير الرازي: ٢١٨/٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٤ و ١٢٥.

وسوّى صفّهم وأمر عبدالله بن جبير على الرماة، وقال: انضحوا عنّا بالنبل لا يأتون من ورائنا ووضعهم على باب الشعب، وقال لهم: إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مركزكم، فإنّ خالد بن الوليد في خيل المشركين، وكان أبو سفيان قد وضع خالد بن الوليد في مأتي فارس كميناً، وقال لهم: إذا رأيتمونا قد اختلطنا بهم فأخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا ورائهم.

وعبّأ رسول الله ﷺ أصحابه وكانت عدتهم سبعمائة رجل في مائة درع، وفرسين؛ واحدة لرسول الله وواحدة لأبي بردة، ولواء رسول الله مع مصعب بن عمير، ولواء أبي سفيان مع بني عبدالدار.

وقالت هند بنت عتبة: لوحشي عبد جبير بن مطعم، لئن قتلت محمّداً أو علياً أو حمزة لأعطينّك كذا وكذا، فقال: أمّا محمّد فلا أقدر عليه، وأمّا عليّ فإنّه حذر كثير الإلتفات فلا مطمع فيه، وأمّا حمزة فأكمن له، فقال جبير بن مطعم لوحشي، إن قتلت حمزة عمّ محمّد بعمّي فأنت عتيق؛ وكان عمّه طعمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فكمن لحمزة وكان حمزة رضي الله عنه إذا حارب يهد الناس هدّاً ولا يلتفت، فالتقى الفريقان وقاتل حمزة قتالاً شديداً فقتل أرطاة حامل لواء المشركين، فبينما هو مشغول بقتله غدره وحشي بحربته فقتله.

وقيل: مصعب بن عمير قتله ابن قمية الحارثي، وهو يرى أنّه قتل النبي ﷺ، فأعطى رسول الله الراية لعلي بن أبي طالب عليه السلام، فقتل طلحة بن أبي طلحة العبدي حامل لواء المشركين، ولم يزل يقتل كل من أخذ اللواء حتى قتل تسعة من بني عبدالدار، حتّى صار لواءهم إلى عبد أسود يقال له صواب، فقتله علي عليه السلام فسقط اللواء، فأخذته عمرة بنت علقمة الكنانية ورفعته وانهزمت المشركون، فطمعت رماة المسلمين في الغنيمة وكانوا خمسين رجلاً، وخالفوا رأي رسول الله ففارقوا المكان الذي قال لهم لا تفارقوه، فإنّ خالد بن الوليد في خيل المشركين، فانحط خالد بن الوليد في مأتي فارس على عبدالله بن جبير وقد أمر أصحابه للغنيمة، وبقي في نفر قليل فقتلهم خالد على باب الشعب، ثم أتي المسلمين من أدبارهم، ونظرت قريش في هزيمتها إلى الراية وقد رفعتها علقمة فلاذوا بها، ونادى الصارخ أنّ محمّداً قتل.

فانكشف المسلمون فأصاب منهم المشركون، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً، وشجّ رأس رسول الله ﷺ عتبة بن أبي وقاص، فقال: كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم، وقال بعض ضعفاء المسلمين: لو كان محمّد نبيّاً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن قتل محمّد فربّه حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة

بعده، فقاتلوا على ما قتل عليه، ثم قال: اللهمّ إنّي أعذر إليك مما يقولون وأبرء منه، وشد بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ**﴾[1] كأنس وأضرابه.

وجعل رسول الله ﷺ يدعوا إلى عبادة الله، فانحاز إليه ثلاثون رجلاً من أصحابه، فكشف البيضة من رأسه، وقال: إليّ أنا رسول الله إليّ أين تفرون عن الله وعن رسول الله؟ وكان لم يبق معه غير علي، وأبي دجانة الأنصاري، وسمّاك بن حرثه، وطلحة بن عبدالله، فضربت يد طلحة فشلّت، وكان كلّما حمل طائفة على رسول الله استقبلهم عليّ بسيفه، فدفعهم عنه حتى انقطع سيفه فدفع إليه رسول الله سيفه ذو الفقار، فلم يزل يقاتل حتى أصابه سبعون جراحة، ونظر رسول الله إلى جبرئيل وهو بين السماء والأرض على كرسي من ذهب، وهو يقول: لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علي[2]، وشدّ رسول الله ﷺ بمن رجع إليه من المهاجرين والأنصار حتى كشف الكفّار.

ومثّلت هند بشهداء المسلمين واتخذت من أذانهم وأنوفهم قلائد، وبقرت عن كبد حمزة ولاكتها فلم تسغها حتى صيّرها في فمها مثل الداعصة، وهي عظم الركبة[3].

وقتل من المشركين اثنان وعشرون، وانصرف أبو سفيان بمن معه، وقال: يا محمّد يوم بيوم والموعد موسم بدر العام القابل إن شئت، فقال ﷺ: إن شاء الله.

ومرّ رسول الله ﷺ بحمزة وقد مثل به، فقال: والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلنّ بسبعين مكانك، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾، قيل فكفّر عن يمينه، وقال: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[4].

وأمر بخمرة فجيء ببردة، وصلّى عليه وكبّر سبع تكبيرات، وكلّما جيء بشهيد صلى على حمزة معه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، ثم دفن حمزة في موضعه الذي قتل فيه، وأمر أن يدفن الشهداء حيث صرعوا، وكان قد نقل بعضهم إلى المدينة فردّوا ودفنوا بمصارعهم، ثم خرج رسول الله ﷺ حتى عسكر بحمراء الأسد[5] مرهباً للعدوّ مظهراً لهم القوّة.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٢) الكافي ٨/ ١١٠، المناقب لابن شهرآشوب ٣/ ٢٩٦، كفاية الطالب للكنجي: ٢٧٧، مناقب الخوارزمي: ١٠٣.

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٥٢٩.

(٤) ذخائر العقبى: ١١٦.

(٥) وهي موضع على ثمانية أميال من المدينة، معجم البلدان ٢/ ٢٢٢.

وروي أنّ أبا سفيان وأصحابه لمّا رجعوا فبلغوا الروحاء[١] ندموا وهمّوا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال لا يخرجن معنا إلّا من حضر يومنا بالأمس، والذي نفسي بيده لأخرجنّ ولم يخرج معي أحد، فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولحقه جماعة من الصحابة حتى بلغوا حمراء الأسد ـ وهي على ثمانية أميال من المدينة ـ، وكان بأصحابه القرح ـ أي الجروح ـ فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا خائبين فنزل قوله تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ** ـ القول ـ **إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾**[٢][٣].

وفيها أو في التي بعدها قتل كعب بن الأشرف اليهودي الملعون، وكان قد أذى المسلمين.

روي أنّ رسول الله لمّا قدم المدينة صالح بني النضير من اليهود على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلمّا ظهر يوم بدر على أعدائه، قالوا اليهود: إنّه النبيّ الموعود في التوراة بالنصر، فلمّا هزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكّة وحالفوا أبا سفيان على حرب رسول الله ﷺ، فقال لهم أبو سفيان: أنتم أهل كتاب، ومحمّد صاحب كتاب فلا نأمنكم حتى تسجدوا لأصنامنا فسجدوا لأصنامهم، فأمر رسول الله ﷺ أخا كعب من الرضاعة وهو محمّد بن مسلمة الأنصاري فقتله غيلة ثم صبّحهم رسول الله بالكتائب وحاصرهم ونزل تحريم الخمر وهو محاصرهم في ربيع الأوّل حتى صالحوه على الجلاء[٤] بعد ستة أيام، على أنْ لهم ما حملت الأبل والباقي لرسول الله، فقسّمه على المهاجرين دون الأنصار، والأسهل بن حنيف وأبا دجانة فإنّهما شكيا فقراً[٥]. فجلا أكثرهم إلى الشام ولحق طائفة بخيبر والحيرة، فنزل قوله تعالى: **﴿ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾**[٦] وهو الشام.

---

(١) الروحاء: هو موضع على نحو أربعين ميلاً من المدينة، وقيل: ستة وثلاثين، وهو الموضع الذي نزله به تبع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة. فأقام بها وأراح فسماها الروحاء. (مراصد الاطلاع: ٢/٦٣٧).

(٢) سورة آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/١١٦.

(٤) البيضاوي ٥/٣١٦.

(٥) جامع البيان لابن جرير الطبري ٢٨/٥٤.

(٦) سورة الحشر: ٢.

وفي سنة أربع كانت غزوة ذات الرقاع، غزا رسول الله نجداً في جمادي الأُولى فلقى جماعة من غطفان فتقارب الفريقان، ولم يقع قتال فسمّيت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم فيها، أو لأن أقدامهم نقبت[1] فكانوا يلفون عليها الخرق، أو لأنّهم التقوا في سفح جبل فيه جدد وحمر وصفر كالرقاع[2].

وفي شعبان منها خرج رسول الله صلى الله عليه وآله لبدر الموعد لوعد أبي سفيان وهي بدر الصغرا، فألقى الله في قلوب قريش الرعّب فرجعوا جفالاً[3] وكفى الله المؤمنين القتال.

وفي سنة خمس كانت غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب، بلغ رسول الله حزب قبائل العرب، فحفروا الخندق بإشارة سلمان الفارسي، وهو مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله وظهر له معجزات.

منها: ما رواه جابر بن عبدالله الأنصاري أنّهم اشتدّ عليهم كدية ـ أي صخرة ـ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بماء ووضعه في فيه ثم نفخه على الصخرة، فانهالت تحت المساحي[4].

ومنها: أنّ ابنة أخت النعمان بن بشير الأنصاري، بعثتها أمّها بغذاء أبيها بشير وخالها عبدالله بن رواحة وهو شيء قليل من التمر، فمرّت برسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: هاتِ ما معك، قالت: فصببت ذلك في كفّيه، فما امتلأتا فدعا بثوب ورد ذلك فيه، قال لأنس بن مالك[5]: أصرخ في أهل الخندق أن هلمّوا إلى الغداء، فجاوًا وجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنّه ليسقط من أطراف الثوب[6].

ومنها: ما رواه جابر من شبع جميع أهل الخندق من شويهة قد صنعها له وحده[7].

ومنها: ما روي عن سلمان الفارسي أنّه صلى الله عليه وآله ضرب بمعول على صخرة ثلاث ضربات فلمعت بكل ضربة لمعة، فكبّر وكبّر معه المسلمون.

---

(١) بفتح النون وكسر القاف، أي قرحت من الحفاء. وفي حديث أبي موسى (انما سميت بذلك لما كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق من شدة الحر).

(٢) معجم البلدان: ٥٦/٣، بحار الأنوار: ١٠٥/٨٦.

(٣) يقال جفلت الريح السحاب: إذا قطعته وأذهبته.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٨٥/٢.

(٥) في أسد الغابة: ١٤٦٩/١، وسيرة ابن كثير ١٨٦/٣، وتهذيب سيرة ابن هشام ٢٩٢/١، والمختصر في تاريخ البشر: (لإنسان)، وفي المغازي جعال بن سراقة.

(٦) أخرجه البخاري في علامات النبوة ـ المناقب فتح الباري: ٣٥٨٠، وأخرج ابن سعد في الطبقات ٥٦٢/٣، سيرة ابن هشام: ١٧٤/٤.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير: ٣١٢/٦.

وقال فتح الله عليّ بالأولى اليمن، وبالثانية الشام والمغرب، وبالثالثة المشرق، فقال المنافقون: لا تعجبوا يمنّيكم ويعدكم الباطل، فنزل قوله تعالى: **﴿قل اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[١][٢].

وفرغ رسول الله ﷺ من الخندق، وأقبلت قريش في أناسها ومن تبعها من كنانة في عشرة آلاف، وغطفان ومن تبعها من أهل نجد، ونقض بنو قريظة العهد وصاروا مع الأحزاب، وعظم الخطب، وظهر النفاق، كما قال تعالى: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾**[٣].

وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلة، ورسول الله ﷺ مقابلهم داخل الخندق ومعه ثلاثة آلاف، ولا قتال بينهم غير المرامات بالنبل والحجارة، لأنّ فوارس قريش منهم عمرو بن عبد ود من ولد لؤي بن غالب، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن وهب، ونوفل بن عبدالعزى، قد تلبسوا للحرب وخرجوا على خيولهم حتى مرّوا بمنازل بني كنانة، فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة، فستعلمون اليوم من الفرسان؟ ثم أقبلوا تنعق[٤] بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق، فقالوا: والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحموا بهم، فمنهم من خلص ومنهم من وقع في الخندق:

واقتحم الخندق ضرغامهم ... عمرو بن ود البطل العامري
كانما عيناه من شره ... ترمى بمثل الشرر الطائر
يسعى على ورد حياض الردى ... مسارعا كالمصعب الثاير
يقول يا صحب النبي ابرزوا ... لحرب ليث في اللقا صابر
فقال خير الخلق من يشتري ... جنات عدن بلقا الكافر
فارتعد الإسلام خوفاً ومن ... يسعى إلى حكم الفناء الجاير
فعندها قام الفتى حيدر ... يسعى لامر الصادع الآمر

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٣١٨/٦، تخريج الاحاديث والآثار للزيلعي: ١٨٢/١.

(٣) سورة الأحزاب: ١٠ و١١.

(٤) أي: تسرع.

وقال انـي سوف اروي الثرى بالسيف من حوباء ذي الفاجر

وكان عمرو قد طلب المبارزة مراراً فلم يبرز أحد إليه بشجاعته حتى قال:

ولقد بحححتُ من النّداء بجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع وقفة القرن المناجز
وكذاك إنـي لم أزل متسرعا نحو الهزاهز
إن الشجاعة والسماحة في الفتى خير الغرائز

فاستأذن عليّ رسول الله في البراز إليه، فأذن له وألبسه درعه ذات الفضول، وأعطاه سيفه ذو الفقار، وعمّمه عمامة السحاب على رأسه تسعة أكوار، وقال: «اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه».

وقال خير الخلق يا مرتضى بت في أمان الحافظ الناصر
فقام يمشي نحوه راجلاً أسبل من ليث الثرى الحاذر

فبرز إليه وهو يقول:

يا عمر ويحك قد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز
ولقد دعوت إلى البراز فتى يجيب إلى المبارز
يعليك أبيض صارما كاللمح حتفاً للمناجز
إنـي لآمل أن تقوم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: يابن أخي والله ما أحبّ أن أقتلك، فقال: والله أنا أحب أن أقتلك، فحمي عمرو ونزل عن جواده وسلّ سيفه كأنّه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضباً فاستقبله عليّ بدرقته، فضربه عمرو في الدرقة فقدّها وأصاب رأسه فشجّه، وضربه عليّ على حبل العاتق فألقاه على قفاه، وقال: الله أكبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله قتله والذي نفسي بيده، فابتدره الناس فكان أوّل من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب، فإذا عليّ يمسح سيفه بدرع عمرو، فكبّر عمر وقال: يا رسول الله قتله وربّ الكعبة، وكان عليّ وعمرو كما قال الشاعر:

واصطدما ليثين لم يجزعا من شرب كاسات القضى الداير
فانشاشة الكرار بحر الندى طود العلى ذو السؤدد الوافر
بضربة لو صادفت يذبلا هوت إلى مركزه الغاير

فجر منقاداً لداعي الردى | وغسله من دمه الفاير
وصاح فيهم صيحة فانثنوا | مثل نعام في الفلا نافر

وجزّ عليّ رأس عمرو وأقبل به نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ووجهه يتهلل، فقال له عمر: هلا استلبته درعه؟ فإنّه ليس للعرب درع خيراً منها، قال: ضربته فاتقاني بسوئته، فاستحييت ابن عمي أن أستلبه[١].

وبعث المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، يشترون منه جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال: هو لكم لا نأكل ثمن الموتى[٢].

وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبدالعزى جوف الخندق، فجعلوا يرمونه بالحجارة، فقال لهم: قتلة أجمل من هذا؛ ينزل بعضكم أقاتله؟ فنزل إليه الزبير بن العوام وقتله.

وبعث الله على الأحزاب ريحاً باردة في ليلة باردة فسفت في وجوههم التراب وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم، وماجت الخيل بعضها في بعضها[٣]، وكبّرت الملائكة في جوانب العسكر، فقال طلحة بن خويلد الأسدي: أمّا محمّد فقد بداكم بالسحر، فالنجاة النجاة، فانهزموا **﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾**[٤] بالريح والملائكة.

وقتل عليّ لعمرو بن عبد ود ـ وكان يعدّ بألف فارس ـ كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾**[٥]، ولمّا وصل خبر عمرو بن عبد ود إلى أخته بكت وقالت:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله | بكيته أبداً ما عشت في الأبد
لكنّ قاتله من لا يعاب به | قد كان يسمّى أبوه بيضة البلد

وحكي أنّه لمّا تجمّعت الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وآله عام الخندق، جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني، فقال: يا رسول الله إنّي قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمّا أنت فرجل واحد، فأخذل ما استطعت، فإنّ الحرب خديعة.

فخرج نعيم إلى بني قريظة من اليهود وكان نديماً لهم في الجاهلية.

---

(١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي ١٣٢/٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ابن شهرآشوب: ١٧١/١.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي: ٣٦٨/٦.

(٤) سورة الأحزاب: ٢٥.

(٥) سورة الأحزاب: ٩.

فقال لهم: قد علمتم ودّي إيّاكم، وما بيني وبينكم.

قالوا: صدقت؛ ولست عندنا بمتّهم.

فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفاناً ليسوا مثلكم لأنّ أموالكم وأولادكم ونساءكم بهذا البلد، ولن تستطيعوا التحوّل، وإنّ قريشاً وقطفاناً قد جاؤا لحرب محمّد، وقد ظاهرتموهم عليه، وأموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة فإن رأوا لهم طريقاً إلى حربه وصلوه وحاربوه، وإلّا ارتحلوا إلى بلادهم وتركوكم له، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم، توثقاً لكم ليناجزوه. قالوا: أشرت بالرأي.

ثم جاء قريشاً وقال لهم: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمّداً وأصحابه فيكم، وأنّه قد بلغني أمر وجب عليّ تبليغه إليكم على وجه النصيحة فاكتموه عليّ، قالوا: نفعل، قال: تعلموا أنّ اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمّد من نقض العهد، وقد أرسلوا إليه إنّا قد قدمنا على نقض العهد الذي كان بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً تضرب رقابهم؟ ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم، فإن طلب منكم اليهود رهائن من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً.

فلمّا كانت ليلة السبت أرسلت قريش وغطفان إلى اليهود، وقالوا لهم: لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاستعدوا للقتال حتى نناجز محمّداً.

فأرسلت اليهود إليهم في جوابهم أنّ اليوم السبت؛ ولا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن من رجالكم إلى آخر ما حدّثهم نعيم.

فلمّا سمعت قريش وغطفان بذلك قالوا: والله إنّ كلام نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى اليهود إنّا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت اليهود حينئذٍ: والله إنّ كلام نعيم لحق، ما يريد هؤلاء إلّا فرصة فإن وجدوها وإلّا شمّروا إلى بلادهم وتركونا ولا طاقة لنا بمحمّد صلى الله عليه وآله[1].

فخذل الله بينهم وأرسل الله عليهم الريح وجنود الملائكة، فتفرقوا وارتحلوا منهزمين بسبب حيلة نعيم بن مسعود وفطنته وانتباهه وتفطينه، مع التوفيق الإلهي والتأييد السماوي.

وأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله مؤيداً منصوراً ورجع من الخندق إلى المدينة، ونزع عنه لامته.

فلمّا كان صلاة الظهر أتاه جبرئيل فقال: يا محمّد أتنزع لامتك والملائكة لم يضعوا السلاح؟ إنّ الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إليهم، فنادى مناد رسول الله صلى الله عليه وآله، من كان سامعاً

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٤٠.

مطيعاً فلا يصلي العصر إلّا في ديار بني قريظة، وقدم عليّاً بالراية.

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل على بئر من آبارهم وتلاحقه الناس، وحاصرهم خمسة وعشرين يوماً، فسألوه الصلح فأبى إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان ناصحاً لهم، لأنّ عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم.

فقالوا له: ما ترى يا أبا لبابة؟ هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حلقه أنّه الذبح.

ثم ندم وقال في نفسه قد خنت الله ورسوله فنزل في حقه: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَاتَخُونُوا ٱللّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[١] ما في الخيانة من الذم والعقاب **﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[٢]، فمضى أبو لبابه فشدّ نفسه على سارية في المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيّاً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك، فقال: والله لا أحلّها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي يحلّني، فجاءه فحلّه بيده[٣].

ثم نزل بني قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه الأوس فيهم طمعاً أن يتركهم لهم كما ترك بني قينقاع لعبدالله ابن أبي المنافق، فقال: ألا ترضون بحكم سعد بن معاذ؟ فقالوا: نعم هو سيدنا، فأمر بسعد وكان قد خرج من الخندق، فجاؤا به على حمار وكان رجلاً جسيماً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا لسيّدكم، قيل عم الناس، وقيل: خص الأنصار، فقاموا له وقالوا له: يا أبا عمرو إنّ رسول الله قد حكمك في مواليك، فقال: احكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله: لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سماواته.

ورجع بهم إلى المدينة، وحفرت لهم خنادق فضربت أعناقهم فيها، وكانوا سبعمائة رجل تقريباً وقسّم الأموال والسبايا وأخرج الخمس واستبقى لنفسه ريحانة بنت عمرو، وبقيت في ملكه إلى أن قبض، وغنم المسلمون أرضهم وديارهم وأموالهم، كما قال تعالى: **﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾** أي عاونوا الأحزاب **﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾** أي من حصونهم **﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ**

(١) سورة الأنفال: ٢٧.

(٢) سورة الأنفال: ٢٨.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣/١٠٢، بحار الأنوار ٣٧.

تَطَؤُوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[1].

فلمّا انقضى شأن بني قريظة مات سعد بن معاذ، فجاء جبرئيل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمّد من هذا العبد الصالح؟ الذي مات من أصحابك فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش، فخرج رسول الله فإذا سعد قد قبض لرحمة الله.

وفي تلك الأثناء في اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجّة، حاجّت نصارى نجران رسول الله صلى الله عليه وآله في عيسى عليه السلام، فنزلت آية المباهلة وهي قوله تعالى: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِل فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**[2].

وروي أنّهم لمّا دعوا إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فلمّا تخالوا قالوا للعاقب: وكان ذو رأيهم، ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوّته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً إلّا هلكوا، فإن أبيتم إلّا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غدا محتضناً الحسين أخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمّنوا، فقال أحدهم: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فأذعنوا لرسول الله وبذلوا الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً حديداً، فقال عليه السلام: والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير، واضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر، وهو دليل على نبوته[3].

وفيها كان نفر من الأوس والخزرج جلوساً يتحدّثون، فمرّ بهم شاس بن قيس اليهودي فغاظه تألفهم واجتماعهم، فأمر شابّاً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكر لهم يوم بغاث وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس، ففعل فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السّلاح السّلاح، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم فتوجّه إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، وقال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألّف بينكم، فعلموا أنّها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السّلاح واستغفروا، وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع الرسول فأنزل الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ**

(١) سورة الأحزاب: ٢٦ و٢٧.

(٢) سورة آعمران: ٦١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/٤٧.

رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

وفيها غزى أهل فدك فهربوا وبقي مرداس ثقة بإسلامهم، فلمّا رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد فلمّا تلاحقوا وكبّروا كبّر فنزل، وقال: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ﷺ، السّلام عليكم فقتله أُسامة بن زيد واستاق غنمه، فنزل قوله تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾** إلى قوله تعالى **﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾**[٢].

وفي سنة ست كانت غزوة ذي قرد ويقال لها: غزوة الغابة، أغار عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري الأحمق المطاع على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة فخرج إليه رسول الله ﷺ ووصل ذا قرد ـ موضع على ميلين من المدينة ـ فانهزم عيينة الأحمق، وعاد رسول الله ﷺ بعد خمسة أيام إلى المدينة.

وفيها أو في التي قبلها كانت غزوة بني المصطلق من خزاعة وتسمى المريسيع[٣] في شعبان، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار، فخرج رسول الله ﷺ إليهم ومعه عائشة فلقيهم على ماء يقال له المريسيع، ووقع القتال فانهزم بنو المصطلق، فقتل وسبي ووقعت جويريّة بنت الحارث قائدهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها، فأدّى رسول الله ﷺ عنها وتزوّجها، فقال النّاس: أصهار رسول الله ﷺ، فاعتقوا من أجلها أسرى كثيرة، وكانت عظيمة البركة على قومها.

ورجع رسول الله ﷺ منصوراً فنزل منزلاً قريباً من المدينة، فلمّا كان عند السحر أذّن بالرحيل، فخرجت عائشة لقضاء حاجة، فسقط عقد لها من جزع ظفار[٤] فرجعت تلتمسه، فجاؤا إلى جملها وهو مرحل فظنوا أنّها في الهودج فساقوه وذهبوا به، فجاءت تطلبه فلم تجد في المنزل أحداً، فجلست كي يرجع إليها منشد، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلها فعرفها، فأناخ راحلته فأركبها، فقادها حتى أتيا الجيش، فاتّهمت به فهلك من هلك بقوله فيها، وهم: عبدالله ابن أبي المنافق، ومسطح بن أثاثة، وحسّان بن ثابت، وحمنة بنت

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠ و١٠١.

(٢) سورة النساء: ٩٤.

(٣) المريسيع: قال في القاموس المريسيع مصغر مرسوع: البئر أو ماء لخزاعة على يوم من الفرع [الفرع بضم الفاء موضع بالمدينة] وإليه تضاف غزوة بني المصطلق، وفيها سقط عقد عائشة ونزلت آية التيمم انتهى كلامه القاموس.

(٤) ظفار: مدينة باليمن قرب صنعاء وهي التي ينسب إليها الجذع الظفاري (أي الخرز) معجم البلدان: ٤/٦٠.

جحش، فأنزل الله تعالى برائتها في آيات من سورة النور لإظهار منصب الرسول وإعلاء منزلته[١].

وفي هذه الغزوة قال عبدالله ابن أبي المنافق: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[٢]، عني بالأعز عن نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذب المنافق، بل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وذلك أنّ أعرابياً نازع أنصاريّاً على ماء فضرب الأعرابي رأس الأنصاري فشجّ، وشكى إلى ابن أُبي فقال: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[٣]، وقال ما قال: فبلغ ذلك رسول الله، وكان لعبدالله بن أبي ولد اسمه عبدالله حسن الإسلام، فقال: يا رسول الله إئذن لي فاحضر لك برأس أبي؟ فقال صلى الله عليه وآله بل تحسن إليه.

وفيها نزلت آية التيمم، وقيل في الرابعة.

وفي ذي القعدة من سنة ست خرج رسول الله صلى الله عليه وآله معتمراً لا يريد حرباً، في ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، ولمّا وصل الحديبية أسفل مكّة، وقعت ناقته فزجرها فلم تنزجر وبركت، فقال أصحابه: خلأت الناقة[٤]، فقال: ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل ونزل عنها، فقال أصحابه: نزلنا على غير ماء، فأخرج سهماً من كنانته وأمر رجلاً أن يغرسه ببعض تلك القلب، فجاش الماء حتى ضرب الناس بعطن[٥]، وبعث حراس بن أُمية الخزاعي إلى أهل مكّة، فهمّوا به فمنعه الأحابيش[٦] فرجع. فأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف، فقال: إنّ قريشاً لبست جلود النمور وعاهدوا الله أن لا تدخل مكّة عنوة أبداً، فدعا عمر ليرسله إلى أهل مكّة، ليأذنوا له بأن يدخل مكّة ويحلّ من عمرته وينحر هديه، فقال: يا رسول الله ما لي بها حميم وإنّي أخاف قريشاً لشدّة عداوتي إيّاها، ولكن أدلّك على رجل هو أغربها منّي، عثمان بن عفان، قال: صدقت، فبعث عثمان إلى قريش فأعلمهم أنّ رسول الله لم يأت لحرب، بل زائراً ومعظماً لهذا البيت، فقالوا لعثمان: إن شئت الطواف فطف، فقال: لا أفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وآله، فأمسكوه وحبسوه، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّهم قتلوا عثمان، فقال: لا نبرح حتى نناجزهم[٧].

---

(١) امتاع الاسماء للمقريزي: ٢١٣، تفسير البيضاوي: ١٧٦/٤.

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) سورة المنافقون: ٧.

(٤) أي بركت ولم تبرح من مكانها.

(٥) العطن: مبرك الإبل حول الماء يقال: عطنت الإبل فهي عاطنة وعواطن إذا سقيت وبركت عند الحياض لتعاد إلى الشرب مره أخرى.

(٦) وهي اسم لأخلاط العشائر.

(٧) مسند أحمد: ٣٢٤/٤، تخريج الأحاديث والآثار: ٢٠٨/٣، بحار الأنوار: ٣٢٩/٣٠.

فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وبايع المسلمون الذين كانوا معه كلّهم إلّا الجد بن قيس[١] أسرى براحلته فنزل قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾[٢]، وكانعليه السلام جالساً تحت سمرة أو سدرة ثم بلغ رسول الله أنّ عثمان لم يقتل، فكانت قصّة الصّلح.

روي أنّهصلى الله عليه وآله لمّا همّ بقتالهم بعثوا إليه سهل بن عمرو، وحويطب بن عبدالعزّى، ومكرّز بن حفص، ليسألوه أن يرجع من عامه إلى المدينة على أن يخلي له قريش مكّة من القابل ثلاثة أيام، فأجابهم، وقال لعلي عليه السلام: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: ما نعرف هذا، أكتب باسمك اللّهم، قال: أكتب يا علي هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكّة، قالوا: لو كنّا نعلم إنّك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، أكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبدالله أهل مكّة، فقال: أكتب يا عليّ ما يرون فهم المؤمنون إن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾[٣]، فصالح رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً على وضع الحرب عشرة سنين، ومن أحبّ أن يدخل في عهد محمّد صلى الله عليه وآله وعقده دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل، وشهد في عقد الصّلح جماعة من المسلمين والمشركين، ونحر رسول الله صلى الله عليه وآله هديه وحلق رأسه وفعل كذلك الناس معه، وقال: يرحم الله المحلقين، وبعد ثلاث قال: فالمقصرين، ثم قفل إلى المدينة.

وفي سنة سبع خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في منتصف المحرّم إلى خيبر وفتحها حصناً حصناً، وأخذ من سباياها لنفسه صفية بنت حي بن أحطب فتزوّجها وجعل عتقها صداقها، فقيل: إنّ هذه من خصائصه.

وفيها ظهرت مزيّة عليعليه السلام وإنّ الله يحبّه إذ قيل: إنّ رسول الله أعطى الراية لأبي بكر فهزم ورجع بالراية، فأعطاها لعمر فهزم أيضاً، فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «لأعطينّ الراية غداً إن شاء الله لرجل يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كرّار غير فرار يكون الفتح على يديه»[٤]، فلمّا أصبح دعا عليّاً وكان به رمد فتفل في عينيه وأعطاه الراية المسمّاة بالعقاب، كما قال البوصيري:

وعليّ لما تفلت بعينيه   وكلتاهما معا رمداء

(١) تفسير البحر المحيط ٩٥/٨.

(٢) سورة الفتح: ١٨.

(٣) سورة الفتح: ٢٦.

(٤) فتح الباري: ٣٦٥/٧، المواقف ٦١٥/١.

فغدا ناظرا بعيني عقاب ثم غزاه لها العقاب لواء

ومضى علي بالراية فبرز إليه مرحب وهو يقول:

قد علمت خيبر اني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذ الحروب أقبلت تلتهب

فاجابه عليّ:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات كريه المنظرة

أكيلكم بالسيف كيل السندرة

وحمل فقتل مرحباً وكان الفتح على يديه، وتترس بباب عجزت عنه ثمانية أنفس أن يقلبوه وهو باب الحصن الذي قال عنه ابن أبي الحديد:

يا داحي الباب التي عن هزها عجزت أكف أربعون وأربع

ولمّا فتح رسول الله خيبراً فتح وادي القرى عنوة، فلمّا دخل المدينة دخل بقية المهاجرين من الحبشة منهم، جعفر بن أبي طالب، وقال رسول الله ﷺ ما أدري بأيّهما أسر؛ بفتح خيبر أو بقدوم جعفر، وقدمت معهم أم حبيبة بنت أبي سفيان أخت معاوية، وكان قد خطبها النبي ﷺ وهي بالحبشة حين تنصّر زوجها، والذي هاجرت معه وأقام بالحبشة وهو عبدالله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ(١)، فأمهرها النجاشي من رسول الله اربعمائة دينار، وعقد عقدها عنده ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص، وبلغ أبا سفيان، فقال ذلك الفحل الذي لا يقرع أنفه(٢).

وفي غزوة خيبر أهدت زينب اليهودية إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة فأخذ منها قطعة ولاكها وقال تخبرني هذه الشاة أنّها مسمومة، كما قال البوصيريّ:

ثم سمّت له اليهودية الشاة وكم سام الشقوة الأشقياء

فاذاع الذراع ما فيه من سم بـنطق إخفاؤه إبدا

ولمّا فتح رسول الله خيبراً جاءه الحجاج بن علاط السلمي وكان أوّل من أسلم تلك الأيام وشهد خيبراً، فقال: يا رسول الله إنّ لي مالاً بمكّة عند صاحبتي أم شيبة، ولي مال متفرّق في تجّار مكّة، فأذن لي في العود إلى مكّة قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنّهم إذا علموا ذهب مالي، واذن لي في القول، فأذن له وقال: قل وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت إلى ثنيّة البيضاء فإذا فيها رجال من قريش يستمعون الأخبار، وقد بلغهم مسير النبي إلى خيبر، وعرفوا أنّها قرية منيعة، فلمّا رأوني،

(١) الاصابة: ١/١١.

(٢) بحار الأنوار ٢١/٤٥.

قالوا: الخبر عند هذا، فقالوا: أخبرنا يا حجّاج عن سير القاطع ـ يعنون النبيّ ﷺ ـ فقلت: عندي من الخبر ما يسرّكم، فألصقوا ببطن الناقة، وقالوا: هات، فقلت: هزم هزيمة لم يسمع بمثلها قط وأسر محمّد، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكّة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فقدموا مكّة وصاحوا بذلك الخبر فيها، فقلت: أعينوني على جمع مالي من غرمائي بمكّة، فإنّي أريد أن أسبق التجّار إلى خيبر لأصيب عن غنيمة محمّد وأصحابه، فجمعوا مالي في أسرع وقت، وقلت لصاحبتي مثل ذلك.

فلمّا سمع العباس ذلك جاءني وأنا عند التجّار، وقال لي: وهو إلى جنبي ما هذا الخبر؟ فقلت: اتحفظ ما أقول لك؟ قال: نعم، قلت: انصرف حتّى ألقاك خالياً، فلمّا فرغت وعزمت على الخروج، جئت وقلت: احفظ على حديثي يا أبا الفضل، فإنّي أخشى الطلب، واكتم عليّ ثلاثاً، ثم قل: ما شئت، فإنّي والله تركت ابن أخيك عريساً على بنت ملكهم ـ يعني صفية بنت حي ابن أخطب عالمهم ـ ولقد فتح خيبراً وأخذ ما فيها، وقد صارت له ولأصحابه، وما جئت إلّا آخذ مالي خوفاً من ذهابه إذا علموا بإسلامي، فلمّا كان اليوم الرابع لبس العباس حلّة وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج وطاف بالكعبة، فلمّا رأوه قال له صفوان بن أميّة: يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحر المصيبة، قال: كلّا ولقد افتتح محمّد خيبراً وعرّس بابنة ملكهم وأحرز أموالهم، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: من أخبرك؟ قال: الذي أخبركم، ولقد جاء مسلماً فأخذ أمواله بحيلة ليلحق بمحمّد وأصحابه، فقالوا: فلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن[(١)].

وفي سنة سبع بعث رسول الله ﷺ رسله إلى البلاد، وكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى كسرى أبرويز ملك فارس عبدالله بن حذافة فمزّق الكتاب، وأرسل إلى باذان عامله باليمن يأمره بالركوب عليه، فأرسل باذان إلى رسول الله ﷺ، رجلين قد حلقا لحييهما فقالا له: إنّ باذان يشير عليك بالمسير إلى كسرى وأن لا تهلك نفسك فأخر إلى الغد، ثم أصبح رسول الله فدعا بهما، وقال: إنّ ربّي أخبرني إنّ كسرى أبرويز، قتله ابنه شيرويه، وإنّ ملكي يعلوا على ملكه وملك قيصر، فارجعا وامرا باذان أن يسلم، فرجعا وأخبراه، وجاء كتاب شيرويه بقتل أبيه فأسلم باذان وخلق كثير من فارس[(٢)].

وأرسل أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل الأنصاري إلى اليمن، فأسلم عامّة أهل اليمن وملوكهم طوعاً من غير قتال.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٠٥/١٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣١٧/١، عمدة القاري ٢٠/٢٥.

وأرسل دحيّة إلى قيصر ملك الروم، فأكرمه وردّه ردّاً حسناً.

وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر فأكرمه، وأهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أربع جواري، إحداهن مارية القبطية، وبغلة اسمها دلدل وحماراً اسمه يعفور.

وأرسل إلى النجاشي ملك الحبشة عمرو بن أميّة فأكرمه وعزّه.

وأرسل شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني، فلمّا قرأ الكتاب، قال: ها أنا سائر إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: باد ملكه[1].

وأرسل سليط بن عمرو إلى هوذة ملك اليمامة وكان نصرانياً، فقال: إن جعل الأمر إليّ من بعده، سرت إليه وأسلمت ونصرته، وإلّا حاربته، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: لا ولا كرامة اللهم أكفنيه.

وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، فأسلم هو وجميع أهل البحرين.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في ذي القعدة لعمرة القضاء وساق معه ستين بدنة، وأخرجت له قريش عثمان واصطفوا عند دار الندوة، فدخل المسجد الحرام فطاف بالبيت، ورمل في أربعة أشواط، وسعى بين الصفا والمروة، وتزوّج في سفره هذا ميمونة بنت الحارث الهلالية، زوّجها منه عمّه العباس، ودخل بها بين الحرمين.

وفي سنة ثمان قدم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طحلة وأسلموا، وقيل: بل كان ذلك قبل عمرة القضاء، وأنّ خالد بن الوليد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية، وطرد عكرمة ابن أبي جهل حتى أدخله حيطان مكّة.

وفي جمادى الأُولى فيها كانت غزوة مؤتة، بعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة آلاف، وأمر عليهم زيد ابن حارثة، وقال: إن قتل فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبدالله بن رواحة، الذي قال في مدح النبي صلى الله عليه وآله:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فإن قتل فسيفتح الله على يد رجل من المسلمين، فاجتمعت عليهم الروم والعرب المتنصرة، في نحو مائة ألف فالتقوا، فقتل زيد، فأخذ الراية جعفر فقتل، فأخذها عبدالله بن رواحة، فقتل فاتّفق الناس على خالد بن الوليد، فأخذ الراية ورجع بالناس إلى المدينة، فأختلف الناس على من كانت الهزيمة، فقال البخاري: إنّها كانت على المشركين، وكان بسبب هذه الغزوة، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين رجع رسوله الذي أرسله إلى قيصر، قتله عمرو بن شرحيل صبراً ولم يقتل لرسول

---

(١) عمدة القاري: ٢٥/٢٠.

الله ﷺ رسول غيره[١].

وفي هذه السنة نقض الصلح مع قريش، وذلك إنّ بني بكر بن وائل كانوا في عقد قريش، فقتلوا من خزاعة وكانوا في عقد رسول الله، وأعانتهم على ذلك قريش، فانتقض بذلك عهدهم فقدم أبو سفيان بن حرب المدينة، ليجدد العهد ودخل على ابنته أم حبيبة زوجة النبي ﷺ، وأراد أن يجلس على فراش الرسول فطوته عنه، وقالت: هذا فراش رسول الله وأنت نجس مشرك، ثم أتى النبيّ فكلّمه فلم يرد عليه شيئاً، وأتى كبار الصحابة فكلّمهم فلم يردوا شيئاً، فرد خائباً.

وأراد رسول الله ﷺ أن يغزوا قريشاً، فكتب حاطب بن أبي بلتعة إليهم كتاباً مع سارة مولاة بني هاشم يعلمهم الخبر، فأطلع الله رسوله على ذلك بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ** ـ إلى قوله ـ **وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾**[٢]، فأرسل عليّاً والزبير والمقداد في جماعة، وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضه خاخ[٣]، فإنّ بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكّة، فخذوه منها وخلّوها فإن أبت فاضربوا عنقها، فادركوها فجحدت فسلّ عليّ السيف، فأخرجت الكتاب من عقيصتها[٤] فاحضروا الكتاب، فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال له: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولكنّي كنت امرأً ملصقاً في قريش وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن آخذ عندهم يداً وقد علمت أنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدّقه رسول الله وعذره، فقام عمر وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: ما يدريك أنّ الله اطلع على أهل بدر، فغفر لهم ما تقدّم من ذنبهم وما تأخر، كما قال: **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[٥][٦].

---

(١) في المخطوط عمرو بن شرحبيل، وما اثبتناه من المصادر. والسبب ان شرحبيل بن عمرو الغساني وهو من أمراء قيصر على الشام قتل رسولاً أرسله النبيﷺ إلى صاحب بصرى، واسم الرسول الحارث بن عمير.

انظر: الإصابة ١: ١٤٥٩/٢٨٦، أسد الغابة: ٣٤٢/١، الاستيعاب هامش الاصابة ٣٠٤/١، البحار ٥٨/٢١، عن ابن أبي الحديد، والمغازي للواقدي ٧٥٥/٢، عمدة القاري ٣٦٧/١٧.

(٢) سورة الممتحنة: ١.

(٣) موضع بين مكة والمدينة.

(٤) العقيصة: الضفيرة. «الصحاح ـ عقص ـ ١٠٤٦٣».

(٥) سورة النحل: ١١٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦٩/١٧، والكشاف ١٢٤٥/١.

ثم خرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان في عشرة آلاف فارس، وسأل الله أن يخفي أمره عن أهل مكّة حتى يدخلها، فلمّا قرب منها خرج أبو سفيان بن حرب يتطلع الأخبار فرأى العباس سابقاً، فقال: ما وراك يا أبا الفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: في عشرة آلاف فارس وطلعت الرايات، فقال أبو سفيان: وأين المذهب يا أبا الفضل؟ فقال: لم أر لك نجوة إلّا أن تركب خلفي، فأدخلك على رسول الله ﷺ فهو كريم، فإذا أجرتك وأمّنتك فلا تخالف عليّ، فقال: أخل الركاب فأخلاه له، فركب خلفه رديفاً إلى رسول الله ﷺ فآمنه ثم أحضره بالغداة، وقال له: يا أبا سفيان ما آن لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله تعالى؟ فقال العباس: بلى ويحك أعلم وأشهد قبل أن تضرب عنقك، فشهد وأسلم وأسلم معه حكيم بن حرام، وبديل بن ورقاء، وأمر رسول الله الزبير ابن العوّام أن يدخل مكّة ببعض الجيوش من ثنية كذا، وأمر سعد بن عبادة سيّد الخزرج أن يدخل من ثنية كذا، ثم أمر عليّاً أن يأخذ الراية من سعد بن عبادة ويدخل بها، لمّا بلغه أن سعداً قال:

اليوم يوم الملحمة   اليوم نستحل الحرمة

وقيل أخذها منه وأعطاها ابنه قيساً، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكّة، ونهى عن القتال، فلم يقاتل إلّا خالد بن الوليد، لقيه جماعه من المشركين فرموه بالنبل، فقاتلهم وقتل منهم ثمانية وعشرين رجلاً، وقتل من المسلمين رجلان، وكان فتح مكّة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان.

قال الشافعي: فتحت صلحاً، وقال أبو حنيفة: قهراً بالسيف، وهو قول جمهور أهل العلم.

وكان رسول الله ﷺ قد قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، فلمّا دخل رسول الله مكّة، قال لقريش: «ما تروني صانعاً بكم؟» قالوا: نراك خير أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1] وعفى عنهم، ولذلك قال البوصيري:

جهلت قومه عليه فأغضى   واخو الحلم دأبه الأغضاء
ناشدوه القربى التي من   قريش في قطتها الثارات والشحناء
فعفى عفو قادر لم ينغصه   عليهم بما مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصلة لله   تساوي القريب والإقصاء
ولو أن انتقامه لهوى النفس   لدامت قطيعة وجفاء
فعله كله جميل وهله   ينضج إلّا بما حواه الإناء

(١) كتاب الأم ٧: ٣٨٢.

كـرمت نـفسه فـما يـخطر السوء عـــلى ســرّه ولا الفــحشاء
عـــطفت نــعمة الاله عــليه فـــاستقلت لذكــره العــظماء
وســع العـالمين عـلما وحـلما فــهو بــحر لم يــعيه الأعــياء
شـمس فـضل يـحقق الظـن فـيه انـــه الشــمس رفـعة والضــياء

وطاف رسول الله بالبيت سبعاً على راحلته، واستلم الحجر بمحجن كان في يده[١]، وانتزع مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة بن عبدالدار، ففتح ودخل الكعبة وطمس ما بها من الصور، وصلّى فيها ثمان ركعات، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[٢]، فأمر علياً بأن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه وكان قد أخذه منه قهراً ولوى يده، فقال: أكرهت وآذيت وجئت تعتذر! فقال: إنّ الله أنزل فيك قرآناً وتلا عليه الآية فأسلم عثمان.

وأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل ينكث بمخصره في عين كل واحد منها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكبّ على وجهه حتى ألقاها جميعاً، وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر واسمه هبل، فقال: يا علي أرم به، فصعد فرمى به فكسره.

وأهدر دم ستّة رجال، أوّلهم: عكرمة بن أبي جهل فهرب وركب البحر، فجاءتهم ريح عاصفة وجاءهم الموج من كل مكان، فقال رئيسهم: اخلصوا لله فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: إن كان لا ينجيني في البحر إلّا الإخلاص؛ قال: ينجيني في البر غيره، اللهم لك عليّ عهداً إن أنجيتني من هذه أتي محمّد صلى الله عليه وآله، واضع يدي في يده، فسكن البحر ورجع عكرمة فاستأمنت له زوجته أم حكيم فآمنه، وقدم على رسول الله فأسلم[٣].

وثانيهم: هبار بن الأسود، فلم يوجد يوم الفتح ثم أسلم بعد ذلك[٤].

وثالثهم: عبدالله بن أبي سرح أخو عثمان من الرضاعة، فأتى به عثمان وسأل رسول الله فيه فسكت طويلاً ثم آمنه وأسلم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: إنّما صمت ليقوم له واحد فيقتله، فقالوا: هلّا أشرت إلينا، فقال: إنّ الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين[٥].

وهذا عبدالله قد كان أسلم قبل الفتح وكتب الوحي وكان يبدل القرآن، ولمّا نزل قوله تعالى:

---

(١) البداية والنهاية: ٢١٢/٥.
(٢) سورة النساء: ٥٨.
(٣) سنن النسائي ١٠٥/٧.
(٤) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ـ للحلبي ٣٩/٣.
(٥) نيل الأوطار للشوكاني: ٨٥/٨.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ﴾[١] كتبها، فلمّا بلغ قوله: **﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾**، قال عبدالله: تبارك الله أحسن الخالقين تعجّباً من تفضيل خلق الإنسان، فقال النبي ﷺ: اكتبها فكذلك نزلت، فسكت عبدالله وقال: لئن كان محمّد ﷺ صادقاً فلقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، ثم ارتدّ وعاش إلى خلافة عثمان وولّاه مصر[٢].

ورابعهم: مقيس بن صبابة، فقتله نميلة بن عبدالله الليثي الأنصاري يوم الفتح[٣].

وخامسهم: عبدالله ابن خطل، وكان قد أسلم ثم قتل مسلماً وارتدّ قبله[٤].

وسادسهم: الحويرث بن نفيل، وكان يؤذي رسول الله ويهجوه فلقيه علي بن أبي طالب فقتله يوم الفتح[٥].

وأهدر دم أربع نسوة إحداهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان أم معاوية، التي أكلت من كبد حمزة[٦]، فتنكّرت مع نساء قريش، وبايعت رسول الله وأتته يوم الفتح وهو على الصفا، وعمر أسفل منه، وقد أخذ في بيعة النساء كما أمره الله تعالى بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[٧] فتلاها عليهنّ، فقالت هند: يا رسول الله إنّك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فلمّا قال: ولا يسرقن قالت هند: إنّ أبا سفيان رجل ممسك وإنّي أصبت من ماله هنات[٨]، فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فهو لك حلال، فعرفها رسول الله، وقال إنّك لهند بنت عتبة! قالت: نعم يا رسول الله أنا هند، فاعف عما سلف عفى الله عنك، فعفى عنها، ولمّا قال: ولا يزنين، قالت هند: أو تزني الحرّة؟ فتبسم عمر لما جرى بينهما في الجاهلية، فلمّا قال ولا يقتلن أولادهنّ،

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢.

(٢) مجمع الزوائد ١٧٣/٦.

(٣) المصنف ـ ابن أبي شيبة ٥٢٩/٨.

(٤) بحار الأنوار ١١١/٢١، فتح الباري ١٣/٨.

(٥) المعجم الكبير ٦٦/٦، مجمع الزوائد ١٧٣/٦.

(٦) النزاع والتخاصم للمقريزي: ٥٤١.

(٧) سورة الممتحنة: ١٢.

(٨) الهنات جمع الهنة بمعنى الشيء.

قالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي عليه السلام يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسّم رسول الله، فلمّا قال: ولا يأتين ببهتان، قالت هند: والله إنّ البهتان لقبيح ولا تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلمّا قال ولا يعصينك في معروف، قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف شيء[1].

ومن النساء المهدّرات الدم: سارة مولاة بني هاشم، التي حملت كتاب حاطب وكانت مغنية نائحة، قدمت على رسول الله من مكّة إلى المدينة، فقال لها أمسلمة جئت؟ قالت: لا، ولكنّكم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهبت أموالي واحتجت فقدمت عليكم لتعطوني، فقال: أين أنت من شبّان مكّة؟ قالت: ما طلب منّي بعد وقعة بدر، فأحسن إليها وكان يتجهّز لفتح مكّة، فأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير، ودفع إليها الكتاب لتحمله إلى قريش كما تقدم.

فلمّا جاء وقت الظهر يوم الفتح أذّن بلال على ظهر الكعبة، فقال الحارث بن هشام ـ أخو أبي جهل ـ: ليتني مت قبل هذا، وقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم، فخرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال لهما ما قالاه، فقال الحارث بن هشام: أشهد أنّك رسول الله، والله ما اطلع عليه أحد، فنقول ما أخبرك؟ وأسلم عتاب بن أسيد وحسن إسلامه[2].

وفي هذه السنة كانت غزوة حنين، وهي على ثلاثة أميال لجهة الطائف، وذلك أنّه لمّا فتحت مكّة تجمّعت هوازن بحريمهم وأموالهم، ومقدمهم مالك بن عوف النضري، وانضمت إليه ثقيف أهل الطائف، وبنو سعد بن بكر بن وائل مع بني جشم، منهم دريد بن الصمة، وكان شيخاً قد جاوز المائة، وأنشد:

ياليتني فيها جذع　　　أخب فيها وأضع

فلمّا سمع رسول الله باجتماعهم خرج إليهم في ست من شوّال سنة ثمان، وكان يقصّر الصلاة بمكّة إلى حين خرج إليهم في اثنى عشر ألفاً، ألفان من أهل مكّة الأشرار، والعشرة آلاف التي كانت معه من المهاجرين والأنصار، وكان صفوان بن أميّة مع رسول الله، ولم يكن أسلم لأنّه سأل أن يمهل بالإسلام شهرين فأجيب، فاستعار منه رسول الله صلى الله عليه وآله مائة درع، منها سبعون درعاً حطية، وحضرها مع رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً جماعة من المشركين وأبو سفيان بن حرب، وأتى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حنين والمشركون بأوطاس، وركب بغلته الدلدل، وقال شخص من المسلمين: أبو بكر أو غيره لمّا رأى كثرة المسلمين لن يغلب هؤلاء من قلة، فلمّا التقى الجمعان أدرك المسلمين إعجابهم

(١) مستدرك الوسائل ١٤: ٢٨٠.
(٢) المختصر في أخبار البشر: ١/٩٧.

واعتمادهم على كثرتهم، فانكشف المسلمون لا يلوي أحد على أحد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾(١)، وانهزموا حتى بلغ قتلهم مكّة، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وآله ذات اليمين، في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته الأخيار، وأظهر أهل مكّة ما في نفوسهم من الحقد، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وكانت الأزلام التي يقسمون بها الغنائم معه في كنانته، وصرخ كلدة أخو صفوان بن أميّة لأمّه الآن بطل السحر، فقال له صفوان: اسكت فضّ الله فاك لئن يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن، وكان صفوان يومئذٍ مشرك واستمر رسول الله ثابتاً في تسعة من بني هاشم، وقال لعمّه العباس رضي الله عنه: يا عباس صح بالناس.

انا النبي لا كذب أنا بن عبدالمطلب

فنادى يا معشر المهاجرين والأنصار يا أهل بيت الشجرة إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله صلى الله عليه وآله فكّروا وهم يقولون لبيك لبيك ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا معه ولم يفروا، وقيل على الذين فرّوا ورجعوا: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾(٢) يعني: الملائكة، وكانوا خمسة آلاف أو أكثر، نزلوا على خيول بلق واقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل علي عليه السلام ذي الخمار من أبطال المشركين، وقال رسول الله لبغلته: ألبدي، فوضعت بطنها على الأرض، وأخذ حفنة من التراب فرمى بها في وجه المشركين، فكانت الهزيمة عليهم، ونصر الله المسلمين وألحقوا بالمشركين قتلاً وأسراً وفي ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فاقشعوا
وقولي إذا ما الفضل كر بسيفه على القوم أخرى يا بني ليرجعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه لما ناله في الله لا يتوجع

يعني رسول الله، قال الزهري: بلغني أنّ شيبة بن عثمان قال: استدبرت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين، وأنا أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان، وعثمان بن طلحة وكانا قتلا يوم أحد، فاطلع الله رسوله على ما في نفسي، فالتفت إليّ وضرب في صدري وقال: أعيذك بالله يا شيبة، فارتعدت فرائصي، فنظرت إليه وهو أحبّ إليّ من سمعي وبصري، فقلت: أنا أشهد أنّك رسول الله وأسلمت. وانكسر المشركون وانهزمت ثقيف إلى الطائف، فتبعهم رسول الله فأغلقوا أبواب مدينتهم، فحاصرهم نيفاً

---

(١) سورة التوبة: ٢٥.

(٢) سورة التوبة: ٢٦.

وعشرين يوماً بالمنجنيق، ثم قطع أعنابهم ورحل عنهم حتى نزل بالجعرانة، وكانت غنائم هوازن وعيالهم بها فأخذها.

وكان في السبي حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ وابنتها الشيماء، فعرفها رسول الله حين أرته عضة في ظهرها، وبسط لها رداءه وردّها إلى قومها بسؤالها، فدخل المشركون على رسول الله وأنشده منهم: زهير بن صرد قصيدته التي أوّلها:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فانك المرء نرجوه ومنتضروا

فردّ على الناس أبنائهم ونسائهم وجميع أسراهم وكانوا ستة آلاف نسمة، كما قال البوصيري:

وأتى السبي فيه أم رضاع ... وضع الكفرَ قدرها والسباء

ثم لحق مالك بن عوف النضري مقدم هوازن برسول الله، وأسلم وحسن إسلامه واستعمله على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل.

ثم قسّم رسول الله ﷺ الأموال التي غنمها من هوازن بين المسلمين، وكان عدة الأبل أربعة وعشرين ألفاً والغنم أكثر من أربعين ألفاً والفضة أربعة آلاف أوقية، وأعطى المؤلّفة قلوبهم مثل أبي سفيان بن حرب، وابنيه يزيد ومعاوية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وعمّه الحارث بن هشام، وصفوان بن أميّة هؤلاء من قريش، والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري[1]، ومالك بن عوف النضري مقدم هوازن وأمثالهم، لكلّ واحد من أشرافهم مائة من الإبل، ومن دونهم أربعين أربعين وأعطى العبّاس بن مرداس أباعر لم يرضها وأنشد:

فأصبح نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون أمرء منهما ... ومن تضع اليوم لم يرفع

فقال رسول الله: اقطعوا عنّي لسانه فأعطي حتى رضي، ثم أعتمر رسول الله وعاد بعد عمرته إلى المدينة، واستخلف على مكّة عتاب بن أسيد وعمره عشرون سنة أو دون، وترك معه معاذ بن جبل يفقّه الناس، وكان إسلام عتاب يوم الفتح وحسن إسلامه[2].

وفي شوّال من سنة ثمان، كانت سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين صنم عمرو بن

---

(١) في المخطوط عبدالله بن خضر الذبياني وهو تصحيف، صوابه ما أثبتناه. انظر صحيح مسلم ٢٩٠/٥، الاستيعاب: ١٢١٣/١، تفسير البيضاوي ٤٥٥/٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥٩/٢، والكامل في التاريخ: ٣٣٨/١.

حممة بعد الانصراف من حنين[١].

وفي ذي الحجّة منها ولد إبراهيم بن رسول الله ﷺ من مارية القبطية، وتوفّي وعمره سنة وعشرة أشهر.

وفي سنة تسع قدم عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف، وأسلم وسأل أن يكون داعياً قومه إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: وإنّهم قاتلوك، فأختار المضي إليهم بالطائف فقتلوه، فيقال إنّ النبي ﷺ قال: مثله كمثل أصحاب ياسين حبيب النجّار، الذي **﴿...جَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ﴾** ـ مدينة أنطاكية ـ **﴿يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾**[٢] فقتلوه فرفعه الله إلى الجنة فلما دخلها **﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾**[٣] في الجنّة.

وفيما بين رجوع رسول الله ﷺ من غزوة الطائف وغزوة تبوك قدم كعب بن زهير بن أبي السلمي الذي كان رسول الله ﷺ أهدر دمه بسبب أبيات قالها، فكتب إليه أخوه ينصحه ويأمره بالقدوم على رسول الله وأنّه لا يقتل من جاءه تائباً فقدم عليه وامتدحه بقصيدته التي أوّلها:

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول   متيم أثرها لم يفد مكبول.

فلمّا فرغ كعب بن زهير من إنشاد هذه القصيدة بين يدي رسول الله ﷺ، وأسلم أعطاه رسول الله ﷺ بردته فاشتراها معاوية في خلافته من ورثة كعب بأربعين ألفاً ليرتدي بها في الصلاة، وتوارثها الخلفاء الأمويّون والعباسيّون، حتى أخذها التتر أيام هلاكو من المستعصم بالله سنة ست وخمسين وستمائة، وهذا ببركة رسول الله ﷺ بقيت البردة هذه المدة.

وفي سنة تسع كانت غزوة تبوك بلغ رسول الله ﷺ، أنّ الروم قد جمعوا جمعاً كثيراً بالشام، وأنّ ملكهم هرقل رزق أصحابه في هذه السنة، وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان، وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء فأعلم رسول الله ﷺ بقصدهم، وكان الحر شديداً والناس في عسرة والبلاد في جدب ولذلك سمي جيش العسرة، فنزل قوله تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٤].

فأمر رسول الله ﷺ بالنفقة، فانفق من قدر عليها حتى قيل: إنّ أبا بكر أنفق كل ماله، وجاء

---

(١) صنم من خشب، كان لعمرو بن حممة الدوسي، سبل الهدى والرشاد: ٢١٠/٦.

(٢) سورة يس: ٢٠.

(٣) سورة يسٓ: ٢٦ و٢٧.

(٤) سورة البقرة: ٢٦٢.

عثمان بألف بعير بأقتابها، وجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربّي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال له رسول الله: بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أمسكت، فبارك الله له حتى صولحت إحدى زوجته بعد موته عن نصف الثمن بألف ألف درهم، وتصدّق عاصم بن عدي بمائة وسق تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر وأمره رسول الله أن ينشره على الصدقات، ولمّا نزل بذي أوان ـ مكان بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ أتاه خبر مسجد الضرار، فأرسل مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أخا بني عجلان فخرباه[١].

وتخلّف عن غزوة تبوك عبدالله بن أُبي المنافق، والثلاثة الذين أتيب عليهم من الأنصار، كعب ابن مالك، ومراره بن الربيع، وهلال بن أميّة، فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكالمتهم، وأمر نسائهم باعتزالهم حتى أتت توبتهم بعد رجوع رسول الله من تبوك، كما سيأتي.

وفي غزوة تبوك، استخلف رسول الله عليّاً عليه السلام على أهله، فقال المنافقون: إنّما خلّفه استثقالاً له، فلحق برسول الله وأخبره بما قالوا، فقال: كذبوا إنّما خلفتك لما ورائي فرجع[٢].

ثم أتوا البكاؤون وهم سبعة من الأنصار، معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبدالله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبدالله بن مغفل، وعلية بن زيد، أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: نذرنا الخروج فاحملا على الخفاف المرقوعة، والنعال المخصوفة نغزوا معك، فقال: **﴿لاَأَجِدُ مَاأَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾**[٣][٤] في مغزاهم، فلمّا بكوا حمل عثمان منهم رجلين، والعبّاس كذلك، ويامين بن كعب النضيري ثلاثة[٥]، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثون ألفاً في عشرة آلاف فارس، ووجدوا في الطريق شدّة من العطش، فأمر الله السماء بالمطر فعاشوا بذلك من بعده ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم عن الثبات على الإيمان واتباع الرسول قال تعالى: **﴿مَا كَانَ لأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ ٱلأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ ٱللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَفْسِهِ﴾**[٦]، بل كابدوا معه ما يكابده من الأهوال.

---

(١) جامع البيان ٣٢/١١.

(٢) ذخائر العقبى: ٦٣.

(٣) سورة التوبة: ٩٢.

(٤) تفسير البيضاوي: ١٦٥/٣.

(٥) بحار الأنوار ٢١٨/٢١، الروض الانف ٤١٠/١.

(٦) سورة التوبة ١٢٠.

روي أنّ أبا خيثمة بلغ بستانه وكان له امرأة حسناء فرشت له في الظل وقربت إليه الرطب والماء، فقال: ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالبرق، فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب، فقال: كأنّ أبا خيثمة؟ فكان هو، ففرح رسول الله ﷺ واستغفر له(١).

ونهى رسول الله ﷺ أصحابه عن ورود ماء الحجر، وهو في أرض ثمود وأمرهم أن يهرقوا مائه، وأن يطعموا عجينة الإبل، وقال لهم: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلّا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم الذي أصابهم، ودلّهم على قبر أبي رغال وهو رجل من ثمود، كان في حرم رسول الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلمّا خرج عن الحرم أصابه ما أصاب قومه، فدفن معه غصناً من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وبحثوا عنه فاستخرجوا ذلك الغصن(٢).

ثم قنع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي ووصل إلى تبوك، وأقام بها عشرين ليلة في زمن قلّ مائها فيه، فاغترف غرفة من ماء بيده الشريفة فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت حوضاً وهي كذلك الساعة(٣).

وقدم عليه بها يوحنّا صاحب أيلة وصالحه على الجزية، فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار، وصالح أهل أذرح(٤) على مائة دينار في كل ساعة(٥).

وأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبدالملك وكان نصرانياً من كندة، فأخذه خالد وقتل أخاه وأخذ منه ديباجا لقباد ملك فارس فيه شخوص بالذهب، فجعل المسلمون يتعجبون منه، وقدم باكيدر على رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية(٦).

فلمّا رجع رسول الله من تبوك، قال المنافقون: **﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾**(٧) من قتل الرسول، وهو أنّه خمسة عشر منافقاً توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته، فأخذ عمّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة اليماني خلفها يسوقها، فسمع

---

(١) تخريج الأحاديث والآثار ١٠٨/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣٩٣/١١.

(٣) عيون الأثر: ٢٥٨/٢.

(٤) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء. معجم البلدان ١٢٩/١.

(٥) الكامل في التاريخ ٢٨٠/٢.

(٦) الكامل في التاريخ ٢٨١/٢.

(٧) سورة التوبة: ٧٤.

حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السّلاح، فقال: إليكم يا أعداء الله، فهربوا وعاد رسول الله إلى المدينة في شعبان. ودخل عليه المخلّفون.

قال كعب بن مالك: ما تخلّفت عن رسول الله بعد غزاة بدر في غزوة غزاها إلّا في غزوة تبوك، فإنّه غزاها حين طابت الظلال والثمار، وكنت أميل إليهما وأنا يومئذ أيسر ما كنت قد جمعت راحلتين، وكنت عازماً على المسير حتى خرج النبيّ، فخرجت لأتجهّز فعسر عليّ بعض شأني، وفي اليوم الثاني والثالث كذلك حتى تباعد الأمر، فكنت أطوف بالمدينة فيحزنني أنّي لا أرى إلّا منافقاً أو معذوراً، فلمّا بلغ النبيّ صلى الله عليه وآله تبوك قال: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل: خلفه برداءه ونظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلّا خيراً.

فلمّا رجع النبيّ ودنا من المدينة جعلت أتذكّر بما أُخرج به من سخطه، واستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فعرفت أنّي لا أنجوا إلّا بالصدق، فدخلت المسجد والنبيّ جالس فيه وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلّى فيه ركعتين، وقد دخل عليه المخلّفون وجعلوا يحلفون ويعتذرون، فيستغفر لهم ويكلّ أسرارهم إلى الله، ولمّا رآني تبسّم تبسّم المغضب فجئت وجلست بين يديه، فقال لي: ألم يكن أبتعت ظهراً؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فما خلّفك؟ فقلت: والله لو كنت بين يدي أحد من النّاس غيرك جلست لخرجته من سخطه عليّ بعذر، ولقد أوتيت جدَلاً، ولكنّي قد علمت يا رسول الله أنّي إن أخبرتك اليوم بقول تجد عليّ فيه رضاً وهو حق، فإنّي أرجو فيه عفو الله تعالى، وإن أحدثك اليوم عنّي حديثاً كذباً ترضى فيه عنّي وهو كذب أوشك أن يطلعك الله عليّ، والله ما كان أيسر منّي حين تخلّفت، فقال صلى الله عليه وآله: أمّا هذا فقد صدقكم الحديث قم عنّي حتى يقضي الله فيك.

فقمت وفعل مثلي رجلان صالحان شهدا بدراً وهما هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، فنهى النبيّ صلى الله عليه وآله الناس عن كلامنا حتى طال الأمر وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وأنكرنا من يعرفنا، فجعلت أخرج إلى السوق ولا يكلّمني أحد، فلمّا مضت أربعون ليلة من حين نهى النبي صلى الله عليه وآله عن كلامنا، صلّيت الفجر على ظهر بيت لنا، وجلست على المنزلة التي ذكرها الله تعالى فينا **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾**[1] إذ سمعت نداءً من ذروة سلع أن أبشر يا كعب بن مالك، فخررت لله ساجداً وعلمت أنّ الله قد أمر بالفتح، ثم جاء رجل على فرس يبشّرني وكان الصوت أسرع من فرسه فأعطيته ثوبي بشارة، ولبست ثوبين أخرين وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا هو جالس في المسجد وحوله

(١) سورة التوبة: ١١٨.

المسلمون، ووجهه مستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سر استنار وجهه، فقال لي ووجهه يلمع سروراً: يا كعب أبشر بخير، فقلت: أمن عند الله أم من عندك يا رسول الله؟ فقال: من عند الله، ثم تلا ﴿لَقَد تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا...﴾، وتصدّق كعب بن مالك بثلث ماله شكراً لله على توبته[١].

وبعد رجوع رسول الله من تبوك إلى المدينة في شعبان، قدم عليه ثقيف في شهر رمضان وسألوا الإسلام وأن يعفوا من الصلاة ويترك لهم اللات والعزّى ثلاث سنين، فأبى رسول الله، وقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، ثم أسلموا وأرسل معهم المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان بن حرب ليهدما اللات فهدمها المغيرة ورضوا.

وأرسل خالد بن الوليد إلى مكّة ليكسر العزّى، فقال له سادتها: أحذّركها يا خالد فبأسها شديداً، فضربها خالد بن الوليد على أنفها بالفأس فهشمها، فقال: يا عزّى كفرانك لا سبحانك، سبحان من أهانك، فإنّي رأيت الله قد أهانك، فخرجن نساء قريش حاسرات يبكين عليها[٢].

وفي سنة تسع بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ليحج بالناس ويقرأ سورة براءة ومعه ثلاثمائة رجل وعشرون بدنة لرسول الله ﷺ، فهبط جبرئيل عليه السلام، وقال: يا محمّد لا يبلّغ عنك إلّا رجل منك، فبعث علياً أثر أبي بكر، فمضى راكباً العضباء ناقة رسول الله ﷺ ليقرأ سورة براءة ويؤذّن يوم الأضحى أن لا يحج مشرك ولا يطوف عريان، فلحق أبا بكر بذي الحليفة وأخذ منه السورة كما قال ابن أبي الحديد:

ولا كان معزولا غداة براءة — ولا عن صلاة أم فيها مؤخرا
ولا كان يوم الغار يهفوا جنانه — حذارا ولا يوم العريش تسترا
فتى لم يعرق فيه تيم بن مرة — ولا عبد اللات الخبيثة أعصرا

فقيل: رجع أبي بكر إلى المدينة، وقيل: مضى إلى مكّة فكان أمير الموسم وعليّ مبلّغاً عن رسول الله ﷺ، لأنّه قال لا يبلّغ عنّي إلّا أنا أو رجل منيّ.

فلمّا كان يوم التروية خطب الناس وحدّثهم عن مناسكهم، وقام يوم النحر عند جمرة العقبة.

فقال: أيّها الناس إنّي رسول رسول الله ﷺ إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من سورة براءة، ثم قال: أمرت بأربع؛ أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف به

---

(١) المعجم الكبير ٤٦/١٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٦٦/٢.

عريان، ولا يدخله إلّا كلّ نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده[١].

وفى سنة عشر دخل الناس في دين الله أفواجاً كأهل مكّة والطائف واليمن والهوازن، وتتابعت وفود العرب تسمى سنة الوفود، وفي استيعابهم طول وقد أفرد الناس ذلك بالتأليف، وأسلم أهل اليمن وملوك حمير.

وبعث رسول الله عليّاً إلى اليمن فاستسلم من بقي بها، وأخذ صدقات نجران وجزيتهم. وعاد فلقي النبي صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع، فأهدى عليه أربع أفراس من خيل اليمن، فأخذ منها فرساً أشقراً عزّ لنفسه، وأعطى الحسن والحسين كميتين أغرين، ورد الرابع وكان أدهم، وقال: بعه يا عليّ واستخلف ثمنه لعيالك، إنّما يمن الخيل في ذوات الأوضاح.

والأظهر عند العلماء أنّه كان قارنا وعلّم الناس مناسك الحجّ، وخطب بعرفة خطبة بيّن فيها الأحكام، منها: **﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾**، وكانوا في الجاهلية إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخراً.

حدّث ذلك جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي في الناس إنّ آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في العام القابل إنّ آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرم فحرموه.

ومنها: أنّ الزمان استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض.

ومنها: **﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّـهِ يَوْم خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** ـ رجب، ذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم ـ **فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾** بهتك حرمتها وارتكاب حرامها، وأنزل الله: **﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً﴾**[٢]، أي أكملت لكم فرائضي وحدودي وحلالي وحرامي، بتنزيل ما أنزلت وبيان ما بيّنت، فلا زيادة في ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم، وكان ذلك يوم عرفة عام حجّة الوداع، وسمّيت بذلك لأنّه لم يحجّ بعدها، ووعظهم ووصّاهم وعظ مودّع ووصية مودع، منها:

ما روي في الفقيه أنّه صلى الله عليه وآله وقف بمنى فقال: أيّها الناس اسمعوا ما أقول لكم واعقلوه فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا، ثم قال: أيّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا

---

(١) سنن الترمذي ٣٣٩/٤، أصول السرخسي: ٩٥/٢، نظام الدين النيسابوري في تفسيره المطبوع في هامش تفسير الطبري: ٣٦/١٠، علل الدارقطني: ١٣١/٣، شواهد التنزيل ٣١٤/١.

(٢) سورة المائدة ٣.

اليوم، قال فأي شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر، قال: فأي بلد أعظم؟ قالوا: هذه البلدة، قال: فإنّ دمائكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهمّ أشهد ألا من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، فإنّه لا يحل مال أمرء مسلم إلّا بطيبة نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم ولا ترجعوا بعدي كفّاراً، وأنزل الله قوله تعالى في آخر براءة: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾**(١)، وهي آخر آية نزلت في قول أُبي بن كعب، وقال ابن عبّاس: إنّ آخر آية نزلت في قوله تعالى في أواخر البقرة: **﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾**(٢).

وعاش رسول الله بعدها ثلاث ساعات، وقيل سبعة أيام، وقيل إحدى وعشرين، وقيل إحدى وثمانين.

وفي رجوعه من حجّة الوداع إلى المدينة، نزل بغدير خم وصلّى الظهر بأصحابه في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة، وأخذ بيد عليّ ورفعها، وقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهم وآل من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله»(٣).

وفي سنة إحدى عشرة يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة بقين من صفر أمر رسول الله بالتهيء لغزو الروم، ودعا من الغد أُسامة بن زيد بن حارثة، فقال له: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش.

ويوم الخميس عقد له لواء بيده، وقال: اغز بسم الله وفي سبيل الله، فلم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلّا انتدب في تلك الغزاء، كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن وأبو عبيدة وسالم مولى خذيفة.

وخرج بهم أُسامة فعسكر على أربع فراسخ من المدينة، وغضب رسول الله لمّا قال قائل: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين وخطب وذكر ذلك وقال: «ذلك لئن طعنتم في أمارتي أُسامة، فقد طعنتم لأمارتي أباه من قبله، وأيّم الله إن كان لخليقاً للأمارة وإن ابنه من بعده لخليق للأمارة».

وكان قد ابتدئ برسول الله صلى الله عليه وآله مرضه الذي قبض فيه يوم الأربعاء لليلتين بقين من صفر، فكان

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨ و ١٢٩.

(٢) سورة البقرة ٢٨١.

(٣) مسند أحمد ٤١٢/٢، سنن الترمذي ١٧٥/١٢، تاريخ بغداد ٤٧٤/٥.

في بيت زينب فدار على نسائه على عادتهم، ثم استأذنهم أن يمرض في بيت عائشة فأذن له.

ولمّا أشتد وجعه، قال: «ائتوني ببياض أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده»، فتنازعوا، فقال عمر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قوي عليه الوجع حسبنا كتاب الله، وكثر النزاع، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع».

ولمّا ثارت الفتن قال ابن عبّاس: إنّ الرزية فيما حال بينهم وبين كتاب رسول الله، ثم إنّ رسول الله نعى نفسه للمسلمين واستحل منهم، فقال: من كنت جلدت ظهره فهذا ظهري، ومن شتمت له عرضاً فهذا عرضي، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي، وأوصى بالأنصار، وقال: إنّ عبداً خيّر بين الدنيا وبين ما عند الله، فأختار ما عند الله، يعني نفسه.

وسارّ فاطمة إنّه ميّت في وجعه هذا فبكت، ثم سارّها إنّها أوّل ملحوق به فضحكت.

فقال أبو بكر: يا رسول الله متى الأجل؟ قال: قد حضر، قال: الله المستعان على ذلك، قال: فإلى ما المنقلب؟ قال: سدرة المنتهى، وجنّة المأوى، والرفيق الأعلى، وكأس الأوفى، والعيش المهنى، قال: فمن يغسلك؟ قال: رجال أهل بيتي، الأدنى فالأدنى، قال: فبما تكفّن؟ قال: في ثيابي هذه التي عليّ أو في حلّة يمانية أو في بياض مصر، قال: كيف الصلاة عليك؟ فارتجت الأرض بالبكاء، فقال: مهلاً عفا الله عنكم، إذا غسّلت وكفّنت فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم أخرجوا عنّي ساعة فإنّ الله تبارك وتعالى أوّل من يصلي عليّ، ثم يأذن بالملائكة بالصلاة عليّ، ثم ادخلوا عليّ زمرة زمرة فصلوا عليّ وسلموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا رنّة[1] وليبدأ بالصلاة عليّ الأدنى فالأدنى من أهل بيتي، قال: فمن يدخل قبرك؟ قال: الأدنى فالأدنى من أهل بيتي مع ملائكة لا ترونهم، قوموا عنّي فأودعوني إلى ربكم[2].

وعند وفاته صلى الله عليه وآله رفع بصره إلى السماء، وقال: اللّهم الرفيق الأعلى فصاحت فاطمة وقالت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال: يا فاطمة هذا قول عمّك أبي طالب قولي: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾[3]، أنتم المقهورون بعدي، فمن صبر منكم واحتسب في دار البوار، كان له نعيم الدائم الباقي في دار القرار، والآخرة خير وأبقى.

فقالت أم الفضل زوجة العباس: يا رسول الله إن كان هذا الأمر بعدك لنا فبيّنه لنا، فإن كان في

(١) الرنة: الصوت الحزين عند البكاء.

(٢) بحار الأنوار: ٥٢١/٢٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.

غيرنا فاوص بنا، ثم قالت: إلى من نفزع بعدك يا رسول الله؟ قال: إلى أخي ووصي وخليفتي عليّ ابن أبي طالب.

وممّا أخرجه مسلم والبخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: أنّه أغلق بابه ذات يوم ولم يخرج إلى المسجد، فاشتعلت قلوب أصحابه، فجاء أبو بكر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم جاء عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم جاء عثمان فاستأذن فلم يؤذن له، ثم جاء عليّ فاستأذن فأذن له، فدخل فوجد النبيّ مكتئباً، فقال: يا رسول الله ما هذه الكئابة؟ أمر نزل في الإسلام؟ فقال: بل نزل عليّ جبرئيل فأخبرني بما يحدث عليك وعلى أهل بيتك بعدي، فقال: يا رسول الله ألا يسلم ديني؟ قال: نعم، قال: لا أبالي، ثم قال: يا علي إذا أنا متّ فاضرب بكلكلك الأرض، فإن أخذها أبو بكر وصبرت فلك الجنّة، وإن أخذها عمر وصبرت فلك الجنّة، وإن أخذها عثمان وصبرت فلك الجنّة، وإن طلبها معاوية وصبرت فلك النار.

وأتت إلى رسول الله ﷺ رسل ربّه الكرام الموكّلين بقبض نفوس الأنام، فجدّوا بروحه الزكيّة لينقلوها، وعالجوها ليرحلوها إلى جنّات وروضان وخيرات حسان، واشتدّ لذلك كربه وأنينه، وعرق لهول مصرعه جبينه، فبكى لمنظره من أبصره، وأنتحب لمصرعه من حضره، هذا وهو أوّل من تنشقّ عنه بطن الأرض، وصاحب الشفاعة يوم الأرض، وهو على يقين من السلامة في المعاد، وثقة بالكرامة يوم يقوم الأشهاد، فكيف بمن لا يعلم متى الرحيل؟ ولا يتحقق أين المقيل؟ ولا يدري على ما يقدم ولا بما عليه في القيامة يحكم **﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ﴾**[1] بمحمّد وعترته الطاهرة.

فلمّا قبض رسول الله سمع هاتف من ناحية البيت يتلو: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًىٰ كَثِيراً﴾**[2]، والله خلف من كل هالك، ودرك من كل فائت، وعزاء من كل مصيبة، ألا أنّ المحروم من حرم ثوابه، والمغبون من غبن في دينه، والمصاب من ذهب عنه يقينه.

وبات آل محمّد ﷺ بأطول ليلة حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم، لأنّ رسول الله ﷺ وتر الأقربين والأبعدين كقريش واليهود.

وتوفّي ﷺ يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر عندنا، أو لاثني عشر ليلة خلت من شهر ربيع

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥، ١٨٦.

الأوّل عند الجمهور، وعمره ثلاث وستون سنة، قبل البعثة أربعون سنة، وقبل الهجرة ثلاثة عشرة سنة وبعدها عشر، ولد يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين.

فلمّا أجتمع الناس، قال عمر: من قال أنّ محمّداً مات قتلته بسيفي هذا، وإنّما رفع إلى السماء كما رفع عيسى ابن مريم، فقال أبو بكر: من كان يعبد محمّداً، فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد إله محمّد فإنّه حيّ لا يموت وقرأ قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ**...﴾[1] إلى آخره، فرجع القوم إلى قوله، فقال عمر: كأنّي ما سمعت هذه الآية حتى قرأها أبو بكر.

وأراد المهاجرون نقل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكّة ودفنه بها؛ لأنها مسقط رأسه ومأمن نفسه وموطن أهله وموضع رحله ومدفن أجداده، وأراد الأنصار دفنه بالمدينة؛ [لأنّها دار] هجرته، وأراد مؤمن أهل الكتاب نقله إلى بيت المقدس؛ لأنّها مدفن الأنبياء ومعراجه إلى السماء[2].

فقال عليّ عليه السلام: إنّ الله تعالى لم يقبض روح نبيّه إلّا في أشرف البقاع، فينبغي أن يدفن حيث قبض، فرجع الناس إلى قوله، واتفقوا على دفنه في بيته الذي قبض فيه، لمّا روي عنه أنّ الأنبياء يدفنون حيث يموتون، فدفن ليلة الأربعاء تحت فراشه في بيته الذي كان تسكنه عائشة، وهو في قميصه لم يجرد عنه.

وعليّ ابن أبي طالب عليه السلام هو الذي غسّله، والعباس وابناه الفضل وقثم يقلبونه، وأسامة بن زيد وشقران يصبان الماء، ولم ير منه ما يرى من الميّت، فقال عليّ عليه السلام: بأبي أنت وأمّي طبت حيّاً وميّتاً، وغسل وحنط بثلاث عشر درهماً، وثلاث من كافور جاء به جبرئيل من الجنّة، وكفّن في ثوبين صحاريين، وبردة عبرية أدرج فيها درجاً.

وما ولدن النساء قبل محمّد صلى الله عليه وآله مثله، ولا يلدن بعده مثله، كان صلى الله عليه وآله ليس بالطويل، ولا بالقصير، ضخم الرأس كث اللحية، شثن الكفين والقدمين، ضخم الكراديس، مشرباً وجهه بحمرة، أدعج العينين، سبط الشعر، سهل الخدين، كأن عنقه أبريق فضة، كان في مقدّم رأسه عشرون شعرة بيضاء، وفي مفرق رأسه شعرات بيض، وكان يخضب بالحناء والكتم، وكان بين كتفه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة شبه جسده، وقيل: حمراء حولها شعر، وكان أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، يكثر الذكر، ويقل اللغو، دائم البشر، مطيل الصمت، لين الجانب، حسن الخلق،

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤

(٢) الملل والنحل ١/٢٣.

يحب المساكين ولا يهاب الملوك، يتفقّد أصحابه، ويسأل عمّا فيه الناس، يحلب العنز، ويجلس على الأرض، ويخصف النعل، ويرقع الثوب.

وكان قد تزوّج خمس عشرة امرأة، دخل بثلاثة عشر منهم، وجمع بين أحدى عشرة، وقبض عن تسعة عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وأم حبيبة بنت أبيْ سفيان، وهؤلاء من قريش، وزينب بنت جحش الأسديّة، وميمونة بنت الحارث الهلاليّة، وصفية بنت حي الخيبريّة، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة، والتي أعجبه حسنها أسماء بنت عميس، فأراد زواجها بعد أن قتل زوجها جعفر بن أبي طالب، فنزل قوله تعالى: **﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾**[1]، أي من بعد التسع لمّا اخترن الله ورسوله **﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾**.

فأخذها أبو بكر فولد له منها ابنه محمّد، وأخذها من بعده علي ابن أبي طالب عليه السلام، وربّى محمّداً وأخاه لأمّه عبدالله بن جعفر.

وكانت له من السراري أربع، وكان له من الأولاد ثمانية، الذكور القاسم وهو أكبرهم وبه يكنّى والطيب الطاهر والصحيح أنّهما وصف لواحد، وعبدالله وإبراهيم وماتوا صغاراً، ومن البنات زينب، ثم رقية، ثم فاطمة وهي أفضلهنّ، وصغراهن أم كلثوم، كلهنّ أدركن الإسلام وهاجرن، وفرّق صلى الله عليه وآله بين زينب وزوجها أبي العاص بن الربيع بإسلامها قبله، وردّها إليه بالنّكاح الأوّل حين جاء مسلماً، وزوّج رقية من عثمان في الجاهلية، وهاجرت معه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وتوفّيت بها، فتزوّج اختها أم كلثوم، وزوّج فاطمة من عليّ بالمدينة، وكل أولاده الذكور والأُناث من خديجة، إلّا إبراهيم فإنّه من مارية القبطية، وماتوا جميعاً قبله إلّا فاطمة، فإنّها بقيت بعده وورثته فقالت:

ماذا على من شم تربة أحمد — أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو انها — صبت على الأيام صرن لياليا

وكنيتها أم أبيها، لقبها الزهراء، مكان ولادتها مكّة، يوم ولادتها الجمعة، شهر ولادتها عشرون من جمادي الآخر، سنة ولادتها خمس بعد المبعث، ملك وقت ولادتها يزدجرد، نقش خاتمها أمن المتوكّلون، زوجها علي عليه السلام، عدد أولادها خمسة أولاد، مدة عمرها ثمانية عشر سنة وسبعة أشهر، يوم وفاتها الاثنين، شهر وفاتها ثالث جمادي الآخرة، سنة وفاتها إحدى عشرة من الهجرة، مكان وفاتها روضة المدينة، سبب وفاتها، قال الكفعمي: ضربت فأسقطت، مكان قبرها في الروضة، ملك وقت وفاتها أبو بكر، اسم بوابتها فضة امتها، ولدت بعد النبوّة بخمس سنين وقريش

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٢.

تبني البيت، وبقيت مع أبيها بمكّة ثمان سنين، وهاجرت بعده بثلاثة أيام مع عليّ ونساء النبيّ، وكان زواجها لعليّ عليه السلام في المدينة سنة الهجرة، وعمرها تسع سنين، فأقامت بها مع أبيها عشر سنين، وبعده سبعة أشهر، وفي رواية خمسة وسبعين يوماً، وولدت الحسن عليه السلام يوم الثلاثاء نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وولدت الحسين عليه السلام يوم الخميس ثالث شعبان سنة أربع.

وأهدت مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله رغيفين وشيئاً من لحم فرجع بهم إليها، وقال هلّى يا بُـنيّة فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوأ خبزاً ولحماً **﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[1]، فقال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، ثـم جمع علياً والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، وأوسعت على جيرانها[2].

وعن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نزلت فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا فاطمة لك فدك[3].

وروي أنّها لمّا رفعت يدها عن فدك، أتت إلى قبر أبيها وتمثلت بقول هند ابنة أثاثة:

قـد كـان بـعدك أنـباء وهـنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
انـا فـقدناك فـقد الأرض وابـلها ... واختل قـومك فـاشهدهم ولا تـغب
وكـل أهـل له قـربى ومـنزلة ... عـند الإله عـلى الأدنـين مـقترب
أبـدى رجـال لنا نـجوى صدورهم ... لمـا مـضيت وحـالت دونك الترب
تـجهمتنا رجـال واسـتخف بـنا ... لمـا فـقدت وكـل الإرث مـغتصب
وكـنت بـدراً ونـوراً يسـتضاء بـه ... عـليك يـنزل مـن ذي العزّة الكـتب
وكـان جـبرئيل بـالآيات يـؤنسنا ... فـمذ فـقدت وكـل الخـير مـحتجب
فـليت قـبلك كـان المـوت صـادفنا ... لمـا مـضيت وحـالت دونك الكـتب
فسوف نبكيك ما عشـنا ومـا بـقيت ... مـنا العـيون بـهمال لهـا سكب

وروي أنّها لمّا حضرتها الوفاة قالت لأسماء بنت عميس أم محمّد بن أبي بكر: ائتيني بحنوطي فضعيه عند رأسي، ثم تسجّت بثوبها وقالت لها: أنظريني هُـنيئةً ثـم ادعـيني، فـإن أجـبتك وإلّا فاعلمي أنّي قدمت على أبي، قالت أسماء: فانتظرتها هنيئة ثم ناديتها فلم تجب، فناديت يا ابنة

---

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

(٢) تاريخ الأحاديث والآثار ١/١٨٤، تفسير الثعلبي ٣/٥٨.

(٣) الدر المنثور: ٦/٢٦٢.

محمّد المصطفى، يا ابنة أكرم من حملت النساء، يا ابنة خير من وطئ الحصا، يا ابنة من كان من ربّه قاب قوسين أو أدنى، فلم تجبني! فكشفت عن وجهها فإذا بها قد فارقت الدنيا، فأتى أمير المؤمنين فتمثل بهذين البيتين:

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وان افتقادي فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

وكان له من الأعمام أبو طالب واسمه عبدمناف وقيل عمران، والزبير، وعبدالكعبة، وأمّهم فاطمة بنت عمر، وهؤلاء أشقّاء عبدالله والده، وحمزة والمقوم أو القوام، وأمّهما هالة بنت وهيب بنت عم آمنة أمّه، والعباس وضرار، وأمّهما نتلة أو نفيلة بنت حباب، والحارث وهو أكبر ولد عبدالمطلب وبه كان يكنّى، وشقيقه قثم مات صغيراً، وأمّهما صفية بنت جندب، وأبو لهب الشقيّ واسمه عبدالعزّى، وأُمّه لبنى بنت هاجر بن عبدمناف بن ضاطر، والغيداق واسمه مصعب وقيل نوفل، وأُمّه ممنعة بنت عمر بن مالك، ولم يسلم منهم سوى حمزة والعبّاس.

واختلف في إسلام أبي طالب والأرجح أنّه مات مسلماً، وأنّه كان كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه ليدفع عن ابن أخيه شر حاسديه[1].

وأمّا عمّاته فست: أم حكيم، وعاتكة، وبرّة، وأروى، وأميمة شقائق أبي طالب وعبدالله والده، وصفية شقيقة حمزة ـ وهي أم الزبير بن العوام ـ، أسلم منهن صفية وعاتكة وأروى.

وكان له من الموالي ست وخمسون، ومن المواليات أحدى عشرة.

ومن الخدام الذكور ستة وعشرون، ومن الأناث خمس.

وكان يكتب له الوحي عليّ بن أبي طالب، وإذا غاب كتب له من حضر كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن أبي سرح[2] ومعاوية[3] بعد الفتح، وأوّل من كتب له أبي بن كعب، وكان يكتب له إلى

---

(١) انظر كتاب جامع الأصول لابن الاثير الجزري الشافعي ان أبا طالب مات مسلماً.

(٢) قال ابن داود كان عبدالله بن سرح يكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله فأزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله ان يقتل يوم الفتح، سنن أبي داود ١٢٨/٤ رقم ٤٣٥٨. وروي ان آخر كتبة الوحي ابن أبي سرح، وارتد ومات على الكفر، ودفن فلم تقبله الأرض صحيح مسلم ٢١٤٥/٤ ح ١٤، الطرائف ٢٢٠/٢.

(٣) قال الذهبي: كان زيد بن ثابت كاتب الوحي وكان معاوية كاتباً بين النبي وبين العرب، سير اعلام النبلاء ١٢٣/٣. وقال ابن حجر: وليكن معلوماً انه أيضاً ما كتب للنبي صلى الله عليه وآله إلّا ثلاث رسائل، الاصابة ٢٣/٣ ـ ٤٣٥.

الملوك وغيرهم الأرقم بن أبي الأرقم بن عبد يغوث بن زهرة.

كان له من السيوف ذو الفقار، غنمه يوم بدر من العاص بن منبه بن الحجاج السهمي، وقيل من غيره، وسمي ذي الفقار لفقرات كانت فيه مثل فقرات الظهر، كان له سيف يقال له العون، وسيف يقال له المأثور ورثه من أبيه، وسيف يقال له العضب، وغنم من بني قيقاع اليهود ثلاثة أسياف، وقدم معه المدينة سيفان، شهد بأحدهما بدراً وقدّ عد له ابن سيد الناس عشرة أسياف منها: الصمصامة، والبتّار، والحتف، والرسوب، والحذم، والعضب، والقلعى، ووجد عليّ عليه السلام في قائمة سيف من سيوفه صحيفة فيها صل من قطعك وقل الحق واو على نفسك، وأحسن إلى من أساء إليك.

وكان له خمسة أرماح، وقضيب يقال له الممشوق، وخمس قسي[1] وجعبة يجمع فيها نبله، ودرعان غنمهما من بني قينقاع يقال لأحدهما السعديّة؛ وكانت درع موسى التي لبسها داود لقتال جالوت، ويقال لها ذات الفضول لطولها، والأخرى يقال لها ذات الوشاح، وذات الحواشي، والسير، والحريق، وكان له ترس فيه تمثال فوضع يده عليه فأذهب الله تمثاله. وكان له مغفران[2] وبرنسان[3] يقال لأحدهما الدلو والآخر العبق.

وكان له فسطاط يسمى الكنّ، وقصعة تسمى السعة، وقعب[4] يسمى الري.

وعمامة تسمى السحاب، وراية تسمى العقاب.

وبعير يقال له الدّيباج، وناقة يقال لها العضباء، ومراكبه خمس وثلاثون منها الخيل ثلاثة وعشرون، والبغال سبعة، منها الدلدل، والحمير، ثلاثة منها يعفور، والإبل اثنان.

وعدة غزواته سبعة وعشرون، وبعوثه وسراياه ستون.

ومؤذّنوه وأصحابه لا يحصرهم العدّ على الصحيح، وقيل: كانوا مائة ألف وأربعة عشر ألفاً على

= وقد صح من التاريخ أنه أظهر الإسلام سنة ثمان من الهجرة وقيل قبل وفاة النبي بخمسة أشهر وذلك عند قول الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ فماذا يكتب معاوية بعد هذا؟!

(١) القسي: جمع قوس وهو آلة منحنية ترمي بها السهام.

(٢) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٣) البرنس: قلنسوة طويلة وكان النساك يلبسونها في صدر الإسلام. وهي من البرس ـ بكسر الباء ـ الطن [لسان العرب ٦: ٢٦].

(٤) القعب: القدح الضخم الغليظ من الخشب.

القول المعتمد عند أهل الحديث، قال محمّد بن شحنة الحلبي الحنفي ـ من مؤرخي السنة ـ إنّ أفضلهم العشرة المشهود لهم عندهم بالجنّة ونظمهم بقوله:

اسماء عشر رسول الله بشرهم	بجنة الخلد عمن زانها وعمر
سعد سعيد علي عثمان طلحة	بو بكر بن عوف بن جراح الزبير
عمر والحقّ ان محمدا وعترته	أفضل امته وهم محمّد بني
والبتول وحيدر وسبطيه والسجاد	والباقر المجد وجعفر
والثاوي ببغداد والرضا	ونجل الرضا والعسكريين والمهدي

وكان من أصحابه أهل الصفّة، نحو أربعمائة رجل فقراء لا مال لهم ولا عيال، وكانت صفّة المسجد مأواهم يصرفون أوقاتهم بالعلم والعبادة والجهاد في سبيل الله تعالى ليفوزوا بالشهادة.

من مشاهيرهم: أبو ذر، وأبو هريرة، وواثلة بن الأسقع وهم الذين حث الله سبحانه الناس عليهم بقوله: **﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾**[1] وكان الرجل إذا أكل وفضل عنده فضل أتاهم به إذا أمسى.

فصل
الأوصياء عليهم السلام

ذكر أنّ الله سبحانه وتعالى بعث في كل ألف سنة نبيّاً بشريعة جديدة ومعجزات غريبة، فكان في الألف الأُولى آدم، وفي الثانية نوح، وفي الثالثة إبراهيم، وفي الرابعة موسى، وفي الخامسة داود، وفي السادسة عيسى، وفي السابعة محمّداً صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين ثم ختمت به النبوّة وانتهت به الألف الدنيا.

وأصحاب الشرائع من الأنبياء من لدن آدم إلى محمّد صلى الله عليه وآله ستة، كل واحد منهم جاء بشريعة جديدة الأُولى فاتحة والأخرىٰ خاتمة، وما بينهما نسخ الأخير الأول لعود الخاتمة فاتحة، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع باستدارة الزمان كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، فالست آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد صلى الله عليه وآله لكل واحد منهم من الأوصياء به المتواصلين في الأزمنة المتقاربة والمتباعدة اثنا عشر وصيّاً، يحفظون كلمته ويقيمون شريعته ما دام التكليف

---

(١) سورة البقرة ٢٧٣.

باقياً.

والوصي هو الحجّة بعد النبيّ، وهو الإمام الناطق بتأويل الكتاب الصامت.

فالشريعة اللازمة الفاتحة بآدم وأوصيائه إثنا عشر وهم: شيث، هابيل، قينان، ميسم، شيسم، قادس، قيدرف، ايمنح، اينوخ، إدريس، دينوخ، ثاخور.

الشريعة الثانية لنوح عليه السلام وأوصيائه إثنا عشر وصياً وهم: سام، يافث، أرشخ، فرشخ، فاقو، شالخ، هود، صالح، ديمنح، معدل، وريخاهجان، غيرف.

الشريعة الثالثة لإبراهيم وأوصيائه إثنا عشر وصياً وهم: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، أيلون، أيتم، أيوّب، زينون، دانيال الأكبر، اينوخ، اناخا، ميدخ.

الشريعة الرابعة لموسىٰ وأوصيائه إثنا عشر وهم: يوشع، عروف، فيدوف، عزير، أريسا، داود، سليمان، آصف، اتواخ، مينقا، ارون، واعث.

الشريعة الخامسة لعيسىٰ عليه السلام وأوصيائه إثنا عشر وهم: شمعون، عروف، فيدوف، عسير، زكريا، يحيى، اهدى، مشحا، طالوت، قس، استين، بحير الراهب.

الشريعة السادسة لمحمّد صلى الله عليه وآله وأوصيائه إثنا عشر وهم: عليّ عليه السلام أمير المؤمنين، والحسن الزكيّ، والحسين الشهيد، علي العابد، محمّد الباقر، جعفر الصادق، موسىٰ الكاظم، علي الرضا، محمّد الجواد، علي الهادي، الحسن العسكري، القائم المهدي.

هم القوم من أصفاهم الود مخلصاً   تمسك في أخراه بالسبب الأقوى

موالاتهم فرض وحبهم هدى   وطاعتهم قربىٰ وودهم تقوى

الركن الثاني

في أيام الأئمة المعصومين عليهم السلام وأعمار المعمرين

وأوّله:

فصل
أمير المؤمنين عليه السلام

واسمه عليّ، كنيته أبو الحسن، لقبه المرتضىٰ، مكان ولادته الكعبة، يوم ولادته الجمعة، شهر ولادته ثالث عشر رجب، وقيل: نصف رمضان، سنة ولادته ثلاثون من عام الفيل، ملك وقت ولادته شهريار، اسم اُمّه فاطمة بنت أسد، نقش خاتمه الملك لله الواحد القهّار، عدد أزواجه إثنا عشر غير السراري، عدد أولاده سبعة وعشرون، مدة عمره ثلاث وستون، يوم وفاته الجمعة أو الاثنين، شهر وفاته حادي وعشرون رمضان، سنة وفاته أربعين من الهجرة، مكان وفاته الكوفة، سبب وفاته قتله ابن ملجم، مكان قبره الغري، اسم بوابه قنبر وسلمان الفارسي.

فهو الإمام المظفّر والشجاع الغضنفر، أبو شبير وشبر، وقالع باب خيبر، الأنزع البطين، والحبل المتين، الإمام الوصي والمخلص الصفي، سيد العرب، وهاشمي الأم والأب.

سارت بأنواع علمك السير ... وحدثت عن جلالك السور

والواصفون المحدثون غلوا ... وبالغوا في علاك فأعتذروا

فهو سيف الله الغالب ... ومظهر العجائب والغرائب

جواد رهان السبق شمس ضحى العلي ... سماح بحار جود

قــطب رحــى الحــرب قــد شـهدت بـدر بـمقامه
وكــانت حــنين بــعض أيــامه وسل أحدا عن فعل قناته وحسامه
ويـوم خـيبر إذ فـتح الله عـلى يـديه ويوم الخندق صرع عمرا تحت رجليه
مــولى تـلوت مـديحه وجـدته أحـلى مـن الرشـفات والأفـواه
وطـلبت مـجتهداً نـهاية وصـفه فـوجدته مـا ليس بـالمتناه

قالت فاطمة بنت أسد: رأيت في منامي كأنّ جبال الشام قد أقبلت تدب وعليها جلابيب الحديد، وهي تصيح من صدورها بصوت مهول، فأسرعت نحوها جبال مكّة وأجابتها بمثل صياحها وأهول، وهي تصيح كالشرد المحمر[١]، وأبو قبيس ينتفض منه مثل الفرس، وصارت تسقط عن يمينه وشماله، والناس يلتقطون ذلك، فلقطت معهم أربعة أسياف وبيضة[٢] حديد مذهبة، فأوّل ما دخلت مكّة سقط منها سيف في الماء فغبر[٣]، وطار الآخر في الجو واستمر، وسقط الثالث في الأرض فانكسر، وبقي الرابع في يدي مسلولاً، فبينما أنا به أصول إذ صار شبلاً فليّنته فصار ليّناً، وهو لا يخرج عن يدي، ومرّ نحو الجبال يجوب بلاطحها، ويخرق صلادحها، والناس منه مشفقون ومن خيفته حذرون، إذ أتى محمّد ﷺ فقبض على رقبته، فانقاد له كالظبية الألوف، وانتبهت وقد راعني الفزع، فطلبت المعبرين، فوجدت كاهناً أخبرني بمنامي، وقال: إنّك تلدين أربعة ذكوراً وبنتاً بعدهم، وأنّ أحد البنين يغرق، والآخر يموت، ويبقى له عقب، والآخر يقتل في الحرب، والرابع يكون إمام الخلق، ولم أزل مفكرة في ذلك المنام فولدت ثلاثة: طالباً وعقيلاً وجعفراً، ثم حملت بعليّ في ذي الحجّة وولدته ليلة النصف من رمضان[٤].

وجاء في الحديث أنّ فاطمة بنت أسد دخلت الكعبة فصادف دخولها وقت ميلاده، فولدت علياً عليه السلام، وفي حديث يزيد بن قعنب أنّها دخلت المسجد الحرام فأخذها الطلق، فقالت: ربّي إنّي مؤمنة بك، وبما جاء من عندك، من رسل وكتب، ومصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل، وأنّه بنى بيتك العتيق، فبحقّه وبالمولود الذي في بطني، لما يسّرت عليّ ولادتي، قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت قد انفتح من ظهره، ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا، والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا فقفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أنّ ذلك أمر من الله عزّ وجلّ.

---

(١) الشرد: جمع شارد؛ وهو البعير النافر. والمحمر: الناقة يلتوي في بطنها ولدها.
(٢) البيضة: الخوذة، وهي من آلات الحرب الوقاية الرأس.
(٣) أي: مضى وذهب.
(٤) كنز الفوائد: ١١٦.

ثم خرجت بعد الرابع وبيدها عليّ عليه السلام، فقالت: أيّها الناس إنّي فضّلت على من بعد منّي من النساء، لأنّ آسية بنت مزاحم عبدت الله عزّ وجلّ في موضع لا يعبد فيه إلّا اضطراراً، وأنّ مريم بنت عمران هزّت النخلة اليابسة بيدها حتى أكلت منها رطباً جنيّاً، وأنّي دخلت بيت الله الحرام فأكلت من ثمار الجنّة وأرزاقها، وولدت فيه غلاماً وهتف بي هاتف: يا فاطمة سمّيه عليّاً فهو عليّ والله العليّ الأعلى يقول: إنّي شققت اسمه من اسمي وأدّبته بأدبي، واوقفته على غامض علمي، وهو الذي يكسّر الأصنام، ويقدّسني ويمجّدني، فطوبى لمن أحبّه وأطاعه، وويل لمن أبغضه وعصاه[١].

وكان عمر النبيّ ثلاثين سنة فضمّه إليه في مجاعة أصابت قريشاً، ولمّا بعث، آمن به وعمره عشرة سنين، وشهد معه المشاهد كلّها إلّا تبوك فإنّه استلخفه مكانه وقال له: أما ترضى أن تكون منزلتك منّي منزلة هارون من موسىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي[٢].

وقال له: يا علي يهلك فيك رجلان محبّ مفرط، وكذّاب مفتر[٣].

وتفترق فيك أمّتي كما أفترقت بنو إسرائيل في عيسىٰ بن مريم[٤].

وبويع بالخلافة يوم قتل عثمان بن عفّان يوم عيد الأضحى أو ثامن عشر شهر ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين، أجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وفيهم طلحة والزبير، فأتوا عليّاً وسألوه البيعة فامتنع مراراً، وقال: لا حاجة لي في أمركم من اخترتم رضيت به، فأبوا إلّا مبايعته، وأتى المسجد فبايعوه، فأوّل من بايعه طلحة بن عبدالله، وكانت يده شلّاء من يوم أحد، فقيل: لا يتم هذا الأمر فإنّ أوّل يد بايعته شلّاء.

وتأخّر عن البيعة سعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد بن الخطاب، وعبدالله بن عمر، وبايعت الأنصار إلّا نفر قليل منهم: حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، ومحمّد بن مسلمة، وفضالة بن عبدالله، وكعب بن عجزة، وزيد بن ثابت.

وأعتزل عن البيعة عبدالله بن سلام، وصهيب، وأُسامة بن زيد، وقدامة بن مظعون، والمغيرة بن شعبة، وسمّوا هؤلاء المعتزلة لإعتزالهم عن بيعة عليّ.

---

(١) علل الشرائع ٣/١٣٥، روضة الواعظين: ٧٦.

(٢) فتح الباري ٦٠/٧.

(٣) الاستيعاب: ١١٠١/٣.

(٤) إحقاق الحق ٢٩٣/٧، الاستيعاب ١١٠١/٣، تهذيب الكمال ٤٨٥/٢٠.

ثم يوم الخميس لخمس بقين من ذي الحجّة صعد عليّ عليه السلام المنبر واستعفى من الخلافة، فلم يعفوه.

وسار النعمان بن بشير بثوب عثمان ملطّخاً بالدم الى الشام، فجعله معاوية على المنبر تحريضاً على قتال عليّ عليه السلام، وأخذ البيعة للزبير بالشام على أهلها ومن بعده لطلحة، وكتب إليهما بذلك وأمرهما بالمسير الى البصرة.

فدخلا على عليّ عليه السلام فقالا: يا أمير المؤمنين إنّ أرضنا شديدة، وعيالنا كثيرة، ونفقتنا نفقة كثيرة، قال: ألم أقل لكم إنّي لا أعطي أحداً دون أحد، قالا: نعم، قال: فأتوا بأصحابكم فإن رضوا بذلك أعطيتكم، وإلّا لم أعطكم دونهم، ولو كان عندي شيء أعطيتكم من الذي لي، وإذا انتظرتم حتى يخرج عطائي أعطيتكم منه، قالا: ما نريد من مالك شيئاً، وخرجا من عنده فلم يلبثا إلّا قليلاً حتى دخلا عليه، فقال: ائذن لنا في العمرة، قال: «ما تريدان العمرة ولكن تريدان الغدرة»، قالا :كلا، قال: «قد أذنت لكما اذهبا».

فخرجا من عنده ولحقا بمكّة وقال لعبدالله بن الزبير: إنّ عثمان قتل مظلوماً، وأنا نخاف أن ينتقض أمر أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، فإن رأت عائشة أن تخرج معنا، لعل الله أن يرتق بها فتقنا ويشعب بها صدعنا.

فدخل عبدالله على خالته عائشة فأبلغها ما أرسلا به إليها، فقالت: سبحان الله! والله ما أمرت بالخروج وما يحضرني من اُمهات المؤمنين إلّا أم سلمة، فإن خرجت خرجت معها.

ودخلت على أم سلمة فقالت لها: قدم طلحة والزبير فخبرا أنّ أمير المؤمنين عثمان قتل مظلوماً، فقالت: يا عائشة أنت بالأمس تشهدين عليه بالكفر، وهو اليوم أمير المؤمنين قتل مظلوماً! فما تريدين؟ قالت: تخرجين معنا فلعل الله أن يصلح بخروجنا أمر أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، قالت: يا عائشة أخرج وقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله ما سمعنا، أنشدتك بالله يا عائشة أتذكرين يوماً كان يومك من رسول الله فصنعت حريرة في بيتي فأتيته بها، وهو يقول: والله لا تذهب الليالي والأيام حتىٰ تتنابح كلاب ماء بالعراق يقال له الحوأب، على امرأة من نسائي في فئة باغية، فسقط الإناء من يدي فرفع رأسه إليّ، وقال: مالك يا أم سلمة؟ فقلت: يا رسول الله ألا يسقط الإناء من يدي وأنت تقول ما تقول! ما يؤمنني أن أكون هي؟! فضحكتِ أنتِ فالتفت إليكِ فقال: ما يضحكك يا حمراء الساقين؟ إنّي أحسبك هي[1].

فرجعت عائشة إلىٰ منزلها وقالت يابن الزبير أبلغهما، أنّي لست بخارجة بعد الذي سمعته من

(١) رسائل المرتضى ٦٧/٤، بحار الأنوار: ١٥٠/٣٢.

أم سلمة، فلم يزالوا يمكرون بها حتىٰ وافقتهما على الخروج.

وكان عبدالله بن عباس بمكّة لمّا قتل عثمان، فجاء الى المدينة فقال له علي عليه السلام: إنّ المغيرة بن شعبة أشار عليّ بإقرار معاوية وغيره من عمّال عثمان إلى أن يبايعوا ويستقر الأمر فأبيت، ثم جائني الآن فقال: إنّ الرأي ما رأيته، فقال عبدالله: فنصحك في الأُولىٰ وغشك في الثانية، فأنا أشير عليك باستقرار معاوية، فقال: والله لا أعطيه إلّا السيف وتمثل:

وما ميتة أن متها غير عاجز بعار إذا ما قالت النفس غولها

فقال: يا أمير المؤمنين أنت شجاع وأنا صاحب رأي، أنّه عن قليل يطاع ولا يعصى، وأنت تعصىٰ ولا تطاع، فقال علي عليه السلام: إذا عصيتك فاطعني، فقال عبدالله: أفعل فأيسر ما عندي طاعتك. وخرج المغيرة ولحق بمكّة.

وفي سنة ست وثلاثين أرسل أمير المؤمنين عليه السلام إلى البلاد عمّاله، فبعث عمارة بن شهاب إلى الكوفة وكان من المهاجرين، وولي عثمان بن حنيف الأنصاري البصرة، وعبدالله بن عباس اليمن، وقيس بن سعيد بن عبادة الأنصاري مصر، وسهل بن حنيف الأنصاري الشام، فرجع من الطريق لمّا سمع بعصيان معاوية، وكذلك عميرة بن شهاب لقيه طلحة بن خويلد الذي ادعىٰ النبوّة في خلافة أبي بكر، فقال له: إنّ أهل الكوفة لا يستبدلون بأبي موسىٰ الأشعري فرجع.

ولمّا وصل عبدالله بن عباس إلى اليمن، خرج الذي كان بها من قبل عثمان وهو يعلى بن منية بما بها من الأموال إلى مكّة، وصار مع عائشة وطلحة والزبير، وجمعوا جمعاً عظيماً وقصدوا البصرة، فلم يوافقهم عبدالله بن عمر وكان بمكّة.

وأعطى يعلى بن منية لعائشة جملاً كان اشتراه بمائة دينار اسمه عسكر، فركبته ومروا بماء في مكان بالعراق واسمه الحوأب فنبحتهم كلابه، فقالت عائشة: أي ماء هذا؟ فقيل لها: هذا ماء الحوأب، فصرخت وقالت: إنّا لله وأنّا إليه راجعون، سمعت رسول الله يقول: وعنده نساؤه ليت شعري أيّتكنّ تنبحها كلاب الحوأب، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت: ردّوني ردّوني، فأقاموا يوماً وليلة وأتوها بسبعين شيخاً فشهدوا أنّ الماء ما هو ماء الحوأب، وهم أوّل شهود شهدوا في الإسلام بالزور، وأخذوا عليه الرشا، وقال لها ابن أختها عبدالله بن الزبير: إنّه كذب، وليس هذا ماء الحوأب، ولم يزل بها وهي تمتنع، فقال: النجاة النجاة، فقد أدرككم عليّ ابن أبي طالب فارتحلوا ووصلوا البصرة.

ونزلوا عليها بعد قتال عظيم مع عثمان بن حنيف، وقتل من أصحاب عثان بن حنيف أربعون رجلاً، وأمرت عائشة بنتف لحيته وحواجبه وسجنته ثم أطلقته.

وبلغ ذلك عليّاً فسار من المدينة في أربعة آلاف فارس من المهاجرين والأنصار، منهم أربعمائة ممّن بايع تحت الشجرة، وحامل رايته ابنه محمّد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيّالة عمّار بن ياسر، وعلى الرجّالة محمّد بن أبي بكر، وعلى مقدمته عبدالله بن العباس، واجتمع إلى عليّ من أهل الكوفة جمع، وإلى عائشة جمع، وسار بعضهم إلى بعض والتقوا بمكان يقال له: الخريبة، يوم الخميس في نصف جمادي الآخرة، فكتب عليّ إلى طلحة والزبير:

أمّا بعد: فقد علمتما أنّي لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتما ممّن أراد بيعتي، ولم تبايعوا لسلطان غاصب ولا لغرض حاضر[١]، وإن كنتما بايعتما طائعين فتوبوا إلى الله تعالى وارجعا عمّا أنتما عليه، وإن كنتما بايعتما مكرهين فقد جعلتما لي السبيل عليكما بإظهاركما الطاعة وكتمانكما المعصية، وأنت يا زبير فارس قريش، وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين، ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه، كان أوسع لكما من خروجكما منه بعد إقراركما، وقد عرفتما منزلتي من رسول الله صلى الله عليه وآله، وكتب إلى عائشة:

أمّا بعد: فإنّك خرجت من بيتك عاصية لله ولرسوله محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، ثم تزعمين أنّك تريدين الإصلاح بين المسلمين، فخبريني ما للنساء وقود العساكر والإصلاح بين الناس؟ وطلبت كما زعمت بدم عثمان وهو من بني أميّة، وأنت امرأة من تيم بن مرة، ولقد كنتِ تقولين بالأمس: اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً فقد كفر[٢]، ولعمري أنّ الذي عرضك للبلاد حملك على المعصية، لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان، وما غضبت حتى أغضبت ولا هجت حتى هيّجت، وأتق الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك وأسبلي عليك سترك والسلام.

فرجع الجواب يابن أبي طالب جلّ الأمر عن العتاب. وضاق الوقت عن الجواب فراسلهم مرة بعد أخرى ليكفّوا عن الحرب، وحمل صوحان وعبدالله بن عباس رسالته إليهم فلمّا لم يجيبوا إلى ذلك؛ جمع من بايعه من الناس، فقال: يا أيّها الناس إنّي قد تأنّيت عن هؤلاء القوم وراقبتهم وناشدتهم كيما يرجعوا ويرتدعوا، فلم يفعلوا ولم يستجيبوا، وقد بعثوا إليّ أن أصبر للطعان وأثبت للجلاد، وقد كنت وما أهدد بالحرب ولا أدعي إليها، وقد أنصف القادة من راماها، ولعمري لئن

---

(١) في شرح لنهج البلاغة لابن أبي الحديد: «لحرص حاضر» وفي شرح نهج البلاغة لعبده: «لعرض حاضر» وفي هامشه: والعرض، بفتح فسكون ـ أو بالتحريك ـ هو المتاع، وما سوى النقدين من المال ومعناه ولا لطمع في مال حاضر.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٦٤/١، تاريخ الطبري: ٤٧٧/٣.

أبرقوا وأرعدوا فقد عرفوني ورأوا مكاني، أنا أبو الحسن الذي فللت حدّهم، وفرّقت جمعهم، فبذلك القلب أُلقي عدوّي، وأنا على بيّنة من ربّي لما وعدني من النصر والظفر، وأنا لعلى غير شبهة من ربّي وأمري، ألا أنّ الموت لا يفوت المقيم ولا يعجزه الهارب، ومن لم يقتل يمت، وإنّ أفضل الموت القتل، والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسيف، أهون عليّ من ميتة على الفراش! ثم رفع يده إلى السماء وهو يقول: اللهمّ إنّ طلحة ابن عبدالله أعطاني صفقة يمنيّه طائعاً ثم نكث بيعتي، اللهمّ فعاجله ولا تمهله، اللهمّ وإنّ الزبير بن العوّام قطع قرابتي، ونكث عهدي، وظاهر عدوّي، ونصب الحرب لي، وهو يعلم أنّه ظالم لي، فاكفنيه كيف شئت وأنّى شئت.

ثم قال: أين الزبير؟ قالوا: هو ذا واقف، فأرسل إليه، أدن منّي حتّى أخبرك، والزبير في السلاح وعليّ عليه قباء طاق وبرنس وقلنسوة، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين ذاك في السلاح وليس عليك إلّا ما أرى، فقال: انته عنّي، فدنا كل واحد منهما إلى صاحبه، حتى أختلفت رأسا دانيتهما، فقال له علي عليه السلام: تذكّر يا زبير يوم كنت أنا وأنت في مكان كذا، فمرّ رسول الله فقال لك: لتقاتلن هذا وأنت ظالم له، فقال له الزبير: ذكّرتني ما قد نسيت، فلن أسل عليك سيفاً ولكن كيف أرجع وقد التقت الأبطال؟ هذا والله العار الذي لا يغسله الدهر! قال: يا زبير ارجع بالعار قبل أن ترجع بالعار والنار فأدبر، فقال له ابنه عبدالله: فلم تنصرف عنّا الآن وقد التقت حلقت البطان[1]؟ هذا والله العار، لقد فضحتنا فضيحة لا تغسل منها رؤسنا أبداً، فقال: يا بنيّ ارجع والله لأخبار كان النبيّ صلى الله عليه وآله عهدها إليّ فأنسيتها حتى ذكرنيها علي بن أبي طالب، ثم أنشد:

ترك الأمور التي تخشى عواقبها ... لله أجمل في الدنيا وفي الدين
نادى علي بأمر لست أذكره ... قد كان عمر أبيك الحق مذ حين
فاخترت عاراً على نار مؤججة ... أنى يقوم لها خلق من الطين
أخال طلحة وسط القوم منجدلا ... ركن الضعيف ومأوى كل مسكين
قد كنت أنصره حيا وينصرني ... في النائبات ويرمى من يراميني
متى ابتلينا بأمر ضاق مصدره ... وأصبح اليوم ما يعنيه يعنيني[2]

ودخل على عائشة وقال لها: يا أمّاه، والله ما شهدت موطناً في الشرك ولا في الإسلام إلّا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنّه ما لي فيه رأي ولا بصيرة وإنّي لعلى باطل، فقالت له: يا أبا

---

(١) البطان: الحزام الذي يجعل تحت بطن الدابة.

(٢) المناقب ـ للخوارزمي ـ ١٨٠.

عبدالله خفت سيوف بني عبدالمطلب، فقال: والله إنّ سيوفهم طوال حداد، تحملها فتية أنجاد[١]، وانهزم نحو المدينة وهو هارب أو تائب، فقتله عبدالله من بني جرموذ، بوادي السّباع، فسمع الأخنف بن قيس بهزيمة الزبير، فقال: جمع بين العارين، قتال عليّ والهزيمة.

ولمّا تقابل العسكران جعل أهل البصرة يرمون أصحاب عليّ حتى عقروا منهم جماعة، فقال الناس: يا أمير المؤمنين قد عقرنا نبلهم فما انتظارك في القوم؟

فقال: اللّهمّ إنّي أشهدك أنّي قد أعذرت وأنذرت فكن لي عليهم من الشاهدين، وتقلّد بسيفه واعتجر[٢] بعمامته، واستوىٰ على بغلة النبيّ، ثم دعا بالمصحف فأخذه بيده وقال: من يأخذ هذا المصحف فيدعوا هؤلاء القوم إلى ما فيه؟ فأخذه غلام من مجاشع يقال له مسلم وعليه قباء أبيض، وانطلق به إليهم فقال: يا هؤلاء هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فضربه رجل من أصحاب الجمل على يده اليمنى فقطعها، فأخذ المصحف بشماله فقطعت شماله، فاحتضن المصحف بصدره فضرب عليه حتى قتل.

فرفع عليّ رايته إلى ابنه محمّد بن الحنفية وقال: تقدّم يا بني، فتقدّم محمّد ثم وقف بالراية لا يبرح بها، فصاح به عليّ اقتحم لا أم لك، فحمل محمّد الراية وطعن بها في أصحاب الجمل طعناً منكراً، وعليّ ينظر إليه فأعجبه ما رأى من فعاله، فجعل يقول له:

أطعن [بها طعن] أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد

فقاتل محمّد بالراية ساعة ثم رجع وضرب عليّ بيده على سيفه فسلّه، ثم حمل على القوم فضرب فيهم يمنياً وشمالاً ثم رجع وقد انحنى سيفه، فجعل يسوّيه بركبته، فقال له أصحابه: نحن نكفيك ذلك يا أمير المؤمنين! فلم يجب أحداً حتى سوّاه، وحمل ثانية حتّى أختلط فيهم، فجعل يضرب فيهم حتّى انحنى سيفه. ثم رجع إلى أصحابه، ووقف يسوّي سيفه بركبتيه وهو يقول: والله ما أريد بذلك إلّا وجه الله والدار الآخرة! ثم التفت إلى ابنه محمّد بن الحنفية، فقال: هكذا فاصنع يا بني![٣].

وجال الأشتر بين الصفّين واشتبكت الحرب بين العسكرين، واقتتلوا قتالاً شديداً، لم يسمع بمثله وانتصر عليّ بن أبي طالب وصار هودج عائشة كالقنفذ من النشّاب، وقطع على خطام جملها

---

(١) انجاد: أشداء شجعان.

(٢) واعتجر بعمامته: أي لفها على رأسه، ورد طرفها على وجهه، وشيئاً منها تحت ذقنه.

(٣) كتاب الفتوح لاحمد بن أعثم الكوفي ٧٣/٢، المناقب للموفق الخوارزمي: ١٨٧.

ثمان وتسعون يداً واحمرت الأرض بالدماء. ورمى مروان بن الحكم طلحة بسهم فقتله[١]؛ وكلاهما من أصحاب عائشة، قيل إنّه كان ينسبه إلى أنّ عثمان قتل باختياره! فلمّا نشبت الحرب قال: [لا][٢] أطلب بثأري بعد اليوم، فرماه بسهم فقتله. وبرز الأشتر لعبدالله بن الزبير حتّى تعانقا فقال عبدالله:

يا لقومي ومعشري ما تروا ذل موضعي
اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

ثم هرب عبدالله، وعقر جمل عائشة وبقيت في هودجها إلى الليل، وبادر عمّار بن ياسر فقطع أبواب الهودج بسيفه، وأقبل عليّ فطعن الهودج برمحه، ثم قال: يا عائشة هكذا أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقالت: يا أبا الحسن ظفرت فأحسن، وملكت فاسجح.

فقال لمحمّد بن أبي بكر: شأنك بأختك فلا يدنوا أحد إليها سواك، فأدخل محمّد يده إليها فاحتضنها، ثم قال لها: أصابك شيء؟ قالت: لا؛ ولكن من أنت ويحك؟ فقد مَسست منّي ما لا يحل لك؟ فقال: اسكتي فأنا محمّد أخوك، فعلت بنفسك، وعصيت ربك، وهتكت سترك، وأبحت حرمتك، وتعرضت للقتل، ثم أدخلها ـ أخوها محمّداً ـ البصرة ليلاً، وأنزلها في دار عبدالله ابن خلف الخزاعي[٣] وكان قد قتل بين يديها ذلك اليوم[٤].

وطاف على القتلى وصلّى عليهم ودفنهم ولمّا مرّ بطلحة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى وتمثّل بقول من قال:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وصلّى عليه ودفنه، وكانت الوقعة يوم الخميس خامس عشر جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين، كانت من ارتفاع الشمس إلى قرب العصر، قتل فيها سبعة عشر ألفاً من أصحاب الجمل، ونحو ألف من أصحاب عليّ.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ـ محمّد بن سعد ـ: ٢٢٣/٣، تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ـ: ١٢٤/٢٥.

(٢) بين المعقوفين اثبتناه من المناقب ـ للموفق الخوارزمي، لسقوطها من النسخة المعتمدة.

(٣) وقالت صفية بنت الحارث الثقفية ـ زوجة عبدالله بن خلف الخزاعي ـ لعلي يوم الجمل بعد الوقعة: يا قاتل الاحبة يا مفرق الجماعة، فقال عليه السلام: اني لا ألومك ان تبغضيني يا صفية وقد قتلت جدك يوم بدر وعمك يوم أُحد وزوجك الآن، ولو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه البيوت، ففتش فكان فيها مروان وعبدالله بن الزبير. وقال الطبري وهي أعظم دار بالبصرة.

(٤) المناقب للموفق الخوارزمي: ١٨٩.

وأُسر مروان بن الحكم، وعمرو بن عثمان بن عفان، وموسى بن طلحة، وعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، فقال عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين أقتل هؤلاء الأسرىٰ؟ فقال: لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع، فبايعوه وخلى سبيلهم.

ودخل البصرة واستعمل عليها عبدالله بن العباس، وأمر عائشة أن تعود إلى المدينة، وأقام عليٌ بالكوفة، وانتظم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وخراسان، ولم يبق خارجاً عنه إلّا الشام، فأرسل جرير بن عبدالله البجلي إلى الشام ليأخذ البيعة على معاوية، وكتب إلى معاوية:

اما بعد: فإنّك لزمتك بيعتي بالمدينة وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما باعيوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنّما الشورى بين المهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك رضاً لله تعالى، فإن خرج عن أمرهم خارج ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولّاه الله ما تولّى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي، وكان نقضهما كردّتهما، فجاهدتهما على ذلك بعد أن أعذرت وأنذرت **﴿حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾**[(١)]، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأمور إليّ فيك العافية، وأن لا تتعرض للبلاء فإن تعرضت للبلاء قاتلتك واستعنت الله عليك، وقد أكثرت الجدال في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلي، أحملك وإياهم على كتاب الله. وأمّا تلك التي تريدها فهذه خدعة الصبي على اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك لتجدني أبرء قريش من دم عثمان، واعلم أنّك من الطلقاء[(٢)] الذين لا يحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبدالله البجلي، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوة إلّا بالله[(٣)].

ومضى جرير بن عبدالله بهذا الكتاب إلى الشام ليأخذ البيعة على معاوية، فماطله معاوية وكان يعتلّ بدم عثمان ويستغوي بذلك أهل الشام وأجلاف العرب، حتى بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم ليروي أنّ قوله تعالى: **﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ**

---

(١) سورة التوبة: ٤٨.

(٢) الطلقاء: جمع طليق، وهو الأسير الذي أطلق عنه إساره وخلى سبيله. ويراد بهم الذين خلى عنهم رسول الله يوم فتح مكة وأطلقهم ولم يسترقهم.

(٣) نهج البلاغة: كتاب رقم ٨، صفين: لنصر بن مزاحم ط. القاهرة سنة ١٨٣٢هـ ص٢٩.

﴿وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[١]، أنّها نزلت في عليّ فقبل الشقيّ منه، وروى ذلك مع أنّها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي[٢].

واستشار معاوية ثقاته في قتال علي عليه السلام فقال له أخوة عتبة بن أبي سفيان: هذا أمر عظيم لا يتم إلّا بعمرو بن العاص، فإنّه قريع[٣] زمانه في الدهاء والمكر يخدع ولا ينخدع، وقلوب أهل الشام مائلة إليه، قال: صدقت ولكنّه يحب عليّاً فأخاف ألا يجيبني، قال: اخدعه بالأموال والولايات.

فكتب إليه وكان بفلسطين كتاباً يقول فيه: من معاوية بن أبي سفيان خليفة عثمان بن عفّان ذي النورين، المعدوم الناصر، الكثير الخاذل، المحصور في منزله، المقتول عطشاً وظلماً في محرابه، المعذب بأسياف الفسقة، إلى عمرو بن العاص صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وثقته وأمير عسكره بذات السلاسل، المعظّم رأيه والمفخّم تدبيره.

أمّا بعد: فلا يخفى عليك احتراق قلوب المؤمنين وما قد أُصيبوا به من الفجيعة بدم عثمان، وما ارتكب به جاره حسداً وبغياً بامتناعه من نصرته وخذلانه إيّاه، واشلائه[٤] عليه حتى قتلوه في محرابه، فيالها من مصيبة عمّت جميع المسلمين وفرضت عليهم طلب دمه ممّن قتله، وأنا أدعوك إلى الخط الأجزل من الثواب والنصيب الأوفر من حسن المآب بقتال من آوى قتلة عثمان[٥].

فكتب إليه عمرو في الجواب: من عمرو بن العاص صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى معاوية بن أبي سفيان.

أمّا بعد: فقد وصل إليّ كتابك فقرأته وفهمت ما دعوتني إليه من خلع ربقة الإسلام من عنقي، والتهّور معك في الضلالة وإعانتي إيّاك على الباطل، واختراط السيف في وجه عليّ وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّه ووارثه وقاضي دينه ومنجز وعده، وزوج ابنته سيدة نساء العالمين، وأبو السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنّة. وأمّا ما قلت أنّك خليفة عثمان فقد صدقت ولكن تبيّن اليوم عزلك من خلافته وقد بويع لغيره فزالت خلافتك، وأمّا ما عظّمتني به ونسبتني

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٤ و٢٠٥.

(٢) عمدة القارئ للعيني ٤/١٣.

(٣) قال الجوهري القريع: الفحل والسيد، يقال فلان قريع دهره وقريعك الذي يقارعك.

(٤) الإشلاء: الاغراء. يقال أشلى الكلب على الصيد وهو مأخوذ من الشلو، لأن المراد به التسليط على أشلاء الصيد وهي أعضاؤه.

(٥) القصة ذكرها الخوارزمي في الفصل الثالث من الفصل (١٦) من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ص١٢٩.

إليه من صحبة رسول الله ﷺ وأنّي صاحب جيشه، فلا أغتر بالتزكية ولا أميل بها عن الملّة، وأمّا ما نسبت أبا الحسن أخا رسول الله ﷺ ووصيّه إليه من البغي والحسد على عثمان، وسمّيت الصحابة فسقة، وزعمت أنّه أشلاهم على قتله، فهذا كذب وغواية. وأطال الكلام وذكر فيه من مناقب عليّ وفضائله ما هو مشهور، وكتب في آخر الكتاب يا معاوية الذي هذا جوابه ليس ينخدع به من له عقل أو دين.

فكتب إليه معاوية يعرض عليه الأموال والولايات وطوّل الكلام وكتب في آخر كتابه:

جهلت ولم تعلم محلك عندنا ... فأرسلت شيئاً من عتاب وما تدري
فثق بالذي عندي لك اليوم آنفا ... من العز والإكرام والجاه والقدر
فأكتب عهدا ترتضيه مؤكدا ... وأشفعه بالبذل مني وبالبر

فكتب إليه عمرو:

أبى القلب مني إذ أخادع بالمكر ... بقتل ابن عفان أجر إلى الكفر
وإني لعمرو ذو دهاء وفطنة ... فلست أبيع الدين بالربح والدفر
فلو كنت ذا رأي وعقل وحيلة ... لقلت لهذا الشيخ إن خاض في الأمر
تحية منشور جليل مكرم ... بخط صحيح ذي بيان على مصر
أليس صغيرا ملك مصر ببيعة ... هي العار في الدنيا على العقب من عمر
فإن كنت ذا ميل شديد إلى العلى ... وإمرة أهل الدين مثل أبي بكر
فأشرك أخا رأي وحزم وحيلة ... معاوي في أمر جليل لذي الذكر

فكتب معاوية منشور مصر ونفذه إليه.

وبقي عمرو متفكراً لا يدري ما يصنع حتى ذهب عنه النوم.

وقد تطاول ليلي للهموم الطوارق ... وصافحت من دهري وجوه البوائق
أأخدعه والخدع فيه سجية ... أم أعطيه من نفسي منحة وامق
أم أقعد عنه ان ذا فيه راحة ... لشيخ يخاف الموت في كل شارق

فلمّا أصبح دعا مولاه وردان ـ وكان عاقلاً ـ فشاوره في ذلك.

فقال وردان: مع علي أخرى ولا دنيا معه، وهي التي تبقى معك وتبقى فيها، ومع معاوية دنيا لا آخرة، وهي التي لا تبقى عليك ولا على غيرك فانظر أيهما تختار؟ فتبسّم عمرو وأنشأ يقول:

يا قاتل الله وردانا وفطنة ... لقد أصاب الذي في القلب وردان
لمّا تعرضت الدنيا عرضت لها ... بحرص نفسي وفي الأطباع إدهان

نفسي تعف وأخرى الحرص يمنعها والمـرء يأكـل تـبنا وهـو غـرثان[١]
أمـا عـلي فـدين ليس يشـركه دنـيا وذاك له دنـيا وسـلطان
فاخترت من طمعي دنيا على بصر ومـا مـعي في الذي أختار برهان
لكنّ نفسي تحبب العيش في شرف وليس يـرضى بـذل النفس إنسـان

ورحل عمرو إلى معاوية، فمنعه ابنه عبدالله ووردان فلم يمتنع، فلمّا بلغ مفرق الطريقين: طريق الشام وطريق العراق، قال له وردان: طريق العراق طريق الآخرة، وطريق الشام طريق الدنيا، فأيّهما تسلك؟ قال طريق الشام، فلمّا وصلها اتفق مع معاوية على قتال عليّ عليه السلام.

فكتب إلى عليّ عليه السلام جواب كتابه الذي أرسله إليه مع جرير بن عبدالله البجلي يقول له فيه:

أمّا بعد فلو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنّك أغريت بعثمان المهاجرين والأنصار وخذلت عنه الأنصار حتى أطاعك الجاهل وتقوّى بك الضعيف، وقد عزم أهل الشام على قتالك، اللهم إلّا أن تدفع إليهم قتلة عثمان فيكفّوا عنك، وتجعل الأمر شورىٰ بين المسلمين ويكون الشورى لأهل الشام لا لأهل الحجاز، وكتب في آخر الكتاب:

أرىٰ الشام تكره أهل العراق وأهـل العـراق لهم كـارهونا
وكـلّ لصـاحبه مـبغض يرىٰ كل ما كان من ذاك دينا
إذا مـا رمـونا رمـيناهم ودنّـاهم مـثل مـا يقرضونا
وقـالوا عـلي إمـام لنـا فقالوا رضينا ابن هـند رضـينا
وقـالوا نـرى أن تـدينوا له فـقلنا لهـم لا نـرى أن نـدينا
وكـل يسـر بـما عـنده يرى عنث ما في يديه سمينا

فكتب عليّ إلى معاوية.

أمّا بعد: فقد أتاني كتاب ليس له نور يهديه ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتبعه، وزعمت أنّ خطيئتي في عثمان أفسدت عليك بيعتي، ولعمري ما كنت إلّا واحداً من المهاجرين والأنصار، ووردت فيما وردّوا، وصدرت كما صدروا، وما أمرت أمر يلزمني خطأ، ولا كنت مع القوم، وأمّا قولك أنّ أهل الشام يحكمون على الشورى، فمن في الشام تحلّ له الخلافة، ويحكم على المسلمين، فإن سمّيت أحداً منهم كذّبك المهاجرون والأنصار.

وأجاب عن شعره عبدالله بن أبي رافع كاتب عليّ عليه السلام يقول له:

---

(١) الغرث: الجوع، انظر جمهرة اللغة: ٤٢٢.

دعـن يـا مـعاوي مـا لن يكـونا وقـــتلة عـثمان إذ تـدعونا
اتـــاكـــم عـليّ بأهـل الحـجاز وأهـــل العـــراق فـما تـصنعونا
عـــلى كـــل جـــرداء خـيفانه وأجـــرد شـــهب تـــقر العـيونا
عـــليها فـــوارس مـــن شـيعة كأســـد العـرين تـحامي العـرينا
يـــرون الطـعان خـلال العـجاج وضـرب الفـوارس فـي النـقع دينا
هـم هـزموا الجـمع جمع الزبير وطـــلح وغـــيرهم النـــاكـثينا
فان تكـرهوا المـلك مـلك العراق فـــقد كـره القـوم مـا تكـرهونا
فـــقل للـــمضلل مـــن وائـــل ومـــن جـعل الغث يـوماً سـمينا
جـــعلت ابـــن هـند وأشـياعه نـــظير عـــليّ امـــا تســـتحونا
عـــليّ ولي حـــبيب المـــجيد وصـــي النـــبيّ مـــن العـالمين

ودفع كتابه إلى الأصبغ بن نباتة ليوصله إليه، قال الأصبغ: دخلت على معاوية وهو جالس على نطع من الادم، متّكئاً على وسادتين خضراوتين، وعن يمينه عـمرو بـن العـاص، وحـوشب، وذ الكلاع، وعن شماله أخوه عتبة بن أبي سفيان، وعبدالله بن عامر بن كريز، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، وشرحبيل بن السمط، وبين يديه أبو هريرة، وأبو الدرداء، والنعمان بن بشير، وأبو أمامة الباهلي، فلمّا قرأ الكتاب قال: إنّ علياً لا يدفع إلينا قتلة عثمان، فقلت له: يا معاوية لا تعتل بدم عثمان فإنّك تطلب الملك والسلطان، ولو كنت أردت نصرته حيّاً، ولكنّك تربّصت به لتجعل ذلك سبباً إلى وصول الملك والسلطان وأردت أن يزيد غضبه.

وقلت لأبي هريرة: يا صاحب رسول الله إنّـي أحـلّفك بـالله الذي لا إله إلّا هـو عـالم الغيب والشهادة، وبحق حبيبه المصطفى ألا أخبرتني، أشهدت غدير خم؟ قال: بلى شهدت، قلت: فما سمعته يقول في علي عليه السلام؟ قال: سمعته يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره وأخذل من خذله»، فقلت له: فإذاً أنت واليت عدوه وعـاديت وليّه، فتنفّس أبو هريرة الصعداء وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فتغيّر معاوية وقال: كف عن كلامك فلا تستطيع أن تخدع أهل الشام بـالكلام عـن طـلب دم عثمان، فإنّه قتل مظلوماً في حرم رسول الله، وعند صاحبك قتلة أغراهم به حتى قتلوه، فهم أنصاره ويده وعضده، وما كان عثمان يهدر دمـه لولاه، فـقال مـعاوية بـن خـديج الكـندي وذو الكـلاع وحوشب، ومن معه: والله لننصرنّك يا معاوية بدم عثمان حتى يحصل مرادنا أو نقتل عن آخرنا، فأقبلت إلى معاوية وقلت:

معاوي لله من خلقه عباد قلوبهم قاسية
وقلبك من شر تلك القلوب وليس المطيعة كالعاصية
دع ابن خديج ودع حوشبا وذا كلع واقبل العافية

قال الأصبغ: فلم يصبر معاوية إلى أن أتمّ الشعر بل غضب وصاح عليّ، وقال: ليت شعري أجئت رسولاً أم مشنّعاً؟ فانصرفت عنه(١).

فقال عليّ: إنّي لا أتعجّب من معاوية وبغضه وحسده، ولكن أتعجّب من النعمان بن بشير، وعبدالله بن عامر بن كريد، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وأبي أمامة الباهلي، وقد رأوا منزلتي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يقول:

أسأت إذ أحسنت ظني بكم والحزم سوء الظن بالناس
من أحسن الظن بأعدائه تجرع الهمّ بأنفاس

ثم سار من الكوفة نحو معاوية وسار معاوية نحوه فالتقوا بصفّين، فدخلت سنة سبع وثلاثين والجيشان بها، وفي صفر وقع القتال.

فعن حبّه العرني قال: لمّا نزل عليّ عليه السلام بمكان يقال له البلخ على جانب الفرات، نزل راهب من موضعه فقال لعليّ عليه السلام: عندنا كتاب توارثناه من آبائنا كتبه عيسى بن مريم ألا أعرضه عليك؟ قال: نعم، فأخرجه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما كتب، أنّه باعث في الأميين رسولاً منهم يعلّمهم الكتاب والحكمة، ويدلّهم على سبيل الله لا فظّاً ولا غليظاً ولا صخاباً(٢) في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفوا ويصفح، أمته الحامدون لله ينصره الله على كل من ناواه، فإذا توفّاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت، فلبثت بذلك ما شاء الله تعالى ثم اختلفت ثم يمر رجل من أمّته بشاطئ الفرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضي بالحق، الدنيا أهون عليه من الرماد في يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمأ، يخاف الله في السرّ وينصح له في العلانية، لا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبيّ من أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوان الله والجنّة، ومن أدرك العبد الصالح فلينصره فإنّ القتل معه شهادة، فقال الراهب: وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله وأنا صاحبك لا أُفارقك حتى يصبني ما أصابك، فبكى عليّ عليه السلام فقال: الحمد الله الذي لم يجعلني عنده منسياً، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار فمضى الراهب معه حتى أصيب بصفين فصلّى عليه ودفنه

---

(١) رواه الحنفي في مناقبه: ١٣٠، وسبط ابن الجوزي في تذكرته: ٤٨.

(٢) الصخاب: الشديد الصياح.

واستغفر له مرارا[1].

وعن صعصعة بن صوحان قال: لمّا عقد عليّ بن أبي طالب الألويّة لأجل حرب صفين أخرج لواء رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم ير ذلك اللواء منذ قبض رسول الله فعقده علي، ودعا قيس بن سعد بن عبادة فدفعه إليه واجتمعت الأنصار وأهل بدر، فلمّا نظروا إلىٰ لواء رسول الله بكوا، فأنشأ قيس بن سعد بن عبادة يقول:

هذا اللواء الذي كنا نحف به دون النبي وجبريل لنا مدد

ما ضرّ من كانت الأنصار عيبته ان لا يكون له من غيرهم عضد

وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خرج ذات يوم في درع رسول الله صلى الله عليه وآله وفوقه خفتان أخضر وهو متقلد بسيف رسول الله وعليه حجفته، وبيده قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله الممشوق، وسلّم عليه القوم فأقبل على الأشتر فقال: يا مالك معي راية لم يخرجها[2] إلّا يومي هذا وهي أوّل راية أخرجها النبي وقد قال لي عند وفاته: يا أبا الحسن إنّك لتحارب الناكثين والقاسطين والمارقين وأيّ تعب ونصب يصبك من أهل الشام فاصبر على ما أصابك أنّ الله مع الصابرين، وأخرج الراية وقد عفت وبليت، وبكى الناس لما رأوها وبكى علي عليه السلام وقبّلها من وجد إليها سبيلاً. وقال علي عليه السلام: لقنبر أخرج رمح محمّد صلى الله عليه وآله الملموس بيده وسيصير لابني الحسن ولا يستعمله وسينكسر بيد ابني الحسين عليه السلام، ولقد أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بأخبار كثيرة واعلم أنّ الدنيا دنيّة خلقت للفناء والخير يكون خير الآخرة فإنّها خلقت للبقاء[3].

وكان أهل الشام قد سبقوا إلىٰ مشرعة الفرات ومنعوا أصحاب علي عليه السلام الماء، وكان عليّ وأصحابه يشربون من ماء آسن حتى فشى فيهم السقم، وكان علي عليه السلام يداري أهل الشام ويلاطفهم ولا يبدؤهم بالقتال ويحتج عليهم مرّة بعد أُخرى، وهم مصرّون على منعهم الماء فأرسل علي عليه السلام إلىٰ معاوية بن عبدالله بن بديل الخزاعي ـ الذي فتح أصفهان في أيام عمر وفتح الري في أيام عثمان ـ وقال له: قل لمعاوية يقول لك علي: لو سبقك إلىٰ الماء لما منعك، وإنّ منعك الماء محرم عليك، فدع أصحاب النبي يشربون ويسقون إلىٰ أن ننظر ما يؤول أمرنا، فإنّ القتال شديد الابتداء به في الشهر الحرام ـ وكان ذلك شهر المحرم الحرام ـ فلمّا أتاه عبدالله وكلّمه أصرّ وقال له: قل له يدفع إلي قتلة عثمان أقتلهم به. فقال له عبدالله: أتظن يا معاوية أنّ عليّاً قد عجز عن أخذ

---

(١) المناقب المرتضوية، للمولى محمّد صالح الكشفي الحنفي: ٢١٥.

(٢) في المناقب (أخرجها).

(٣) المناقب: للموفق الخوارزمي: ٢٤٨.

الماء؟ ولكنّه يحتج عليك. ثم قال له:

معاوي قد كنت رخو الخناق فألقحت حرباً يضيق الخناقا
تشيب النواهد قبل المشيب متى ما تذقها تذم الذواقا
فان تكن الشام قد أصفقت عليك ابن هند فان العراقا
أجاب عليا إلىٰ دعوة تعز الهدى وتذل النفاقا
فنحن فوارس يوم الزبير وطلحة إذا بدت الحرب ساقا
ودارت رحاها علىٰ قطبها ودارت كؤوس المنايا دهاقا
خضبنا الرّماح وبيض السيوف وكان النزال وكان اعتناقا
فأنتم صباح غدا مثلهم فبزل الجمالَ تبذ الحقاقا

وانصرف عبدالله إلىٰ عليّ عليه السلام وأخبره، فبعث بجماعة من الأنصار وغيرهم إلىٰ معاوية ليحتجّوا عليه، فأتوه وكلّموه في الماء وبالغوا في ذلك، وقالوا: يا معاوية جد به تفضلاً قبل أن نأخذه كرها. قال: غداً يأتيكم رسول فيما يبدو لي، فانصرفوا. فقال معاوية لقومه: ما تقولون في هذا؟ فقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأبو الأعور، وحبيب بن مسلمة، وبسر بن أرطاة اقتلهم عطشا ولا ترحمهم كما لم يرحموا عثمان. وقال سليل الشاعر:

اسمع اليوم ما يقول سليل ان قولي قول له تأويل
امنع الماء من أصحاب علي لا يذوقوه والذليل ذليل

فقال عمرو بن العاص: ويحكم أترون عليّاً يموت عطشاً ومعه أطراف الأسنة وأفاعي العراق وعامّة المهاجرين والأنصار، والله ليطيرن قحاف الرؤوس عن جماجمها قبل ذلك فحل بين القوم وبين الماء، وأرض بالموادعة أيّها الرجل إلىٰ انسلاخ المحرم ولا تعجل إلىٰ الشرّ فإنّ مطعمه وخيم غير لذيذ، فأبى وقال: هذا أوّل الظفر، فلا سقى الله أبا سفيان من حوض النبي صلى الله عليه وآله إن شربوا منه قطرة إلّا أن يغلبوني، فقام إلىٰ معاوية رجل من أهل الشام من رؤساء الأزد يقال له فياض بن حارث الأزدي فقال: يا معاوية والله ما أنصفت القوم، ولو كان هؤلاء من الروم والترك يطلبون الماء وجب أن تسقيهم ثم تحاربهم، فكيف وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله البدريون والمهاجرون والأنصار وأبناؤهم، وفيهم ابن عم رسول الله، وأخوه وصاحب سرّه وحبيبه، أفلا تتقي الله يا معاوية؟ أما والله لو سبقوكم إلىٰ الماء لسقوكم منه، وهذا والله أوّل الجور منكم، وكان هذا الرجل صديقاً لعمرو بن العاص، فأغلظ له معاوية. وقال لعمرو: اكفني صديقك وأتاه عمرو فأغلظ له، فانصرف الرجل وهو يقول:

لعمرو أبى معاوية بن حرب وعمرو ما لدائهما دواء

سوى طعن يحار العقل منه وضرب حين تختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند طوال الدهر ما أوفى حراء
فقد ذهب العتاب فلا عتاب وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر على عمرو وصاحبه العفاء
أتحمون الفرات على أناس وفي أيديهم الأسل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد كأن القوم عندكم نساء
فلا لله درك يا بن هند لقد ذهب الحياء فلا حياء
أترجوا أن يجاوركم علي بلا ماء وللأحزاب ماء
دعاهم دعوة فأجاب قوم كجرب الإبل خالطها الهناء

ثم سرى في سواد الليل فلحق بعلي، فأخبره بما قال لمعاوية.

فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين قربة من ماء بثلاثة دراهم، فاذن لي في القتال والحرب، فأذن لهم في ذلك. فخرج ليلاً فسمع النجاشي يقول:

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الحجف[1]
وفينا علي له صولة إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن الذين غداة الزبير وطلحة خضنا غمار التلف
فما للحجاز وما للعراق سوى اليوم يوم فصكوا[2] الهدف
فاما نحل بشط الفرات ومنا ومنهم عليه الجيف
وإما نموت على طاعة نحل الجنان ونعلوا الشرف

وانتبه الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين نموت عطشاً ومعنا سيوفنا ورماحنا؟ والله لا أرجع حتى أرد الفرات، فمرّ الأشتر، فموعدنا الصبح وأنشأ يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ولا امر بغير نصح دبوا إلى القوم بطعن سمح
مثل العزالى[3] وضرب نفح حسبي من الاقدام قاب رمحي

وأصبح القوم واضعين سيوفهم على عواتقهم، فوقع القتال في ذلك اليوم، وكان من شهر صفر

---

(١) الحجف: جمع حجفة وهي الترس من جلود الإبل، يطارق بعضها ببعض مقاييس اللغة.

(٢) الصك: الضرب.

(٣) العزالى: جمع عزلاء بالفتح وهي فم المزادة، شبه بها اتساع الطعنة واندفاق الدماء.

سنة سبع وثلاثين فانهزم أبو الأعور وأصحابه وكانوا ثمانية عشر ألفاً من أهل الشام يحمون الفرات وقال لهم الأشتر:

نسير إليكم بالقبائل والقنا | وان كان فيما بيننا شرف القتل
فلا يرجع الله الذي كان بيننا | ولا زال بالبغضا مرحلكم تغلى
فدونكها حربا عوانا ملحة | عزيزكم عندي أذل من النعل

وقتل منهم الأشتر بيده سبعة رجال أوّلهم صالح العكي وكان مشهورا بشدة البأس. ووجّه أبو الأعور إلىٰ معاوية رسولاً بخبر الماء فأرسل إليه عمرو بن العاص مدداً ومعه ثلاثة آلاف فارس وكان عمرو قد لبس فوق درعه خفتانا[1] أحمر وهو شاهر سيفه فقال له الأشتر: ويلك يا بن العاص أهرب إلى الصياص! ثم حمل عليه فانهزم عمرو وحمل الأشعث بن قيس بمن معه على عسكر أبي الأعور فانهزموا بعد حرب شديد وقتل ذريع، ونزلت مقدمة عليّ على مشرعة الفرات وأخبر عليّاً الأشعث بذلك فنهض مع عسكره ونزل عند مقدّمته، فقال معاوية لعمرو بن العاص: وما ظنّك بعليّ! أيمنعنا الماء؟ فقال: إنّه لا يستحل منك ما استحللته منه، وأنشأ عمرو يقول:

أمرتك أمرا فسخفته | وخالفني ابن أبي سرحة[2]
فكيف رأيت كباش العراق | ألم ينطحوا جمعنا نطحه
أظن لها اليوم ما بعدها | وميعاد ما بيننا صبحه
فان نطحونا غدا مثلها | نكن كالزبير أو طلحة
وان أخروها إلى مثلها | فقد قدموا الخبط والنفحة[3]
وقد شرب القوم ماء الفرات | وقلدك الأشعث الفضحة

ثم أنّ معاوية أرسل إلى علي عليه السلام اثنى عشر رجلاً في طلب الماء فأتوه وخرج إليهم وعليه رداء رسول الله صلى الله عليه وآله ونصب له كرسيّ فجلس عليه، ثم تكلّم من الشاميين حوشب، فقال: يا أبا الحسن ملكت فاسمح، وجد علينا بالماء، واعف عمّا سلف من معاوية، وقال رجل من الشاميين - اسمه مقاتل بن زيد العكي -: يا أمير المؤمنين وإمام المسلمين وابن عم رسول رب العالمين، إنّ معاوية يعتل بدم عثمان، والله ما يطلب إلّا الملك والسلطان، والله يعلم أنّي أحبّك وإن كنت من أهل الشام، والله لا أرجع إلى معاوية بل أخدمك وأكون أوّل مبارز عسى أقتل بين يديك، فإنّ القتل في طاعتك

---

(١) خفتان: ضرب من الثياب - فارسية.

(٢) يريد به عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقد تصرف في الاسم للشعر.

(٣) النفحة: الدفعة من العذاب.

شهادة. فحمد الله أمير المؤمنين وأثنى عليه وذكر النبيّ فصلّى عليه ثم قال: معاشر الناس أنا أخو رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّه ووارث علمه، أنا الذي عمّي سيّد الشهداء وأخي يطير مع الملائكة حيث يشاء، أنا صاحب الدعوات، أنا صاحب النقمات، أنا سيد الوصيين وأمير المؤمنين، وحبل الله المتين، والكهف الحصين، والعروة الوثقى لا انفصام، لها والله سميع عليم. قولوا لمعاوية ليشرب وليسق دوابه لا يمنعه مانع ولا يحول بينه وبين الماء حائل ومكّنهم من الماء. ووقعت الحرب بينهم أياماً معدودة بسبب دم عثمان والملك والسلطان.

وفي اليوم العاشر من حرب صفّين اقتتل الناس قتالاً شديداً، حتى عانق الرجال الرجال، وانهزمت طائفة من أصحاب عليّ عليه السلام وركض الأشتر ليستردّهم، وأقبل أمير المؤمنين ومعه الحسن والحسين، ومحمّد بن الحنفيّة، وعبدالله بن جعفر الطيّار، وأخوه لأمّه محمّد بن أبي بكر، حتّى صاروا إلى رايات معاوية والنبل تقع عليهم، فقال له ابنه محمّد بن الحنيفة: يا أبت لو بادرت إلى هذه الرايات التي لنا فإنّ فيها بقيّة لنا والنبل كما ترى، فقال: يا بني إنّ لأبيك يوماً لن يعدوه، ثم صاح بصوت عال جهر لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات ربيعة، قال: بل هي رايات الله! عصم الله أهلها وثبّت أقدامهم، وكانوا في الميسرة، فمال إليه فشاروا إليه، وقالوا: هذا أمير المؤمنين قد صار إلينا والله إن أُصيب فينا إنّه لعار الأبدّ، فقال للحصين بن المنذر وهو شاب من ربيعة: يابن أخي ألا تدني رايتك هذه ذراعاً، فقال: أدنيها والله عشرة أذرع فأدنيتها، فقال: حسبك مكانك ثم أنشأ الحصين بن منذر يقول:

لمن راية حمراء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حصين تقدما
فيدنو بها في الصف حتى يديرها ... حمام المنايا يقطر الموت والدما
تراه إذا ما كان يوم عظيمة ... أبي فيه إلّا عزة وتكرما
جزى الله قوما صابروا في لقائه ... لدى البأس حرا ما أعف وأكرما
وأحزم صبرا حين يدعى إلى الوغى ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعني إنهم خير نجدة ... وبأس إذا لاقوا خميسا عرمرما
ونادت جذام يا آل مذحج ويحكم ... جزى الله شرا أينا كان أظلما
أما تتقون الله في حرماتكم ... وما قرب الرحمن منا وعظما
أذقنا ابن هند طعننا وضرابنا ... بأسيافنا حتى تلوى وأحجما

وردّ الناس مع الأشتر وهم يعتذرون، واقتتلوا قتالاً شديداً فطحطحوا أهل الشام إلى أن حجز بينهم الليل.

وفي اليوم السادس والعشرين من حرب صفّين، قتل عمار بن ياسر العبسي المدحجي صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت راية عليّ بيده، وأبو الهيثم بن التيهان نقيب رسول الله صلى الله عليه وآله.

في اليوم السابع والعشرين من حرب صفّين نادى أمير المؤمنين هل من معين؟ فقال: اثنا عشر ألفاً نموت بين يديك، وكسروا جفون سيوفهم، مناديهم وهو ينشد ويقول:

دبوا دبيب النمل لا تفوتوا وأصبحوا بحربكم وبيتوا

حتى تنالوا الثار أو تموتوا

حمل الأشتر وهو يقول:

أبعد عمار وبعد هاشم وأبن بديل فارس الملاحم

نرجوا البقاء ظل حكم الحاكم لقد عضضنا أمس بالأباهم!

فاليوم لا نقرع سن النادم

وكان قبل قتل عمّار قد قتل هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، وعبدالله بن بديل الخزاعي، فخرق الصفوف وحمل الرؤساء على الرؤساء، واضطرب الناس وأشتد القتال ولم يسمع إلّا وقع الحديد على الحديد والهام، حتى حجز بينهم الليل.

وفي اليوم السابع والثلاثين من حرب صفّين دعا أمير المؤمنين غلامه قنبراً، وقال له: سر إلى الميمنة وقل لعبدالله بن جعفر الطيّار، ولابني محمّد إذا أنا حملت فليحملا معي، وقال لكميل بن زياد: قل لسليمان بن صرد الخزاعي، وهو أُذن على الميسرة إذا حملت فاحمل معي، ثم تقدم وانتظر الناس حملته ومعه الأشتر ومحمّد بن أبي بكر وغيرهما، وزحف الناس بعضهم إلى بعض وارتموا بالنبل حتى فنيت، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسّرت، ثم تضاربوا بالسيوف وعمد الحديد واشتد القتال حتى جرت الدماء جري الماء في النهر، وانهزم عرب اليمن وكان وقع الحديد على الحديد أشد هولاً من الصواعق والجبال حين تنهدم، وانكشفت الشمس وثار الغبار وظلّت الألوية والرايات، ووصلوا النهار بالليل وهي ليلة الهرير، تشبيهاً لها بليلة القادسية التي كانت بين عمر والمجوس في أيّامه، وأصبح أهل العراق والمعركة خلف أظهرهم، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل وشتموا معاوية وأهل الشام، وقال علي عليه السلام: أما أنّ فيهم خيراً، وما كلّهم يرضى بفعل معاوية، فعودوا ألسنتكم ذكر الله، واستكثروا من لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

روي أنّه حكي للرشيد أنّ الأبطال بصفّين جثّوا على الركب، وكسفت الشمس، وثار الغبار، واظلمت الدنيا، وظلّت الألوية، وفقدت الرايات، فمرّت مواقيت الصلاة لا يسجد فيها إلّا تكبيراً، ولا يسمع إلّا وقع الحديد على الهام، حتى تكادموا بالأفواه، ونادى القوم يا معشر العرب الله الله في الحرمات من النساء والبنات، فغشي على الرشيد حتى رشّ عليه الماء، وأفاق وقد أصفرّ لونه

ودموعه تنحدر على لحيته[١].

وكانت وقعت صفّين تسعين وقعة، قتل فيها من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، منهم عمار بن ياسر، وأبو الهيثم بن التيهان نقيب رسول الله، وهاشم ابن عتبة بن أبي وقّاص، وعبدالله بن بديل الخزاعي، وأويس القرني زاهد زمانه.

وكانت الوقعة الكبرى ليلة الجمعة، استمر القتال فيها إلى الصبح، كبر عليّ عليه السلام أربعمائة تكبيرة وقيل خمسمائة، وكان لا يكبّر حتى يقتل رجلاً، ولمّا عجز معاوية رفع المصاحف على الرماح وقال: بيننا كتاب الله، فاختلف عليّ عليه السلام على طائفة من أصحابه سمّوا بعد ذلك الخوارج، فكفّ علي عليه السلام عن القتال وكتب بينهما مقاضاة إلى شهر رمضان.

والحكمان فيها من جهة عليّ أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص، وسار عليّ إلى العراق، واعتزلت عنه المعتزلة من الخوارج.

ثم بعث إلى الموعد أربعمائة، فيهم أبو موسى الأشعري، وبعث معاوية أربعمائة فيهم عمرو بن العاص فالتقوا بدومة الجندل[٢]، فغدر عمرو أبا موسى واتفقا على خلع عليّ ومعاوية، ويولّي الناس من يختارونه، فتشهّد أبو موسى وقال: يا أيّها الناس إنّا لم نر الأصلح لهذه الأمة إلّا أن نخلع عليّاً ومعاوية وإنّي قد خلعتهما وجلس، فقام عمرو وتشهّد وقال: قد سمعتم ما قال صاحبي، وإنّي قرّرت خلع عليّ عليه السلام وأثبتّ معاوية فإنّه وليّ عثمان والطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن قُتِلَ مُظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾[٣]، فقال أبو موسى: مالك لا وفّقك الله، غدرت والله، إنّ مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فقال له عمرو بن العاص: والله وأنت مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، فبادر من أصحاب عليّ الحصين بن المنذر إلى أبو موسى بعصى فضربه بها، ثم ندم وقال: ياليتها كانت السيف، فقام إليه عبدالله بن عمر وضربه وفرّق بينهما. ولحق أبو موسى الأشعري بمكّة حياءً من الناس.

ومن ذلك الوقت أخذ عليّ في الضعف، ومعاوية في القوّة. وقيل لابن عباس ما صنع علياً أن يجعلك مع عمرو في التحكيم، فقال: حاجز العذر ومحنة الابتلاء، فوالله لو كنت معه لجلست في مدارج أنفاسه ناقضاً ما أبرم ومبرماً ما نقض والآخرة خير لأمير المؤمنين[٤].

---

(١) المناقب للموفق الخوارزمي: ٢٤٥.

(٢) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة، [معجم البلدان ٢: ٤٨٧].

(٣) سورة الإسراء: ٣٣.

(٤) ابن أبي الحديد: ٢٤٧/٣.

ولمّا عاد عليّ عليه السلام من صفّين إلى الكوفة، اعتزلت عنه المعتزلة من خاصة أصحابه في أربعة آلاف وهم العبّاد والنسّاك فخرجوا من الكوفة وخالفوا علياً، وقالوا: لا حكم إلّا لله ولا طاعة لمن عصى الله، وانحاز إليهم ثمانية آلاف ممن يرى رأيهم فصاروا اثنى عشر ألفاً، فساروا إلى أن نزلوا بحروراء وأمّروا عليهم عبدالله الكوى!

فدعا عليّ عبدالله بن عبّاس، فأرسله إليهم فلم يرتدعوا، وقالوا: ليخرج إلينا عليّ بنفسه لنسمع كلامه عسى أن يزول ما بأنفسنا إذا سمعناه.

فرجع ابن عبّاس وأخبره فركب في جماعة ومضوا إليهم فركب ابن الكوى في جماعة فرافعه، فقال له عليّ: يابن الكوى إنّ الكلام كثير فأبرز إليّ من أصحابك لأكلمك، فقال: وأنا آمن من سيفك؟ فقال: نعم، فخرج إليهم في عشرة من أصحابه، فقال له: عن الحرب مع معاوية، وذكر له رفع المصاحف على الرماح، وأمر الحكمين.

وقال: ألم أقل لكم إنّ أهل الشام يخدعونكم بها، فإنّ الحرب قد عضتهم فذروني أناجزهم فأبيتم، وأردت أن أنصّب ابن عمي عبدالله بن عبّاس حكما! وقلت: إنّه لا يخدع فأبيتم إلّا أبا موسى الأشعري، وقلتم: رضينا به حكماً فأجبتكم كارهاً، ولو وجدت في ذلك الوقت أعواناً غيركم لما أجبتكم! وشرطت على الحكمين بحضوركم أن يحكما بما أنزل الله في كتابه من فاتحته إلى خاتمته والسنة الجامعة، فإنّهما إن لم يفعلا فلا طاعة لهما عليّ، كان ذلك أو لم يكن؟

قال ابن الكوى: صدقت قد كان هذا كلّه، فلم لا ترجع الآن إلى محاربة القوم؟

فقال: حتى تنقضي المدة التي بيننا وبينهم.

قال: وأنت مجمع على ذلك؟

قال: نعم لا يسعني غيره.

فعاد ابن الكوى والعشرة الذين معه إلى أصحاب عليّ راجعين عن دين الخوارج.

وتفرّق الباقون ويقولون: لا حكم إلّا لله، وأمّر عليهم عبدالله بن وهب الراسبي[1]، وحرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية، وعسكروا بالنهروان.

وخرج عليّ عليه السلام فسار حتى بقي على فرسخين منهم، وكاتبهم وراسلهم فلم يرتدعوا.

فأركب إليهم ابن عباس، وقال له: سلهم ما الذي نقموا؟ وأنا أرفدك فلا تخف منهم، فلمّا جاءهم ابن عباس قال لهم: مالذي نقمتم من أمير المؤمنين؟ قالوا: نقمنا أشياء لو كان حاضراً لكفّرناه بها. وعليّ وراءه يسمع ذلك، فقال: أيّها الناس أنا علي بن أبي طالب، فتكلّموا بما نقمتم عليّ.

---

(١) في النسخة الخطية (الراسين) وما اثبتناه هو الصحيح.

قالوا: نقمنا عليك أولاً: أنّا قاتلنا معك بالبصرة فلمّا أظفرك الله بهم أبحتنا في عسكرهم، ومنعتنا النساء والذرية، فكيف حل لنا ما في العسكر ولم تحل لنا النساء والذرية؟

فقال: إنّ أهل البصرة قاتلونا وبدأونا بالقتال، فلمّا ظفرتم أقتسمتم سلب من قاتلكم ومنعتكم النساء والذرية، فإنّ النساء لم يقاتلن، والذرية ولدوا على الفطرة ولم ينكثوا ولا ذنب لهم، ولقد رأيت رسول الله ﷺ منّ على المشركين فلا تعجبوا أن مننت على المسلمين، فلم تسب نساؤهم ولا ذريّتهم.

وقال لهم ابن عباس: أفتسبّون أمّكم عائشة؟ والله إن قلتم ليست بأمّنا! لقد خرجتم من الإسلام وأنتم بين ضلالتين، إنّ الله عزّ وجل قال: **﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾**[1].

فقالت: طائفة منهم لا تخاصموا قريشاً فإنّ الله عزّ وجل قال: **﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾**[2]، وقال الباقون لعليّ: نقمنا عليك يوم صفّين كونك مَحوت اسمك من إمرة المؤمنين، فإذا لم تكن أميرنا فلا نطيعك ولست أميراً لنا.

فقال: يا هؤلاء إنّما اقتديت برسول الله ﷺ حين صالح أبا سفيان وسهل بن عمرو لمّا محا اسمه من الرسالة يوم الحديبيّة.

قالوا: فإنّا نقمنا عليك إنّك قلت للحكمين انظروا في كتاب الله، فإن كنت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة، فإذا كنت شاكّاً في نفسك فنحن فيك أشك.

فقال: إنّما أردت بذلك النصفة، فإنّي لو قلت أحكما لي وذرا معاوية؛ لم يرض معاوية ولم يقبل، ولو قال النبي ﷺ لنصارى نجران لمّا قدموا عليه تعالوا نبتهل وأجعل لعنة الله عليكم لم يرضوا، ولكن أنصفهم من نفسه، بقول الله تعالى: **﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ﴾**[3]، فكذلك قلت أنا ولم أعلم بما أراد عمرو بن العاص من خدعة أبي موسى.

قالوا: فإنّا نقمنا عليك إنّك حكمت حكمان في حق هو لك.

فقال: إنّ رسول الله حكّم سعد بن معاذ في بني قريضة ولو شاء لم يفعل، وأنا اقتديت به فهل بقي عندكم شيء؟ فسكتوا فصاح جماعة منهم من كل ناحية التوبة التوبة يا أمير المؤمنين وستأمن إليه ثمانية آلاف، وبقي على حرب أربعة آلاف، فطلب المستأمنون الاعتزال عنه في ذلك الوقت

---

(١) سورة الأحزاب: ٦.

(٢) سورة الزخرف: ٥٨.

(٣) سورة آل عمران: ٦١.

فاجابهم، وتقدم بأصحابه حتى دنا منهم.

وتقدم عبدالله بن وهب وذو الثدية حرقوص وقالا ما نريد بقتالك إلّا وجه الله والدار الآخرة.

فقال عليّ عليه السلام: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[١].

ثم التحم القتال بين الفريقين واستعرت الحرب بلظاها، وأسفرت عن زرقة صبحها، وحمرة ضحاها، فحمل فارس من الخوارج يقال له الأخنس الطائي وكان شهد صفين مع أمير المؤمنين وشق الصفوف يطلب عليّاً، فبدره عليّ فضربه ففلق البيضة ورأسه، فحمل به فرسه وألقاه في آخر المعركة في جرف دالية على شط النهروان، وخرج من بعده ابن عمّه مالك بن الوضّاح وحمل على عليّ فضربه عليّ فقتله، وتقدّم عبدالله بن وهب الراسبي فصاح يابن أبي طالب والله لا نبرح من هذه المعركة أو تأتي على أنفسنا أو نأتي على نفسك، فابرز إليّ وأبرز إليك وذر الناس جانباً، فلمّا سمع كلامه تبسّم وقال: قاتله الله من رجل ما أقل حياءه، أمّا إنّه ليعلم أنّي حليف السيف وخدين الرمح، ولكنّه قد يئس من الحياة، وإنّه ليطمع طمعا كاذباً ـ يعني بالشهادة والجنّة ـ ثم حمل عليه فضربه فقتله، واختلطوا فلم يكن إلّا ساعة حتى قتلوا بأجمعهم، وكانوا أربعة آلاف ما انفك منهم إلّا تسعة أنفس، رجلان هربا إلى خراسان إلى أرض سجستان وبهما نسلهما، ورجلان صارا إلى بلاد عمان وبها نسلهما، ورجلان صارا إلى اليمن بها نسلهما وهما الأباضيّة، ورجلان صارا إلى بلاد الجزيرة إلى موضع يعرف بالسن والبوازيج[٢] على شاطئ الفرات، وصار آخر إلى تل موزن[٣].

وغنم أصحاب عليّ غنائم كثيرة وقتل منهم تسعة بعدد من سلم من الخوارج وهي من جملة كرامات عليّ عليه السلام[٤]، فإنّه قال: «نقتلهم ولا يقتل منّا عشرة ولا يسلم منهم عشرة»[٥].

وروي أنّه لمّا رجع من وقعة الخوارج اجتاز بالزوراء فقال: ما هذه الأرض؟ قيل أرض نجرا[٦]،

---

(١) سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) السن: بكسر أوله وتشديد نونه، مدينة على دجلة فوق تكريت، [معجم البلدان: ٣: ٢٦٨].

البوازيج: بعد الزاي ياء ساكنة وجيم، بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل، [معجم البلدان ١: ٥٠٣].

(٣) في النسخة الخطية (موزون)، وما اثبتناه من المصدر.

تل موزن: بلد في العراق بين رأس عين وسروج. [معجم البلدان ٢: ٤٥].

(٤) انظر الكامل في التاريخ: ٣٤٥/٣، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول صلى الله عليه وآله لمحمّد بن طلحة الشافعي: ٢٣٢، كشف الغمة لابن أبي الفتوح الاربلي: ٢٧١/١.

(٥) الفتوح لابن أعثم ٢٧٣/٢ ـ ٢٧٥، الملل والنحل للشهرستاني ١١٧/١.

(٦) في مخطوطة مكتبة السيّد المرعشي (محرورا)، وما اثبتناه من نسخة مشهد (استان رضوي) وهو الموافق

فقال: أرض سباخ، فجنّبوا ويمّنوا ولمّا أتى يمين الواد إذا هو براهب في صومعة له، فقال: يا راهب أنزل هاهنا؟ فقال له الراهب: لا تنزل بجيشك هذه الأرض، قال: ولم؟ قال: لأنّه لا ينزلها إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ يقاتل في سبيل الله، هكذا نجد في كتبنا، فقال له: فأنا وصيّ سيّد الأنبياء وسيد الأوصياء، فقال له الراهب: فأنت إذاً أصلع قريش وصيّ محمّد، فقال: أنا ذلك، فنزل الراهب إليه فقال: خذ على شرائع الإسلام إنّي وجدت في الإنجيل نعتك وأنّك تنزل أرض براثا بيت مريم وأرض عيسىٰ، فقال: قف ولا تخبرنا بشيء، ثم أتى موضعاً، فقال: الكنوا هذا ولكنّه برجله فانبجست عين خرارة[١]، فقال: هذه عين مريم التي أنبعت لها، ثم قال: اكشفوا هاهنا على سبعة عشر ذراعاً، فكشف وإذا بصخرة بيضاء، فقال عليّ: هذه الصخرة وضعت مريم عيسى من عاتقها، وصلّت هاهنا، فنصب الصخرة [وصلّى][٢] إليها، وأقام هناك أربعة أيام يتم الصلاة، ثم قال: أرض براثا هذا بيت مريم، هذا الموضع المقدّس صلّى فيه الأنبياء، وصلّى فيه إبراهيم الخليل عليه السلام[٣].

ورجع بجيشه إلى الكوفة وردّت له الشمس حتى صلّى القرب بالقرب من الفرات، على ما روي في الفقيه عن جويرية بن مسهر[٤].

وقيل له بعد رجوعه من النهروان: لم لا حاربت أبا بكر وعمر وعثمان كما حاربت طلحة والزبير ومعاوية؟ فقال: إنّي كنت لم أزل مظلوماً مستأثراً على حقّي، فقال إليه الأشعث بن قيس: فقال يا أمير المؤمنين لم لا تضرب بسيفك وتطلب بحقّك؟ فقال: إنّ لي أسوة بستة من الأنبياء، أوّلهم نوح حيث قال: **﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾**[٥]، وثانيهم إبراهيم حيث قال: **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾**[٦]، وثالثهم لوط حيث قال: **﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾**[٧]،

- لما في البحار والخرائج والجرائح للراوندي.

ونجر ـ نجرا: اصابه النجر أي العطش الشديد. وهي أرض نجرا: أي يابسة لا ماء فيها.

(١) من خرا الماء: أسمع صوته فهو خرار.

(٢) بين المعقوفين اثبتناه من مستدرك الوسائل للميرزا النوري: ٤٣٠/٣.

(٣) كشف الغمة لابن أبي الفتوح الإربلي ٢٠/٢.

(٤) الارشاد للمفيد: ١٨١ ـ ١٨٣، من لا يحضره الفقيه: ٢٠٤/١، الصواعق المحرقة: ١٢٨، تاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام علي: ٢٨٣/٢ ـ ٣٠٦، المناقب للخوارزمي: ٣٠٦، ينابيع المودة للقندوزي: ١٣٨ ـ ١٣٩، وقعة صفين: ١٥١ ـ ١٥٢، الطبعة الأولى بالقاهرة.

(٥) سورة القمر: ١٠.

(٦) سورة مريم: ٤٨.

(٧) سورة هود: ٨٠.

ورابعهم موسىٰ حيث قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[١]، وخامسهم هارون حيث قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾[٢]، وسادسهم أخي محمّد سيد البشر ذهب إلى الغار ونوّمني على فراشه، فإن قال قائل: إنّهم قالوا ذلك وفعلوا ذلك لغير خوف فقد كفروا، لا فالوصي أعذر فغدره أصحابه ما عدا الأشعث بن قيس[٣].

وفي سنة ثمان وثلاثين جهز معاوية عمرو بن العاص إلى مصر ليقاتل محمّد بن أبي بكر فأرسل إليه عليّ ينجده بالأشتر فسقوه في الطريق عسلاً مسموماً فمات، وأخذ عمرو مصر وهرب محمّد بن أبي بكر وقتله معاوية بن حديج وأحرقه في جوف حمار، وبث معاوية سراياه على عمّال عليّ، وجعل كل منهما يقنت على الآخر ويدعوا عليه.

وفي سنة تسع وثلاثين سارع أصحاب عليّ وأصحاب معاوية في إقامة الحجّ بمكّة، فمشى في الصلح أبو سعيد الخدري حتى أقام الموسم شيبة بن عثمان الحجبي.

فقالت الخوارج: إنّ علياً ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمّة، فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى حقّه، فقال رجل من أشجع: والله ما عمرو بن العاص بدونهما وإنّه لأصل هذا الفساد، فاجتمع بمكّة ثلاثة من الخوارج وهم عبدالرحمن بن ملجم المرادي، وعمرو بن أبي بكر التميمي، والحجاج بن عبدالله الصريمي ـ ويعرف بالبرك ـ، فذكروا أمر النّاس وعابوا على ولاتهم وتأسّفوا على أهل النهروان، وقالوا: ما نصنع بالحياة بعدهم؟ وهم إخواننا الذين كانوا دعاة النّاس لعبادة ربّهم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم العباد، فقال عبدالرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم عليّاً، وقال الحجاج بن عبدالله: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن أبي بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص، واستصحبوا سيوفاً مسمومة، وتواعدوا لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين، تقرّباً إلى الله تعالى بقتلهم على زعمهم في ليلة القدر، فخرج كل واحد منهم إلى ناحية صاحبه، فأتى ابن ملجم إلى الكوفة وتزوّج إمرأة من الخوارج يقال لها قطام بنت عمرو من ـ تيم الرباب ـ، فشرطت عليه في صداقها ثلاثة آلاف درهم، وعبداً وقينة، وأن يقتل عليّاً، وفي ذلك قال ابن ملجم أو الفرزدق:

فلم أر مهرا ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وقتل عليّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ... ولا فتك إلّا دون فتك ابن ملجم

---

(١) سورة الشعراء: ٢١.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٠.

(٣) مستدرك الوسائل للميرزا النوري: ٧٣/١١.

وقال رجل آخر:

فلا غرو للأشراف قد عبثت بها ذئاب الأعادي من فصيح وأعجم

فحربة وحشي سقت حمزة الردّى وقتل علي من حسام ابن ملجم

وكان ابن ملجم أشقى الأمّة كما قال ابن عبدون:

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن وأمكنت من حسين راحتي شمر

سمّاه بأشقاها لقول رسول الله ﷺ: يا علي أشقاها الذي يخضب هذه من هذه، وأشار إلى لحية عليّ ورأسه(١).

ويروى أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا عليّ ألا أخبرك بأشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة، قال: أخبرني يا رسول الله، قال: عاقر ناقة ثمود، وخاضب لحيتك من دم رأسك»(٢).

ويقال: أنّه قال له: «يا علي أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: خاضب لحيتك بدم رأسك»(٣).

ويقال أنّه قال له: «يا علي أتدري من أشقى الأولين؟ قال الله ورسوله أعلم، قال: عاقر ناقة صالح».

وكان عليّ كل ما رأى عبدالرحمن بن ملجم أنشد شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي في قيس ابن مكشوح المرادي.

أريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مرادي

فكان يقال: قد عرفت ما يريد فلا تقتله، فيقول: كيف أقتل قاتلي وينشد:

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت إذا احل بواديك

وكان ابن ملجم يسمع عليّاً يخطب فقال لهم: والله لأريحنّ منك فلمّا انصرف إلى بيته أتى بعبدالرحمن ملبباً إليه، فقال لهم: ما تريدون به؟ فخبّروه بما سمعوا منه، فقال: ما قتلني بعد خلّوا عنه.

فلمّا كانت الليلة المذكورة، وثبت الحجاج بن عبدالله على معاوية وضربه؛ فجاءت الضربة في

---

(١) نهاية الإرب ١٩٣/٥ و٣٣٩/١٨ طبع القاهرة، تلخيص المستدرك للذهبي ـ المطبوع بذيل المستدرك ـ ١١٣/٣.

(٢) عقد الفريد للحافظ بن عبد ربه الأندلسي ٢١٠/٢.

(٣) العقد الفريد ٢٩٨/٢.

أليته فسلم، فأمسك الحجاج فقال لمعاوية: اطلقني وأبشّرك أنّ علياً قتل، قال فلعله سلم وقتله.

وأمّا عمرو بن العاص فإنّه كان قد شكا تلك الليلة من بطنه، فأخرج عامل شرطته خارجة ليصلّي بالنّاس عوضه، فوثب عليه عمرو بن أبي بكر فقتل خارجة، وأخذ وأدخل به على عمرو بن العاص، فسمعهم يخاطبونه بالأمرة، فقال: أو ما قتلت عمرو؟ فقيل له: إنّما قتلت خارجة، فقال: أردت عمرواً وأراد الله خارجة، كما قال ابن عبدون:

فليتها إذ فدت عمرا بخارجة فدت عليا بما شاءت من البشر

وأمّا عبدالرحمن بن ملجم فإنّه خرج في تلك الليلة ومعه شبيب الأشجعي، وكان قد واطأه على قتل عليّ، فوقفا على باب مسجد الكوفة مما يلي باب كندة الذي منه يدخل على المسجد، وكان عليه السلام يخرج منه مغلساً[1] فيوقظ النّاس للصلاة، فذكر أنّه لم ينم تلك الليلة التي ضرب في صُبيحتها، وإنّه لم يزل يمشي من باب الحجرة إلى باب الدار، ويقول والله ماكذبت ولاكذّبت وإنّها الليلة التي وعدت. ولمّا خرج من داره على عادته صرخ بط كان للصبيان فصاح به بعض من في الدار، فقال عليّ عليه السلام: ويحك دعهن فإنّهن نوائح.

فلمّا أراد الدخول إلى المسجد ضربه شبيب فأخطأه وأصاب الباب، وضربه ابن ملجم على وسط رأسه، وقال: الحكم لله لا لك يا عليّ ولا لأصحابك، فقال علي عليه السلام: «فزت وربّ الكعبة»، شأنكم بالرجل فاجتمع النّاس فحمل عليهم ابن ملجم فأفرجوا له، فتلقاه المغيرة بن نوفل بن عبدالمطلب، فرمى عليه قطيفة كانت عنده واحتمله وضرب به الأرض وقعد على صدره.

وتأخّر عليّ عليه السلام ودفع في ظهر جعدة بن أبي لهب المخزومي فصلّى بالناس الغداة.

فأخذ ابن ملجم فأدخل به على عليّ عليه السلام، فقال له: أي عدوا الله ألم أحسن إليك؟ قال بلى، قال: فما حملك على هذا؟ فقال: إنّ سيفي هذا شحذته ـ السم ـ أربعين صباحاً، وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه، فقال له: فلا أراك مقتولاً به، ولا أراك إلّا من شرّ خلق الله، ثم قال: النفس بالنفس إن أعش فالأمر إليّ، وإن أمت فالأمر إليكم، ونهى عن المثلة فقال: يا بني عبدالمطلب لا ألقيكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون: قتل أمير المؤمنين، لا يقتل بي إلّا قاتلي، انظر يا حسن! إن أنا متّ من ضربتي هذه فاضربه ضربة، ولا تمثل بالرجل فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

ثم أقام يومين فدخل عليه حبيب بن عمرو فحلّ عن جراحته، فقال: يا أمير المؤمنين ما جرحك هذا بشيء، وما بك من بأس، فقال: يا حبيب، أنا والله مفارقكم الساعة، فبكا وبكت أم

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح.

كلثوم وكانت قاعدة عنده، فقال: يا بنيّة لا تبكين فوالله لو رأيتي ما يرى أبوك ما بكيت، فقال حبيب: وما الذي تراه يا أمير المؤمنين؟ قال: يا حبيب أرى ملائكة السماوات بعضهم في أثر بعض وقوفاً يتلقّوني، وهذا محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله جالس عندي يقول أقدم فإنّ أمامك خير لك ممّا أنت فيه[١].

فسمع ابن ملجم الونّة من الدار، فقال له من حضر: أي عدو الله إنّه لا بأس على أمير المؤمنين والله مخزيك! قال: فعلى من تبكي أم كلثوم؟ أعَلَيَّ ما تبكي؟! والله لقد اشتريت سيفي بألف، وما زلت أعرضه على الناس فما يعيبه أحد إلّا صلّحت ذلك العيب، ولقد سقيته السمّ حتّى لفظه، ولقد ضربته ضربة لو قسمت على من بالمشرق والمغرب لأتت عليهم[٢].

ودعا عليّاً حسناً وحسيناً وقال: «أوصيكما بتقوىٰ الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على سرورٍ زوي عنكما، وقولا الحق وارحما اليتيم، واصنعا للآخرة، وأعملا بما في كتاب الله فلا تأخذكما في الله لومة لائم، ثم نظر إلى ابنه محمّد بن الحنفية، فقال: حفظت ما أوصيت به إخوتك؟ قال: نعم، قال فإنّي أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخوتك بعظم حقهما عليك، ولا تؤثر أمراً دونهما، ثم قال: يا بنيّ أوصيكم بتقوى الله في الغيب، والشهادة وكلمة الحق في الرضى والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل على الصديق والعدو، يا بنيّ ما شرّ بعده الجنّة بشرّ، ولا خير بعده النّار بخير، وكل نعيم دون الجنّة حقير، وكل بلاء دون النّار عافية، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنا الشكر، يا بني! لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعزّ من التقوى، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، ثم لم ينطق إلّا بلا إله إلّا الله، حتى قبض يوم الجمعة أو الاثنين حادي وعشرين رمضان سنة أربعين من الهجرة، وعمره ثلاثة وستون سنة، مدة خلافته خمس سنين إلّا ثلاثة أشهر.

وأختلف في موضع قبره والأصح أنّه حيث يزار اليوم في النجف الأشرف، وقيل دفن بمسجد الكوفة، وقيل بقصر إمارتها، وقيل حمل إلى المدينة ودفن عند فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخفى قبره خوفاً أن ينبشه معاوية.

وأحضر ابن ملجم فقطع عبدالله بن جعفر الطيّار يديه ورجليه، وأحرق بالنّار وعليه غضب الجبّار.

ووكّل الله به طائراً يقتله كل يوم قتلة على ما رواه الخوارزمي في مناقبه عن أبي القاسم الحسن ابن محمّد المعروف بابن الرفا، قال: كنت بالمسجد الحرام فرأيت الناس مجتمعين حول مقام

---

(١) الامالي: ٣٩٧.

(٢) كشف الغمة للإربلي: ٢/٥٨، تاريخ الطبري ٢/١٥٧، كفاية الطالب: ٣٨.

إبراهيم، وقلت ما هذا؟ فقال: راهب أسلم فأشرفت عليه فإذا بشيخ كبير عليه جبّة صوف وقلنسوة صوف، عظيم الخلق وهو قاعد بحذاء مقام إبراهيم، فسمعته يقول: كنت قاعداً في صومعتي فأشرفت منها فإذا طائر كالنسر قد وقع على صخرة على شاطئ البحر، فتقيأ فرمى بربع إنسان، ثم طار فتفقدته فعاد ثلاث مرات، في كل مرة يتقيأ بربع إنسان، فدنت الأرباع فقام رجل وأنا أتعجّب منه، حتى أنحدر الطير وضربه وأخذ ربعه وطار، ثم رجع ثلاث مرات في كلّ مرة يأخذ منه ربعه، فبقيت أتفكّر وأتحسّر ألا أكون سألته من هو؟ فبقيت أتفقد الصخرة حتى رأيت الطير قد أقبل وتقيأ بربع إنسان، فنزلت فقمت بإزائه فلم أزل حتى جاء الربع الرابع، ثم طار فالتأم رجلاً وقام قائماً، فدنوت منه وسألته من أنت؟ فسكت، فقلت: بحق من خلقك من أنت؟ فقال: عبدالرحمن بن ملجم، فقلت: ما فعلت حتى تكون على هذه الصفة، فقال: قتلت عليّ بن أبي طالب، فوكّل بي هذا الطائر يقتلني كل يوم قتلة، فهو يخبرني والطير انقضّ فأخذ ربعه، وطار فسألت عن عليّ بن أبي طالب، فقال: هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّه، فأسلمت[1].

وحكى أبو بكر بن الأصبغ، قال: قدم علينا شيخ شديد البياض، يقال له ابن الماء فذكر أنّه كان نصرانياً سنين، وإنّه كان يتعبّد في صومعة، إذ جاء طائر كالنسر أو كالكركي، فوقف عند الصومعة فتقيأ بضعة لحم، ثم نقرها فالتأمت رجلاً، ثم نقرها فعادت مضغة، ثم بلعها فطار، ثم جاء في اليوم الثاني ففعل مثل ذلك، ثم جاء في اليوم الثالث فلمّا التأمت رجلاً، قال له: سألتك بالله من أنت؟ فقال: أنا عبدالرحمن بن ملجم قاتل عليّ بن أبي طالب، وكلّ الله بي هذا الطائر يفعل بي ما تراه إلى يوم القيامة.

وكان علي عليه السلام شديد الأدمة، حسن الوجه، معتدل القامة، كبير اللحية، عظيم البطن، ولد له أربعة عشر ولداً ذكوراً، وبناتاً كثيرة من فاطمة: الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، ولم يعقب من أولاده سوى الحسن والحسين ومحمّد بن خولة بنت جعفر الحنفيّة، والعبّاس من أم البنين بنت حزام الكلابية، وعمر من الصّهباء بنت ربيعة، عمّر هذا سبعين سنة وحاز نصف ميراث عليّ عليه السلام، وجعفر ومحمّد وأبو بكر من أم العبّاس، قتلوا مع الحسين عليه السلام.

وفضائل عليّ عليه السلام ومناقبه كثيرة شهيرة ذكرها الخاص والعام، حتى قال أحمد بن حنبل: لم يصح في فضل أحد من الصحابة ما صحّ في فضل عليّ كرّم الله وجهه[2]، وإذا ذكروه قالوا: كرم الله

---

(١) المناقب للخوارزمي: ٣٨٩.

(٢) روض المناظر ٤٠، ترجمة أمير المؤمنين.

وجهه لأنه لم يسجد لصنم وإذا ذكروا غيره من الصحابة قالوا رضي الله عنه لأنه سجد لصنم والإسلام يجبّ ما قبله[١].

وقال الأشعث بن قيس: دخلت على عليّ عليه السلام وقد أثر فيه صبره على العبادة، فقلت له: إلى متى تصبر على مكائدة هذه الشدة فأنشد.

أصبر على مضض الأدلاج في السحر — وفي الرواح على الطاعات والبكر
إني رأيت وفي الأيام تجربة — للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلّ من جد في شيء يؤمله — واستصحب الصبر إلّا فاز بالظفر

ولمّا بلغ معاوية خبر وفات علي عليه السلام استرجع وبكى، فقالت له زوجته: أنت اليوم تسترجع وتبكي عليه؟ فقال: ما علمت ما ذهب من علمه وفضله وسابقته، وكذلك قيل:

ومليحة شهدت لها ضراتها — والفضل ما شهدت به الأعداء

وخرج معاوية إلى مجلسه وأنشد:

قل للأرانب تربع حيث سلكت — وللضباع بلا خوف ولا حذر

فأشعر بعض خواصه عمرو بن العاص أو غيره، وقال: كان الأسد الباسط يديه بالعراق لاقى شعوبه ومدحه وأنق واثنى عليه.

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية فقال له: يا أحنف كيف حبّك لعليّ؟ فقال: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقة إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد، وعلى عفوه إذا قدر، إن رضي لا يخرجه رضاه إلى الظلم، وإذا غضب لا يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له، فقال يا أحنف والله ما ذكرت يوم صفين إلّا كانت حزازة في قلبي إلى الممات، فقال: يا معاوية والله إنّ القلوب التي بغضناك بها لفي صدورنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، ولئن دنوت من الحرب لندنوا منك شرّاً.

ودخل ضرار بن مرة الليثي على معاوية فقال له: صف لي علياً، قال أو تعفني من ذلك؟ قال: لا أعفك، فقال: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، ينفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفّه، ويخاطب نفسه، ويناجي ربّه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكنّا مع دنوّه منّا وقربنا منه لا نكلمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن مثل اللولؤ المنظوم،

(١) كفاية الطالب للكنجي: ٢٢٥.

يعظّم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا [ييأس][١] الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، يقول: يا دنيا إليّ تعرّضتي، أم إليّ تشوّقتي، هيهات هيهات لا حان حينك[٢]، غرّي غيري لا حاجة لي فيكِ، قد نفيتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك يسير، وأملكِ حقير، آه آه من قلّة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، وعظم المورد فوكفت دموع معاوية على لحيته، فنشّفها بكمّه واختنق القوم بالبكاء، ثم قال معاوية: كان والله أبو الحسن كذلك، ثم قال: فكيف كان حبّك إيّاه؟ قال: كحب أم موسى لموسى واعتذر إلى الله من التقصير، قال: فكيف صبرك عنه يا ضرار؟ قال: صبر من ذبح واحدها على صدرها، فلا ترقئ[٣] في عبرتها ولا تسكن حرارتها، ثم قام ضرار وخرج وهو باك فقال معاوية لأصحابه: أما أنّكم لو فقدتموني لما كان فيكم من يثني عليّ مثل هذا الثناء. قال عمرو بن العاص: الصاحب على قدر صاحبه[٤]، يعني لو كان فيك مثل صفاته لقلنا أعظم من قوله.

فصل
في أيام الحسن عليه السلام

وكنيته أبو محمّد، لقبه الزكي، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الثلاثاء، شهر ولادته نصف رمضان، سنة ولادته ثلاث من الهجرة، ملك وقت ولادته يزدجرد، اسم أُمّه فاطمة، نقش خاتمه العزّة لله، عدد أزواجه أربع وستون عدا السراري، عدد أولاده خمسة عشر، مدة عمره ثمان وأربعون، يوم وفاته الخميس، شهر وفاته سابع صفر، سنة وفاته خمسين من الهجرة، مكان وفاته المدينة، سبب وفاته سمّته جعدة، مكان قبره البقيع، ملك [وقت] وفاته معاوية، اسم بوابه سفينة.

ذكر أنّه عليه السلام خطب صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبيّ فصلّى عليه، ثم قال: لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون، ولم يدركه الآخرون، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجّهه برايته فلا

---

(١) أضفناها من المصدر.

(٢) لا حان حينك: لا جاء وقت وصولك.

(٣) رقأ الدمع رقاء: جف وسكن.

(٤) عدة الداعي لابن فهد الحلي: ١٩٥.

يرجع حتى يفتح الله على يديه. ولقد توفّي في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، وفيها قبض يوشع بن نون. وما خلّف صفراً ولا بيضاً إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله، ثم خنقته العبرة.

فقام عبدالله بن عباس بين يديه، فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيّكم، ووصيّ إمامكم فبايعوه، فتبادر النّاس إلى بيعته، فبايعهم على حرب من حارب، وسلم لمن سالم.

فرتّب العمال وأمّر الأمراء، وأنفذ عبدالله بن العباس إلى البصرة، ونظر في الأمور.

فلمّا بلغ معاوية موت عليّ وبيعة الحسن، أنفذ رجلاً من حمير إلى الكوفة، وآخر من بني القين إلى البصرة، ليطلعاه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور وقلوب الناس، فعرف بهما وأمر بقتلهما.

وكتب إلى معاوية: أمّا بعد فإنّك دسست الرجال للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون، وشمت بما لم يشمت به ذوو الحجى، وإنّما مثلك في ذلك كما قال الأوّل:

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تجهز الأخرى مثلها فكأن قد

فإنا ومن قد مات منا لكالذي ... يروح فيمسي في المبيت ليغتدي

فسار معاوية في جيوشه نحو العراق، وسار الحسن في ربيع الآخر سنة أحدى وأربعين في جيوشه إلى قصد معاوية، فنزل ساباط دون القنطرة وبات هناك، فرأى في عسكره إختلافاً.

فلمّا أصبح أراد أن يمتحن أصحابه ويستبرئ أحوالهم في طاعته، ليميّز أوليائه من أعدائه، ويكون على بصيرة من لقاء معاوية، فأمر أن ينادى في الناس في الصلاة جامعة فاجتمعوا، فصعد المنبر وخطبهم، ثم قال: «أمّا بعد فوالله إنّي لأرجوا أن أكون قد أصبحت ـ بحمد الله ـ ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه، وما أصبحت محتملاً على امرء مسلم ضغينة، ولا مريداً له لسوء ولا غائلة ألا، وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، وإنّي ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري، ولا تردّوا عليّ رأيي غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإيّاكم لما فيه المحبة والرضا[1].

فنظر الناس بعضهم إلى بعض، وقالوا: ما ترونه يريد بما قال؟ قالوا: نظن إنّه يصالح معاوية ويسلّم الأمر إليه، فقالوا: كفر والله الرجل، فأتوا إلى فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته، ثم شدّ عليه عبدالرحمن بن عبدالله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه[2] عن عاتقه، فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء.

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٦٣.

(٢) المطرف: رداء من خز. الصحاح ـ طرف ـ ٤: ١٣٩٤.

ثم دعا بفرس فركبه، وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته ومنعوا منه من أراده، ودعا ربيعة وهمدان فأطافوا به ومنعوه، فسار ومعه شوب من غيرهم، فلمّا مرّ في مظلم ساباط، بدر إليه رجل من بني أسد اسمه الجرّاح بن سنان، وأخذ بلجام فرسه وبيده مغول[1]، وقال: الله أكبر أشركت ـ يا حسن ـ كما أشرك أبوك من قبل، وطعنه في فخذه فشقّه حتى بلغ العظم، فاعتنقه الحسن وخرّا معاً إلى الأرض، فأكبّ على سنان رجل من شيعة الحسن فقتله بمعوله، وقتل شخصاً آخر كان معه.

وحمل الحسن على سرير إلى المدائن، وكان بها سعد بن مسعود الثقفي عامل عليّ، فأقرّه الحسن على ذلك، واشتغل بمعالجة جرحه.

وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة سرّاً، واستحثوه على سرعة المسير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إليه عند دنوّه من عسكره أو الفتك به، وبلغ ذلك الحسن وورد عليه كتاب قيس بن سعد بن عبادة، وكان قد أنفذه مع عبيدالله بن العباس عند مسيره من الكوفة ليلقى معاوية فيردّه عن العراق، وجعله أميراً على الجماعة، وقال: إذا أصيب فالأمير قيس ابن سعد ـ يخبره أنّهم نازلوا معاوية بإزاء مسكن ـ، وأنّ معاوية أرسل إلى عبيدالله بن العباس يرغّبه في المسير إليه، ويضمن له ألف ألف درهم، يعجّل له منها النصف ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة، فانسلّ عبيدالله ليلاً إلى معاوية ومعه خاصته وأصبح النّاس بغير إمام، فصلّى بهم قيس ونظر في أمورهم، فازدادت بصيرة الحسن بخذلانهم له وفساد نيّاتهم فيه، وما أظهروا من سبّه وتكفيره واستحلال دمه ونهب أمواله، ولم يبق معه من تأمن غوائله إلّا خاصّة من شيعته، لا يقومون بحرب أهل الشام.

فكتب إلى معاوية في الصلح فأنفذ إليه كتب أصحابه التي ضمنوا له فيها الفتك به أو تسليمه إليه، فتوثّق الحسن لنفسه من معاوية.

وصالحه وترك له الخلافة على أن لا يسب عليّاً، ويرجع عن القنوت عليه في الصلاة، ويؤمّن شيعته ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حق حقّه، ويعطيه ما ببيت المال بالكوفة وخراج دار الحرب.

وكتب له بذلك كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه الحسن بن عليّ معاوية بن أبي سفيان، على أن يسلّم إليه ولاية أمر المسلمين، على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لا يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورىٰ بين المسلمين، وعلى أنّ النّاس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وحجازهم

(١) المغول: سيف دقيق له قفا يكون غمده كالسوط الصحاح ـ غول ـ ٥: ١٧٨٦.

ويمنهم، وعلى أنّ أصحاب عليّ عليه السلام وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، وبما أعطى الله من نفسه، وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحد منهم في أفق من الآفاق، شهد عليه بذلك فلان وفلان وكفى بالله شهيداً.

فلمّا تمّ الصلح وانبرم الأمر، التمس معاوية من الحسن أن يتكلم بمجمع من الناس ويعلّمهم أنّه قد بايع معاوية وسلّم الأمر إليه. فخطب وقد حشد الناس ثم قال: «أيّها الناس إنّ أكيس الكيّس التقي وأحمق الحمق الفجور، وإنّكم لو طلبتم بين جابلقا وجابرسا رجلاً جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ما وجدتموه غيري وغير أخي الحسين، وقد علمتم أنّ الله هداكم بجدي محمّد صلى الله عليه وآله فأنقذكم به من الضلالة، ودفعكم به عن الجهالة، فأعزكّم به من الذلّة، وكثّركم به بعد القلّة، وأنّ معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرت لصلاح الأمّة وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه، وقد باعيته، ورأيت أنّ حقن الدماء خير من سفكها؛ ولم أرد بذلك إلّا صلاحكم وبقاءكم، وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين.

وقيل: أنّه عوتب على ذلك، فقال: أخترت ثلاثاً على ثلاث، الجماعة على الفرقة، وحقن الدماء على سفكها، والعار على النّار.

وأنّه قال لأخيه الحسين: يا أخي أنّ أباك أستشرف لهذا الأمر فصرفه الله عنه، ووليها أبو بكر، ثم استشرف لها فصرفت عنه إلى عمر، ثم لا يشك وقت الشورى أنّها إلى عثمان، فلمّا قتل عثمان بويع ثم نوزع حتى جرّد السيف فما صفت له، وإنّي والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوّة والخلافة فلا يستخفّنّك سفهاء أهل الكوفة فيخرجوك.

فلمّا استتمت الهدنة سار معاوية حتى نزل بالنخيلة، وكان يوم الجمعة فصلّى بالناس ضحى النهار، وخطبهم فقال في خطبته: إنّي والله ما أقاتلكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، وإنّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا أنّني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي، لا أفي له بشيء مما عاهدته عليه، غير أنّه أجرى عليه في السنة ألف ألف درهم وتمثّل مرّة فقال:

وتجلدي للشامتين أريهم   اني لريب الدهر لا أتضعضع

وأجابه الحسن:

وإذا المنية انشبت مخلابها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

ثم سار معاوية ونزل الكوفة فأقام بها أياماً، فلمّا استتمت بيعته صعد المنبر فخطب الناس، وذكر أمير المؤمنين والحسن ونال منهما، فأراد الحسين أن يقوم ويجيبه فأخذ الحسن بيده وأجلسه، وقام فقال: أيّها الذاكر عليّاً أنا الحسن وأبي عليّ، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمّي فاطمة، وأمّك هند، وجدّي رسول الله، وجدّك حرب، وجدّتي خديجة، وجدّتك نثيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، وألأمنا حسباً، وشرّنا قدماً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً، فقال طوائف من أهل المسجد: آمين آمين.

وخرج الحسن عليه السلام إلى المدينة كاظماً غيظه، منتظراً أمر ربّه، لازماً منزله إلى أن تمّ لمعاوية عشر سنين من أمارته. وأراد أخذ البيعة لابنه يزيد، دس إلى زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس من حملها على سمه، وأرسل إليها مائة ألف درهم وضمن تزويجها بابنه يزيد، فسقته السمّ فبقي أربعين يوماً مريضاً، ومضى لسبيله يوم الخميس سابع صفر سنة خمسين من الهجرة، وعمره يومئذٍ ثمان وأربعون سنة.

وكانت خلافته ستة أشهر، وتولّى أخوه الحسين غسله وتكفينه، ودفنه عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف أم أبيه، وكان أوصى أن يدفن عند جدّه رسول الله فمنعت من ذلك عائشة، وقيل: أوصى أن يدفن عند جدّته وأن يحمل إلى قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ليجدد به عهدا، فلم يشكّ مروان بن الحكم أمير المدينة ومن معه من بني أميّة أنّه سيدفنونه عند جده، فلبسوا السلاح وأقبلوا ومعهم عائشة على بغل، وهي تقول مالي ولكم؛ تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحبّه. وجعل مروان يقول: يا رب هيجا هي خير من دعة، أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبيّ! لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السلاح[1].

وكادت الفتنة تقع بين بني هاشم وبني أميّة، فبادر عبدالله بن العباس إلى مروان، فقال: أرجع يا مروان من حيث جئت، فإنّا ما نريد دفن صاحبنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنّا نريد أن نجدد به عهداً بزيارته، ثم نرده إلى جدته فاطمة فندفنه بوصيته عندها، ولو كان أوصى بدفنه مع رسول الله لعلمت أنّك أقصر باعاً من ردّنا عن ذلك، ثم أقبل على عائشة وقال لها: واسوأتاه، يوماً على جمل ويوماً على بغل تريدين أن تطفئي نور الله، وتقاتلي أولياءه، أرجعي فقد كفيتي الذي تخافين وبلغت ما تحبّين، والله تعالى مستنصر لأهل هذا البيت ولو بعد حين.

وقال الحسين عليه السلام والله لولا عهد الحسن إليّ بحقن الدماء وأن لا أهرق في أمره محجمة دم، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣/٢٩٠.

عليكم لأنفسنا.

ومضوا بالحسن فدفنوه بالبقيع عند جدّته فاطمة بنت أسد بن هاشم، والعباس بن عبدالمطلب، وذكر أنّ الحسن قال عند موته عند زوجته جعدة ووعد معاوية لها: لقد أصابت شربته وبلغت أمنيته والله لا وفى لها بما وعد، ولا صدق بما قال، فكان كذلك فإنّه كتب إليها معاوية إنّي أحبّ حياة يزيد، وحبّ حياته يمنعني من تزويجه منك ـ خاف عليه أن تسمّه مثل الحسن ـ وفي سمّ الحسن يقول رجل من الشيعة بعد قتل الحسين:

تعرف كم لك من سلوة ... تفرج عنك ومنك الحزن

كموت النبي وخذل الوصي ... وقتل الحسين وسم الحسن

وكان الحسن عليه السلام مطلاقاً تزوج أربعاً وستين إمرأة وطلق أكثرهن، ولعلّه كان يخطر بباله أنّ واحدة منهنّ تسمّه، حتى نفذ المقدّر على يدي جعدة.

وقدم عبدالله بن العباس على معاوية، فلمّا جلس قال له: يابن عباس أهلك الحسن؟! فقال: نعم وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته! أما والله ما سد جسده حفرتك، ولا زاد بنقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به فقد أصبنا بمن كان خيراً منه ـ جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ـ فجبر الله مصيبتنا وخلّف علينا من بعده أحسن الخلافة، ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر المجلس، وبكى معاوية!!

وقال: بلغني أنّه ترك بنين صغاراً، فقال ابن عباس: كلّنا كان صغيراً فكبر، فقال: كم أتى له من العمر، قال: أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده.

وكان زيد بن الحسن أسنّ أخوته، وكان جليل القدر، كثير الطبع، كثير البر، وكان يلي صدقات رسول الله، وفيه يقول محمّد بن بشير الخارجي:

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة[1] ... نفى جدبها وأخضر بالنبت عودها

وزيد وبيع الناس في كل شتوة ... إذا أخلفت ابراقها ورعودها

حمول لأشناق الديات كأنّه ... سراج الدجى قد قارنته سعودها

ومات زيد وعمره تسعون سنة، فرثاه قدامة بن موسى فقال:

فإن يك زيد غالت الأرض شخصه ... فقد بان معروف هناك وجود

وان يك امسى رهن رمس فقد ثوى ... به وهو محمود الفعال فقيد

وليس بقوال إذا حط رحله ... لملتمس المعروف أين تريد

---

(١) التلعة: مسيل ماء من أعلى الأرض إلى باطن الوادى الصحاح ـ تلع ـ ٣: ١١٩٢.

سميع إلى المعتر يعلم أنه ... سيطلبه المعروف ثم يعود
إذا قصر الوغد الدني نما به ... إلى المجد آباء له وجدود
مباذيل للمولى محاشيد للقرى ... وفي الروع عند النائبات أسود
إذا انتحل العز الطريف فإنه ... فلهم إرث مجد ما يرام تليد
إذا مات منهم سيد قام سيد ... كريم يبني بعدهم ويشيد

وكان الحسن بن الحسن جليلاً رئيساً فاضلاً ورعاً، وكان يلي صدقات جدّه أمير المؤمنين، وتزوّج فاطمة بنت عمه الحسين، وكانت تشبه الحور العين بجمالها، فقبض الحسن وله من العمر خمس وثلاثون سنة، فضربت زوجته فاطمة على قبره فسطاطاً، وكانت تقوم الليل وتصوم النهار، فبقيت على ذلك سنة، فلمّا كان رأس السنة قالت لمواليها: إذا أظلم الليل فقوّضوا هذا الفسطاط، فلمّا أظلم الليل وقوّضوه سمعت قائلاً يقول: هل وجدت من فقدوا؟ فأجابه آخر بل يئسوا فانقلبوا.

فصل
في أيام الحسين عليه السلام

وكنيته أبو عبدالله، لقبه الشهيد، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته ثالث شعبان، سنة ولادته أربع من الهجرة، ملك وقت ولادته يزدجرد، اسم أمّه فاطمة، نقش خاتمه أنّ الله بالغ أمره، عدد أزواجه خمس عدا السراري، عدد أولاده ستة أولاد، مدّة عمره سبع وخمسون، يوم وفاته الجمعة أو الاثنين، شهر وفاته عاشر المحرم، سنة وفاته إحدى وستون، مكان وفاته كربلاء، سبب وفاته قتله الشمر، مكان قبره كربلاء، ملك وقت وفاته يزيد، اسم بوابه رشيد الهجري.

وقال ابن طاووس: كان مولد الحسين لخمس ليال خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة.

قالت أم الفضل زوجة العباس: رأيت في منامي قبل مولده كأنّ قُطعةً من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله قُطِعَت فُوضعت في حجري، فعبرت ذلك على رسول الله فقال: خيراً رأيتِ إن صَدّقت رؤياكِ، فإنّ فاطمة ستلد غلاماً فأدفعه إليكِ لترضعيه، قالت: فجرى الأمر على ذلك، فجئت به يوماً إليه فوضعته في حجره، فبال فقطرت من بوله قَطرةً على ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله فقرضته فبكى، فقال النبي صلى الله عليه وآله: مهلاً يا أمّ الفضل فهذا ثوبي يغسل، وقد أوجعت ابني، قالت: فتركته في حجره وقمت لآتيه بماء فجئت فوجدته يبكي، فقلت: مما بُكاؤك يا رسول الله؟ فقال: إنّ جبرئيل أتاني فأخبرني أنّ أُمتي تَقتل وَلَدي هذا!

وعن أمّ سلمة زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله قالت: كان عندي رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي الحسين، فدنا من النبي فأخرته فبكى فتركته، فقال له جبرئيل: أتحبّه يا محمّد؟ قال: نعم، قال: أما إنّ أُمتك ستقتله وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل [فيها](١)، قال نعم، فبسط جناحيه فأراه منها، وبكى النبيّ صلى الله عليه وآله(٢).

قال رواة الحديث: فلمّا أتت على الحسين من مولده سنةٌ كاملةٌ، هبط على رسول الله اثنى عشر ملكاً أحدهم على صورة الأسد، والثاني على صورة الثور، والثالث على صورة التنين(٣)، والرابع على صورة ولد آدم، والثمانية الباقون على صور شيء محمرة وجوههم قد نشروا أجنحتهم، وهم يقولون: يا محمّد ينزل بولدك الحسين بن فاطمة ما نزل بهابيل من قابيل، وسيعطى مثل أجر هابيل، ويحمل على قاتله مثل وزر قابيل، ولم يبق في السماوات ملك إلّا ونزل إلى النبي صلى الله عليه وآله، كل يُقرئه السلام ويعزّيه في الحسين ويخبره بثواب ما يعطى ويعرض عليه تربته، والنبي صلى الله عليه وآله يقول «اللهم اخذل من خذله، واقتل من قَتَلَه، ولا تمتّعه بما طلبه».

فلمّا أتى على الحسين من مولده سنتان، خرج النبي صلى الله عليه وآله في سفرٍ فوقف في بعض الطريق فاسترجع ودمعت عيناه، فسئل عن ذلك فقال: هذا جبرئيل يخبرني عن أرض بشطّ الفرات، يقال لها كربلاء، يقتل بها ولدي الحسين بن فاطمة، فقيل له: من يقتله يا رسول الله؟ فقال: رجل اسمه يزيد، فكأنّي أنظر إلى مصرعه ومدفنه.

ثم رجع من سفره ذلك مغموماً، فصعد المنبر وخطب ووعظ، والحسن والحسين بين يديه، فلمّا فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسن، واليسرى على رأس الحسين عليهما السلام، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: إنّ محمّد عبدك ونبيّك، وهذان أطائب عترتي، وخيار ذرّيتي وأرومتي، ومن أخلفهما في أمّتي، وقد أخبرني جبرئيل أنّ ولدي هذا مقتول مخذول، اللهمّ فبارك له في قتله، واجعله من سادات الشهداء، اللّهمّ لا تبارك في قاتله وخاذله، فضج الناس في المسجد بالبكاء، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أتبكون ولا تنصرونه!؟

ثم رجع صلوات الله عليه وهو متغيّر اللون محمرّ الوجه، فَخطَبَ خطبةً أخرى وعيناه تهملان دموعاً، ثم قال: «يا أيّها الناس إنّي مخلّف فيكم الثقلين، كتاب ربّي وعترتي ومزاج مائي وثمرتي، وإنّهما لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ألا وأنّي أنتظرهما، ألا وأنّي لا أسألكم في ذلك إلّا ما

---

(١) اضفناها من المصدر.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٤/١٩٣.

(٣) التنين: ـ كسكيت ـ الحيّة العظيمة.

أمرني ربّي أن أسألكم أجراً إلّا المودّة في القربى، فانظروا ولا تلقوا عليّ الحوض وقد أبغضتم عترتي وظلمتموهم، ألا أنّه سيرد عليّ يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الأمّة، راية سوداء مظلمة قد فزعت لها الملائكة فتقف عليّ، فأقول لهم: من أنتم؟ فينسون ذكري، فيقولون نحن أهل التوحيد من العرب، فأقول: أنا أحمد نبيّ العرب والعجم، فيقولون نحن من أمتّك يا أحمد، فأقول لهم كيف خلّفتموني من بعدي في أهلي وعترتي وكتاب ربّي، فيقولون: أمّا الكتاب فضيعنا، وأمّا عترتك فحرضنا على أنْ نبيدهم عن جديد الأرض، فأوليّ وجهي عنهم فيصدرون ظماء عطاشا مسودة وجوهم.

ثم ترد عليّ راية أخرى أشدّ سواداً من الأُولى، فأقول لهم: كيف خلّفتموني في الثقلين الأكبر والأصغر كتاب ربّي وعترتي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فخالفنا، وأمّا الأصغر فخذلنا ومزقناهم كل ممزق، فأقول إليكم عنّي فيصدرون ظماء عطاشا مسودة وجوههم.

ثم ترد عليّ راية أخرى تلمع نوراً، فأقول لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل كلمة التوحيد والتقوى، نحن أمّة محمّد، نحن بقيّة أهل الحق، حملنا كتاب ربّنا فأحللنا حلاله، وحرّمنا حرامه، وأحببنا ذرية محمّد، فنصرناهم من كل ما نصرنا منه أنفسنا، وقاتلنا معهم من ناواهم، فأقول لهم: أبشروا فأنّا نبيّكم محمّد، ولقد كنتم في دار الدنيا كما وصفتم، ثم أسقهم من حوضي فيصدرون مرويين.

وعن ابن عباس قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خروجه إلى صفّين، فلمّا نزل بنينوى وهو شطّ الفرات، قال: بأعلى صوته يابن عبّاس تعرف هذا الموضع؟ قلت: ما أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال: لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي، فبكا طويلاً حتى أخضلّت لحيته وسالت الدموع على صدره، فبكينا معه وهو يقول: أوه أوه! مالي ولآل أبي سفيان؟ مالي ولال حرب؟ حزب الشيطان وأولياء الكفر؟! صبراً أبا عبدالله فقد لقى أبوك مثل الذي تلقى منهم، ثم دعا بماء فتوضأ وضوءه للصلاة فصلّى ما شاء الله أن يصلّي، ثم نعس عند انقضاء صلاته وكلامه، فنام ساعة ثم انتبه فقال: يابن عبّاس ألا أحدّثك بما رأيت في منامي آنفا عند رقدتي؟ فقلت: نامت عيناك ورأيت خيراً يا أمير المؤمنين، قال: رأيت كأنّي برجال بيض قد نزلوا من السماء، معهم أعلام بيض قد تقلّدوا سيوفهم وهي بيض تلمع، وقد خطّوا حول هذه الأرض خطّة، ثم رأيت كانت هذه النخيل قد ضربت بأغصانها الأرض تضطرب بدم عبيط، وكأنّي بالحسين سخلي وفرخي ومضغتي ومخي قد غرق فيه، يستغيث ولا يغاث، وكأنّ الرجال البيض قد نزلوا من السماء ينادونه ويقولون: صبراً آل الرسول، فإنّكم تقتلون على أيدي شرار الناس وهذه الجنّة إليكم مشتاقة، ثم يعزّونني

ويقولون: يا أبا الحسن أبشر فقد أقرّ الله عينك يوم يقوم الناس لربّ العالمين، ثم انتبهت هكذا والذي نفس عليّ بيده لقد حدّثني الصادق المصدّق أبو القاسم محمّد، أنّي سأراها في خروجي إلى أهل البغي علينا وهذه أرض كرب وبلاء، يدفن فيها الحسين وسبعة عشر رجلاً من ولدي وولد فاطمة، وأنّها لفي السماوات معروفة تذكر أرض كرب وبلاء كما تذكر بقعة الحرمين وبقعة بيت المقدس.

ثم قال: يا ابن عبّاس اطلب لي حولها بعر الظباء، فوالله ماكذبت ولاكذّبت، وهي مصفرة لونها لون الزعفران، قال ابن عبّاس فطلبتها فوجدتها مجتمعة فناديته يا أمير المؤمنين قد أصبتها على الصفة التي وصفتها لي، فقال: صدق الله ورسوله ثم قام يهرول إليها فحملها وشمّها وقال: هي هي بعينها، أتعلم يابن عباس هذه الأبعار؟ قد شمّها عيسى بن مريم، وذلك أنّه مرّ بها ومعه الحواريون فرأى هاهنا الظباء مجتمعة وهي تبكي فجلس الحواريون فبكوا جميعاً، وهم لا يدرون فقالوا: يا روح الله وكلمته ما يبكيك؟ قال: أتعلمون أي أرض هذه؟ هذه أرض يقتل فيها فرخ الرسول أحمد، وفرخ الحرة الطاهرة البتول، شبيهة أمّي، ويلحد فيها وهي أطيب من المسك لأنّها طينة الفرخ المستشهد، وهكذا تكون طينة الأنبياء وأولاد الأنبياء فهذه الظباء تكلّمني وتقول: إنّها ترعى في هذه الأرض شوقاً إلى تربة الفرخ المبارك، وزعمت أنّها آمنة في هذه الأرض، ثم ضرب بيده إلى هذه الصيران[1] فشمّها، وقال: هذه بعر الظباء على هذا الطيب لمكان حشيشها، اللهمّ فأبقها أبداً حتى يشمّها أبوه، فتكون عزاً وصلاةً، قال: فبقيت إلى يومنا هذا، وقد اصفرت لطول زمانها وهذه أرض كرب وبلاء.

ثم قال بأعلى صوته: يا ربّ عيسى ابن مريم لا تبارك في قاتله والمعين عليه والخاذل له، ثم بكى طويلاً وبكينا معه حتّى سقط لوجهه وغشي عليه طويلاً، ثم أفاق فأخذ البعر فصرها في ردائه وأمرني أن أصرّها كذلك.

ثم قال: يابن عباس إذا رأيتها تنفجر دماً عبيطاً، ويسيل منها دم عبيط، فاعلم أنّ أبا عبدالله قد قتل بها ودفن[2].

قال ابن طاوس: وكان الناس يتعاودون ذكر قتل الحسين ويستعظمونه ويرتقبون قدومه.

---

(١) جمع الصوار ـ ككتاب ـ وهو القطيع من البعر أو المسك، وقال في القاموس: الصور: النخل الصغار. والصيران: المجتمع. والمراد بالصيران هنا المجتمعة من أبعار الظباء.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، وما نزل من القرآن في علي عليه السلام ـ لأبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه الاصفهاني: ٢٠٩، كمال الدين وتمام النعمة ـ الشيخ الصدوق ـ ٥٣٤.

فلمّا توفّي معاوية وذلك في رجب سنة ستين من الهجرة، كتب يزيد بن معاوية إلى ابن عمّه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان أميراً بالمدينة، يأمره بأخذ البيعة على أهلها وخاصة على الحسين، ويقول له: إن أبى عليك فاضرب عنقه، وابعث إليّ برأسه.

فأحضر الوليد مروان بن الحكم، واستشاره في أمر الحسين، فقال: إنّه لا يقبل، ولو كنت مكانك لضربت عنقه، فقال الوليد: ليتني أراك شيئاً مذكوراً.

ثم بعث إلى الحسين فجاءه في ثلاثين رجلاً من أهل بيته ومواليه، فنعى الوليد إليه معاوية وعرض عليه البيعة ليزيد، فقال: أيّها الأمير إنّ البيعة لا تكون سراً ولكن إذا دعوت الناس غداً فادعنا معهم، فقال مروان: لا تقبل أيّها الأمير عذره، ومتى لم يبايع فاضرب عنقه، فغضب الحسين عليه السلام ثم قال: ويلي عليك يابن الزرقاء أنت تأمر بضرب عنقي؟ كذبت والله ولؤمت، ثم أقبل على الوليد، فقال: أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايع لمثله أبداً، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة؟!

ثم خرج وقال مروان للوليد: عصيتني؟ فقال: ويحك يا مروان أشرت عليّ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أحبّ أن أملك الدنيا بأسرها، وإنّي قتلت حسيناً والله ما أظنّ أحداً يلقى الله بدم الحسين إلّا وهو خفيف الميزان، لا ينظر الله إليه يوم القيامة، ولا يزكّيه وله عذاب أليم، فقال مروان له:

يا صاحبي أحسنت إذ ... فكرت في العواقب
فالحكم لا يصلح للمراقب ... فدعه للسهم القوي الخائب

والله ليطولنّ عليك أن تراه في منزلك مرة أخرى، فلمّا كان من الغداة توجّه الحسين إلى مكّة لثلاث مضين من شعبان سنة ستين، فأقام بها باقي شعبان وشهر رمضان وشوال وذي القعدة.

وجاء عبدالله بن العباس، وعبدالله بن الزبير، فأشارا عليه بالإمساك بمكّة، فقال لهما: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمرني بأمر وأنا ماض فيه، فخرج ابن عباس وهو يقول: واحسيناه.

ثمّ جاءه عبدالله بن عمر فأشار عليه بصلح أهل الضلال وحذّره من القتل والقتال، فقال له: يا أبا عبدالرحمن أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله، أنّ رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، أما علمت أنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيّاً، ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون، كأن لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجّل الله عليهم، بل

أمهلهم وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر، واتق الله يا أبا عبدالرحمن ولا تدعن نصرتي[(١)].

وسمع أهل الكوفة بوصول الحسين إلى مكّة وامتناعه من البيعة ليزيد، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، فلمّا تكاملوا قام فيهم خطيباً، وقال: في آخر خطبة، يا معاشر الشيعة إنّكم قد علمتم بأنّ معاوية قد هلك، وصار إلى ربّه وقدم على عمله، وقد قعد في موضعه ابنه يزيد، وهذا الحسين بن [علي][(٢)] قد خالفه وصار إلى مكّة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله، وقد أحتاج إلى نصرتكم اليوم، فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدوا عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرّوا الرجل من نفسه.

فكتبوا إليه كتاباً فيه، بسم الله الرحمن الرحيم إلى الحسين بن علي أمير المؤمنين، من سليمان ابن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجيّة، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وعبدالله بن وائل، وسائر شيعته من المؤمنين، سلام الله عليك.

أمّا بعد فالحمد لله الذي قصم عدوّك وعدوّ أبيك، من قبل الجبّار العنيد الغشوم الظلوم، الذي ابتزّ هذه الأُمة أمرها وغصبها وقامر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها، فبعداً له كما بعدت ثمود، ثم أنّه ليس علينا إمام غيرك، فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن بشير في قصر الأمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا جماعة ولا نخرج معه إلى عيد، ولو بلغنا أنّك قد أقبلت أخرجناه حتى يلحق بالشام والسلام.

وتواترت عليه الكتب منهم حتى أجتمع عنده منها في نوب متفرقة اثنى عشر ألف كتاب، وورد عليه في يوم واحد ستمائة كتاب[(٣)].

فدعا بمسلم بن عقيل وأطلعه على الحال، وكتب معه جواب كتبهم يعدهم بالوصول إليهم، ويقول لهم ما معناه: إنّي قد نفذت إليكم ابن عمّي مسلم بن عقيل، ليعرّفني ما أنتم عليه من الرأي.

فسار مسلم بالكتاب حتى دخل الكوفة، فلمّا وقفوا على كتابه كثر استبشارهم بإيابه، ثم أنزلوه في دار المختار بن أبي عبيد الثقفي، وصارت الشيعة تختلف إليه، حتى بايعه منهم ثلاثون ألفاً.

وكان العامل بالكوفة النعمان بن بشير الأنصاري من قبل يزيد، فقال: يا أهل الكوفة إنّ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، أحبّ إليّ من ابن بنت بجدل ـ يعني يزيد بن معاوية ـ فبلغ ذلك يزيد.

وكتب عبدالله بن مسلم الباهلي، وعمارة بن الوليد، وعمر بن سعد إلى يزيد يخبرونه بأمر مسلم

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٢٢.

(٢) اضفناه من المصدر.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ٢٢.

ابن عقيل، ويشيرون عليه بصرف النعمان بن بشير عن الكوفة وولاية غيره.

فكتب يزيد إلى عبيدالله بن زياد ـ وكان والياً على البصرة ـ بأنّه قد ولّاه الكوفة وضمّها إليه، ويعرّفه أمر مسلم بن عقيل وأمر الحسين، ويشدد عليه في تحصيل مسلم وقتله.

وقال له في الكتاب: إنّي قد نفقت كنانتي على الأرض، فلم أجد فيها سهماً أجرى منك أرم به عدوي.

فسار عبيدالله من البصرة إلى الكوفة، ودخلها ليلاً ومعه ثلاثون رجلاً فظنّ الناس أنّه الحسين، وجعلوا يسلّمون عليه وهو متلثّم ويشير إليهم بالقضيب، إلى أن وصل قصر الإمارة فكشف اللثام. وقال بعض قومه:

تأخروا عن الأمير ساعة وانتظروا وليس هذا ويحكم ما تذكروا

هذا عبيد الله ليس ينكر ذو وشبه كوثبة الثعباني

فتفرقوا عنه فدخل القصر وبات فيه إلى الغداة، واجتمع إليه محبّوه.

ثم خرج فصعد المنبر وخطب وتوعّد أهل الكوفة على معصية السلطان من آل أبي سفيان، ووعدهم مع الطاعة بالإحسان.

وقدكان لمسلم بن عقيل بالكوفة أكثر من ثلاثين ألفاً، فلمّا خرج بهم من دار المختار يريد حرب ابن زياد الغدار، جعلواكلما انتهوا إلى زقاق انسلّ منهم أُناس، وقالوا: ما لنا والدخول بين السلاطين، ما لنا إلّا أن نلزم منازلنا وندع هؤلاء وهؤلاء، حتى يصلح الله ذات بينهم، فبقي مسلم بن عقيل في شرذمة قليلة، فمضى بهم إلى ابن زياد وحصره في القصر أعلاه وتواعدهم وهددهم بجنود الشام، فقلب الناس وفرقهم عن مسلم حتى بقي في عشرة أنفر.

فلمّا رأى ذلك مسلم دخل دار هانئ بن عروة المرادي المدحجي مستجيراً به، وكان لهانئ شرف ورأي، فقال لمسلم: إنّ لي من ابن زياد مكاناً وسأتمارض له، فإذا جاء يعودني فاضرب عنقه، فلمّا جاء ابن زياد ليعوده شرب هانئ المغرة، وقال لمسلم إذا قلت: اسقوني فأخرج إليه واضرب عنقه، ودخل ابن زياد وجعل هانئ يتقيأ فكأنّه يتقيأ الدم، وقال اسقوني، فلم يخرج مسلم فأنشأ هانئ يقول:

ما الإنتظار بسلمى لا تحيوها حيوا سليمئ وحيوا من يحيها

هل شربة عذبة اسقى على ظماء ولو تلفت وكانت منيتي فيها

فإن تخشيت من سلمى مراقبة فليس تسلم يوما من دواهيها

ثم قال: اسقوني ولوكان فيه ذهاب نفسي، فقال ابن زياد: ما شأن الفتى قد أعرض؟ فقيل: هذا شأنه من المرض.

فخرج ابن زياد ولم يصنع مسلم شيئاً! وكان من أشجع الناس ولكن أخذ بقلبه.

وأتى ابن زياد الخبر من عين له ـ اسمه معقل ـ بان مسلم في بيت هانئ، فطلب هانئ فجيء به إليه، فلمّا رآه ابن زياد قال: أتتك بخائن رجلاه، ثم التفت إلى شريح القاضي وكان جالساً عنده، وأنشد بيت عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

أريـد حـياته ويـريد قـتلي غـديرك مـن خـليلك مـن مـرادي

وأشار إلى هانئ وقال: هانئ وما ذاك أيها الأمير؟ فقال: أيه يا هانئ ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين، جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له الرجال والسلاح في الدور حولك، وظننت أنّ ذلك يخفى عليّ؟ فقال: ما فعلت؟ قال: بلى قد فعلت، قال: ما فعلت أصلح الله الأمير، فقال ابن زياد: عليّ بمعقل مولاي ـ وكان معقل عينه على أخبارهم وقد عرف كثيراً من أسرارهم ـ فجاء معقل حتى وقف بين يديه، فلمّا رآه هانئ عرف أنّه كان عيناً عليهم، فقال: أصلح الله الأمير والله ما بعثت إلى مسلم بن عقيل ولا دعوته، ولكن جاءني مستجيراً فاستحيت من ردّه، فخلي سبيلي حتى أرجع إليه فأمره بالخروج من داري، إلى حيث شاء من الأرض لأخرج من ذمامه وجواره، فقال: والله لا تفارقني حتى تأتيني به، قال: والله لا أتيك به، أتيك بضيفي تقتله؟ فقال: والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك، فقال هانئ: إذاً والله تكثر البارقة حول دارك، فقال ابن زياد: والهفاه عليك أبا البارقة تخوّفني، وضربه بالقضيب حتى كسر أنفه، وسيّل الدماء على وجهه وسجنه وعزم على قتله.

وأرسل لمسلم من يسوقه إليه، وكان مسلم قد خرج من دار هانئ إلى عند امرأة من الصيارفة في الحيرة فاستجار بها، فأدخلته بيتها وبات تلك الليلة، وكان لها ولد زنديق أبوه من قواد ابن زياد، سنان بن أنس النخعي أو غيره، فأخذ خبره إلى ابن زياد، فوجّه إليه محمّد بن الأشعث بخيل ورجال، فخرج عليهم مسلم وقاتل حتى أثخن بالجراح وهو ينشد ويقول:

أقسـمت لا اقـتل إلّا حـرا وإن رأيت المـوت شـيئاً نكـرا

أكـره ان أخـدع أو أغـرا واخـلط البـارد سـخنا مـرا

فناداه محمّد بن الأشعث يا مسلم إنّك لا تخدع ولا تغر، أسلم تسلم لك الأمان، فقال: وأي أمان للغدرة الفجرة، فاحتالوا عليه فأخذوه أسيراً إلى ابن زياد، فقال له: يا عاق يا شاق، خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة، فقال مسلم: كذبت يابن زياد! إنّما شق عصا المسلمين [معاوية وابنه يزيد، وأمّا الفتنة فإنّما ألقحها أنت][1]، وأبوك زياد بن عبيد عبد بني علاج

(١) اضفناه من كتاب اللهوف فى قتل الطفوف: ٣٥.

من ثقيف، وأنا أرجوا أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريّته، فقدّمه للقتل، فقال: دعني حتى أوصي، قال: فافعل، فنظر في وجوه القوم، فقال لعمر بن سعد بن أبي وقّاص: ما أرى هاهنا؟ فنظر في وجوه القوم [ما أرى هنا] قرشيّاً غيرك فادن منّي، فدنا منه، فقال: هل لك أن تكون سيّد قريش ما دامت قريش؟ بأن تأتي حسيناً ومن معه، وهم سبعون إنساناً من أهل بيته ما بين رجل وامرأة، فتردّهم من الطريق أو اكتب لهم ما أصابني. ثم ضربت عنقه، فقال عمر بن سعد: لابن زياد، أتدري أيّها الأمير بماذا أوصاني؟ قال: اكتم على ابن عمك، قال: الأمر أكبر من ذلك، فأخبره بما قال له، فقال: قبّحك الله من مستكتم سراً، والله لا يقاتل الحسين سواك، ثم أمر بهانئ فقتل وأُلقي من أعلى القصر، وفي قتل مسلم وهانئ يقول عبدالله بن الزبير الأسدي أو الفرزدق:

فأن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه ... وآخر يهوي من جدار قتيل
أصابهما فرخ البغي فأصبحا ... أحاديث من يسري بكل سبيل
ترى جسدا قد غير الموت لونه ... ونضح دم قد سال كل سبيل
فتى كان أحيى من فتاة حيّية ... وأقطع من ذي شفرتين صقيل
أيركب أسماء الهماليج آمنا ... وقد طالبه مدحج بذحول
تطوف حواليه مراد وكلهم ... على رقبة من سائل ومسئول
فإن أنتم لم تأثروا بأخيكم ... فكونوا بغايا أرضيت بقليل

وكتب عبيدالله بن زياد بخبر مسلم وهانئ إلى يزيد بن معاوية، فأعاد عليه الجواب يشكره على فعاله وسطوته، ويعرّفه أن قد بلغه توجّه الحسين إلى جهته، ويأمره عند ذلك بالمؤاخذة والانتقام والحبس على الظنون والأوهام، فقبض على أكابر الكوفة منهم سليمان بن صرد الخزاعي، والمختار بن أبي عبيدة الثقفي، ونحو من أربعمائة رجل من الأعيان وسجنهم في أسوء حال، وأرهب الناس وربط الطرق.

وكان الحسين عليه السلام قد عزم على التوجّه من مكّة إلى العراق، فأتاه أخوه محمّد بن الحنفية في الليلة التي أراد الخروج صبيحتها، فقال له: يا أخي إنّ أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك حال من مضى، فإن أردت أن تقيم بمكّة فإنّك أعزّ من بالحرم وأمنعهم، فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت، قال: إن خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البرّ، فإنّك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد، وقال له: أنظر فيما قلت.

فلمّا كان من السحر ارتحل إلى العراق، فبلغ ذلك محمّد فأتاه وأخذ بزمام ناقته وقد ركبها، وقال

له: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سئلتك؟ قال: بلى ولكن أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتني، وقال لي: يا حسين اخرج فإنّ الله شاء أن يراك قتيلاً، وقال محمّد: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فما معنى هؤلاء الأطفال وأنت خارج على مثل هذه الحالة؟ فقال: إنّ الله قد شاء أن يريهنّ سبايا، فودّعه ومضى الحسين من مكّة يوم الثلاثاء لثالث أو ثمان مضين من ذي الحجّة سنة ستّين، وهو اليوم الذي قتل فيه مسلم بن عقيل ـ ومعه جموع كثيرة فأتى على عبدالله بن مطيع، فقال له: يا أبا عبدالله إلى أين تريد؟ قال: إلى العراق، قال: لماذا؟ قال مات معاوية وجائني أكثر من حمل جمل كتب من أهل العراق، يدعونني إلى البيعة، قال: لا تفعل يا أبا عبدالله، والله ما حفظوا أباك، وكان خيراً منك، والله لئن قتلت لا تبقى حرمة إلّا انتهكت.

وعن يحيى بن إسماعيل، عن سالم، عن الشعبي، قال: قيل لابن عمر أنّ الحسين قد توجّه إلى العراق، فخرج وراه حتى لحقه ثلاثة مراحل، وكان غائباً عند خروجه، فقال له: أين تريد يا أبا عبدالله؟ قال: أريد العراق، وأخرج إليه كتب القوم، وقال: هذه بيعتهم وكتبهم، فقال له: ناشدتك الله أن ترجع فأبى، فقال: أما إنّي ساحدّثك بحديث ما حدثت به أحداً قبلك، إن جبرئيل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ، فخيّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنّكم بضعة منها، فوالله لا يليها أحد من أهل بيته أبداً، وما صرفها الله عنكم إلّا لما هو خير لكم، فارجع وأنت أعلم بغدر أهل العراق، وما كان يلى أبوك منهم فأبى فاعتنقه، وقال: استودعك الله من قتيل.

وحكى الفرزدق قال: خرجت أريد مكّة وإذا أنا بقباب مضروبة وفساطيط، فقلت: لمن هذه؟ قالوا: للحسين بن علي عليهما السلام، فعدلت إليه وسَلّمتُ عليه، فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من العراق، قال: كيف تركت الناس؟ فقلت له: القلوب معك والسيوف عليك، والنصر في السماء.

ولقيه الواقدي وزاره بن حلج فأخبراه بضعف الناس بالكوفة، وأنّ قلوبهم معه وسيوفهم عليه، فقال: إنّي أعلم علماً يقيناً، إنّ هناك مصرعي ومصارع أصحابي، لا ينجوا منهم إلّا ولدي عليّ.

ثم سار حتى مرّ بالتنعيم، فلقى هناك عيراً تحمل هدية، قد بعث بها بجير بن ريسان عامل اليمن إلى يزيد بن معاوية، فأخذ الهدية وسار حتى بلغ ذات عرق، فلقى بشر بن غالب وارداً من العراق، فسأله عن أهلها، فقال: خلّفت القلوب معك والسيوف مع بني أميّة، قال: صدق أخو بني أسد، إنّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يرد.

ثمّ سار حتى أتى التغلبيّة وقت الظهر، فوضع رأسه فرقد ثم استيقظ، فقال: قد رأيت هاتفاً يقول: أنتم تسيرون والمنايا تسير بكم إلى الجنّة، فقال له ابنه علي: يا أبت أفلسنا على الحق؟ فقال: بلى يا بني، والذي إليه مرجع العباد، فقال: إذاً لا نبالي بالموت، فقال له: جزاك الله يا بني خيراً مما جزى ولداً عن والده.

ثم بات في الموضع فلمّا أصبح فإذا هو برجل من أهل الكوفة، يكنّى أبا هرّة الأزدي، فلمّا أتاه سلّم عليه، ثم قال: يا ابن رسول الله ما الذي أخرجك من حرم الله وحرم جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ويحك يا أبا هرّة إنّ بني أميّة أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسهم الله ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وليسلطنّ عليهم من يذلّهم، حتّى يكونوا أذلّ من قوم سبأ، إذ ملكتهم امرأة منهم فحكمت في أموالهم ودمائهم حتى أذلّتهم.

ثم سار حتى بلغ زبالة، فأتاه فيها خبر مسلم بن عقيل، فعرف بذلك جماعة ممن تبعه فتفرق عنه أهل الأطماع والارتياب، وبقي معه أهله وخيار الأصحاب، وارتجّ الموضع بالبكاء لقتل مسلم ابن عقيل وسالت الدموع كل مسيل، واستعبر الحسين باكياً، ثم قال: رحم الله مسلماً فلقد صار إلى روح الله وريحانه وتحيته ورضوانه، أما أنّه قد قضى ما عليه، وبقي ما علينا.

وهمّ بالرجوع وكان معه من بني عقيل خمسة، فقالوا له: أترجع وقد قتل أخونا؟ وجاءك من الكتب ما تثق به، فقال لباقي أصحابه: ما على هؤلاء من صبر، ثم أنشأ يقول:

فــان تكــن الدنــيا تـعد نـفيسة ... فــإن ثــواب الله أعــلى وأنــبل

وإن تكــن الأبــدان لـلموت أنشئت ... فـقتل إمـرء بـالسيف فـي الله أفـضل

وإن تكـــن الأرزاق قســـما مـــقدرا ... فقلت الحرص المرء في السعي أجمل

وإن تكـــن الأمـــوال للـــترك جـمعها ... فــما بــال مــتروك بــه الحــر يـبخل

وكتب إلى أعيان شيعته بالكوفة كتاباً وبعث به مع قيس بن مسهر الصيداوي، فلمّا قرب دخول الكوفة أعترضه الحصين بن نمير صاحب عبيدالله بن زياد ليفتّشه، فأخرج الكتاب ومزقه فحمله الحصين إلى ابن زياد، فلمّا مثّل بين يديه قال له: من أنت؟ قال: أنا رجل من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وابنه، قال: فلم ذا مزقت الكتاب؟ قال: لئلا تعلم ما فيه، قال ممن الكتاب وإلى من؟ قال: من الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعـرف أسـماءهم، فغضب ابن زياد، فقال: والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر فتلعن الحسين بن علي وأباه وأخاه، وإلّا قطّعتك إرباً إرباً، فقال: أمّا القوم فلا أخبرك بأسمائهم، وأما اللعن فأفعل.

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي صلى الله عليه وآله فصلّى عليه، وأكثر من الترحم على عليّ وولده، ثم لعن عبيدالله بن زياد وأباه، ولعن بني أميّة عن آخرهم، ثم قال: يا أيّها الناس أنا رسول الحسين بن عليّ إليكم، وقد خلّفته بموضع كذا وكذا فأجيبوه.

فأخبر ابن زياد بذلك فأمر بإلقائه من أعلى القصر، فألقي من هناك فمات، فبلغ الحسين موته فاستعبر باكياً.

وندب عبيدالله بن زياد أصحابه إلى قتال الحسين فاتبعوه واستخفّ قومه فأطاعوه، واشترى من عمر بن سعد آخرته بدنياه، ودعاه إلى ولاية الحرب فلبّاه ووعده بملك الري، فقيل له: أبوك كان سادس الإسلام وأنت تبلى الحرب للإمام؟ فأنشأ يقول:

فوالله ما أدري وأني لواقف ... أفكر في أمري على خطرين

أأترك ملك الري والري منيتي ... أم أرجع مأثوما بقتل حسين

حسين بن عمي والحوادث جمة ... وليكن ملك الري قرة عيني

يقولون إن الله خالق جنة ... ونار وتعذيب وغل يدين

فإن صدقوا فيما يقولون أنني ... أتوب إلى الله من سنتين

وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة ... وملك عقيم دائم الحجلين

فلمّا وصل الحسين إلى مكان يقال له سراب على مرحلتين من الكوفة، لاح لهم سواد، فقال بعض: هذا النخل قد بان، وقال آخر: بل هذه الأسنّة، فقال الحسين عليه السلام: اعدلوا بنا إلى بعض الجهات وانزلوا، فعدلوا إلى جبل هناك، ثم نزلوا وإذا به الحر بن يزيد الرياحي، صاحب شرطة عبيدالله بن زياد في ألفي فارس، فقال له الحسين: ألنا أم علينا؟ فقال: بل عليك يا أبا عبدالله، فقال: ما أتيت إلّا بكتبكم فإن رجعتم رجعت، فأبى الحرّ إلّا أن يسير معه، فقال له الحسين: فإذا كنتم على خلاف ما أتتني به كتبكم وقدمت عليّ به رسلكم، فإنّي أرجع إلى الموضع الذي أتيت منه، فمنعه الحر وأصحابه من ذلك، فشتمه الحسين وشتم اُمّه، فقال له الحرّ:

فلو ذكر لي ما ذكرت غيرك ... من ذكر أمي لذكرت أمّكا

عليك منها كنت أكثرت البكاء ... لكنّها ومن إليها المشتكى

ثمّ قال: لا سبيل إلى الرجوع، بل خذ يابن رسول الله طريقاً لا يدخلك إلى الكوفة ولا يوصلك المدينة، لأعتذر إلى ابن زياد بأنّك خالفتني في الطريق، فعدل عن الطريق وصار كلمّا أراد المسير يمنعونه تارة ويسايرونه أخرى حتى وصل إلى عذيب الهجانات.

فورد كتاب عبيدالله بن زياد على الحر بأن تنزل الحسين على غير مسار، فأنزله على كربلاء يوم الخميس ثاني المحرم سنة أحدى وستين، فقال الحسين: ما اسم هذه الأرض؟ فقيل كربلاء، فقال لأصحابه: انزلوا هٰهنا والله محطّ ركابنا، وسفك دمائنا، ومحل قبورنا، وسبي حريمنا، بهذا حدّثني جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزلوا جميعاً ونزل الحر وأصحابه ناحية، وجلس الحسين عليه السلام يصلح

سيفه ويقول:

يا دهر أف لك من خليل	كم لك بالاشراف والأصيل
من طالب وصاحب قتيل	والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل	وكل حي سالك سبيل
ما أقرب الوعد من الرحيل	إلى جنان وإلى مثيل

وقدم ثاني يوم نهار الجمعة من الكوفة عمر بن سعد بأربعة آلاف فارس لحرب الحسين، فقال الحسين لعمر بن سعد: اختر منّي خصلة من ثلاث خصال، إمّا أن تتركني أرجع إلى المدينة، أو أسير إلى يزيد فأضع يدي في يده، أو أسير إلى بعض الثغور أقاتلهم بسيفي حتى أموت.

فكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بذلك فهمّ أن يسيره إلى يزيد بن معاوية، فقال له الشمر ذي الجوشن: أمكنك الله من عدوّك وتتركه الآن؛ مره أن ينزل على حكمك، فأرسل إليه بذلك، فقال: أنا أنزل على حكم ابن مرجانة؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً، وأبطئ عمر بن سعد عن قتاله فأرسل إليه ابن زياد شمراً، وقال له: إن تقدّم عمر بن سعد وقاتل الحسين وقتله أوطئ الخيل جثته وإلّا فاضرب عنقه وكن مكانه، فلمّا بلّغه الرسالة، قال عمر بن سعد: بل أقاتله ونهض إليه عشية الخميس تاسع المحرم، فسألهم المهلة إلى الغد ليصلّي في تلك الليلة فوقف عمر بن سعد، فقال له عمر بن الحجاج الزبيدي: والله لو أنّهم من الترك والديلم وسألوا ذلك لأجبناهم، فكيف وهم آل محمّد؟ فأجابوه إلى ذلك.

فأذن لأصحابه وأهله أن يتفرقوا حيث أرادوا، فقال أخوه العباس: لنبقى بعدك! لا أرانا الله ذلك اليوم، وقال نحو ذلك أخوته، وبنو أخيه الحسن، وبنو عبدالله بن جعفر الطيّار، وبنو عقيل بن أبي طالب، وسائر أصحابه، وكانوا يصلّون الليل كلّه ويدعون على يزيد.

فلمّا أصبح يوم عاشوراء يوم الجمعة ركب عمر بن سعد في الجيش، وثبت الحسين ومن معه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً أو خمسة وأربعون فارساً ومائة راجلاً، وكان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلاً من صلحاء الكوفة، فقالوا له: أيعرض عليك ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله خصلة من ثلاث خصال فلم تقبل منها شيئاً؟ فتحوّلوا مع الحسين.

فركب الحسين ناقته وقيل فرسه فاستنصت القوم فأنصتوا، فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبيّ فصلّى عليه، ثم قال: «تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدّونا وعدوّكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم فهلّا لكم

الويلات، تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لمّا استحصف، وليكن أسرعتم إلينا كطيرة الدبا، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الأثام، ونفثة الشيطان، ومطفئ السنن، أهؤلاء تعضدون وعنّا تتخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت عليكم أُصولكم، وتأزّرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر شجى للناظر، وأكلة للغاصب ألا وأنّ الدعي بن الدعي قد ركزني بين القلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجحور طابت وجحور طهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة مع قلّة العدد، وخذلان الناصر». ثم وصل كلامه بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

فإن نهزم فهزامون قدما — وان نغلب فغير مغلبينا
وما إن طبّنا جبن ولكن — منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع في أناس — كلا كله أناخ بآخرين
فأفنى ذلكم سروات قوم — كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذا خلدنا — ولو بقي الكرام إذا بقينا
فقل للشامتين بنا رويدا — سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم قال: أما والله لا تلبثون بعدها إلّا كريث ما تركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى، وتغلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي ﴿**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَتُنْظِرُونِ**﴾[1]، وإنّي توكّلت على الله ربّي وربّكم ﴿**مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[2]، اللهمّ احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنين يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف، يسومهم كأساً مصبرة، فإنّهم كذّبونا وخذلونا، وأنت ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

فتقدّم عمر بن سعد ورمى نحو عسكر الحسين بسهم، وقال اشهدوا لي عند الأمير أنّي أوّل من رمى، وأقبلت السهام من القوم كأنّها القطر، فقال الحسين لأصحابه: قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لابدّ منه، فإنّ هذه السهام رسل الموت إليكم، فاقتتلوا ساعة حملة وحملة حتى قتل من أصحاب الحسين جماعة، فعندها ضرب الحسين بيده على لحيته، وجعل يقول اشتد غضب الله

(١) سورة يونس: ٧١.

(٢) سورة هود: ٥٦.

على اليهود؛ إذ جعلوا له ولداً، واشتد غضبه على المجوس؛ إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيّهم، أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي مغصوب على حقي، ثم صاح أما من مغيث يغيثنا لوجه الله، أما من ذاب يذب عن حرم الله.

فإذا الحرّ بن يزيد الرياحي قد أقبل على عمر بن سعد، فقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ فقال: إي والله قتالاً أيسره أن تطير الرؤس، وتطيح الأيدي، فمضى الحر ووقف موقفاً من أصحابه، وأخذ مثل الأفكل[1] فقال له المهاجر بن أوس: والله إنّ أمرك لمريب، ولولا قيل إنّك من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟ فقال إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنار، فوالله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو قطّعت وأحرقت، ثم ضرب فرسه قاصداً إلى الحسين عليه السلام ويده على رأسه، وهو يقول: اللهمّ إنّي تبت فتب عليّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيّك، وقال للحسين: جعلت فداك أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع وجعجع بك، والله ما ظننت أنّ القوم يبلغون بك ما أرى، وأنا تائب إلى الله، فهل ترى لي من توبة؟ فقال: نعم يتوب الله عليك، فانزل فقال: أنا لك فارساً خير مني راجلاً، وإلى النزول يؤل آخر أمري فإذاكنت أول من خرج عليك فاذن لي أن أكون الآن أوّل قتيل بين يديك، لعلي أكون ممن يصافح جدّك محمّداً غداً في القيامة، فأذن له، فجعل يقاتل أحسن قتال وهو يقول:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع	فأنت بكأس المـوت لا شك جـارع
وحـام عـن ابـن المـصطفى وحـريمه	لعـلك تـلقى حـصد مـا أنت زارع
لقـد خـاب قـوم خـالفوا الله ربـهم	يـريدون هـدم الديـن والديـن شارع
يـريدون عـمدا قـتل آل مـحمّد	وجـدهم يـوم القـيامة شـافع

ثم حمل على القوم ولم يزل يقاتل حتى قتل جماعة من شجعان وأبطال، فقال عمر بن سعد ويلكم ارشقوه بالنبل، ففعلوا حتى تركوه كالقنفذ وحملوا عليه، فأخذوه أسيراً واحتزوا رأسه، ورموا به إلى الحسين فجعل يمسح التراب عن وجهه، ويقول: ما أخطأت أمّك إذ سمّتك الحرّ، أنت والله حرّ في الدنيا وسعيد في الآخرة، واستغفر له وترحّم عليه وجعل يقول:

فـنعم الحـر حـر بـني ريـاح	صـبور عـند مشـتبك الرّمـاح
ونـعم الحـر إذ نـادى حسـيناً	فـجاد بـنفسه عـند الصـياح

---

(١) الأفكل ـ بفتح الهمزة والكاف ـ الرعدة.

ونـعم الحـرّ فـي وهـج المـنايا إذا الابـطال تـحظر فـي الصّـفاح
لقـد فـازوا الذي نـصروا حسيناً وفـازوا بـالسعادة والفـلاح

وجعل أصحاب الحسين يسارعون إلى القتل بين يديه، وكانوا كما قيل:

قـوم إذا نـودوا لدفـع مـلمة والخـيل بـين مـدعس ومكـردس
لبسوا القلوب على الدروع وأقبلو يـتهافتون عـلى ذهـاب الأنـفس

فلمّا لم يبق معه إلّا أهل بيته، خرج علي بن الحسين الأكبر، وكان من أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً، فاستأذن أباه في القتال فأذن له، ثم نظر إليه نظرة آيس منه، وبكى ثم قال: اللهمّ أشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقدّم عليّ عليه السلام نحو القوم فقاتل قتالاً شديداً وقتل جمعاً كثيراً، ثم رجع إلى أبيه وقال: يا أبي العطش قد قتلني وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل، فبكى الحسين وقال: واغوثاه يا بني من أين أتي بالماء، قاتل قليلاً فما أسرع ما تلقى جدّك محمّد صلى الله عليه وآله، فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها، فرجع إلى موقف النزال وقاتل أعظم القتال، فرماه منقذ بن العبدي بسهم فصرعه، فنادى يا أبتاه عليك السلام هذا جدّي يقرؤك السلام، ويقول لك عجّل القدوم علينا، ثم شهق شهقة فمات، فجاء الحسين عليه السلام حتّى وقف عليه، وقال: قتل الله قوماً قتلوك، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، على الدنيا بعدك العفى.

ثم جعل أهل بيته يخرج منهم الرجل بعد الرجل، حتى قتل القوم منهم جماعة، فصاح الحسين في تلك الحال صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، فوالله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً، فخلعوا أثواب البقاء وقرعوا أبواب اللقاء، وتلذّذوا في طلب ذلك النجاح، ببذل النفوس والأرواح، وإلى ذلك التشريف الموصوف سمت نفوس أهل الطفوف، حتى تنافسوا في التقدّم إلى الحتوف، وأصبحوا نهب الرماح والسيوف، كما قال السيّد المرتضى لهم:

جسـوم عـلى الرمـضاء مـهملة وأنـفس فـي جـوار الله يـقربها
كأن قـاصدها بـالضر نـافعها أو ان قـاتلها بـالسيف مـحييها

وتقدّم الحسين إلى باب خيمة النساء، فأخرجت له أخته زينب ولده الصغير، وقالت: يا أخي هذا ولدك له ثلاثة أيام ما ذاق الماء، فاطلب له شربة ماء، فأخذه على يده، وقال يا قوم قد قتلتم شيعتي وأهل بيتي، وقد بقي هذا الطفل يتلظّى عطشاً، فاسقوه شربة من الماء، فرماه حرملة بن الكاهل بسهم فوقع في نحر الصبي فذبحه، فقال لزينب خذيه، ثم تلقّى الدم بكفّيه حتى امتلأتا، ورمى بالدّم نحو السماء، وقال: هوّن علي ما نزل بي إنّه بعين الله.

واشتد به العطش، فركب المسناة يريد الفرات، والعباس أخوه بين يديه، فاعترضتهما خيل ابن سعد، فرمى رجل من بني دارم الحسين بسهم فأنبته في حنكه الشريف، فانتزع السهم بيده وبسط يده تحت حنكه حتى امتلأت راحته دماً ثم رمى به، وقال: «اللّهم إنّي أشكوا إليك ما يفعل بابن بنت نبيّك».

ثم اقتطعوا العباس عنه وأحاطوا به من كل جانب ومكان، حتى قتلوه قدّس الله روحه، فبكى الحسين عليه السلام بكاءاً شديداً، وفي ذلك يقول الشاعر:

أحق الناس ان يبكى عليه ... فتى أبكى الحسين بكربلاء
وأخوه وابن والده علي ... أبو الفضل المضرج بالدماء
ومن واساه لا يثنيه شيء ... وجادله على عطش بماء

ثمّ أنّ الحسين عليه السلام دعا الناس إلى البراز، فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل مقتلة عظيمة وهو يقول:

القتل أولى من ركوب العار ... والعار أولى من دخول النّار

قال بعض الرواة والله ما رأيت مكثوراً[1] قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً منه، وأنّ الرجال كانت لتشد عليه فيشد عليها بسيفه، فتنكشف عنه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ولقد كان يحمل فيهم وقد تكملوا ثلاثين [ألفاً][2] فينهزمون بين يديه، كأنّهم الجراد المنتشر، ثم يرجع إلى معسكره وهو يقول لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، ولم يزل يقاتلهم حتى حالوا بينه وبين رحله، فصاح ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون، فناداه شمراً: ما تقول يابن فاطمة؟ قال: إنّي أقاتلكم وتقاتلوني والنساء ليس عليهنّ جناح، فامنعوا عتاتكم وجهّالكم وطغاتكم من التعرّض لحرمي ما دمت حيّاً، فقال شمر: لك ذلك يابن فاطمة. وقصدوه بالحرب فجعل يحمل عليهم ويحملون عليه، فقصدته الأعنّة وقومت نحوه الأسنّة، فحمل فيهم حملة عظيمة منكرة ـ كحملات أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام ـ، فقتل في حملته أكثر من خمسمائة فارس على ما ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي.

ورجع إلى نحو الخيمة فوقف على بابها واستقبل الأعداء بوجهه وأنشأ يقول:

---

(١) أي: المغلوب بالكثرة.

(٢) اضفناها من نسخة مشهد وهو الموافق للمصدر.

خيرة الله من الخلق أبي بعد جدي فأنا ابن الخيرتين
أمي الزهراء حقا وأبي وارث العلم ومولى الثقلين
والدي شمس وأمي قمر فأنا الكوكب وابن النيرين
فضة قد صفيت من ذهب فأنا الفضة وابن الذهبين
من له جد كجدي في الورى أو كشيخي فأنا بن العلمين
جدي المرسل مصباح الدجى وأبي الموفى له بالبيعتين
خصّه الله بفضل وتقى فأنا الأزهر وابن الأزهرين
عروة الدين علي المرتضى صاحب الحوض إمام الحرمين
عبد الله غلاما يافعا وقريش يعبدون الصنمين
يعبدون اللات والعزى معا وعلي ساجد القبلتين
ترك الاصنام لم يسجد لها مع قريش لا ولا طرفة عين
قاتل الابطال لمّا برزوا يوم بدر وبأُحد وحنين

فلمّا أتمّ الشعر حمل على القوم فكشفهم عن المشرعة، واقتحم الفرات بفرسه وهمّ ليشرب، فرمي بسهم فوقع في فمه، وكان قد أصابه اثنان وسبعون جراحة، فوقف ليستريح ساعة وقد ضعف عن القتال، فبينما هو واقف إذ أتاه حجر فوقع على جبهته، وأتاه سهم مسموم من يد ظالم غشوم، له ثلاث شعب فوقع على قلبه، فقال: بسم الله وعلى ملّة رسول الله، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهمّ إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيره، ثم أخذ السهم فأخرجه من وراء ظهره، فانبعث الدم كأنّه ميزاب.

ونادى الشمر ـ قبحه الله ـ إليكم اقتلوه، فضربه زرعة بن شريك على كتفه، وضربه آخر على عاتقه، وطعنه سنان بن أنس النخعي بالرمح، فوقع فنزل فذبحه واحتز رأسه ورفعه على قناة طويل، وفي ذلك يقول الشاعر:

فأي رزية عدلت حسينا غداة تبيره كفا سنان

وكبرّ العسكر ثلاث تكبيرات فهتف بهم هاتف يقول:

جاؤوا برأسك يا بن بنت محمّد من فوق رمح في الرماح طويلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما قتلوا بك التكبير والتهليلا

وقيل أنّ الذي احتزّ رأسه هو الشمر، وجاء به إلى عمر بن سعد، وقيل: خولي بن يزيد الأصبحي

وأتى به إلى ابن زياد وهو ينشد:

أمــلأ ركــابي فــضّة وذهــباً أنــا قــتلت الســيد المــهذبا
خــير عــباد الله أمّــاً وأبــا وخــيرهم جــدّاً وأعــلا نسـبا

فقال ابن زياد: فإذا كان خير عباد الله أمّاً وأبا فلم قتلته؟ وأمر بضرب عنقه.

وارتفعت في السماء في ذلك الوقت غبرة شديدة، سوداء مظلمة فيها ريح حمراء، لا يرى فيها عين ولا أثر، حتّى ظنّ القوم أنّ العذاب قد جاءهم، فلبثوا كذلك ساعة ثم انجلت.

وعن ابن عباس: أنّه رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله في المنام يوم عاشوراء نصف النهار، وهو أشعث أغبر وبيده قارورة يجمع فيها دماً، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: هذا دم ولدي الحسين ألتقطه، فوجد الحسين في ساعة الرؤيا مقتولاً ، ووجد في تلك الليلة بعر الظباء التي صرّها في كمّه يوم خروجه مع أمير المؤمنين إلى حرب صفّين، وهي تنفجر ويسيل منها دم عبيط، قال ابن عباس: ففزعت وخرجت عند خروج الفجر، فرأيت والله حيطان المدينة عليها دم عبيط، فجلست وأنا باك وقلت: قتل والله الحسين، وسمعت صوتاً من ناحية البيت وهو يقول:

أصــبروا آل الرســول قــتل الفــرخ النــحول
نــزل الروح الأمــين بــبكاء وعــويل

قال: فحدّثت بهذا الحديث أولئك الذين كانوا مع الحسين، قالوا: والله لقد سمعنا ما سمعت، ونحن في المعركة ولا ندري ما هو، وقلنا: نرى أنّه الخضر عليه السلام.

وانهزم فرس الحسين عليه السلام بعد قتله، وطلب خيمة الحريم وجعل يصهل صهيلاً عالياً، فسمعت زينب صهيله فعرفته، فقالت لسكينة: قد جاء أبوك بالماء فاخرجي إليه فاشربي، فخرجت فإذا السرج خال من راكبه، والفرس ملطخ بالدم، فهتكت خمارها، وصاحت واقتيلاه وا أبتاه، وا غريباه، وا جدّاه، وا محمّداه؛ صار الحسين مطروحاً بالعراء، مسلوب العمامة والردّاء، منزوع الخواتم والحذاء، فبينما هي تنظر إلى الجواد وتبكي وتردد النعي، إذ هتف بها وبأهل الخيمة هاتف يسمعون صوته ولا يرون شخصه وهو ينشد ويقول:

والله مـا جـئتكم حـتى وقـفت بـه بـالطف مـتعفر الخـدين مـنحورا
وحـوله فـتية تـدمي نـحورهم شبه المصابيح يغشون الدجى نورا
وكان الحسين سراجا يستضاء بـه والله يـعلم أنـي لم أقـل زورا

فلمّا سمعت الحريم ذلك قمن بالبكاء والرنّة، وأنشأت سكينة تقول:

مات الفخار ومات الجـود والكـرم واغـبرت الأرض والآفـاق والاكـم

وأغــلق الله أبــواب الســماء فلا ترى لنا دعوة تجلى بها الغمم
غاب الحسين فوالهفي لمصرعه وصــار يعلوا ضياء الأمّة الظلم
يــا أمــة الســوء لا سقيا لربعكم يــا أمة عجبت من فعلها الأمم

فقالت زينب بنت علي:

مـصيبتي فـوق تـعدادي بـاشعاري إن يــحيط بـها وصـفي وأفكـاري
شـرقت بـالكأس فـي أخ فـجعت بـه وكنت من قبل أرى كـل ذي جاري
قــد كــنت امــل امـالا اسـربها لولا القـضاء الذي فـي أمرنا جاري
جــاء الجـواد فـلا أهـلا لمـقدمه إلّا بـوجه الحسـين مـدرك الثـاري
يا نفس صبراً عـلى مـا قـد بـليت بـه هذا الحسين إلى ربّ السماء صاري

ثم أنّ الفرس هرب من قدّام خيمة الحريم، حتّى اقتحم الفرات فغاص فيه وكان آخر العهد به. وتسابق القوم على نهب خيام آل الرسول وقرّة عين الزهراء البتول، وفي ذلك عليّ بن مقرب يقول:

ثــم مــالوا للــخيام مـيلة قــالت لركــن الديــن ايـها فـقع
ضــربا ونــهبا وانــتهاك حــرمة وســبي أطــفال وذبــح رضــع
لقــد رأوا فــي الكـفر تـعسا لهـم رأي قــذار قــبلهم ومــصدع
فــاين نــاقر نــاقة مـمّا جـنوا يــا للــرجــال للـفعال الاشـنع
تســبى ذراري المـصطفى أحـمد ومــنى لشــانئة الزنـيم اللكـع
يــا لهـف نـفسي للـحسين بـالعراء وقــد اقـيمت أهـله بـجعجع

وجعل القوم ينتزعون ملحفة المرأة عن ظهرها، وأخرجوا بنات الرسول وحريمه حواسراً مسلّبات حافيات يمشين سبايا في أسر الذلّة، كما قال دعبل:

وإذ هــن يـلحظن العـيون سـوافـرا ويسـترن بـالأيدي عـلى الوجـنات

وقلن بحق الله ألا مررتم بنا على مصرع الحسين؟ فمرّوا بهم عليه، فلمّا نظرن النسوة إلى القتلى صحن وضربن وجوههنّ.

قال الراوي: فوالله لا أنسى زينب بنت عليّ وهي تندب الحسين وتنادي بصوت حزين وقلب كئيب، وا محمّدا صلّى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، وبناتك سبايا، إلى الله المشتكى وإلى محمّد المصطفى، وإلى عليّ المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء، وإلى حمزة سيّد الشهداء، اليوم مات جدي رسول الله، يا أصحاب محمّد، هؤلاء ذريّة المصطفى

يساقون سوق السبايا، قال فأبكت والله كل عدو وصديق.

ثمّ أنّ عمر بن سعد، قال: من ينتدب للحسين فيوطئ الخيل ظهره، فانتدب منهم عشرة: إسحاق بن حوية، وأخنس بن مرثد، وحكيم بن الطفيل، وعمر بن الصبيح، ورجاء بن منقذ، وسالم ابن خثيمة، وصالح بن وهب، وواحظ بن غانم، وهانئ بن ثبيت، وأسيد بن مالك، فداسوه بحوافر خيلهم حتى رضّوا ظهره وصدره، وجاءوا حتى وقفوا على ابن زياد، فقال أسيد بن مالك أحد العشرة الأشقياء:

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر بكل يعسوب شديد الاسرى

فأمر لهم بجائزة يسرة، ثم أنّ عمر بن سعد بعث برأس الحسين في ذلك اليوم، وهو يوم عاشوراء مع خولي بن يزيد الأصبحي، وحميد بن مسلم الأزدي إلى عبيدالله بن زياد، وأمر برؤوس الباقين من أصحابه وأهل بيته فقطّعت وسرح بها [حتى] قدموا الكوفة.

وقتل مع الحسين عليه السلام من أخوته: العباس وجعفر ومحمّد وأبو بكر، وأربعة من أولاد الحسن أخيه، وعدة من أولاد جعفر الطيّار، وعقيل بن أبي طالب.

وأقام عمر بن سعد بقيّة يوم عاشوراء واليوم الثاني إلى زوال الشمس، ثم رحل بمن تخلّف من عيال الحسين عليه السلام وحمل نساؤه على إحلاس أقتاب الجمال بغير وطاء ولا غطاء، مكشّفات الوجوه بين الأدعياء، وساقوهنّ كما يساق سبي الترك والروم، في أثر المصائب والهموم وفي ذلك محمّد بن إدريس الشافعي يقول:

فصلّى على المبعوث من آل هاشم ويغزى بنيه إن ذا لعجيب
وتزلزلت الدنيا لال محمّد وكادت لهم صم الجبال تذوب
فمن مبلغ عني الحسين رسالة وان كرهتها أنفس وقلوب
لئن كان ذنبي حب آل محمّد فذلك ذنب لست منه أتوب
هم شفعائي يوم حشري وموقفي وحبهم للشافعي ذنوب

ولمّا انفصل عمر بن سعد عن كربلاء، خرج قوم من بني أسد فصلّوا على تلك الجثث الطواهر المرمّلة بالدماء، ودفنوها على ما هي الآن عليه.

وسار عمر بن سعد بالسبي المشار إليه، فلمّا قاربوا الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهن، فأشرفت امرأة من الكوفيّات فقالت: من أيّ الأسارى أنتن؟ فقلن لها: نحن أسارى محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزلت من سطحها فجمعت ملاء وأزرا ومقانع فأعطتهنّ فتغطين، وكنّ بغير غطاء ولا وطاء.

قال حذام الأسدي[1] رأيت نساء أهل البيت مهتكات الجيوب مخمشات الوجوه، يلطمن الخدود وهنّ داخلات إلى الكوفة، وأفخاذهن تسيل دماً من اقتاب الجمال، ورأيت على ابن الحسين يبكي لسوء حاله وفقد رجاله وهو يقول:

أمة السوء سقيا لربعكم يا أمة لم تراع جدنا فينا
إذا اتى جدنا في الحشر خصمكم يوم القيامة ما أنتم تقولونا؟
تسيرونا على الأقتاب عارية كأننّا لم ينشد فيكم دينا

فجعل أهل الكوفة ينوحون ويبكون، فقال علي بن الحسين عليه السلام اتنوحون وتبكون من أجلنا! فمن ذا الذي قتلنا؟

وقال بشير بن حزيم الأسدي: نظرت إلى زينب بنت علي عليه السلام يومئذٍ، فلم أر محفّرة قط أنطق منها، كأنّما تفرغ من لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومت إلى الناس أن اسكتوا، فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس، ثم قالت: «الحمد لله والصلاة على جدّي محمّد وآله الأخيار الطيبين الأبرار، أمّا بعد: يا أهل الكوفة يا أهل الغدر، أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلّا الصلف الظلف، والصدر الشنف، وملق الإماء، وغمز الأعداء، وكمرعى على دمنة، أو كفضة على ملحودة، ألا ساء ما قدّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنوحون؟ إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنّى ترحضون؟ قتلتم سليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة، وسيّد شباب أهل الجنة، وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم، ومدرة سنّتكم، ألا ساء ما تزرون، وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم أتدرون يا أهل الكوفة أيّ كبد لرسول الله فريتم؟ وأيّ كريمة له أبرزتم؟ وأيّ دم له سفكتم؟ وأيّ حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقماء كطلاع الأرض وملاء السماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً ورماداً، ولعذاب الأخرة أخزى وأنتم لا تنصرون، فلا يسخفنّكم المهل فإنّه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوات الثأر وإنّ ربكم لبالمرصاد».

وخطبت أم كلثوم بنت عليّ، فقالت: يا أهل الكوفة! سوءة لكم خذلتم حسيناً، وقتلتموه وانتهبتم أمواله وورثتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه، فتبّاً لكم وسحقاً، ويلكم أتدرون أيّ دواه دهتكم؟ وأيّ وزر على ظهوركم حملتم؟ وأيّ دماء سفكتموها؟ وأيّ كريمة اهتضمتموها؟ وأيّ

---

(١) في المخطوط: (جذيلة الأسدي)، وما اثبتناه هو الصحيح.

صبية سلبتموها؟ وأيّ أموال نهبتموها؟ قتلتم خير رجال بعد النبيّ، ونزعت الرحمة من قلوبكم، ألا أنّ حزب الله هم الغالبون، وحزب الشيطان هم الخاسرون ثم قالت:

قتلتم أخي صبراً فويل لامكم ... ستجزون ناراً حرها يتوقد
سفكتم دماء حرم الله سفكها ... وحرمها القرآن ثم محمّد
ألا فأبشروا بالنار إنكم غدا ... لفي قعر نار حرها يتصعد
وإني لابكي في حياتي على أخي ... على خير من بعد النبي سيولد
بدمع غزير مستهل مكفكف ... على الخد مني ذائباً ليس يجمد

ثم أنّ زين العابدين أومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا، فقام قائماً فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبيّ فصلّى عليه، ثم قال: «أيّها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث، أنا ابن من انتهك حريمه، وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا بن من قتل صبراً وكفى بذلك فخراً، أيّها الناس ناشدتكم الله! هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقتلتموه وخذلتموه! فتبّاً لما قدّمتم لأنفسكم وسوءاً لرأيكم بأيّة عين تنظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إذ يقول لكم: قتلتم خيرتي وانتهكتم حرمتي، فلستم من أُمتي. ثم قال:

فلا غرو ان قتل الحسين فشيخه ... أبوه علي كان خيرا وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي ... أصاب حسيناً كان ذلك أعظما
قتيل بشط النهر روحي فداؤه ... جزاء الذي ارداه نار جهنما

ثم أنّ ابن زياد جلس في القصر وأذن للناس إذناً عاماً، وجيء برأس الحسين فوضع بين يديه، وأدخل نساء الحسين وصبيانه إليه فجلست زينب بنت عليّ فأقبل عليها وقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وأكذب أحدوثتكم، فقالت: إنّما يفتضح الكاذب الفاسق، ويكذب الفاجر وهو غيرنا، قال: كيف رأيتِ صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت: ما رأيت إلّا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّ وتخاصم فانظر لمن الفلج؟ ثم التفت إلى السجّاد فقال: من هذا؟ فقيل له: هذا عليّ بن الحسين، فقال: أليس قد قتل الله عليّ بن الحسين؟ فقال: علي بن الحسين قد كان لي أخ يسمى عليّ بن الحسين قتله الناس، فقال: بل الله قتله، فقال عليّ: الله يتوفى الأنفس حين موتها، فقال: ابن زياد وبك جرأة على جوابي؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه، فقالت زينب: يا ابن زياد إنّك لم تبق منّا أحداً، فإن كنت قد عزمت على قتله فاقتلني

معه، فقال عليّ لعمّته: اسكتي يا عمه حتى أكلّمه ثم أقبل عليه، فقال: أبالقتل تهدّدني يابن زياد، أما علمت أنّ القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة، فترك قتله.

وأمر برأس الحسين فطيف به في سكك الكوفة.

فقال بعض ذوي العقول يرثي قتيلاً من آل الرسول:

رأس ابن بنت محمّد ووصيه ... للناظرين على قناة يرفع

والمسلمون بمنظر وبمسمع ... لا منكر منهم ولا متفجع

وكحلت بمنظرك العيون عماية ... وأصم رزؤك كل اذن تسمع

أيقظت أجفانا وكنت لها كرى ... وأنمت عينا لم تكن بك تهجع

ما روضت إلّا تمنت أنها ... لك حضرة ولخط قبرك مضجع

واستدعى ابن زياد بمحفر بن ثعلبة العائذي، فسلّم إليه الرؤوس والأسارى والنساء فسار بها إلى الشام كما يسار بسبايا الكفّار، يتصفّح وجوههنّ أهل الأقطار.

فحكى القوم الذين حملوا رأس الحسين، إنّهم نزلوا منزلاً من المنازل في مسيرهم، ووضعوا الرأس قريباً منهم، فإذا هم بيد من حديد قد خرجت من الهواء فكتبت على جبهة الحسين سطراً من ذهب.

اترجو أُمّة قتلت حسيناً ... شفاعة جدّه يوم الحساب

وقد روي أنّ هذا البيت وجد مكتوباً في كنيسة من كنائس الروم، وعليه تاريخ منذ كتب فوجد قبل الإسلام بثلاثمائة سنة.

وروي أنّ بعض فضلاء التابعين لما شهد رأس الحسين بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه، فلمّا وجدوه بعد إذ فقدوه سألوه عن سبب ذلك، فقال: ألا ترون ما نزل بنا؟ ثم أنشأ يقول:

جاؤوا برأسك يابن بنت محمّد ... مترملا بدمائه ترميلا

وكأنما بك يابن بنت محمّد ... قتلوا جهارا عامدين رسولا

قتلوك عطشانا ولما يرقبوا ... في قتالك التنزيل والتأويلا

ويكبرون بأن قتلت وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

ثم أُدخل ثقل الحسين ونساؤه ومن تخلف من أهله على يزيد مقرّنين في الحبال، فلمّا وقفوا بين يديه وهم على تلك الحال، قال له علي بن الحسين: أنشدك بالله يا يزيد ما ظنّك برسول الله صلى الله عليه وآله لو رآنا على هذه الصفة؟ فأمر يزيد بالحبال فقطّعت، فلمّا وضع رأس الحسين عليه السلام بين يدي يزيد تمثل الحصين بن الحمام المري بهذا البيت:

نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق واظلما

فقال له علي بن الحسين: وهو في السبي كتاب الله أولى من الشعر يقول الله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَىٰ ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[1]، فغضب يزيد وجعل يعبث بلحيته ويقول: ﴿**مَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ**﴾[2]، ثم قال: ما تريدون يا أهل الشام؟ فقالوا لا تتخذ من كلب سوء جرواً، وقال: كل منهم على قدر دينه، فقال له النعمان بن بشير الأنصاري: انظر ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصنع بهم؟ قال صدقت: حلّوا عنهم واضربوا عليهم القباب، وأمال عليهم المطبخ وكساهم وأخرج لهم جوائز كثيرة فلم يقبلوها، فقال: لو كان بين ابن مرجانة وبينهم نسب ما قتلهم، ووعد يزيد عليّ بن الحسين في ذلك اليوم إنّه يقض له ثلاث حاجات.

ثمّ أمر برأس الحسين عليه السلام فجعل في طشت من ذهب، وغطّي بمنديل ديبقي ووضع بين يديه، فحطّ غراب على جدار القصر وجعل يصيح صياحاً عالياً متتابعاً، فلمّا سمعه يزيد جعل يتمثل بأبيات ابن الزهري فيقول:

يا غراب البين ما شئت فقل ... انما تندب أمرا قد فعل
كل ملك ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بكل
ليت اشياخي ببدر شهدوا ... وقعت الخزرج مع وقع الأسل
لو راوْه لاستهلوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم انتقم ... من بني أحمد ما كان فعل
قد أخذنا من علي ثأرنا ... وقتلنا السيد القوم البطل

وجعل ينكث بالقضيب في ثنايا الحسين عليه السلام، وكان في المجلس رسول ملك الروم، فقال ليزيد: يا ملك العرب هذا رأس من؟ فقال: هذا رأس الحسين بن عليّ بن أبي طالب، فقال: ومن أمّه؟ قال فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال النصرانيّ: أف لك ولدينك، لي دين أحسن من دينك، إنّ أبي من حفدة داود، والنصارى يعظّموني ويأخذون من تراب أقدامي تبركاً بي بأنّي من حفدة داود عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم؟ فأيّ دين دينكم؟! ثم قال ليزيد: هل سمعت حديث

---

(١) سورة الحديد: ٢٢ و٢٣.

(٢) سورة الشورىٰ: ٣٠.

كنيسة الحافر، فقال: لا قل حتى أسمع، فقال: أنّ بين عمان والصين بحراً مسيرة ستة أشهر، ليس فيه عمران إلّا بلدة واحدة في وسط الماء، فيها كنيسة تسمّى كنيسة الحافر، في محرابها حقّة من ذهب، فيها حافر يزعمون أنّه حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وقد زينّوا حول الحقة بالذهب والديباج، يقصدها في كل عام عالم من النصارى ويطوفون حولها، ويقبّلونها ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى ويتوسّلون إليه بها، هذا شأنهم ودأبهم بحافر حمار، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم فلا بارك الله فيكم ولا في دينكم.

فقال يزيد: اقتلوا هذا النصراني؛ لئلا يفضحني في بلاده، فقال النصراني: إنّي رأيت البارحة نبيّكم في المنام، يقول: يا نصراني أنت من أهل الجنّة فتعجبت من كلامه، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم وثب إلى رأس الحسين وضمّه إلى صدره، وجعل يقبّله ويبكي حتى قتل.

وكانوا أهل البيت عليهم السلام مدّة مقامهم بالشام ينوحون ويبكون على الحسين عليه السلام.

وخرج زين العابدين عليه السلام يوماً يمشي في أسواق دمشق، فاستقبله المنهال بن عمر، فقال: كيف أمسيت يابن رسول الله؟ قال: أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون، يذبحون أبنائهم، ويستحيون نسائهم، يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً عربيّ، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنّ محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتّلون مشرّدون، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون مما أمسينا فيه، ولله درّ مهيار حيث يقول:

يعظمون له أعواد منبره ... وتحت أقدامهم أولاده وضعوا
بأي حكم بنوه يتبعونكم ... وفخركم أنكم صحب لكم تبع

ودعا يزيد يوماً بعليّ بن الحسين وعمرو بن الحسن، وكان عمرو صغيراً عمره نحو أحدى عشرة سنة، فقال له يزيد: أتصارع هذا ـ يعني ابنه خالداً ـ، فقال عمرو: لا ولكن أعطني سكّيناً وأعطه سكيناً ثم أقاتله، فقال يزيد: شنشنة أعرفها من أخزم، هل تلد الحيّة إلّا حيّة، ثم قال لعلي بن الحسين: اذكر حاجاتك الثلاث التي وعدتك بقضائهن.

فقال: الأُولى أن تريني وجه سيدي الحسين ومولاي أتزود منه وأنظر إليه وأودّعه، والثانية أن تردّ علينا ما أخذ منّا، والثالثة أن كنت عزمت على قتلي أن توجّه مع هذه النسوة من يردّهن إلى حرم جدّهن. فقال: أمّا وجه أبيك فلن تراه أبداً، وأمّا قتلك فقد عفوت عنك، وأمّا النساء فما يردّهنّ إلى المدينة غيرك، وأمّا ما أخذ منكم فإنّي أعوّضكم عنه أضعاف قيمته. فقال: أمّا مالك فلا نريده وهو موفّر عليك، وإنّما طلبت ما أخذ منّا لأنّ فيه مغزل فاطمة بنت محمّد ومقنعتها وقلادتها

وقميصها؛ فأمر برد ذلك وزاد عليه مأتي دينار، فأخذها زين العابدين وفرّقها على الفقراء والمساكين.

ثمّ أمر يزيد بردّ الأسارى وسبايا البتول إلى أوطانهم بمدينة الرسول.

وأمّا رأس الحسين فروي أنّ بعض الخصيان من العبد استوهبه من يزيد وأرسل إلى كربلاء فدفن بها مع جسده الشريف، وقيل جهّز إلى المدينة ودفن عند أمّه فاطمة بنت رسول الله، وقيل دفن عند باب الفراديس بدمشق، وقيل أنّ خلفاء مصر الفاطميّون نقلوا رأساً من عسقلان إلى القاهرة، من أرض مصر ودفنوه بها، وبنوا عليه المشهد المعروف بمشهد الحسين عليه السلام بالقاهرة.

ولمّا رجع عليّ بن الحسين من الشام كان معه ولده محمداً الباقر وعمره أربع سنين، ومعه من بني عمّه الحسن ثلاثة وهم زيد والحسن وعمرو، ونساء الحسين وعياله، فلمّا بلغوا إلى العراق قالوا للدليل: مرّ بنا على طريق كربلاء، فوضعوا في موضع المصرع، فوجدوا جابر بن عبدالله الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وجماعة من بني هاشم، قد وردوا لزيارة قبر الحسين فوافوا في وقت واحد، وتلاقوا بالبكاء والحزن وأقاموا المآتم المقرحة للأكباد، واجتمعت إليهم نساء ذلك السواد، وأقاموا على ذلك أيّاماً ينوحون ويبكون.

فروي عن أبي حباب الكلبي أنّه قال: حدّثني الجصّاصون قالوا: كنّا نخرج إلى الجبّانة في الليل عند مقتل الحسين عليه السلام فنسمع الجن ينوحون عليه ويقولون:

مسح الرسول جبينه ... فله بريق في الخدود
أبواه من عليا قريش ... جده خير الجدود

ثم انفصلوا عن كربلاء طالبين المدينة، قال بشر بن حذلم: فلمّا قربن منها نزل عليّ بن الحسين فحطّ رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساؤه، وقال: يا بشر رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ فقال: بلى يابن رسول الله أنّي لشاعر، قال فأدخل المدينة وانع أبا عبدالله، قال بشر: فركبت فرسي وركضت حتى دخلت المدينة، فلمّا بلغت مسجد رسول الله رفعت صوتي بالبكاء وأنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرج ... والرأس منه على القناة يدار

ثم قلت: هذا عليّ بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه، قال: فما بقيت في المدينة مخدّرة ولا محجّبة إلّا برزن من خدورهن، مكشّفة شعورهن مخمشة وجوههن لاطمات خدودهن، يدعون بالويل والثبور، ولم أر باكية أكثر من ذلك

اليوم، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه بعد وفاة رسول الله ﷺ، وسمعت جارية تنوح على الحسين وتقول:

نعى سيدي ناع نعاه فأوجعا فأمرضني ناع نعاه فأفجعا
فعيني جودا بالمدامع وأسكبا وجودا بدمع بعد دمعكما معا
على من وهى عرش الجليل فزعزعا واصبح انف الدين والمجد اجدعا
على ابن نبي الله وابن وصيّه وإن كان عنا شاحط الدار اشسعا

ثم قالت: أيّها الناعي جددّت حزننا بأبي عبدالله، وحدّثت منّا قروحاً لا تندمل فمن أنت يرحمك الله؟ فقلت: أنا بشر بن حذلم وجّهني مولاي عليّ بن الحسين، وهو نازل موضع كذا وكذا مع عيال أبي عبدالله ونسائه، قال: وتركوني مكاني وبادروا إليه، وضربت فرسي حتى رجعت إليهم فوجدت الناس قد أخذوا الطريق والمواضع، فنزلت عن فرسي وتخطأت رقاب الناس حتّى قربت من باب الفسطاط، وكان عليّ بن الحسين عليه السلام داخلاً فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة فارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية يعزّونه، وضجّت تلك البقعة ضجّة شديدة، فأومأ بيده أن اسكنوا فسكنت روعتهم، فقال: «الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بارئ الخلائق أجمعين، الذي بعد فارتفع في السماوات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفواجع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء، وعظيم المصائب الفاظعة الكاظة الفادحة الجائحة، أيّها القوم إنّ الله تعالى وله الحمد، ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل أبو عبدالله وعترته، وسبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي ما مثلها رزية.

فلمّا فرغ من خطبته دخل إلى المدينة بأهله ونسوته، فلقيتهم نساء بني هاشم حاسرات، وفيهم زينب بنت عقيل بن أبي طالب تبكي وتندب الحسين عليه السلام، وتقول:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ماذا قطعتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي أذ نصحت لكم ان تخلفوني بسوء في ذوي رحم
اني أخاف عليكم أن يحل بكم مثل العذاب الذي أودى على أرم

فلمّا جاء الليل سمع أهل المدينة هاتفاً ينادي ويقول:

أيها القاتلون ظلما حسينا أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل من في السماء يبكي عليه من نبي وشاهد ورسول

قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وصاحب الإنجيل

ولقد أحسن ابن قتيبة وقد بكى على منازل آل الرسول ثم أنشأ يقول:

مررت على أبيات آل محمّد ... فلم أرها مثل الذي يوم حلت

فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وان أصبحت منهم برغمي تخلت

ألا ان قتلى الطف من آل هاشم ... اذلت رقاب المسلمين فذلت

وكانوا غياثا ثم اضحوا رزيّة ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلّت

ألم تر ان الشمس اضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وقد عولت تبكي السماء لفقده ... وأنجمها ناحت عليه وصلت

وكيف لا يكون كذلك وقد أصبح لحم الرسول مجرّداً على الرمال، ودمه مسفوكاً بسيوف الظلال، ووجوه بناته مبذولة لعين السائق والشامت، وسلبهنّ بمنظر من الناطق والصامت.

فصل
في أيام زين العابدين عليه السلام

وهو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وكنيته أبو الحسن، لقبه السجّاد، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الأحد، شهر ولادته خامس شعبان، سنة ولادته ثمان وثلاثين، ملك وقت ولادته جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، اسم أمّه شاه زنان، نقش خاتمه حسبي الله لكلّ غم، عدد أزواجه امرأة واحدة وهي بنت عمّه الحسن، عدد أولاده خمسة عشر، مدة عمره سبع وخمسون سنة، يوم وفاته السبت، شهر وفاته ثاني عشر المحرم، سنة وفاته خمس وتسعون، مكان وفاته المدينة، سبب وفاته سمّه هشام بن عبدالملك، مكان قبره عند عمّه في البقيع، ملك وقت وفاته الوليد بن عبدالملك، اسم بوّابه أبو خالد الكابلي.

وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا قدمت بنت يزدجرد على عمر، أشرف لها عذارى المدينة وأشرق المسجد بضوْها لمّا دخلته، فلمّا نظر إليها عمر غطّت وجهها، وقالت: اف بيروج بادا هرمز، فقال: أتشتمني هذه وهم بها. فقال له أمير المؤمنين: ليس ذلك لك خيّرها رجلاً من المسلمين، واحسبها بفيئه فخيّرها فجاءت حتى وضعت يدها على رأس الحسين، فقال لها أمير المؤمنين: ما اسمكِ؟ فقالت: جهان شاه، فقال: بل شهر بانويه، ثم قال للحسين يا أبا عبدالله لتلدن لك منها خير أهل الأرض، فولدت علي بن الحسين؛ وكان يقال له ابن الخيرتين، فخيرة الله من

العرب هاشم، ومن العجم فارس، وفيه قال أبو الأسود الدؤلي:

وإن غـلاماً بـين كسرى وهـاشم لاكـرم مـن نـيطت عـليه التمائم

وقال ابن خلكان أبو الحسن عليّ بن الحسين زين العابدين: يقال له الأصغر، وليس للحسين عقب إلّا منه وهو أحد الأئمة الاثنى عشر، ومن سادات التابعين لم ير قرشي أفضل منه.

وأمّه: سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس، وكان يقال لزين العابدين ابن الخيرتين، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله لله تعالى من عباده خيرتان، فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس.

ونقل من ربيع الأبرار للزمخشري أنّ الصحابة أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر، وفيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع الثلاث، فقال علي: إنّ بنات الملوك لا تعامل معاملة غيرهن، بل يقوّمن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يحتاجهن، فقوّمن وأخـذهنّ عـليّ فـدفع واحدة لعبدالله بن عمر، وواحدة لولده الحسين، وأخرى لمحمّد بن أبي بكر وكان ربـيبه. فأولد عبدالله سالماً، والحسين زين العابدين، ومحمّد ولده القاسم، وكان أهل المدينة يكرهون اتـخاذ أمّهات الأولاد حتى نشأ فيهم عليّ بن الحسين والقاسم وسالم، فرغبوا في السراري.

وكان زين العابدين عليه السلام كثير البر بأُمّه، حتى قيل له أنّك أبر الناس بأُمّك، وما نراك تأكل معها في صحفة؟ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها.

وكان سالم يلبس الصوف ويعمل بيده، ودخل سليمان بن عبدالملك الكعبة فرأى سالماً، فقال له: سلني حوائجك؟ فقال: والله لا سألت في بيت الله غير الله.

وقال عليّ بن عيسى في كشف الغمة: كان لعلي بن الحسين ألقاب كثيرة أشهرها زين العابدين، وسيد العابدين، والزكيّ، والأمين، وذو الثفنات، وكان سبب لقبه بزين العابدين أنّه كان ليلة فـي محرابه قائماً في تهجّده، فتمثّل له الشيطان في صورة ثعبان ليشغله عن عبادته فلم يلتفت إليه، فجاء إلى إبهام رجله فالتقمها، فألمه فلم يقطع صلاته، فلمّا فرغ منها كشف الله له فعلم أنّه الشيطان فسبّه ولطمه، وقال: اخسأ يا ملعون، فذهب عنه وقام إلى تمام ورده، فسمع صوتاً لا يرى قائله وهو يقول: أنت زين العابدين حقاً ثلاثاً، فظهرت هذه الكلمة واشتهرت لقباً له[1].

ومن مناقبه: أنّه كان إذا توضأ للصلاة يصفرّ لونه، فيقولون له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم.

وكان إذا مشى لا تتجاوز يداه فخذيه، ولا يخطر بيديه، وعليه السكينة والخشوع.

وإذا قام إلى الصلاة أخذته الرعدة، ووقع الحريق في البيت الذي هو فيه، وكان ساجداً فـي

---

(١) كشف الغمة ٢/٢٨٦.

صلاته فجعلوا يقولون له: يابن رسول الله النار النار! فما رفع رأسه من سجوده حتى أطفأت، فقيل: ما الذي ألهاك عنها؟ فقال: نار الأخرة.

وكان يقول: إنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وقوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار.

وقال طاووس: رأيت عليّ بن الحسين عليه السلام ساجداً في الحجر، فقلت: رجل صالح من أهل بيت طيب لأسمعنّ ما يقول، فأصغيت إليه وسمعته يقول: «عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، وسائلك بفنائك، فقيرك بفنائك»، فوالله مادعوت بهنّ في كرب إلّا كشف عنّي.

وقال أبو حمزة الثمالي: أتيت باب عليّ بن الحسين فكرهت أن أصوّت، فقعدت إلى أن خرج وسلّمت عليه ودعوت له، فردّ عليّ ثم انتهى إلى حائط، فقال: يا أبا حمزة ألا ترى هذا الحائط؟ فقلت: بلى يابن رسول الله، قال: فإنّي اتكأت عليه يوماً وأنا حزين، فإذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر في اتجاه وجهي، ثم قال: يا عليّ بن الحسين ما لي أراك كئيباً حزيناً، أعلى الدنيا؟ فهو رزق حاضر يأكل منه البر والفاجر، فقلت: ما عليها أحزن، وإنّه لكما تقول، فقال: أعلى الأخرة؟ فإنّه وعد صادق يحكم فيه مالك قاهر، قلت: ما على هذا أحزن، وإنّه لكما تقول، فقال: وما حزنك يا علي؟ فقلت: ما أتخوف من فتنة ابن الزبير، فقال: يا عليّ هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، قال: فخاف الله فلم يكفه؟ قلت لا . فغاب عنّي فقيل له يا علي بن الحسين هذا الخضر ناجاك.

وعن زرارة بن أعين قال: سمع قائل في جوف الليل وهو يقول: أين الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة؟ فهتف به هاتف من ناحية البقيع يسمع صوته ولا يرى شخصه، ذاك عليّ بن الحسين.

وروي أنّ عليّ بن الحسين دخل على محمّد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل محمّد يبكي، فقال: ما شأنك؟ فقال: عليّ دين، فقال له: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، فقال: هو عليّ فالتزمه.

وعن أبي شهاب الزهري قال: شهدت عليّ بن الحسين عليه السلام يوم حمله عبدالملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فاثقله حديداً، ووكّل به حفّاظاً في عدّة وجمع، فاستأذنتهم في السّلام عليه والتوديع له فأذنوا لي، فدخلت عليه وهو في قبّة والأقياد في رجليه والغل في يديه، فبكيت وقلت: وددت أنّي في مكانك وأنت سالم، فقال: يا زهري أو تظن هذا فما ترى عليّ وفي عنقي مما يكربني، أما لو شئت ماكان وإنّه إن بلغ بك وبأمثالك غمّ فليذكر عذاب الله، ثم أخرج يده من الغل ورجليه من القيد، ثم قال: يا زهري لاجزت معهم على ذا منزلتين من المدينة، قال: فما لبثنا إلّا أربع

ليال حتى قدم الموكّلون به يطلبونه من المدينة، فما وجدوه فكنت فيمن سألهم عنه، فقال لي بعضهم: إنّا نراه متبوعاً إنّه لنازل ونحن حوله نرصده إذ أصبحنا فما وجدنا بين محمله إلّا حديدة.

قال الزهري: فقدمت بعد ذلك على عبدالملك بن مروان فسألني عن عليّ ابن الحسين فأخبرته، فقال لي: إنّه جاءني في يوم فقدوه الأعوان فدخل عليّ، فقال: ما أنا وأنت؟ فقلت: أقم عندي، فقال: لا أحب، ثم خرج فوالله لقد أمتلأ ثوبي منه خيفة، فقلت: يا أمير المؤمنين ليس عليّ بن الحسين حيث تظن! إنّه مشغول بربّه، فقال: حبذا شغل مثله فنعم ما شغل به.

وكان الزهري إذا ذكر عليّ بن الحسين يبكي ويقول زين العابدين، وكان يقول: ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين.

ولمّا حجّ هشام بن عبدالملك قبل أن يلي الخلافة اجتهد أن يستلم الحجر فلم يمكنه، وجاء عليّ بن الحسين عليه السلام فتوقف له الناس وتنحوا عنه حتّى استلم الحجر، فقال هشام: من هذا فقال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يمنى إلى ذروة العز التي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
ينشق نور الدجى عن نور غرته ... كالشمس ينشق عن أنوارها الظلم
بكفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
هذا ابن فاطمة الزهراء غرتها ... في جنة الخلد مجريا به القلم
فليس هذا بضائره ... العرب تعرف من انكرت والعجم
ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... الدين من بيت هذا ناله الأمم
فجده من قريش في أرومتها ... محمّد وعليّ بعده علم

فقبض هشام على الفرزدق فحبسه بين مكّة والمدينة، فقال في الحبس:

ايحبسني بين المدينة التي ... إليها قلوب الناس يهوي منيبها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيد ... وعينا له حولاء باد عيوبها

فأخرجه من الحبس فوجّه إليه عليّ بن الحسين عشرة آلاف درهم، وقال: اعذرنا يا أبا فراس فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به، وبقي عليّ بن الحسين مع جدّه أمير المؤمنين سنتين، ومع عمه الحسن عشرة سنين، وأقام مع أبيه بعد عمّه الحسن عشر سنين، وبقي بعد قتل أبيه تتمة سبع وخمسين سنة، وقبض ودفن مع عمه الحسن بالبقيع.

فصل
في أيام الباقر عليه السلام

وهو محمّد بن علي بن الحسين، وكنيته أبو جعفر، لقبه الباقر، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الاثنين، شهر ولادته ثالث صفر، سنة ولادته سبع وخمسون، ملك وقت ولادته معاوية، اسم أُمّه أم عبدالله بنت الحسن، نقش خاتمه العزة لله جميعاً، عدد أزواجه امرأتان عدا السراري، عدد أولاده تسعة، مدّة عمره سبع وخمسون كعمر أبيه، يوم وفاته الاثنين، شهر وفاته سابع ذي الحجّة، سنة وفاته ست عشر ومائة، مكان وفاته المدينة، سبب وفاته سمّه هشام بن عبدالملك، اسم بوابه جابر الجعفي، وهو هاشمي من هاشميين، علوي من علويين، وفيه يقول القرطبي:

يا باقر العلم لأهل التقى ... وخير من لبى على الأجبل

وحدّث بعضهم قال: كنت بين مكّة والمدينة فإذا أنا بشيخ يلوح من البرّية، يظهر تارة ويغيب أخرى، حتى قرب منّي فتأمّلت فإذا هو غلام سباعي أو ثماني، فسلّم عليّ فرددت عليه السّلام، وقلت من أين؟ فقال: من الله، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى الله، فقلت: فعلام؟ فقال: على الله، قلت: فما زادك؟ قال: التقوى، قلت: فمن أنت؟ قال: رجل عربيّ، فقلت: أبن لي؟ قال: أنا رجل قرشي، فقلت: أبن لي؟ فقال: أنا رجل هاشمي، فقلت أبن لي؟ فقال: أنا رجل علويّ، ثم أنشد:

نحن على الحوض ذواده ... نذود ويسعد وراده

فما فاز من فاز إلّا بنا ... وما خاب من حبنا زاده

فمن سرنا نال منا السرور ... ومن ساءنا ساء ميلاده

ومن كان غاصبنا حقنا ... فيوم القيامة ميعاده

ثم قال أنا محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ثم التفت فلم أره، فلا أعلم هل صعد إلى السماء أم نزل في الأرض.

وعنه عليه السلام قال: دخلت على جابر بن عبدالله بعد ماكفّ بصره، فسلّمت عليه فردّ عليّ السّلام، ثم قال: من أنت؟ فقلت: محمّد بن عليّ، فقال: يابني ادن منّي، فدنوت منه، فقبّل يدي ثم أهوى

إلى رجلي ليقبلهما فتنحّيت منه، فقال لي: إنّ رسول الله ﷺ يقرؤك السلام، فقلت: وعلى رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته، وكيف ذلك يا جابر؟ فقال: كنت معه ذات يوم، فقال: يا جابر لعلك أن تبقى إلى أن تلقى رجلاً من ولدي، يقال له محمّد بن علي بن الحسين يهب الله له النور والحكمة فأقرئه منّي السلام.

وعن أبي بصير قال: كنت مع الباقر في مسجد النبي ﷺ قبل أن أفضى الملك إلى ولد العباس، إذ دخل المنصور وداود بن سليمان وما قعد إلّا داود إلى الباقر عليه السلام، قال: ما منع الدوانيقي أن يأتي؟ قال: فيه جفاء، قال لا تذهب الأيّام حتّى يلي أمر هذا الخلق فيطأ أعناق الرجال، ويملك شرقها وغربها، ويطول عمره فيها، حتّى يجمع من كنوز الأموال ما لم يجتمع لأحد قبله، فقام داود وأخبر الدوانيقي بذلك، فأقبل إليه الدوانيقي وقال: ما منعني من الجلوس إليه إلّا إجلالك، فما الذي أخبر به داود؟ قال هو كائن، قال: أو ملكنا قبل ملككم؟ قال: نعم، قال: يملك بعدي أحد من ولدي؟ قال: نعم، قال: مدّة بني أميّة أكثر أم مدّتنا؟ قال: مدتكم أطول وليتلقّفن هذا الملك صبيانكم، ويلعبون به كما يلعبون بالكرة، هذا ما عهده إليّ أبي، فلمّا ملك الدوانيقي تعجّب من قول الباقر عليه السلام.

وفي الكافي عن أبي بكر الحضرمي، قال: لمّا حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبدالملك وصار ببابه، قال هشام لأصحابه: إذا رأيتموني قد وبخّت محمّد بن عليّ ثم سكت، فليقبل عليه كل رجل منكم فليوبّخه، ثم أمر أن يؤذن له.

فلمّا دخل أبو جعفر عليه السلام، قال بيده: السّلام عليكم، فعمّهم جميعاً بالسّلام ثم جلس، فازداد هشام عليه حنقاً بتركه السلام عليه بالخلافة وجلوسه بغير إذن، فأقبل يوبّخه، ويقول له: يا محمّد ابن عليّ لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصى المسلمين ودعا إلى نفسه، وزعم أنّه الإمام سفهاً وقلّة علم، ووبّخه بما أراد أن يوبّخه، فلمّا سكت أقبل عليه القوم رجل بعد رجل يوبّخه، حتّى انقضى آخرهم.

فلمّا سكت القوم نهض قائماً ثم قال: «أيّها الناس أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أوّلكم وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجّل، فإنّ لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك إلّا أنّا أهل العاقبة، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾».

فأمر به إلى الحبس، فلمّا صار في الحبس تكلّم فلم يبق في الحبس رجل إلّا ترشّفه[1] وحنّ إليه. فجاء صاحب الحبس إلى هشام، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي خائف عليك من أهل الشام أن

---

(١) ترشفه: أي مصه وهو كناية عن المبالغة في أخذ العلم عنه.

يحولوا بينك وبين مجلسك هذا، ثم أخبره بخبره فأمر به فحمل على البريد هو وأصحابه ليردّوا إلى المدينة، وأمر أن لا يخرج لهم الأسواق وحال بينهم وبين الطعام والشراب، فساروا ثلاثاً لا يجدون طعاماً ولا شراباً حتّى انتهوا إلى مدين، فأغلق باب المدينة دونهم فشكى أصحابه الجوع والعطش فصعد جبلاً يشرف عليهم، فقال بأعلى صوته: «يا أهل المدينة الظالم أهلها أنا بقية الله يقول الله عزّ وجل: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1]»، قال: فكان فيهم شيخ كبير فأتاهم، فقال لهم: يا قوم هذه والله دعوة شعيب النبيّ، والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق، لتأخذون من فوقكم ومن تحت أرجلكم، فصدّقوني في هذه المرّة وأطيعوني، وكذّبوني فيما تستأنفون فإنّي لكم ناصح، فبادروا فاخرجوا إلى محمّد بن عليّ بالأسواق، فبلغ هشام بن عبدالملك خبر الشيخ فبعث إليه فحمله فلم يدر ما صنع به.

وفي روضة الكافي عن إسماعيل بن أبان، عن عمر بن عبدالله الثقفي، قال: أخرج هشام بن عبدالملك أبا جعفر عليه السلام من المدينة إلى الشام فأنزله معه، وكان يقعد مع الناس في مجالسهم، فبينما هو قاعد وعنده جماعة من الناس يسألونه، إذ نظر إلى نصارى يدخلون في جبل هناك.

فقال: ما لهؤلاء ألهم عيد اليوم؟ فقالوا: لا يابن رسول الله، ولكنّهم يأتون عالماً لهم في هذه الجبل في كل سنة في هذا اليوم، فيخرجونه فيسألونه عمّا يريدون وعمّا يكون في عامهم، فقال: أله علم؟ فقالوا: هو من أعلم الناس وقد أدرك أصحاب الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام.

قال: فهل نذهب إليه؟ فقالوا: ذاك إليك يابن رسول الله، فقنع أبو جعفر رأسه بثوبه ومضى هو وأصحابه، فاختلطوا بالناس حتّى أتو الجبل، فقعد أبو جعفر وسط النصارى هو وأصحابه، وأخرج النصارى بساطاً ثم وضعوا الوسائد ثم دخلوا فأخرجوه، ثم ربطوا عينه فقلب عينيه كأنّهما عينا أفعى.

ثم قصد أبا جعفر، فقال له: يا شيخ أمنّا أنت أم من الأمّة المرحومة؟ فقال: بل من الأمّة المرحومة، قال: أفمن علمائهم أنت أم من جهّالهم؟ فقال: لست من جهّالم، فقال: أسألك أم تسألني؟ فقال: سلني، فقال: يا معشر النصارى رجل من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، يقول: سلني، إنّ هذا لملئ بالمسائل، ثم قال: يا عبدالله أخبرني عن ساعة، ما هي من الليل ولا من النهار، أي ساعة هي؟ فقال أبو جعفر: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فقال النصراني: فإذا لم تكن من ساعات الليل ولا من ساعات النهار فمن أي الساعات هي؟ فقال أبو جعفر: من ساعات الجنّة، وفيها تفيق مرضانا، فقال النصراني: فاسألك أم تسألني؟ قال: سلني، فقال: أخبرني عن أهل الجنّة كيف صاروا

---

(١) سورة هود: ٨٦.

يأكلون ولا يتغوّطون؟ اعطني مثلهم في الدنيا، فقال أبو جعفر: هذا الجنين في بطن أمّه يأكل مما تأكل أمّه ولا يتغوط، فقال النصراني: ألم تقل ما أنا من علمائهم؟ فقال: إنمّا قلت لك ما أنا من جهّالهم، فقال النصراني: فاسألك أم تسألني؟ فقال أبو جعفر: سلني، فقال: يا معشر النصارى والله لأسألنّه عن مسألة يرتطم فيهاكما يرتطم الحمار في الرحل، فقال له: سل، فقال: أخبرني عن رجل دنى من امرأته فحملت منه باثنين في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة، ودفنا في قبر واحد، عاش أحدهما خمسين ومائة سنة، وعاش الآخر خمسين سنة، أخبرني عنهما! فقال أبو جعفر: هما عزير وعزرة عاشاكذا وكذا سنة، ثم أمات الله تبارك وتعالى عزيراً مائة سنة، ثم بعثه فعاش مع عزرة هذه الخمسين سنة، وماتا كلاهما في ساعة واحدة، فقال النصراني: يا معشر النصارى ما رأيت قط أعلم من هذا الرجل!! لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام ردّوني، فردّوه إلى كهفه ورجع النصارى مع أبي جعفر عليه السلام.

وعن محمّد بن سنان قال: ولد الباقر عليه السلام قبل مضي الحسين بثلاث سنين، وتوفي وهو ابن سبع وخمسين سنة مائة وأربع عشر، أقام مع أبيه خمساً وثلاثين سنة إلّا شهرين، وأقام بعد مضيّ أبيه تسع عشرة سنة.

فصل
في أيام الصادق عليه السلام

وهو جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين، وكنيته أبو عبدالله، لقبه: الصادق، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الاثنين، شهر ولادته سابع عشر ربيع الأوّل، سنة ولادته ثلاث وثمانون، ملك وقت ولادته عبدالملك بن مروان، اسم أمّه أمّ فروة بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر، وأمّها أسماء بنت عبدالرحمن بن أبي بكر، نقش خاتمه الله خالق كل شيء، عدد أزواجه امرأتان عدا السراري، عدد أولاده عشرة، مدة عمره خمس وستّون، يوم وفاته الاثنين، شهر وفاته منتصف رجب، سنة وفاته ثمان وأربعون مائة، مكان وفاته المدينة، سبب وفاته سمّوه في عنب، مكان قبره مع أبيه بالبقيع، ملك وقت وفاته المنصور، اسم بوابه المفضّل بن عمر.

قال المفيد: كان الصادق عليه السلام من بين أخوته خليفة أبيه ووصيّه والقائم بالإمامة من بعده، وبرز عنهم بالفضل، وكان أبينهم ذكراً، وأعظمهم قدراً، وأجلّهم في العامّة والخاصّة. ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء

والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل.

وكان يقول: علمنا غابر ومزبور، ونكت في القلوب، ونقر في الأسماع، وإنّ عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة، والجامعة فيها ما يحتاج الناس إليه، فسأل من تفسير هذا الكلام.

فقال: أمّا الغابر فالعلم بما يكون، والمزبور فالعلم بما كان، والنكت في القلوب فهو الإلهام، والنقر في الأسماع فهو حديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، والجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله ولن يخرج حتّى يقوم قائمنا أهل البيت، والجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأُولى، ومصحف فاطمة ففيه ما يكون من حادث وأسماء كل من يملك إلى أن تقوم الساعة، والجامعة كتاب طوله سبعون ذراعاً أملاء رسول الله وخطّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة، حتّى أنّ فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة.

وحكى المفيد أنّ من بني هاشم اجتمعوا بالأبواء بين مكّة والمدينة، وفيهم إبراهيم بن محمّد ابن عليّ بن عبدالله بن العباس، وأخوه أبو جعفر المنصور، وعمّه صالح بن عليّ، وعبدالله بن الحسن، وابناه محمّد وإبراهيم، ومحمّد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، فقال صالح بن عليّ قد علمتم الذين تمد الناس إليهم أعينهم، يعني بني أميّة؛ وقد جمعكم الله في هذا الموضع فاعقدوا الرجل منكم ببيعة تعطونه إيّاها من أنفسكم، وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله لكم، وهو خير الفاتحين فحمد الله عبدالله بن الحسن واثنى عليه، ثم قال لقد علمتم أنّ ابني هذا وأشار إلى ابنه محمّد هو المهدي، فهلمّ لنبايعه، وقال أبو جعفر المنصور: لأي شيء تخدعون أنفسكم، والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أصور أعناقاً ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى يريد محمّد بن عبدالله؛ قالوا والله صدقت إنّ هذا الذي نعلم، فبايعوا محمّد ومسحوا على يديه.

وأرسلوا بذلك إلى جعفر بن محمّد، فقال عبدالله بن الحسن: لا تريدوا جعفر فإنّا نخاف أن يفسد عليكم أمركم. وجاء جعفر بن محمّد فأوسع له عبدالله بن الحسن إلى جنبه، وتكلّم بمثل كلامه، فقال جعفر: لا تفعلوا فإنّ هذا الأمر لم يأت بعد، أن كنت ترى أنّ ابنك هذا هو المهديّ فليس به ولا هذا أوانه، وإن كنت إنّما تريد تخرجه غضباً لله تعالى وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإنّا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك في هذا الأمر، فغضب عبدالله، وقال: لقد علمت خلاف ما تقول ووالله ما أطلعك الله على غيبه، ولكنّك يحملك الحسد، فقال: فوالله ما ذلك يحملني ولكن هذا وأخوته وأبناؤهم دونكم، وضرب بيده على ظهر أبي العباس السفّاح ثم ضرب بيده على كتف عبدالله بن الحسن، وقال: أيّها الشيخ والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك؛ ولكنّها لهم

وإنّ ابنيك لمقتولان، ثم نهض وتوكّأ على يد عبدالعزيز بن عمران الزهري، وقال: أرأيت صاحب الرداء الأصفر يعني أبا جعفر المنصور؟ فقال له: نعم، فقال: إنّا والله نجده يقتله، فقال له عبدالعزيز: أيقتل محمّداً؟ قال: نعم، قال: فقلت في نفسي حسده وربّ الكعبة، قال: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتّى رأيت قتلهما ـ يعني رأيت محمّد بن عبيدالله وأخاه إبراهيم ـ، فلمّا قال جعفر ذلك ونهض نهض القوم وافترقوا، تبعه عبدالصمد وأبو جعفر المنصور، فقالا: يا أبا عبدالله تقول هذا؟ قال: نعم أقوله والله أعلم.

وعن نجاد العابد، قال: كان جعفر بن محمّد عليه السلام إذا رأى محمّد بن عبدالله بن الحسن تغرغرت عيناه ثم يقول: بنفسي هو أنّ الناس لتقول فيه وإنّه لمقتول، ليس في كتاب علي أنّه من خلفاء هذه الأمّة.

وفي إرشاد المفيد ما رواه نقلة الآثار من خبر الصادق عليه السلام مع المنصور لمّا أمر الربيع بإحضاره فأحضره، فلمّا أبصره المنصور قال: قتلني الله إن لم أقتلك! أتلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل؟ فقال له أبو عبدالله: ما فعلت ولا أردت، فإن كان بلغك فمن كاذب، وإن كنت فعلت، فقل: ظلم يوسف فغفر، وابتلي أيوب فصبر، وأعطي سليمان فشكر، فهؤلاء أنبياء الله وإليهم يرجع نسبك، فقال له المنصور: أجل أرتفع هاهنا فارتفع، فقال: إنّ فلان بن فلان أخبرني إنّك بما ذكرت، فقال: احضره يا أمير المؤمنين ليواقفني على ذلك.

فأحضر الرجل المذكور، فقال له المنصور: أنت سمعت ما حكيت عن جعفر؟ قال: نعم، فقال أبو عبدالله: فاستحلفه على ذلك يا أمير المؤمنين، فقال له المنصور: أتحلف؟ قال: نعم، وابتدأ باليمين، فقال أبو عبدالله: دعني يا أمير المؤمنين أحلّفه أنا، فقال: له أفعل، فقال أبو عبدالله للساعي قل: برئت من حول الله وقوّته وألجأت إلى حولي وقوّتي، لقد فعل كذا وكذا جعفر، وقال: كذا وكذا وامتنع هنيئة ثم حلف بها فأبرح حتّى ضرب برجله ومات، فقال أبو جعفر: جرّوه برجله وأخرجوه لعنه الله.

قال الربيع: وكنت رأيت جعفراً حين دخل على المنصور يحرك شفتيه وكلّما حرّكهما سكن غضب المنصور حتى أدناه ورضي عنه، فلمّا خرج من عند أبي جعفر تبعته، فقلت: إنّ هذا الرجل كان من أشدّ الناس غضباً عليك، فلمّا دخلت عليه كنت تحرك شفتيك، وكلّما حرّكتهما سكن غضبه، فبأي شيء كنت تحركهما؟ قال: بدعاء جدّي الحسين بن عليّ عليه السلام، قلت: جعلت فداك وما هذا الدعاء؟ قال: «يا عُدّتي عند شدّتي، ويا غوثي عند كربتي، احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام»، قال الربيع: فحفظت هذا الدعاء فما نزلت بي شدّة قط إلّا دعوت به

ففرج عنّي، قال: وقلت له لم منعت الساعي أن يحلف بالله؟ قال: كرهت أن يراه الله يوحّده ويمجّده فيحلم منه ويؤخر عقوبته، فاستحلفته بما سمعت فأخذه الله تعالى أخذة رابية.

وفي الكافي أنّ أبا جعفر المنصور قال لمحمّد بن الأشعث: أبغِ لي رجلاً له عقل يزوي عنّي، فقال له: إنّي قد أصبته لك هذا ابن مهاجر خالي، قال: فأتيني به، فأتيته بخالي، فقال أبو جعفر: يابن مهاجر خذ هذا المال وأت المدينة، وأت عبدالله بن الحسن بن الحسن وعدة من أهل المدينة فيهم جعفر بن محمّد، فقل لهم: إنّي رجل غريب من أهل خراسان، وبها شيعة من شيعتكم وجّهوا إليكم بهذا المال، وادفع إلى كل واحد منهم على شرط كذا وكذا، فإذا قبضوا المال فقل: إنّي رسول وأحب أن تكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم، فأخذ المال وأتى المدينة ورجع إلى أبي جعفر، فقال له: ما وراءك؟ قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم بقبضهم المال خلا جعفر بن محمّد، فإنّي أتيته وهو يصلّي في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله فجلست خلفه، وقلت حتى ينصرف فأذكر له ما ذكرت لأصحابه، فعجّل وانصرف ثم ألتفت إليّ، فقال: يا هذا اتق الله ولا تغرّ أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله، فإنهم قريبوا العهد بدولة بني مروان وكلّهم محتاج، فقلت: وما ذاك أصلحك الله تعالى؟ قال: فأدنا رأسه منّي فأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك حتى كأنّه كان ثالثنا، فقال أبو جعفر: يا ابن مهاجر إعلم أنّه ليس من أهل بيت نبوّة إلّا وفيه محدّث، وإنّ جعفراً بن محمّد محدّثنا اليوم.

وعن أبي بصير قال: قبض أبو عبدالله جعفر بن محمّد وهو ابن خمس وستين سنة، في عام ثمان وأربعين ومائة، عاش بعد أبي جعفر عليه السلام أربعاً وثلاثين سنة.

فصل
في أيام الكاظم عليه السلام

وهو موسى بن جعفر بن محمّد، وكنيته أبو إبراهيم، لقبه الكاظم، مكان ولادته الأبواء بين مكة والمدينة، يوم ولادته الأحد، شهر ولادته سابع صفر، سنة ولادته لثمان وعشرين ومائة، ملك وقت ولادته إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك، اسم أمّه حميدة أمّ ولد، نقش خاتمه كن من الله على حذر، عدد أزواجه سراري لم يحصرن، عدد أولاده سبعة وثلاثون، مدة عمره خمس وخمسون، يوم وفاته الجمعة، شهر وفاته سادس رجب، سنة وفاته ثلاث وثمانون ومائة، مكان وفاته بغداد، سبب وفاته ـ قال الكفعمي ـ سمّه الرشيد، مكان قبره مقابر قريش، ملك وقت وفاته الرشيد، اسم بوابه محمّد بن الفضل، لقبّ بالكاظم لأنّه كان يحسن إلى من يسيء إليه.

ومن كراماته ما ذكر في كشف الغمّة، عن شقيق البلخي، قال: خرجت حاجّاً سنة تسع وأربعين

ومائة فنزلت القادسيّة، فنظرت إلى فتى حسن الوجه، شديد السّمرة، ضعيف البدن، فوق ثيابه ثوب من صوف، مشتمل بشملة، في رجليه نعلان، وقد جلس منفرداً، فقلت في نفسي: هذا الرجل من الصوفيّة يريد أن يكون كلّاً على الناس في طريقهم، والله لأمضين إليه ولأوبّخنّه، فدنوت منه فلمّا رآني مقبلاً قال يا شقيق: ﴿ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[١]، ثم تركني ومضى، فقلت في نفسي: إنّ هذا الأمر عظيم! قد تكلّم بما في نفسي! ونطق باسمي! وما هذا إلّا عبد صالح لألحقنّه ولأسألنّه أن يحالني، فأسرعت في أثره فلم ألحقه، وغاب عن عيني.

فلمّا نزلنا واقصة[٢] فإذا به يصلّي وأعضاؤه تضطرب ودموعه تجري، فقلت: هذا صاحبي أمضي إليه وأستحلّه، فصبرت حتى جلس وأقبلت نحوه، فلمّا رآني مقبلاً، قال يا شقيق أتل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٣]، ثم تركني ومضى، فقلت: إنّ هذا الفتى من الأبدال، لقد تكلّم عن سرّي مرتين!

فلمّا نزلنا زبالة إذا بالفتى قائم على البير وبيده ركوة يريد أن يستقي ماء، فسقطت الركوة من يده في البئر وأنا أنظر إليه، فرأيته وقد رمق السماء، وسمعته يقول: أنت ربي إذا ظمئت من الماء، وقوّتي إذا أردت الطعام، اللهمّ سيدي مالي غيرها فلا تعدمنيها، فوالله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها، فمدّ يده وأخذ الركوة وملؤها ماء فتوضأ وصلّى أربع ركعات، ثم مال إلى كثيب رمل فجعل يقبض بيده من الرمل ويطرحه في الركوة ويحركه ويشرب، فأقبلت إليه وسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، فقلت له: أطعمني من ما أنعم الله عليك، فقال: يا شقيق لم تزل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنّك بربك، ثم ناولني الركوة فشربت منها فإذا هو سويق وسكر، فوالله ما شربت قط ألذّ منه ولا أطيب ريحاً، فشبعت ورويت وبقيت أيّاماً لا أشتهي طعاماً ولا شراباً.

ثم لم أره حتى دخلنا مكّة، فرأيته ليلة إلى جنب قبّة الشراب في نصف الليل، قائماً يصلّي بخشوع وأنين وبكاء وحنين، فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل، فلمّا رأى الفجر جلس في مصلّاه يسبّح ثم قام فصلى الغداة، وطاف بالبيت أسبوعاً وخرج فتبعته وإذا له حاشية وأموال، وهو خلاف ما رأيته في الطريق، ودار به الناس من حوله يسلّمون عليه، فقلت لبعض من رأيته يقرب منه: من هذا الفتى؟ فقال: هذا موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام،

---

(١) سورة الحجرات: ١٢.

(٢) واقصة: بكسر القاف والصاد المهملة، موضعان، منزل في طريق مكة بعد القرعاء نحو مكة، وناء لبني كعب، وواقصة أيضاً بأرض اليمامة.

(٣) سورة طه: ٨٢.

فقلت: عجبت أن يكون مثل هذه العجائب إلّا لمثل هذا السيّد، فنظم بعض المتقدمين هذه الرائية:

سل شقيق البلخي عنه وما ... عاين منه وما الذي كان أبصر
قال لما حججت عاينت شخصا ... شاحب اللون ناحل الجسم أسمر
سائرا وحده وليس له ... زاد فما زلت دائما أتفكر
وتوهمت أنه يسأل الناس ... ولم أدر أنه الحج الأكبر
ثم عاينته ونحن نزول ... دون قيد على الكثيب الأحمر
يضع الرمل في الاناء ويشربه ... فناديته وعقلي محير
اسقني شربة فناولني منه ... فعاينته سويقا وسكر
فسألت الحجيج من يك هذا ... قيل هذا الإمام موسى بن جعفر

قال المفيد: كان السبب في قبض الرشيد على أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وحبسه، أنّ الرشيد جعل ابنه في حجر جعفر بن محمّد بن الأشعث فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلك، وقال: إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتي ودولة ولدي، فاحتال على جعفر بن محمّد بن الأشعث وكان يقول: بالإمامة حتى داخله وأنس به، وكان يكثر غشيانه في منزله فيقف على أمره ويرفعه إلى الرشيد ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه، ثم قال لبعض ثقاته: تعرفون لي رجلاً من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يعرفني ما أحتاج إليه.

فدلّ على محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد عليه السلام، فحمل إليه يحيى ابن خالد مالاً وكان موسى بن جعفر يأنس بمحمّد بن إسماعيل ويصله ويبره، ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغّبه قصد الرشيد ويعده بالإحسان إليه.

فعمد على ذلك فأحس به ـ عمّه ـ موسى بن جعفر فدعاه، فقال له: إلى أين يابن أخي؟ قال: إلى بغداد، قال: وما تصنع؟ قال: عليّ دين، فقال: أنا أقضي دينك وأفعل بك وأصنع، فلم يلتفت إلى ذلك وعمد على الخروج فاستدعاه عمه أبو الحسن موسى، فقال له: أنت خارج؟ قال: نعم لابدّ لي من ذلك، فقال: انظر يابن أخي واتق الله ولا تؤتم أطفالي، وأمر له بثلاثمائة دينار وأربعة آلاف درهم، فلمّا قام من بين يديه، قال أبو الحسن: لمن حضره والله ليسعين في دمي ويؤتمنّ أولادي، فقالوا: جعلنا الله فداك وأنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله! قال: نعم، حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، «أنّ الرحم إذا قطعت فوصلت فقطعت قطعها الله»، وإنّني أردت أن أصله بعد قطعه، حتى إذا قطعني قطعه الله.

قال: فخرج محمّد بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد، فتعرّف منه خبر عمّه موسى بن جعفر ورفعه إلى الرشيد، فسأله عن عمّه فسعى به إليه.

وقال: ما ظننت أنّ في الأرض خليفتين حتى رأيتك ورأيت عمّي موسى بن جعفر يسلّم عليه بالخلافة، والأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب، وإنّه اشترى ضيعة سمّاها اليسيرية بثلاثين ألف دينار، فقال له صاحبها: وقد أحضر المال لا آخذ هذا النقد وإنّما أخذ نقد كذا وكذا، فأمر بذلك المال فرفع وأعطاه ثلاثين ألف دينار من النقد الذي سأل منه، فسمع الرشيد ذلك من محمّد بن إسماعيل وأمر له بمائتي ألف درهم، تسبب على بعض النواحي فاختار بعض نواحي كور المشرق، ومضت رسله لقبض المال وأقام ينتظرهم، فدخل في بعض تلك الأيام إلى الخلاء فزحر زحرة[1] خرجت منها حشوته[2] كلّها، فوقع لما به وجاء المال وهو ينزع، فقال: ما أصنع به وأنا في الموت؟

وخرج الرشيد في تلك السنة إلى الحج وبدأ بالمدينة فاستقبله موسى بن جعفر في جماعة من الأشراف وانصرف من استقباله إلى المسجد.

وأقام الرشيد إلى الليل وصار إلى قبر رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنّي أعتذر إليك من أمر أريد أن أفعله، أريد أن أحبس موسى بن جعفر فإنّه يريد التشتيت بين أمتك وسفك دمائهم، ثم أمر به فأخذ من المسجد فأُدخل إليه وقيّده واستدعى بقبّتين فجعله في إحديهما على بغل، وجعل القبة الأُخرى على بغل آخر، وخرج البغلان من داره عليهما القبتان مستورتان ومع كل واحدة منهما خيل، فافترقت الخيل فمضى بعضها مع أحدى القبتين على طريق البصرة، والأُخرى على طريق الكوفة. وكان أبو الحسن في القبة التي مضي بها على طريق البصرة.

قال المفيد: وإنّما فعل الرشيد ذلك ليعمي عن الناس الأمر في باب أبي الحسن، وأمر القوم الذين كانوا مع قبة أبي الحسن أن يسلّموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور، وكان على البصرة حينئذٍ فسلّم إليه فحبسه عنده سنة.

وكتب إليه الرشيد في دمه فأبى وكتب إلى الرشيد، يقول له: قد طال أمر موسى بن جعفر ومقامه في حبسي وقد أختبرت حاله ووضعت عليه العيون طول هذه المدة، فما وجدته يفتر عن العبادة، ووضعت من يسمع منه ما يقول في دعائه فما دعى عليك ولا عليّ، وما ذكرنا بسوء وما يدعوا إلّا بالمغفرة والرحمة لنفسه، وإذا أنت أنفذت إلي من يتسلّمه منّي وإلّا خلّيت سبيله فإنّي متحرّج من حبسه.

فوجّه الرشيد من تسلّمه من عيسى بن جعفر وسيّره إلى بغداد، فسلّم إلى الفضل بن الربيع، فبقي عنده مدّة طويلة فأراده الرشيد على شيء من أمره فأبى.

---

(١) الزحير والزحار: هو استطلاق البطن والتنفس بشدة.

(٢) الحشوة من البطن: الأمعاء. (الصحاح).

فكتب تسليمه إلى الفضل بن يحيى البرمكي، فسلّمه منه وجعله في بعض حجر دوره، ووضع عليه الرصد وكان عليه السلام مشغولاً بالعبادة، يحيي الليل كلّه صلاة وقرائة ودعاء واجتهاداً، ويصوم النهار في أكثر الأيام ولا يصرف وجهه عن المحراب، فوسّع عليه الفضل بن يحيى وأكرمه.

فاتصل ذلك بالرشيد وهو في الرقة، فكتب إليه ينكر عليه التوسعة عليه ويأمره بقتله، فتوقف عن ذلك ولم يقدم، فاغتاض الرشيد لذلك، ودعا مسرور الخادم، فقال له: أخرج على البريد في هذا الوقت إلى بغداد، وادخل من فورك على موسى بن جعفر، فإن وجدّته في دعة ورفاهية فأوصل هذا الكتاب إلى العباس بن محمّد ومره بامتثال ما فيه، وسلّم إليه كتاباً آخر إلى السندي بن شاهك، يأمره بطاعة العباس بن محمّد.

فقدم مسرور فنزل دار الفضل بن يحيى، لا يدري أحد ما يريد.

ثم دخل على موسى بن جعفر فوجده على ما بلغ الرشيد، فمضى من فوره إلى العباس بن محمّد والسندي بن شاهك فأوصل الكتابين إليهما، فلم يلبث الناس أن خرج الرسول يركض إلى الفضل بن يحيى، فركب معه وخرج مذعوراً دهشاً حتى يدخل على العباس بن محمّد، فدعا العباس بسياط وأمر بالفضل فجرّد فضربه السندي بن شاهك بين يديه مائة سوط، وخرج متغير اللون خلاف ما دخل، وجعل يسلّم على الناس يميناً وشمالاً.

وكتب مسرور بالخبر إلى الرشيد فأمر بتسليم موسى بن جعفر إلى السندي بن شاهك.

وجلس الرشيد مجلساً حافلاً، وقال: أيّها الناس إنّ الفضل بن يحيى قد عصاني وخالف طاعتي، ورأيت أن ألعنه فالعنوه، فلعنه الناس من كل ناحية حتى ارتج البيت والدار بلعنه.

وبلغ يحيى بن خالد الخبر فركب إلى الرشيد، فدخل من غير الباب التي يدخل الناس منه حتى جاءه من خلفه وهو لا يشعر به، ثم قال: التفت يا أمير المؤمنين فأصغى إليه فزعاً، فقال له: إنّ الفضل حدث وأنا أكفيك ما تريد، فانطلق وجهه وسرّ وأقبل الناس، فقال: إنّ الفضل كان قد عصاني في شيء فلعنته وقد تاب وأناب إلى طاعتي فتوالوه فقالوا: نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت.

ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد، وأظهر أنّه ورد لتعديل السواد والنظر في أمور العمّال، وتشاغل ببعض ذلك أياماً وليالي ثم دعا السندي بن شاهك وأمره أن يجعل سمّاً في طعام موسى بن جعفر ويقدّمه إليه، ويقال: إنّه جعله في رطب، أكل منه فأحسّ بالسم ولبث بعده ثلاثة أيام موعوكاً منه، ثم مات في اليوم الثالث.

فادخل السندي بن شاهك الفقهاء ووجوه أهل بغداد وفيهم الهيثم بن عدي وغيره، فنظروا إليه

ولا أثر به من جراح ولا خنق، وأشهدهم على أنّه مات حتف أنفه فشهدوا على ذلك.

وأخرج ووضع على الجسر ببغداد ونودي، هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنّه لم يمت، فانظروا إليه فنظر الناس إليه ميّتاً، ثم حمل ودفن في مقابر قريش من باب التين، وكان قوم زعموا في أيّامه أنّه هو القائم المنتظر وجعلوا حبسه هو الغيبة المذكورة للقائم.

وروي أنّه لمّا كان محبوساً بعث إلى الرشيد رسالة أنّه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلّا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون.

ولمّا حضرته الوفاة سأل السندي بن شاهك أن يحضر مولى له مدنيّاً ينزل عند دار العباس بن محمّد في مشرعة القصب، ليتولى غسله وتكفينه ففعل ذلك.

قال السندي بن شاهك: وكنت سألته في الإذن لي أن أكفّنه فأبى، وقال: «إنّا من أهل بيت مهور نسائنا وحج صيرورتنا وأكفان موتانا من طاهر أموالنا»، وعندي كفن وأريد أن يتولى غسلي وجهازي مولاي فلان، وتولى ذلك منه.

قال المفيد: وكان مولده بالأبواء سنة ثمان وعشرين ومائة، وقبض لست خلون من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة، وله يومئذ خمس وخمسون سنة، وأمّه أم ولد، يقال لها حميدة البربرية، وبقي بعد أبيه خمساً وثلاثين سنة، وكان يكنّى أبا إبراهيم، وأبا الحسن، وأبا عليّ، ويعرف بالعبد الصالح، وينعت بالكاظم.

فصل
في أيام الرضا عليه السلام

وهو عليّ بن موسى بن جعفر، وكنيته أبو الحسن، لقبه الرضا، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الخميس، شهر ولادته حادي عشر ذي القعدة، سنة ولادته لثمان وأربعين ومائة، ملك وقت ولادته المنصور، اسم أمّه أم البنين أم ولد، نقش خاته أنا لله وليّ، عدد أزواجه امرأة عدا السراري، عدد أولاده ثلاثة، مدة عمره أحدى وخمسون، يوم وفاته الثلاثاء، شهر وفاته سابع عشر صفر، سنة وفاته ثلاث ومائتين، مكان وفاته داره بطوس، ملك وقت وفاته المأمون، اسم بوابه عمر بن الغراب.

كان في المدينة فلمّا قتل الأمين واستولى المأمون، كتب إلى الرضا يستقدمه إلى خراسان، وقال له لا تأخذ على طريق الجبل وقم وخذ على طريق البصرة والأهواز وفارس، فخرج حيث أمره، حتى وافى مرو فعرض عليه المأمون أن يتقلد أمر الخلافة فأبى، فقال: فولاية العهد، فقال: على شروط أسألكها، قال: سل عما شئت، قال: على أن لا آمر ولا أنهي، ولا أفتي ولا أقضى، ولا أولّي

ولا أعزل، ولا أغيّر شيئاً مما هو قائم، فأجابه إلى ذلك، وجمع عليه أصحاب المقالات، مثل الجاثليق، ورأس الجالوت، ورؤس الصابئين، والهربذ الأكبر، وأصحاب زردهشت، وقسطاس الرومي، وعمران الصابي، والمتكلمين ليحاجّوه، فدحظ حجّة الجميع، فزوّجه المأمون ابنته أم حبيب سنة أحدى ومائتين، وجعله وليّ عهده وضرب السكّة باسمه، وأمر بطرح السواد ولبس الخضرة.

وقال له: ما يقول بنو أبيك في جدّنا العباس؟ قال: ما يقولون في رجل فرض الله طاعة نبيّه على خلقه، وفرض طاعته على نبيّه، فأمر له بألف ألف درهم.

وخرج أخوه زيد على المأمون بالبصرة، وفتك بأهلها فأرسل إليه الرضا فجاء فقال له: ويلك يا زيد فعلت بالمسلمين وتزعم أنّك ابن فاطمة! وأنّ الله حرّم ذرّيتها على النّار، والله لأشدّ الناس عليك رسول الله، يا زيد ينبغي لمن يأخذ برسول الله صلى الله عليه وآله أن يعطي به، فلمّا بلغ المأمون ذلك بكى، وقال: هكذا ينبغي أن يكون أهل بيت رسول الله.

وحضر زيد فقال له المأمون: يا زيد تحرق دورنا قبل دور بني أُميّة، فقال: يا أمير المؤمنين إذا خرجت مرّة أخرى أحرق دور بني أميّة قبل دوركم، فقال: يا أحمق قد وهبت دمك لأخيك، وكتب المأمون للرضا بخطّ يده.

قال علي بن عيسى إنّه رآه وكتبه في كشف الغمة في أوله:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتبه عبدالله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين لعليّ بن موسى ابن جعفر وليّ عهده.

أمّا بعد: فإنّ الله عزّ وجلّ اصطفى الإسلام ديناً واصطفى له من عباده رسلاً دالّين عليه وهادين إليه، يبشّر أوّلهم بآخرهم ويصدّق تاليهم ماضيهم، حتى انتهت نبوّة الله إلى محمّد بن عبدالله على حين فترة من الرسل، ودروس من العلم وانقطاع من الوحي واقتراب من الساعة، فختم الله به النبيين وجعله شاهداً لهم ومهيمناً عليهم، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد بما أحلّ وحرّم ووعد وأوعد وحذّر وأنذر وأمر به ونهىٰ عنه، لتكون له الحجّة البالغة على خلقه، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، وأنّ الله لسميع عليم، فبلّغ عن الله رسالته، ودعا إلى سبيله بما أمر به من الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ثم بالجهاد والغلظة حتى قبضه الله إليه وأختار له ما عنده.

فلمّا انقضت النبوّة وختم الله بمحمّد الوصيّ والرسالة، جعل قوام الدين وإتمام أمر المسلمين بالخلافة، وإتمامها وعزّها ونضامها والقيام بحق الله بالطاعة التي بها يقام بها فرائض الله وحدوده

وشرائع الإسلام وسننه ويجاهد بها عدوّه، فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده، وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونتهم على إقامة حق الله وعدله وأمن السبيل وحقن الدماء وصلاح ذات البين وجمع الألفة، وفي خلاف ذلك اضطراب حبل المسلمين واختلاف ملّتهم وقهر دينهم واستعلاء عدوهم وتفرق الكلمة وخسران الدنيا والآخرة، فحقّ على من استخلفه الله في أرضه، وائتمنه على خلقه، أن يجهد لله نفسه ويؤثر ما فيه رضا الله وطاعته، ويعتد لما الله مواقفه عليه ومسائله عنه، ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمّله الله وقلّده، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول لنبيّه داود: **﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾**(١)، وقال عزّ وجلّ: **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**(٢).

وبلغنا أنّ عمر بن الخطاب قال: لو ضاعت سخلة بشاطئ الفرات لتخوّفت أن يسألني الله عنها، وأيم الله إن المسؤول عن خاصّة نفسه الموقوف على عمله فيما بينه وبين الله، ليتعرض على أمر كبير وعلى خطر عظيم، فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمّة، وبالله الثقة وإليه المفزع والرغبة في التوفيق والعصمة والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجّة، والفوز من الله بالرضوان والرحمة، وأنظر الأمّة لنفسه وأنصحهم لله في دينه وعباده من خلائقه في أرضه، من عمل بطاعة الله وكتابه وسنّة نبيّه في مدّة أيّامه وبعدها، وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهده، ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده، وينصبه علماً لهم ومفزعاً في جميع ألفتهم ولمّ شعثهم وحقن دمائهم، والأمن بإذن الله من فرقتهم وفساد ذات بينهم وأختلافهم ورفع نزغ الشيطان عنهم، فإنّ الله عزّ وجلّ جعل العهد بعد الخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعزّه وصلاح أهله، وألهم خلفائه من توكيده لمن يختارونه له من بعدهم، ما عظمت به النعمة وشملت فيه العافية، ونقض الله بذلك مكر أهل الشقاق والعداوة والبغي في الفرقة والتربّص للفتنة. ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة فاختبر بشاعة مذاقها وثقل محملها شدّة مؤنتها، وما يجب على من تقلّدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حمله منها، فأنصب بدنه وأسهر عينه وأطال فكره فيما فيه عزّ الدين وقمع المشركين وصلاح الأمّة، ونشر العدل وإقامة الكتاب والسنّة، ومنعه ذلك من الخفض والدعة ومهنأ العيش علما بما الله مسائله عنه، ومحبة أن يلقى الله مناصحاً له في دينه وعباده، ومختار الولاية عهده

(١) سورة ص: ٢٦.

(٢) سورة الحجر: ٩٢ و٩٣.

ورعاية الأمّة من بعده أفضل من يقدر عليه في ورعه ودينه وعلمه، وأرجأهم للقيام في أمر الله وحقّه، مناجياً لله تعالى بالإستخارة في ذلك ومسألته الهامّة ما فيه رضاه وطاعته في آناء ليله وآناء نهاره، معملاً في طلبه والتماسه في أهل بيته من ولد عبدالله بن العباس وعليّ بن أبي طالب فكره ونظره، مقتصراً لمن علم حاله ومذهبه على علمه، وبالغاً في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته. حتى استصقى أمورهم ومعرفة، وابتلى أخبارهم مشاهدة، واستبرأ أحوالهم معاينة، وكشف ما عندهم مسائلة، وكانت خيرته بعد استخارة الله وإجهاده نفسه في قضاء حقّه في عباده وبلاده في البيتين جميعاً علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب لمّا رأى من فضله البارع، وعلمه الناصع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخلّيه من الدنيا، وتسلّمه من الناس، وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطئة، والألسن عليه متّفقة، والكلمة فيه جامعة، ولمّا لم يزل يعرّفه به من الفضل نافعاً وناشئاً وحدثا ومكتهلاً، فعقد له بالعهد والخلافة من بعده، واثقاً بخيرة الله في ذلك إذ علم الله أنّه إيثاراً له وللدين ونظراً للإسلام والمسلمين، وطلباً للسلامة وثبات الحجّة والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين.

ودعا أمير المؤمنين ولده وأهل بيته وخاصّته وقوّاده وخدمه فبايعوه مسرعين مسرورين، عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم، ممن هو أشبك رحماً وأقرب قرابة وسمّاه الرضا إذا كان رضا عند أمير المؤمنين فبايعوا أهل بيت أمير المؤمنين في قضاء حقّه في رعايتكم، وحرصه على رشدكم، وصلاحكم راجين عائدة ذلك في جميع إلفتكم، وحقن دمائكم، ولمّ شعثكم، وسدّ ثغوركم، وقوّة دينكم، وقمع عدوكم، واستقامة أموركم، وسارعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين فإنّه الأمن إن سارعتم إليه وحمدتم الله عليه، عرفتم الحظ فيه إنشاء الله، وكتب بيده عبدالله المأمون في يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة أحدى ومائتين.

وصورة ما كان على ظهر العهد بخط الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم الفعّال لما يشاء، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وصلّى الله على محمّد نبيّه خاتم النبييّن وآله الطاهرين.

أقول: وأنا علي بن موسى بن جعفر إنّ أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووفقّه للرشاد، عرف من حقنا ما جهله غيره؛ فوصل أرحاماً قطعت، وأمن نفوساً فزعت، بل أحياها وقد تلفت، وأغناها إذا افتقرت، مبتغياً رضا ربّ العالمين، لا يريد جزاءاً من غيره، وسيجزي الله الشاكرين، ولا يضيع أجر المحسنين، إنّه جعل إلي عهده والإمرة الكبرى إن بقيت بعده، فمن حل عقدة أمر الله بشدّها، وقصم عروة أحبّ الله إيثاقها، فقد أباح حريمه وأحلّ محرمه، إذا كان بذلك زارياً على الإمام منتهكاً حرمة الإسلام، بذلك جرى السالف فصبر منه على الفلتات، ولم يعترض بعدها على

الغرمات، خوفاً من شتات الدين واضطراب حبل المسلمين، ولقرب أمر الجاهليّة، ورصد فرصة تنتهز، وبايقة تبتدر، وقد جعلت الله على نفسي إن استرعاني أمر المسلمين، وقلّدني خلافته العمل فيهم عامة، وقربى العباس خاصة، بطاعته وطاعة رسوله، أن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيح فرجاً ولا مالاً إلّا ما سفكته حدود الله، وأباحته فرايضه، وأن أتخير الكفاة جهدي وطاقتي، وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً، يسألني الله عنه فإنّه عزّ وجلّ يقول: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾**، **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾** وإن أحدثت أو غيّرت أو بدلّت كنت للغير مستحقاً، وللنكال متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه، وإليه أرغب في التوفيق لطاعته، والحول بيني وبين معصيته، في عافية لي وللمسلمين. والجامعة والجفر يدلّان على ضد ذلك، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم **﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ﴾**[1]؛ ولكن امتثلت أمر أمير المؤمنين وآثرت رضاه، والله يعصمني وإيّاه، وأشهدت الله على نفسي بذلك، وكفى بالله شهيداً.

وكتبت بخطي بحضرت أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ، والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكثم، وعبدالله بن طاهر، وثمامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر، وحماد بن النعمان في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

وكتب يحيى بن أكثم شهادته على الجانب الأيمن، وكذلك عبدالله بن طاهر، وحماد بن النعمان، وبشر بن المعتمر.

وكتب الفضل بن سهل على الجانب الأيسر ورسم أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ بقراءة هذه الصحيفة التي هي ـ صحيفة الميثاق ـ يرجو أن يجوز بها السراط ظهرها وبطنها، بحرم سيّدنا رسول الله ﷺ بين الروضة والمنبر، على رؤس الأشهاد بمرأى ومسمع من وجوه بني هاشم، وسائر الأولياء والأجناد، بعد استيفاء شروط البيعة عليهم بما أوجب أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ الحجّة على جميع المسلمين، تبطل الشبهة التي كانت اعترضت آراء الجاهلين **﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾**[2].

وكتب المأمون بذلك إلى الآفاق وطرح السواد ولبس الخضرة، فأظهر العباسيّون الخلاف وأنكروا عليه جعل الخلافة في آل علي، وتفويض الأمور إلى الحسن بن سهل. وبايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي عمّ المأمون.

وجرت حروب وقتال فسار المأمون من مرو إلى العراق، فلمّا وصل سرخس وثب أربعة على

---

(١) سورة الأنعام: ٥٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

الفضل بن سهل وزير المأمون فقتلوه في الحمام.

وزوّج المأمون ابنته أم حبيب من عليّ الرضا، فلمّا دخلت سنة ثلاث ومائتين مات عليّ الرضا فجأة بطوس على قول أهل التاريخ، وصلّى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد، وكتب إلى بغداد بموته وأنّ السبب في اختلافهم عليه قد زال.

وخلعوا إبراهيم بن المهدي واختفى إلى أن قدم المأمون بغداد، وكانت ولايته نحو سنة أو عشرة أشهر.

وقال محمّد بن يعقوب في الكافي، ولد أبو الحسن الرضا عليه السلام سنة ثمان وأربعين ومائة، وقبض في صفر من سنة ثلاث ومائتين، وهو ابن خمس وخمسين سنة بطوس في قرية يقال لها سناباد من نوقان على دعوة[1]، ودفن بها.

وعن أبي الصلت الهروي قال: دخل دعبل بن عليّ الخزاعي على الرضا بمرو، فقال له: يابن رسول الله إنّي قد قلت فيكم قصيدة، واليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك، فقال: هاتها، فأنشده إيّاها ومنها:

بكيت لرسم الدار من عرفات	وأذريت دمع العين بالعبرات
وفكّ عرى صبري وهاج صبابتي	رسوم ديار قد عفت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحيّ مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى	وبالبيت والتعريف والجمرات
ديار لعبد الله بالخيف من منى	وللسيد الداعي إلى الصلوات
ديار عليّ والحسين وجعفر	وحمزة والسجّاد ذي الثفنات
ديار لعبد الله والفضل صنوه	نجّي رسول الله في الخلوات
وسبطي رسول الله وابني وصيّه	ووارث علم الله والحسنات
منازل وحي الله ينزل بينها	على أحمد المذكور في السورات
منازل قوم يهتدى بهداهم	فتؤمن منهم زلة العثرات
منازل كانت للصلاة وللتقى	وللصوم والتطهير والحسنات
ديار عفاها جور كل منابذ	ولم تعف للأيّام والسنوات
فيا وارثي علم النبى وآله	عليكم سلام دائم النفحات
لقد آمنت نفسي بكم في حياتها	وإنّي لأرجو الأمن عند مماتي

(١) أي: قريب منه.

أحب قصي الرحم من أجل حبّكم وأهجر فيكم زوجتي وبنات
سقى الله قبراً بالمدينة غيثه فقد حلّ فيه الأمن بالبركات
نبيّ الهدى صلّى عليه مليكه وبلّغ عنّا روحه التفحات
وصلّى عليه الله ما ذرّ شارق ولاحت نجوم الليل مبتدرات
أفاطم لو خلت الحسين مجدّلاً وقد مات عطشاناً بشطّ فرات
إذاً للطمت الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير فاندبي نجوم سماوات بأرض فلاة
قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخّ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوزجان محلّها وقبر بباخمرى لدى الغربات
وقبر ببغداد لنفس زكيّة تضمّنها الرحمان في الغرفات

فقال الرضا:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحّت على الأحشاء بالزفرات
إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرّج عنّا الغمّ والكربات

فقال دعبل: يابن رسول الله لمن هذا القبر بطوس؟ فقال: قبري «ولا تنقضي الأيام والسنون حتى تصير طوس مختلف شيعتي، فمن زارني في غربتي كان معي في درجتي يوم القيامة مغفور له» ونهض وقال: لا تبرح، وأنفذ إليه صرّة فيها مائة دينار، فردّها وقال: ما لهذا جئت، وطلب شيئاً من ثيابه فأعطاه جبّة من خز والصرّة. وقال للخادم: قل له خذها فإنّك ستحتاج إليها. فأخذها وسار من مرو في قافلة فوقع عليهم اللصوص وأخذوهم، وجعلوا يقسّمون ما أخذوا من أموالهم، فتمثّل رجل منهم بقول دعبل من القصيدة:

ارى فيئهم في غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات

فقال له دعبل: لمن هذا البيت؟ فقال رجل من خزاعة اسمه دعبل من قصيدة مدح بها مولاي الرضا عليه السلام، فقال: أنا دعبل قائل القصيدة، فقال الرجل لأصحابه: خلّوا عنهم، فحلوا أكتافهم وردّوا عليهم جميع ما أخذوا منهم.

وسار دعبل إلى قم فأنشدهم القصيدة فوصلوه بمال كثير، وسألوه أن يبيع الجبّة منهم بألف دينار فأبى، وسار عن قم فلحقه قوم من أحداثهم وأخذوا الجبّة منه، فرجع وسألهم ردّها، فقالوا: لا سبيل إلى ذلك، فخذ ثمنها ألف دينار، فقال: على أن تدفعوا إليّ شيئاً منها، فأعطوه بعضها وألف دينار، وعاد إلى وطنه فوجد اللصوص قد أخذوا ما في منزله، فباع المائة دينار التي وصلها الإمام عليه السلام من الشيعة كل دينار بمائة درهم، وتذكّر قول الرضا عليه السلام إنّك ستحتاج إليها.

فصل
في أيام الجواد عليه السلام

وهو محمّد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وكنيته أبو جعفر، لقبه الجواد، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الجمعة، شهر ولادته عاشر رجب، سنة ولادته لخمس وتسعين ومائة، ملك وقت ولادته محمّد الأمين، اسم أُمّه الخيزران أم ولد، نقش خاتمه المهيمن عضدي، عدد أزواجه امرأة، عدد أولاده أربعة، مدة عمره خمس وعشرون، يوم وفاته الثلاثاء، شهر وفاته عاشر رجب، سنة وفاته عشرون ومائتان، مكان وفاته بغداد، سبب وفاته قال الكفعمي: سمّه المعتصم، مكان قبره مقابر قريش مع جدّه، ملك وقت وفاته المعتصم، اسم بوابه عثمان بن سعيد.

مضى والده إلى خراسان وتركه بالمدينة وعمره سبع سنين، فلمّا قبض والده قال لمعمر بن خلاد: يا معمر اركب، قال: إلى أين؟ قال: اركب كما يقال لك، قال معمر: فركبت معه فانتهيت إلى واد، فقال لي: قف هاهنا، فوقفت فأتاني، فقلت: جعلت فداك أين كنت؟ قال: دفنت أبي الساعة، وكان بخراسان ونحن بالمدينة.

وقال الشيخ بهاء الدين في مفتاح الفلاح: إنّ المأمون ركب يوماً إلى الصيد، فمرّ ببعض أزقة بغداد على جماعة من الأطفال، فخافوا وهربوا وبقي واحد منهم في مكانه، فتقدّم إليه المأمون، وقال له: كيف لم تهرب كما هرب أصحابك؟ فقال: إنّ الطريق ليس ضيّقاً فيسع بذهابي، ولا لي عندك ذنب فأخافك لأجله، فلأي شيء أهرب؟ فأعجب المأمون كلامه.

فلمّا خرج إلى خارج بغداد أرسل صِقره فارتفع في الهواء ولم يسقط على الأرض، حتى رجع وفي منقاره سمكة صغيرة، فتعجب المأمون من ذلك، فلمّا رجع تفرّق الأطفال وهربوا إلّا ذلك الطفل، فتقدم إليه المأمون وهو ضامّ كفّيه على السّمكة، وقال له: قل لي أي شيء في يدي؟ فقال: إنّ الغيم حين يأخذ من ماء البحر يدخله سمك صغار فتسقط منه، فتصطادها صقور الملوك فيمتحنون بها سلالة النبوّة، فأدهش ذلك المأمون! فقال له: من أنت؟ قال: أنا محمّد بن عليّ الرضا، وكان ذلك بعد واقعة الرضا، وكان عمره في ذلك الوقت أحدى عشرة سنة، فنزل المأمون عن فرسه وقبل رأسه وتذلّل له في الوقت ثم زوّجه ابنته.

وقال المفيد في إرشاده: كان المأمون قد شغف بأبي جعفر عليه السلام لمّا رأى من فضله مع صغر سنّه وبلوغه في الحكمة والعلم والأدب وكمال العقل، مالا يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان،

فزوّجه ابنته أمّ الفضل وحملها معه إلى المدينة، وكان متوافراً على إكرامه وتعظيمه وإجلال قدره.

وأورد حديثاً عن الريّان بن شبيب، قال: لمّا أراد المأمون أن يزوّج ابنته أم الفضل أبا جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام، بلغ ذلك العباسيّين فغلظ عليهم ذلك واستنكروه، وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما انتهى مع الرضا عليه السلام، فخاضوا في ذلك واجتمع أهل بيته الأدنون منهم، فقالوا: ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تقيم على هذا الأمر الذي قد عزمت عليه من تزويج ابن الرضا، فإنّا نخاف أن تخرج به عنّا أمراً قد ملّكناه الله تعالى، وتنزع عنّا عزا قد ألبسناه الله، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك من تبعيدهم والتصغير بهم، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملت، حتى كفانا الله أملهم من ذلك، فالله الله أن تردّنا إلى غمّ قد انحسر عنا، واصرف رأيك عن ابن الرضا، وأعدل إلى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيرهم.

أمّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه، ولو أنصفتم القوم لكان أولى بكم.

وأمّا ماكان يفعله من كان قبلي فقد كان قاطعاً للرحم ـ أعوذ بالله من ذلك ـ والله ما ندمت على ما كان منّي من استخلاف الرضا، ولقد سألته أن يقوم بالأمر وأنزعه من نفسي فأبى، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وأمّا أبو جعفر محمّد بن عليّ فقد أخبرته لتبريزه على كافة أهل الأرض في العلم والفضل مع صغر سنّه ولا أعجوبة فيه بذلك، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما عرفت منه، فيعلمون إنّ الرأي ما رأيت فيه، فقالوا: إنّ هذا الصبي وإن رأى هديه فإنّه صبي لا معرفة له ولا فقه، فأمهله ليتأدب ويتفقّه في الدين، ثم أصنع ما تراه بعد ذلك، فقال لهم: ويحكم إنّي أعرف بهذا الصبي منكم، وإنّ هذا من أهل بيت علمهم من الله وموادّه وإلهامه، لم يزل آباؤه أغنياء من علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حد الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يبيّن لكم ما وصفت من حاله، فقالوا له: رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه، فخلّ بيننا لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لها اعتراض، وظهر للخاصّة والعامّة سديد رأي أمير المؤمنين، وإن عجز عن ذلك كفينا الخطب من ذلك في معناه، فقال: شأنكم وذاك متى أردتم.

فخرجوا من عنده وأجمع رأيهم على يحيى بن أكثم، وهو يومئذ قاضي الزمان على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب عنها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وعادوا إلى المأمون فسألوه أن يختار لهم يوماً الاجتماع فأجابهم إلى ذلك، واجتمعوا في اليوم الذي اتّفقوا عليه.

وحضر معهم يحيى بن أكثم، وأمر المأمون أن يفرش لأبي جعفر دست، ويجعل فيه مسورتان

ففعل ذلك، وخرج أبو جعفر فجلس بين المسوارتين، وجلس يحيى بن أكثم بين يديه وقام الناس في مراتبهم، والمأمون جالس في دست متصل بدست أبي جعفر، فقال يحيى بن أكثم: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر؟ فقال له المأمون: استأذنه في ذلك، فأقبل عليه يحيى بن أكثم، فقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: سل إن شئت، فقال يحيى: ما تقول جعلت فداك في محرم قتل صيداً؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: قتله في حلّ أو حرم؟ عالماً كان المحرم أم جاهلاً؟ قتله عمداً أم خطأً؟ حراًكان المحرم أم عبداً؟ صغيراًكان أو كبيراً؟ مبتدئاً بالقتل أو معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها؟ من صغار الصيد كان أو من كباره؟ مصرّاً على ما فعل أو نادماً؟ ليلاًكان قتله الصيد أو نهاراً؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟ فتحير يحيى ابن اكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع، وتلجلج حتى عرف جماعة أهل المجلس أمره.

فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في هذا الرأي، ثم نظر إلى أهل بيته وقال لهم: أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه؟ ثم أقبل على أبي جعفر فقال له: يا أبا جعفر اخطب جعلت فداك لنفسك! فقد رضيتك لنفسي وأنا مزوّجك أمّ الفضل ابنتي، وإن رغم قوم لذلك.

فقال أبو جعفر: الحمد لله إقراراً بنعمته، ولا إله إلّا الله إخلاصاً لوحدانيّته، وصلى الله على سيّد بريتّه، والأصفياء من عترته.

أمّا بعد: فقد كان من فضل الله على الأنام أن أغناهم بالحلال من الحرام فقال سبحانه: **﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[1]، ثم أنّ محمّد بن علي ابن موسى يخطب أمّ الفضل بنت عبدالله المأمون، وقد بذل لها من الصداق مهر جدّته فاطمة بنت محمّد عليهما السلام وهو خمسمائة درهم جياد، فهل زوّجته يا أمير المؤمنين بها على هذا الصداق المذكور؟ فقال المأمون: نعم زوجتك يا أبا جعفر أمّ الفضل ابنتي على الصداق المذكور، فهل قبلت النكاح؟ قال: قد قبلت ذلك ورضيت به، فأمر المأمون أن تقعد الناس على مراتبهم.

قال الريّان: وأخرج الخدّام شيئاً مثل السفينة من فضّة فيها الغالية، فطيّب الخاصّة والعامّة، ووضعت الموائد فأكلوا، وفرّقت الجوائز على قدر مراتبهم، وانصرف الناس وبقي من الخاصّة من بقي.

فقال المأمون لأبي جعفر: إن رأيت جعلت فداك أن تذكر الفقه فيما فصّلته من وجوه قتل

(١) سورة النور: ٣٢.

المحرم الصيد لنعلمه ونستفيده.

فقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ المحرم إذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير، وكان من كبارها فعليه شاة، فإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً، وإذا قتل فرخاً في الحلّ فعليه حمل قد فطم من اللبن، فإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ، وإن كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة، وإن كان نعامة كان عليه بدنة، وإن كان ظبياً فعليه شاة، فإن قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً ﴿هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[1]، وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه وكان إحرامه للحج نحره بمنى، وإن كان إحرامه للعمرة نحره بمكّة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمد له المأثم، وهو موضوع له في الخطأ، والكفارة على الحرّ في نفسه، وعلى السيّد في عبده، والصغير لا كفارة عليه، وهي على الكبير واجبة، والنادم يسقط عنه بندمه عقاب الآخرة، والمصرّ [يجب] عليه العقاب في الآخرة.

فقال المأمون: أحسنت يا أبا جعفر أحسن الله إليك، فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك، فقال أبو جعفر ليحى: أسألك؟ فقال: ذلك إليك جعلت فداك، وإن عرفت جواب ما تسألني وإلّا استفدته منك، فقال له أبو جعفر: أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا أرتفع النهار حلّت له، فلمّا زالت الشمس حرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر حلّت له، فلمّا غربت الشمس حرمت عليه، فلمّا دخل وقت العشاء حلت له، فلمّا كان انتصاف الليل حرمت عليه، فلمّا طلع الفجر حلّت له، ما حال هذه المرأة وبم ذا حلّت له وحرمت عليه؟

فقال يحيى بن أكثم: لا والله لا اهتدي إلى جواب هذا السؤال ولا أعرف الوجه فيه؟ فإن رأيت أن تفيدناه، فقال أبو جعفر: هذه أمة لرجل من الناس، نظر إليها أجنبي في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا أرتفع النهار ابتاعها من مولاها فحلت له، فلمّا كان وقت الظهر أعتقها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر تزوجها فحلت له، فلمّا كان وقت المغرب ظاهر منها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت عشاء الآخرة كفّر عن الظهار فحلت له، فلمّا كان نصف الليل طلّقها واحدة فحرمت عليه، فلمّا كان الفجر راجعها فحلت له.

فأقبل المأمون على من حضره من أهل بيته، فقال لهم: هل فيكم أحد يجيب عن هذه المسألة بمثل هذا الجواب، ويعرف القول فيما تقدم من السؤال؟ قالوا: لا والله إنّ أمير المؤمنين أعلم وما رأى أصوب، فقال لهم: ويحكم! أنّ أهل هذا البيت خصّوا من بين الخلق بما ترون من الفضل، وإن

---

(١) سورة المائدة: ٩٥.

صغر السنّ فيهم لا يمنعهم من الكمال، أما علمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء عليّ عليه السلام وهو ابن عشرة سنين، وقبل منه الإسلام وحكم له به ولم يدع أحداً في سنّه غيره، وبايع الحسن والحسين وهما ابنا دون الست سنين ولم يبايع صبياً غيرهما، أفلا تعلمون الآن ما خصّ الله به هؤلاء القوم وإنّهم ذرية بعضها من بعض، يجري لآخرهم ما يجري لأوّلهم، قالوا: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ثم نهض القوم.

فلمّا كان من الغد حضر الناس وحضر أبو جعفر، وصار القوّاد والحجّاب والخاصّة والعامّة لتهنئة المأمون وأبي جعفر، فأخرجت ثلاثة أطباق من الفضّة وفيها بنادق مسك وزعفران معجون في أجواف تلك البنادق، رقاع مكتوبة بأموال جزيلة وعطايا سنيّة واقطاعات، فأمر المأمون بنثرها على القوم من خاصّة، فكان كل من وقع في يده بندقة، أخرج الرقعة التي فيها والتمسه فأطلق له، ووضعت البدر فنثر ما فيها على القوّاد وغيرهم، وانصرف الناس وهم أغنياء بالجوائز والعطايا، وتقدّم المأمون بالصدقة على كافة [المساكين]، ولم يزل مكرماً لأبي جعفر معظّماً لقدره مدة حياته، يؤثر على ولده وجماعة أهل بيته.

ولمّا توجّه أبو جعفر من بغداد منصرفاً من عند المأمون، ومعه زوجته أمّ الفضل قاصداً بها المدينة، صار إلى شارع باب الكوفة ومعه الناس يشيّعونه، فانتهى إلى دار المسيّب عند مغيب الشمس، فنزل ودخل المسجد وكان في صحنه نبقة لم تحمل بعد، فدعا لكوز ماء فتوضأ في أصل النبقة وقام فصلّى بالناس صلاة المغرب، فقرأ في الأُولى الحمد، وقل هو الله أحد، وإذا جاء نصر الله والفتح، وقرأ في الثانية الحمد، وقل هو الله أحد، وقنت قبل ركوعه، وصلّى الثالثة وتشهّد وسلّم ثمّ جلس هنيئة يذكر الله، وقام من غير أن يعقب فصلّى النوافل أربع ركعات وعقّب بعدها وسجد سجدتي الشكر، فلمّا انتهى إلى النبقة رآها الناس وقد حملت حملاً جنياً، فتعجّبوا من ذلك وأكلوا منها فوجدوه نبقاً حلواً لا عجم له، وودّعوه ومضى من وقته إلى المدينة.

وتسرّى على أمّ الفضل فكتبت إلى أبيها المأمون تشكو أبا جعفر وتقول: أنّه تسرّى عليّ، فكتب إليها المأمون يا بنيّة إنّا لم نزوّجك أبا جعفر! لنحرّم عليه حلالاً فلا تعاودي لذكر ما ذكرت بعدها.

فلم يزل أبو جعفر في المدينة إلى أن أشخصه المعتصم في أوّل سنة عشرين ومائتين إلى بغداد، فأقام بها حتى توفيّ في آخر ذي القعدة من هذه السنة، ودفن في ظهر جدّه أبي الحسن موسى بن جعفر.

وعن محمّد بن سنان قال: قبض أبو جعفر محمّد بن عليّ وهو ابن خمس وعشرين سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوماً، وتوفّي يوم الثلاثاء لست خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، عاش بعد أبيه تسعة عشرة سنة إلّا خمسة وعشرين يوماً والله أعلم.

فصل
في أيام الهادي عليه السلام

وهو عليّ النقي بن محمّد الجواد بن الرضا، وكنيته أبو الحسن، لقبه الهادي، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الجمعة، شهر ولادته ثاني رجب، سنة ولادته اثنى عشر ومائتين، ملك وقت ولادته المأمون، اسم أمّه سمانة أم ولد، نقش خاتمه حفظ العهود من أخلاق المعبود، عدد أزواجه سريّة واحدة، عدد أولاده خمسة، مدة عمره أحدى وأربعون، يوم وفاته الاثنين، شهر وفاته ثالث رجب، سنة وفاته لأربع وخمسين ومائتين، مكان وفاته داره بسرّ من رأى، ملك وقت وفاته المعتزّ، اسم بوابه عثمان بن سعيد.

ربّي بالمدينة وكان سبب وروده سرّ من رأى على ما ذكر المفيد وغيره، أنّ عبدالله بن محمّد كان يتولى الحرب والصلاة في مدينة الرسول، فسعى بأبي الحسن إلى المتوكل وكان يقصده بالأذى، وبلغ أبا الحسن سعايته فكتب إلى المتوكل يذكر له تجاهل عبدالله بن محمّد ويكذّبه فيما سعى به، فكتب إليه المتوكل كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فإنّ أمير المؤمنين عارف بقدرك، راع لقرابتك، موجب لحقك، مؤثر فيك وفي أهل بيتك، ما أصلح الله به حالك وحالهم، وثبّت به عزّك وعزهم، وأدخل اليمن والأمن عليك وعليهم، يبتغي بذلك رضاء ربّه، وأداء ما افترض عليه فيك وفيهم وقد رأى أمير المؤمنين صرف عبدالله بن محمّد عمّا كان يتولاه من الحرب والصلاة بمدينة الرسول، على ما ذكرت من جهالته بحقك، واستخفافه بقدرك، وعندما قذفك به ونسبك إليه من الأمر الذي قد علم أمير المؤمنين براءتك منه، وصدق نيّتك في ترك محاولته، وإنّك لم تؤهّل نفسك له، وقد ولي أمير المؤمنين محمّد بن الفضل، وأمره بإكرامك وتبجيلك والانتهاء إلى أمرك ورأيك، لتقرب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بذلك، وأمير المؤمنين مشتاق إليك يحبّ إحداث العهد بك والنظر إليك، فإن نشطت لزيارته والمقام قبله ما رأيت شخّصت، ومن أحببت من أهل بيتك ومواليك وحشمك على مهلة وطمأنينة ترحل إذا شئت، وتنزل إذا شئت، وتسير كيف شئت، وإن أحببت أن يكون يحيى ابن هرثمة مولى أمير المؤمنين ومن معه من الجند مشيّعين لك، ويرحلون برحيلك، ويسيرون بسيرك، فالأمر في ذلك إليك، حتى توافي أمير المؤمنين، فما أحد من أخوته وولده وأهل بيته وخاصته، ألطف منه منزلة ولا أحمد له إثرة ولا هو لهم انظر وعليهم أشفق وبهم أبر وإليهم أسكن منه إليك إن شاء الله تعالى.

ودعا المتوكل يحيى بن هرثمة وقال له: أختر ثلاثمائة رجل ممن تريده واخرجوا إلى الكوفة، فخلّفوا أثقالكم فيها واخرجوا على طريق البادية إلى المدينة، فاحضروا عليّ بن محمّد بن الرضا إلى عندي مكرّماً معظّماً.

قال يحيى: ففعلت وخرجنا وكان في أصحابي قائد من الشراة أي من الخوارج الذين زعموا أنّهم شروا أنفسهم بقتال عليّ عليه السلام، وكان لي كاتب متشيّع وأنا على مذهب الحشوية، وكان الشرائي يناظر الكاتب وكنت استريح إلى مناظرتهما لقطع الطريق، فلمّا صرنا وسط الطريق قال الشاري للكاتب: أليس قول صاحبكم عليّ بن أبي طالب ليس من الأرض بقعة إلّا وهي قبر أو ستكون قبراً؟! فانظر إلى هذه البريّة العظيمة أين من يموت فيها حتى يملأها الله قبوراً؟ وتضاحكنا ساعة إذ أنخذل الكاتب في ايدينا حتى دخلنا المدينة.

فقصدت باب أبي الحسن فدخلت عليه وقرأ كتاب المتوكل، وقال: انزلوا فليس في جهتي خلاف، فلمّا صرت إليه من الغد وكنّا في تموز أشدّ ما يكون من الحرّ، فإذا بين يديه خيّاط يقطع من ثياب غلاظ ـ خفاتين ـ له ولغلمانه، وقال للخياط اجمع عليها جماعة من الخياطين، واعمل على الفراغة منها يومك هذا وبكّر بها إليّ غداً في هذا الوقت، ونظر إليّ وقال: يا يحيى اقضوا وطركم من المدينة في هذا اليوم، واعملوا على الرحيل غداً في هذا الوقت.

فخرجت من عنده وأنا أتعجّب من الخفاتين، وأقول في نفسي: نحن في تموز وحرّ الحجاز، وبيننا وبين العراق عشرة أيّام، فما يصنع بهذه الثياب؟ وقلت في نفسي، هذا رجل لم يسافر وهو يقدّر أن كلّ سفر يحتاج إلى هذه الثياب، وأتعجّب من الروافض حيث يقولون بإمامته هذا مع فهمه هذا، فعدت إليه من الغد في ذلك الوقت فإذا الثياب قد أُحضرت.

وقال لغلمانه: ارحلوا وخذوا لنا معكم لبابيد وبرانس، ثم قال: ارحل يا يحيى، وقلت في نفسي: وهذا أعجب من الأوّل يخاف أن يلحقنا الشتاء في الطريق حتّى أخذ معه اللبابيد والبرانس! فخرجت وأنا أستصغر فهمه، حتى إذا وصلنا إلى موضع المناظرة في القبور، وارتفعت سحابة واسودت وأرعدت وبرقت حتّى إذا صارت على رؤسنا، أرسلت على رؤسنا برد أمثال الصخور وقد شدّ على نفسه وعلى غلمانه الخفاتين ولبسوا اللبابيد والبرانس، وقال لغلمانه: ادفعوا إلى يحيى لباداً وإلى الكاتب برنساً، وتجمعنا والبرد يأخذنا حتى قتل من أصحابي ثمانون رجلاً، وزالت السحابة وعاد الحرّ كما كان.

فقال: يا يحيى أنزل بما بقي من أصحابك فادفن من مات منهم، فكذا يملأ الله هذه البريّة قبوراً.

قال يحيى: فرميت نفسي عن دابتي وعدوت إليه، فقبّلت رجله وركابه، وقلت: أنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأنّكم خلفاء الله في أرضه، فقد كنت كافراً وقد أسلمت الآن

على يديك يا مولاي، قال يحيى: وتشيّعت ولزمت خدمته إلى أن مضى.

قال المفيد: لمّا وصل أبو الحسن إلى سرّ من رأى أمر المتوكل أن يحجب عنه في يومه، فنزل بخان الصعاليك وأقام فيه بقيّة يومه، فدخل عليه صالح بن سعيد، فقال له: جعلت فداك في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع خان الصعاليك، فقال: هاهنا أنت يابن سعيد ثم أومأ بيده، وقال: انظر، قال: فنظرت فإذا بروضات أنيقات، وأنهار جاريات، وجنّات فيها خيرات عطرات، وولدان كاللؤلؤ المكنون، فحار بصري، وكثر عجبي، فقال لي: حيث كنا فلنا هذا يابن سعيد لسنا في خان الصعاليك.

ثم أمر المتوكل بأفراد دار له فانتقل إليها وأقام مدّة مقامه بسرّ من رأى مكرّماً في ظاهر الحال، يجتهد المتوكل في إيقاع حيلة به فلا يتمكن من ذلك؛ فعرض عليه عسكره وأمر أنّ كل فارس يملأ مخلاة فرسه طيناً ويطرحوه في موضع واحد، فصار كالجبل واسمه ـ تل المخالي ـ، وصعد هو وأبو الحسن عليه، وقال: إنّما طلبتك لتشاهد فرسان خيولي، وكانوا قد لبسوا التجافيف وحملوا السلاح وعرضوا بأحسن زينة وأتمّ عدّة وأعظم هيبة.

فقال له أبو الحسن: فهل أعرض عليك عسكري؟ قال: نعم، فدعا الله سبحانه فإذا بين السماء والأرض من المشرق إلى المغرب ملائكة مدجّجون، فغشي على المتوكل، فلمّا أفاق، قال له أبو الحسن: نحن لا ننافسكم في الدنيا، فإنّا مشغولون في الآخرة، فلا عليك شيء ممّا تظنّ، وكان يخاف منه أن يخرج عليه.

وعن ابن أُرومة قال: خرجت إلى سرّ من رأى أيّام المتوكل فدخلت إلى سعيد الحاجب، وقد دفع المتوكل أبا الحسن إليه ليقتله، فقال لي: تحب أن تنظر إلهك؟ فقلت: سبحان الله إلهي لا تدركه الأبصار. فقال: الذي تزعمون أنّه إمامكم! قلت: ما أكره ذلك، قال: قد أمرت بقتله وأنا فاعله غداً، فإذا خرج صاحب البريد فادخل عليه، فخرج ودخلت وهو جالس وهناك [قبر] يحفر فسلّمت عليه وبكيت بكاءً شديداً، فقال: ما يبكيك؟ قلت: ما أرى، قال: لا تبك إنّه لا يتمّ لهم ذلك، وإنّه لا يلبث أكثر من يومين حتى يسفك الله دمه ودم صاحبه، قال: فوالله ما مضى غير يومين حتى قتلا يعني المتوكّل ووزيره الفتح بن خاقان.

وعن علي بن إبراهيم بن محمّد الطائفي[1]، قال: مرض المتوكّل من خراج خرج به فأشرف منه على الموت، فنذرت أمّه إن عوفي أن تحمل إلى أبي الحسن مالاً جليلاً من مالها، فعوفي من مرضه

---

(١) كشف الغمة: ١٧١/٣، وورد في البحار: ١٩٨/٥٠ ح١٠ بلفظ علي بن محمد عن إبراهيم ابن محمد الطاهري ومثله في الإرشاد: ٣٠٢/٢، والكافي: ٤١٧/١ ح٤.

فحملت أمّه إلى أبي الحسن عشرة آلاف دينار تحت ختمها، فلمّا كان بعد أيّام سعى البطحائي بأبي الحسن إلى المتوكّل، وقال: عنده أموال وسلاح.

فتقدّم المتوكّل إلى سعيد الحاجب أن يهجم عليه ليلاً ويأخذ ما يجده عنده من الأموال والسلاح، قال إبراهيم بن محمّد: فقال لي سعيد الحاجب صرت إلى دار أبي الحسن بالليل ومعي سُلّم، فصعدت منه إلى السطح ونزلت من الدرجة إلى بعضها في الظلمة، فلم أدر كيف أصل إلى الدار، فناداني أبو الحسن: يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة، فلم ألبث أن أتوني بشمعة فنزلت، فوجدت عليه جبّة من صوف وقلنسوة منها وسجّادته على حصير وهو مقبل على القبلة، فقال: دونك البيوت فدخلتها وفتّشتها فلم أجد فيها شيئاً، ووجدت البدرة مختومة بخاتم أم المتوّكل وكيساً مختوماً معها، فقال أبو الحسن: دونك المصلّى، فرفعته فوجدت سيفاً في جفن ملبوس، فأخذت ذلك وصرت إلى المتوكّل، فلمّا رأى خاتم أمّه على البدرة بعث إليها، فخرجت فسألها عن البدرة، فقالت:كنت نذرت في علّتك إن عوفيت أن أحمل إليه من مالي عشرة آلاف دينار فحملتها إليه، وهذا خاتمي على الكيس ما حركها، وفتح الكيس الآخر فإذا فيه أربعمائة دينار، فأمر أن يضم إلى البدرة بدرة أخرى، وقال: أحمل ذلك إلى أبي الحسن وردّ السيّف والكيس بما فيه، فحملت ذلك إليه واستحييت منه، فقلت: يا سيدي عزّ عليّ دخولي دارك بغير إذنك، ولكنّي مأمور، فقال لي: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وقال ابن خلكان: أبو الحسن عليّ الهادي بن محمّد بن الجواد بن علي الرضا، ويعرف بالعسكري أحد الأئمة الأثنى عشر، سعي به إلى المتوكّل، وقيل أنّه في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته، وأنّه يطلب الأمر لنفسه، فوجّه إليه من الأتراك من هجم منزله ليلاً على غفلة، فوجده في بيت مغلق عليه مدرعة من شعر، وعلى رأسه قلنسوة من صوف مستقبل القبلة، يترنّم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، جالس على الرمل والحصى، وليس في منزله شيء مما قيل عنه، فحمل إلى المتوكّل على صورته في الليل، فمثل بين يديه والمتوكّل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلمّا رآه أعظمه وأجلسه إلى جانبه وناوله الكأس الذي كان بيده، فقال: يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني فاعفاه، وقال له أنشدني شعراً أستحسنه فقال: إني قليل الرواية له فقال: لا بدّ فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... فأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم   تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهرا وما شربوا   فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فأشفق من حضر المجلس عليه فبكى المتوكل حتى بلّت دموعه لحيته، وبكى من حضره، وأمر برفع الشراب، ثم قال: يا أبا الحسن أعليك دين؟ قال نعم: أربعة آلاف دينار، فأمر بدفعها إليه ورده إلى منزله مكرّماً.

ولد يوم عرفه، وقيل في رجب سنة أربع عشرة ومأتين، وكان بالمدينة ولمّا كثرت السعاية به إلى المتوكل أحضره من المدينة وأقرّه بسر من رأى، وتدعى بالعسكري؛ لأن المعتصم لمّا بناها انتقل إليها بعسكره ولهذا قيل لعليّ الهادي العسكريّ، فأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر وتوفّي بها سنة أربع وخمسين مأتين الله أعلم.

فصل
في أيام العسكري عليه السلام

وهو الحسن بن عليّ الهادي بن محمّد الجواد، وكنيته أبو محمّد الباقر، لقبه العسكريّ، مكان ولادته المدينة، يوم ولادته الاثنين، شهر ولادته رابع ربيع الآخر، سنة ولادته اثنين وثلاثين ومأتين، ملك وقت ولادته الواثق بن المعتصم، اسم أمّه حديث أم ولد، نقش خاتمه أنا الله شهيد، عدد أزواجه سريّة واحدة لا غير، عدد أولاده ذكر وأنثى لا غير، مدة عمره ثمانية وعشرون، يوم وفاته الجمعة، شهر وفاته ثامن ربيع الأوّل، سنة وفاته ستين ومأتين، مكان وفاته داره بسر من رأى، سبب وفاته قال الكفعمي: سمّه المعتمد بن المتوكّل، مكان قبره في الدار مع أبيه، ملك وقت وفاته المعتمد، اسم بوابه عثمان بن سعيد.

قيل: دخل عليه رجل من أهل اليمن، فقال: هذا من ولد الأعرابية صاحبة الحصاة التي طبع آبائي فيها، ثم قال له: هاتها، فأخرج حصاة في جانب منها موضع أملس، فأخذ وأخرج خاتمه وطبعها، فقال أبو هاشم الجعفري في ذلك:

بدرب الحصى مولى لنا يختم الحصى   له الله أصفى بالدليل وأخلصا
وأعطاها آيات الإمامة كلها   كموسى وفلق البحر واليد والعصا
وما قمص الله النبيين حجة   ومعجزة إلّا الوصيين قمصا
ومن كان مرتابا بذاك فقصره   من الأمر أن تتلو الدليل ويفحصا

وقيل له: ألك ولد؟ فقال: سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً، فأمّا الآن فلا، ثم تمثل:

لعـــلك يـــوما ان تـــرانـــي كـــانما بـــنى حـــوالي الأســـود اللـــوابـــد
فـــان تـــميماً قـــبل ان تـــلد الحـــصا اقـــام زمـــانا وهـــو فـــي النـــاس واحـــد

ثم قال:

مـــن كـــان ذا عـــضد يـــدرك ظـــلامته ان الذليـــــل الذي ليست له عـــــضد

فولد له ولده محمّد قبل وفاته بخمس سنين، سنة خمس وخمسين ومأتين.

وفي الكافي عن الحسن بن محمّد الأشعري ومحمّد بن يحيى وغيرهما، قالوا: كان أحمد بن عبيدالله بن خاقان على الضياع والخراج بقم، فجرى في مجلسه يوماً ذكر العلوية ومذاهبهم، فقال: ما رأيت ولا عرفت بسرّ من رأى رجلاً من العلوية مثل الحسن بن عليّ بن محمّد بن الرضا، في هديه وسكونه وعفافه ونبله وكرمه عند أهل بيته وبني هاشم، وتقديمهم إيّاه على ذوي السنّ منهم والخطر، وكذلك القواد والوزراء وعامّة الناس.

فإنّي كنت يوماً قائماً على رأس أبيّ وهو يوم مجلسه للناس، إذ دخل عليه حجّابه فقالوا له: أبو محمّد بن الرضا بالباب، فقال لهم: بصوت عال ائذنوا له، فتعجبت بما سمعت منهم أنّهم جسروا، يكنّون رجلاً على أبي بحضرته، ولم يكن يكنّى عنده إلّا خليفته أو وليّ عهده أو من أمر السلطان أن يكنّى، فدخل رجل أسمر، حسن القامة، جميل الوجه، جيّد البدن، حدث السن، له جلالة وهيبة. فلمّا نظر إليه أبي قام يمشي له خطا، ولا أعلمه فعل هذا بأحد من بني هاشم والقوّاد، فلمّا دنا منه عانقه وقبّل وجهه وصدره وأخذ بيده وأجلسه على مصلّاه الذي كان عليه، وجلس إلى جانبه مقبلاً عليه بوجهه، وجعل يكلّمه ويفديه بنفسه، وأنا متعجب مما أرى منه، إذ دخل الحاجب فقال: الموفق[1] قد جاء، وكان الموفّق أخا الخليفة دخل على أبي تقدم حاجبه وخاصّته وخاصّة قواده فقاموا بين مجلس أبي وبين باب الدار سماطين إلى أن يدخل ويخرج، ولم يزل أبي مقبلاً على أبي محمّد يحدّثه حتى نظر إلى غلمان الخاصّة، فقال: حينئذٍ إذا شئت جعلني الله فداك.

ثم قال: لحجّابه خذوا به خلف السماطين حتى لا يراه هذا ـ يعني الموفّق ـ، فقام وقام أبي وعانقه ومضى، فقلت لحجّاب أبي وغلمانه: ويلكم من هذا الذي كنّيتموه على أبي وفعل معه التواضع والإجلال؟ فقالوا: هذا علويّ، يقال له: الحسن بن عليّ يعرف بابن الرضا.

فازددت تعجباً ولم أزل يومي ذلك قلقاً متفكّراً في أمره وأمر أبي، وما رأيت فيه حتى كان الليل، وكانت عادته يصلّي العتمة ثم يجلس فينظر فيما يحتاج إليه من المؤامرات[2]، وما يرفعه إلى

---

(١) الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله أحمد بن المتوكل وكان صاحب جيشه.

(٢) الائتمار: المشاورة كالمؤامرة والاستئمار والتأمر.

السلطان، ولمّا صلّى وجلس جئت وجلست بين يديه وليس عنده أحد، فقال: يا أحمد ألك حاجة؟ قلت: نعم، يا أبة فان أذنت لي سألتك عنها؟ فقال: قد أذنت لك يا بني فقل ما أحببت، قلت: يا أبة من الرجل الذي رأيتك بالغداة فعلت له الإجلال والكرامة والتبجيل وفديته نفسك وأبويك؟ فقال: يا بنيّ ذاك إمام الرافضة، ذاك الحسن بن عليّ المعروف بابن الرضا، ثم قال: يا بني لو زالت الإمامة عن خلفاء بني العباس ما استحقّها أحد من بني هاشم غير هذا، وإنّ هذا يستحقها في فضله وعفافه وهداه وزهده وصيانته وعبادته وجميل أخلاقه وصلاحه، ولو رأيت أباه رأيت رجلاً جزلاً نبيلاً فاضلاً.

فازددت قلقاً وتفكّراً وغيضاً على أبي وما سمعت منه، واستزدته في فعله وقوله فيه ما قال، فلم يكن لي همّة إلّا السؤال عن خبره والبحث عن أمره، فما سألت أحداً من بني هاشم والقوّاد والكتّاب والقضاة والفقهاء وسائر الناس إلّا وجدتّه عنده في غاية الإجلال والإعظام والمحل الرفيع والقول الجمع، والتقديم له على جميع أهل بيته ومشايخه، فعظم قدره عندي إذ لم أر له وليّا ولا عدوّاً إلّا وهو يحسن القول فيه والثناء عليه.

فقال بعض من حضر مجلسه من الأشعريين: يا أبا بكر فما خبر أخيه جعفر، قال: فمن جعفر؟ فتسأل عن خبره؟ أو يقرن بالحسن جعفر معلن الفسق فاجر شرّيب للخمور أقل من رأيته من الرجال.

وقد ورد على السلطان وأصحابه في وقت وفاة الحسن بن عليّ ما تعجبت منه وما ظننت أنّه يكون، وذلك أنّه لمّا اعتلّ الحسن بعث إلى أبي أنّ ابن الرضا قد اعتل، فركب من ساعته فرسه وبادر إلى دار الخلافة، ثم رجع مستعجلاً ومعه خمسة من خدّام أمير المؤمنين، كلّهم من ثقاته وخاصّته فيهم نحرير[1]، فأمرهم بلزوم دار الحسن وتعرّف خبره وحاله، وبعث إلى نفر من المطبّبين فأمرهم بالاختلاف إليه وتعاهده صباحاً ومساءً، فلمّا كان بعد ذلك بيومين أو ثلاثة أخبر أنّه قد ضعف، فأمر المطبّبين بلزوم داره.

وبعث إلى قاضي القضاة فأحضره مجلسه، وأمره أن يختار له من أصحابه عشرة ممن يوثق به في دينه وأمانته وورعه، فأحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن، وأمرهم بلزومه ليلاً ونهاراً ولم يزالوا هناك حتى توفّي، فصارت سر من رأى ضجّة واحدة.

وبعث السلطان إلى داره من فتّشها وفتّش حجرها، وختم على جميع ما فيها، وطلبوا أثر ولده وجاؤا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن على جواريه ينظرن إليهنّ فذكر بعضهن أنّ هناك جارية بها

(١) كان من خواص خدم الخليفة وكان شقياً من الأشقياء.

حبل، فجعلت في حجرة ووكّل بها نحرير الخادم وأصحابه ونسوة معهم.

ثم أخذوا بعد ذلك في تهيئته، وعطّلت الأسواق وركبت بنو هاشم والقواد [وأبي] وسائر الناس إلى جنازته، فكانت سر من رأى يومئذٍ شبيهاً بالقيامة.

فلمّا فرغوا من تهيئته بعث السلطان إلى أبي عيسى بن المتوكّل فأمره بالصلاة عليه، فلمّا وضعت الجنازة للصلاة عليه دنا أبو عيسى منه فكشف عن وجهه فعرضه على بني هاشم من العلوية والعباسية والقوّاد والكتّاب والقضاة والمعدّلين، وقال: هذا الحسن بن عليّ بن محمّد بن الرضا مات حتف أنفه على فراشه، حضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان، ومن القضاة فلان وفلان، ومن المطببين فلان وفلان، ثم غطّى وجهه وصلّى عليه، وأمر بحمله فحمل من وسط داره ودفن فى البيت الذي دفن فيه أبوه، فلمّا دفن أخذ السلطان والناس في طلب ولده، وكثر التفتيش في المنازل والدور.

وتوقّفوا عن قسمة ميراثه بين أُمّه وأخيه جعفر، وادّعت أُمّه وصيته وثبت ذلك عند القاضي، والسلطان على ذلك يطلب ولده.

فجاء جعفر بعد ذلك إلى أبي، فقال: أجعل لي مرتبة أخي، وأوصل إليك في كل سنة عشرين ألف دينار، فزبره[1] أبي وأسمعه، وقال له: يا أحمق السلطان جرّد سيفه في الذين زعموا أنّ أباك وأخاك أئمة ليردّهم عن ذلك، فلم يتهيأ له ذلك، فإن كنت عند شيعة أبيك وأخيك إماماً فلا حاجة لك إلى السلطان يرتبك مراتبهما، وان لم تكن عندهم بهذه المنزلة لم تنلها بنا، واستقلّه أبي عند ذلك واستضعفه وأمر أن يحجب عنه، فلم يأذن له في الدخول عليه حتى مات أبي، وخرجنا وهو على تلك الحالة والسلطان يطلب أثر ولد الحسن بن عليّ.

وقال الطبرسي في كتاب أعلام الورى: ذهب كثير من أصحابنا إلى أن الحسن العسكري عليه السلام مضى مسموماً، وكذلك أبوه وجدّه وجميع الأئمة خرجوا من الدنيا على شهادة، واستدلوا على ذلك بما رووا عن الصادق عليه السلام: «والله ما منّا إلّا مقتول أو مسموم». ثم قال: والله أعلم بحقيقة ذلك.

فصل
في أيام المهدي عليه السلام

وهو محمّد بن الحسن العسكريّ بن عليّ الهادي، وكنيته أبو القاسم، لقبه الخلف المهدي،

---

(١) أي: زجره.

مكان ولادته بسرّ من رأى، يوم ولادته الجمعة، شهر ولادته نصف شعبان، سنة ولادته خمس وخمسين ومأتين، ملك وقت ولادته المعتمد ابن المتوكّل، اسم أُمّه نرجس أُم ولد، نقش خاتمه أنا حجّة الله في أرضه، عدد أزواجه زوجة من بنات أبي لهب، عدد أولاده الله أعلم، وفاته تكون الجمعة، شهر وفاته وسنة وفاته علم ذلك عند الله، مكان وفاته ومحل قبره عند النبيّ ﷺ، سبب غيابه الخوف، وغاب وعمره عشرة سنين، مكان غيابه في السرداب بسرّ من رأى، ملك وقت غيابه المعتمد ابن المتوكّل، اسم بوابه عثمان بن سعيد.

وفي خبر نقله محمّد بن بابويه في كمال الدين وتمام النعمة أنّ نرجس أمّ المهدي كان اسمها مليكة بنت شيوعا بن قيسر ملك الروم، وأمّها من ولد شمعون الصفا رأس الحواريين، وأنّ جدّها قيصر أراد أن يزوّجها من ابن أخيه فلم يتفق ذلك.

فرأت في منامها كأنّ المسيح وشمعون وعدّة من الحواريين قد اجتمعوا في قصر جدّها قيصر، ونصبوا منبراً يباري السماء علواً، فدخل عليهم محمّد ﷺ مع فتية من بنيه، وقام المسيح وعانقه، وقال له: يا روح الله إنّي جئت خاطباً من وصيّك شمعون فتاته مليكة لابني هذا، وأومأ بيده إلى الحسن العسكري، فنظر المسيح إلى شمعون فقال له: قد أتاك الشرف فصل رحمك برحم رسول الله، قال: قد فعلت، فصعد محمّد ﷺ ذلك المنبر وخطب وزوّجها من ابنه الحسن، وشهد المسيح والحواريون.

ثم وقع عليه السبي فوجّه الهادي بشر بن سليمان النخّاس من ولد ابن أبي أيوب الأنصاري إلى بغداد، فاشتراها من عمر بن يزيد النخّاس بمأتين وعشرين دينار وجاء بها إلى الهادي، وهو بسرّ من رأى فسلّمها إلى اخته حكيمة بنت الجواد.

ثم بعد ذلك أدخلها على ابنه أبي محمّد الحسن، فحملت منه بالمهدي عليه السلام.

قالت حكيمة: فدخلت يوماً على أبي محمّد الحسن، فقال: يا عمة بيتي عندنا الليلة فإنّ الله سيظهر الخلف فيها، قلت: وممن؟ فلست أدري بنرجس حملاً، فقال: يا عمّة إنّ مثلها كمثل أم موسى لم يظهر حملها إلّا وقت ولادتها، فبتّ أنا وهي فلمّا انتصف الليل صليت أنا وهي صلاة الليل، فقلت في نفسي: قد قرب الفجر ولم يظهر ما قال أبو محمّد! فناداني أبو محمّد لا تعجلي يا عمّة، فرجعت إلى البيت خجلة فاستقبلتني نرجس ترتعد، فضممتها إلى صدري وقرأت عليها قل هو الله أحد، وأنا انزلناه في ليلة القدر، وآية الكرسي، فأجابني الخلف من بطنها يقرأ كقرائتي، وأشرق نور في البيت فنظرت وإذا الخلف بجنبها ساجداً إلى القبلة، فأخذته فناداني أبو محمّد من الحجرة تعالي بابني يا عمّة إليّ، قالت: فأتيته به فوضع لسانه في فيه وأجلسه على فخذيه، فقال: يا بني أنطق بإذن الله، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَنُرِيدُ أَن**

نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١]، وصلّى الله على محمّد والمصطفى وعليّ المرتضى وفاطمة الزهراء والحسن والحسين وعليّ بن الحسين ومحمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد وموسى بن جعفر وعليّ بن موسى ومحمّد بن عليّ وعليّ بن محمّد والحسن بن عليّ.

قالت حكيمة: وغمرتنا طيور خضر فنظر أبو محمّد إلى طائر منها فدعاه، فقال: خذه فاحفظه حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره، قالت حكيمة: فقلت لأبي محمّد: ما هذا الطائر؟ وما هذه الطيور؟ قال: هذا جبرئيل وهذه ملائكة الرحمة، ثم قال: يا عمّة ردّيه إلى أمّه كي تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أنّ وعد الله حقّ ولكن أكثرهم لا يعلمون، فرددته إلى أمّه.

ولمّا ولد كان نظيفاً مفروغاً منه، وعلى ذراعه الأيمن مكتوب **﴿جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾**[٢].

قال المفيد: وكان والده قد أخفى مولده وستر أمره، لصعوبة الوقت وشدة طلب سلطان الزمان له، واجتهاده في البحث عن أمره، ولمّا شاع من مذهب الشيعة الإماميّة فيه، وعرف انتظارهم له، فلم يظهر خبر ولده في حياته، ولا عرفه الجمهور بعد وفاته[٣].

بل قال بعض المؤرخين: ولد للحسن العسكري ولده محمّد المنتظر ثاني عشرهم، ويقال له: القائم، والمهدي، والحجّة، ولد في سنة: خمس وخمسين ومائتين، تزعم الشيعة أنّه دخل السرداب الذي بدار أبيه بسرّ من رأى وأمّه تنظر إليه فلم يخرج منه إلى الآن، وكان عمره تسع سنين.

وروي أنّه بقي مع أبيه خمس سنين وبعده مثلها، ولمّا اشتد عليه الخوف غاب وذلك في سنة خمس وستين ومائتين، واختلف الناس في أمره مع اتفاقهم على ظهوره في آخر الزمان.

فزعم قوم أنّه سيولد، وقوم أنّه ولد ومات سنة خمس وستين ومائتين، وعمره عشرة سنين، وقوم أنّه ولد وغاب وعمره عشر سنين، وأثبتوا ذلك بأدلة وبراهين.

وذكروا لوقت ظهوره علامات، منهم المفيد فإنّه قال: قد جاءت الآثار بذكر علامات لزمان قيام القائم المهدي، وحوادث تكون أمام قيامه وآيات ودلالات.

---

(١) سورة القصص: ٥ و٦.

(٢) سورة الإسراء: ٨١.

(٣) الإرشاد: ٢/٣٣٦.

فمنها: خروج السفياني، وقتل الحسني، واختلاف بني العباس في الملك، وكسوف الشمس في النصف من شعبان، وخسوف القمر في آخر الشهر على خلاف العادات، وخسف بالبيداء، وخسف بالمشرق، وركود الشمس عند الزوال إلى أوسط أوقات العصر وطلوعها من المغرب، وقتل نفس زكيّة تظهر في سبعين من الصالحين، وذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام، وهدم حائط مسجد الكوفة، وأقبال رايات سود من قبل خراسان، وخروج اليماني، وظهور المغربي وتملّكه الشامات، ونزول الترك الجزيرة، ونزول الروم الرملة، وطلوع نجم يضئ كما يضئ القمر ثم ينعطف حتى يكاد يلتقي طرفاه، وحمرة تظهر في السّماء وتلتبس في آفاقها، ونار تظهر في المشرق طولاً وتبقى في الجو إلى ثلاثة أيّام أو سبعة أيّام، وتخلع العرب أعنتّها وتملّكها البلاد وخروجها على سلطان العجم، وقتل أهل مصر أميرهم، وخراب الشام، وأختلاف ثلاث رآيات فيها، راية الأصهب وراية الأبقع وراية السفياني، ودخول رآية قيس والعرب إلى مصر، وراية كندة إلى خراسان، وورود خيل من قبل المغرب حتى تربط هنا الحرة، وأقبال رآيات سود من المشرق نحوها، وشقّ في الفرات حتى يدخل في أزقّة الكوفة، وخروج ستين كذّاباً كلّهم يدعي النبوّة، وخروج اثني عشر من آل أبي طالب كلّهم يدّعي الإمامة لنفسه، وإحراق رجل عظيم القدر من شيعة بني العباس بين جلولاء وخانقين، وعقد الجسر مما يلي الكرخ بمدينة بغداد، وارتفاع ريح سوداء بها في أوّل النهار، وزلزلة حتى ينخسف كثير منها، وخوف يشمل أهل العراق وموت ذريع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وجراد يظهر في أوانه وفي غير أوانه حتى يأتي على الزروع والغلّات، وقلّة ريع ما يزرعه الناس، واختلاف سلاطين من العجم، وسفك دماء كثيرة فيما بينهم، وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتلهم مواليهم، ومسخ القوم من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير، وغلبة العبيد على بلاد السادات، ونداء من السماء يسمع أهل الأرض كلّ أهل لغة بلغتهم، ووجه وصدر يظهران للناس في عين الشمس، وأموات ينشرون من القبور حتى يرجعون إلى الدنيا فيتعارفون ويتزاوجون، ثم يختم الله ذلك بأربع وعشرين مطرة تتصل فتحيي الأرض بعد موتها وتعرف بركاتها.

وتزول بعد ذلك كل عاهة عن معتقدي الحق من شيعة المهدي، فيعرفون عند ذلك ظهوره فيتوجّهون نحوه لنصرته، كما جاءت بذلك الأخبار.

قال المفيد: ومن جملة هذه الأحداث محتومة، ومنها مشروطة، والله أعلم بما يكون وإنّما ذكرنا هذا بحسب ما ثبت في الأُصول وتضمّنتها الآثار والمنقول.

ثم قال: وقد روي أنّ مدّة دولة القائم تسع عشر سنة تطول أيّامها وأشهرها، ثم قال: وهذا أمر مغيّب عنّا، وإنّما أُلقي إلينا منه ما يفعله الله جلّ اسمه بشرط يعلمه من المصالح المعلومة ـ له جلّ

اسمه ـ فلسنا نقطع على أحد الأمرين، وإن كانت الروايات بذكر سبع سنين أظهر وأكثر.

ثم قال: وليس بعد دولة القائم لأحد دولة، إلّا ما جاءت به الروايات من قيام ولده إن شاء الله ذلك، فلم ترد على القطع الثابت وأكثر الروايات إنّه لن يمضي مهدي الأُمّة إلّا قبل القيامة بأربعين يوماً، يكون فيها الهرج وعلاماته خروج الأموات، وقيام الساعة للحساب والجزاء، والله أعلم بما كان أو يكون.

وفي الحديث أنّ الحسين يرجع إلى الدنيا ويحكم بعد المهدي.

وفي قول الكسائي في كتاب الملكوت أنّ عيسى بن مريم عليه السلام ينزل من السماء وينصر المهدي، ويحكم بعده بشريعة نبينا محمّد صلى الله عليه وآله، ويتزوّج امرأة من غسان، ويكون مدته أربعين سنة، ثم يخرج يأجوج ومأجوج.

وفي كتاب إعلام الورى عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: المنصور القائم منّا منصور بالرعب، تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهره الله على الدين كلّه ولو كره المشركون، ولا يبقى على وجه الأرض خراب إلّا عمّره، وينزل روح الله عيسى بن مريم ويصلّي خلفه.

قال الراوي: يا ابن رسول الله ومتى يخرج قائمكم؟ قال: إذا تشبّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وركبت ذات الفروج السروج، وقبلت شهادات الزور، وردّت شهادات العدول، واستخفّ الناس بالدماء، وارتكب الزنا، وأكل الربا، واتقى الأشرار من جهة مخافة ألسنتهم، وخروج السفياني من الشام، واليماني من اليمن، وخسف بالبيداء، وقتل غلام من آل محمّد بين الركن والمقام اسمه محمّد بن الحسن النفس الزكية، وجاءت صيحة من السماء بأنّ الحقّ مع عليّ وشيعته فعند ذلك خروج قائمنا، وإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأوّل ما ينطق به: ﴿**بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ**﴾[(١)]، ثم يقول: أنا بقية الله وخليفته عليكم، فلا يسلّم عليه مسلم إلّا قال: السلام عليك يا بقيّة الله في أرضه، فإذا أجتمع له العقد عشرة آلاف رجل فلا يبقى في الأرض معبود دون الله ـ من صنم ـ إلّا وقعت فيه نار وأحترق، وذلك بعد غيبة طويلة ليعلم الله من يطيعه بالغيب ويؤمن به[(٢)].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام خروج السفياني من المحتوم؟ قال: نعم، والنداء محتوم، وقتل النفس الزكية محتوم، وخروج القائم من آل محمّد محتوم، قلت: وكيف يكون

---

(١) سورة هود: ٨٦.

(٢) إعلام الورى: ٢/٢٩٢، كمال الدين: ٣٣٠.

النداء؟ قال: ينادي مناد من السماء أوّل النهار ألا أنّ الحق مع عليّ وشيعته، ثم ينادي إبليس في آخر النهار من الأرض ألا أنّ الحقّ مع عثمان وشيعته، فعند ذلك يرتاب المبطلون.

وعن سيف بن عميرة قال: كنت عند أبي جعفر المنصور، فقال لي ابتداء: يا سيف بن عميرة لابدّ من مناد ينادي من السماء باسم رجل من ولد أبي طالب، فقلت: جعلت فداك يا أمير المؤمنين تروي هذا؟ فقال: إي والذي نفسي بيده لسماع أذني له، فقلت: إنّ هذا الحديث ما سمعته قبل وقتي هذا! فقال: يا سيف إنّه لحقّ، فإذا كان فنحن أوّل من يجيبه، أمّا إنّ النداء إلى رجل من بني عمّنا، فقلت: إلى رجل من ولد فاطمة؟ فقال: نعم يا سيف، لولا إنني سمعت أبا جعفر محمّد ابن عليّ يحدث به، وحدثني به أهل الأرض كلّهم ما قبلته منهم؛ ولكنّه محمّد بن علي يعني الباقر عليه السلام.

فصل
في أعمار المعمرين

وهم الذين طالت أعمارهم في الدنيا ولبثوا فيها كما لبث المهدي وأكثر وأقل.

توفي آدم عليه السلام وعمره تسعمائة وثلاثون سنة، وتوفي شيث وعمره تسعمائة واثنا عشرة سنة، وتوفي آنوش بن شيث وعمره تسعمائة وخمسون سنة، وتوفي قينان بن انوش وعمره تسعمائة وعشرون سنة، ورفع إدريس إلى السماء وعمره ثلاثمائة خمس وستون سنة، وتوفي متوشلخ بن إدريس وعمره تسعمائة وتسع وسبعين سنة، وتوفي نوح وعمره ألف وأربع مائة سنة أو ألفين وخمسمائة، وتوفي سام بن نوح وعمره ستمائة، وتوفي ارفخشد وعمره أربعمائة وثلاثون سنة، وتوفي شالخ بن قينان وعمره أربعمائة وستون سنة، وتوفي عامر بن شالخ وعمره أربعمائة وأربع وستون سنة، وتوفي فالغ بن عابر وعمره ثلاثمائة وثلاثون سنة، وتوفي ارغو بن فالغ وعمره ثلاثمائة سنة وتسع وثلاثون، وتوفي ساروغ بن ارغو وعمره ثلاثمائة وثلاثون سنة، وتوفي عوج بن عناق وعمره أربعة آلاف وخمسمائة سنة، قيل: كانت عناق بنت آدم لصلبه وبقي إبنها عوج إلى أن قتله موسى في التيه، وقيل: توفي شعيب النبيّ عليه السلام وعمره أربعة آلاف سنة، وتوفي لقمان بن عاد صاحب النسور بعد أن عاش عمر سبع أنسر وعمر كل نسر مائتان سنة، وقيل: خمسمائة، وقيل: ثمانمائة، وتوفي عاد بن عوض بن آرم بن سام بن نوح وعمره ألف ومأتا سنة، ذكر أنّه تزوّج ألف امرأة، ورأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وتوفي شدّاد بن عاد وكان ملكه تسعمائة سنة، وتوفي كيومرث بن ارم بن سام بن نوح ـ أوّل ملوك الفرس ـ وعمره على ما قيل ألف سنة، وتوفي جمشيد

الملك الفارسي وعمره تسعمائة سنة، وتوفي أفريدون الملك الفارسي ومدّة ملكه خمسمائة سنة، وتوفي دومغ العمليق ملك مصر أوّل الفراعنة وعمره ثلاثة آلاف سنة، وتوفي ولده الريّان ـ فرعون يوسف ـ وعمره ألف وسبعمائة سنة، وتوفي ذو القرنين الصعب بن الرايش الحميري المذكور في القرآن ومدّة ملكه خمسمائة سنة، وكان الخضر في زمانه وعلى مقدمته في مسيره. وبعده حيّ يرزق وغائب عن الناس، فحاله وعمره أعجب من حال المهدي وعمره.

روي أنّه كان اسمه إلياس بن ملكان[1] بن عامر بن أرفخشد بن سام بن نوح، وإنّما سمي الخضر لأنّه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلّا أخضرت.

وذكر محمّد بن بابويه في كتابه كمال الدين جماعة من المعمّرين نذكر منهم من له شعر مبين، فقال: عاش أوس بن ربيعة بن كعب بن أمية مائتي وأربع عشرة سنة فقال في ذلك:

لقد عمرت حتى مل أهلي ... ثوائي عندهم وسئمت عمري
وحق لمن أتى مأتا عام ... عليه وأربع من بعد عشر
يمل من الثواء وصبح يوم ... يغاديه وليل بعد يسري
فأبلى جدتي وتركت شلوا ... وباح بما أجن ضمير صدري

وعاش نصر بن دهمان مائة وتسعون سنة حتى سقطت أسنانه وخرف عقله وأبيض رأسه، فحزب قومه أمر[2] فاحتاجوا فيه إلى رأيه وعقله فدعوا الله أن يردّ عليه عقله وشبابه فعاد إليه عقله وشبابه وأسودّ شعره فقيل فيه:

لنصر بن دهمان الهنيدة عاشها ... وتسعين حولا ثم قوم فانصاتا
وعاد سواد الرأس بعد بياضه ... وعاوده شرخ الشباب الذي فاتا

وعاش جعشم بن عوف بن حذيمة دهراً طويلاً فقال:

حتى متى جعشم في الاحياء ... ليس بذي أيد ولا غناء
هيهات ما للموت من دواء

وعاش ثعلبة بن كعب بن عبد الأشهل مائتي سنة فقال:

لقد صاحبت أقواما فأمسوا ... خفاتا ما يجاب لهم وعاء
مضوا قصد السبيل وخلفوني ... وطال علي بعدهم الثواء
فأصبحت الغداة رهين بيتي ... وأخلفني من الموت الرجاء

---

(١) في كمال الدين وتمام النعمة والمعارف لابن قتيبة (بليا بن ملكان).

(٢) حزبه أمر: أي نزل به مهم أو أصابه غم.

وعاش رداد بن ذهل بن قيس النخعي ثلاثمائة سنة فقال:

لم يبق ياخذلة من لداتي	أبو بنين لا ولا بنات
ولا عقيم غير ذي سبات	إلّا ويعد اليوم في الأموات

هل مشتر ابيعه حياتي

وعاش عمير بن جرير بن عبدالعزى بن قيس الخزاعي سبعين ومائة سنة فقال:

ابليت وافناني الزمان واصبحت	هنيدة قد أبقيت من بعدها عشرا
وأصبحت مثل الفرخ لا أنا ميت	فأبلى ولا حي فاصدر لي أمرا
وقد عشت دهرا ما تجن عشيرتي	لها ميتا حتى أخط به قبرا

وعاش العوام بن المنذر بن قيس بن حارثة بن لام دهراً طويلاً في الجاهلية، وأدرك عمر بن عبدالعزيز فأدخل عليه وقد اختلفت ترقوتاه وسقط حاجباه، فقيل له ما أدركت فقال:

فوالله ما أدري أأدركت أمة	على عهدي ذي القرنين أم كنت أقدما
متى تخلعوا عني القميص تبينا	حناجر لم يكسين لحما ولا دما

وعاش سيف بن وهب بن جذيمة الطائي مأتي سنة فقال:

ألا إنني كاهل ذاهب	فلا تحسبوا أنني كاذب
لبست شبابي فأفنيته	وأدركني القدر الغالب
وخصم دفعت ومولى نفعت	حتى يثوب له ثائب

وعاش أرطاة بن أميّة المزني مائة وعشرين سنة، فقال له عبدالملك بن مروان: ما بقي من شعرك يا أرطأة؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنّي ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب ولا يجيء إليّ الشعر إلّا على أحد هذه الخصال على أنّي أقول:

رأيت المرء تأكله الليالي	كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقي المنية حين تأتي	على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها شكر حتى	توفى نذرها بأبي الوليد

فارتاح عبدالملك لأنّه يكنّى أبو الوليد، فقال: يا أرطأة فقال: يا أمير المؤمنين إنّي أكنّى أبا الوليد.

وعاش عبيد بن الأبرص ثلاثمائة سنة فقال:

فنيت وأفناني الزمان وأصبحت	لداتي بنو نعش وزهر الفراقد

ثم أخذه النعمان بن المنذر يوم بؤسه فقتله.

وعاش شريح بن هانئ مائة وعشرين سنة حتى قتل في زمن الحجاج بن يوسف، فقال في كبره

وضعفه:

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا قد عشت بين المشركين أعصرا

ثم أدركت النبي المنذرا وبعده صديقه وعمرا

ويوم مهران ويوم تسترا والجمع من صفينهم والنهرا

هيهات ما أطول هذا عمرا

وعاش رجل من بني ضبة، فقال له المسجاح بن سباع الضبي: دهراً طويلاً فقال له:

لقد طوفت في الآفاق حتى بليت وقد أنى لي لو أبيد

وأفناني ولا افنى نهار وليل كلما يمضي يعود

وشهر مستهل بعد شهر وحول بعده حول جديد

وعاش عمرو بن عامر الذي يقال له مزيقيا من الأزد، من ولد كهلان بن سبأ بن يشخب بن يعرب ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ثمانمائة سنة، أربعمائة سوقة وأربعمائة ملكاً.

وعاش أبو هبل بن عبدالله بن كنانة ستمائة سنة.

وعاش دريد بن نهد أربعمائة وخمسين سنة، فقال في ذلك:

ألقى على الدهر رجلا ويدا والدهر ما أصلح يوما أفسدا

ويصلحه اليوم ويفسده غدا

وجمع بنيه حين حضرته الوفاة، فقال: يا بنيّ أوصيكم بالناس لا تقبلوا لهم معذرة ولا تقبلوا لهم عثرة.

وعاش لبيد بن ربيعة الجعفري مائة وأربعين سنة، وأدرك الإسلام فأسلم، فلمّا بلغ مائة وأربعين سنة أنشأ يقول:

لقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

غلب الزمان وكان غير مغلب دهر طويل دائم ممدود

يوم إذا بات علي وليلة وكلاهما بعد المضي يعود

وعاش محصن بن عتبان بن ظالم بن عمرو بن قطيعة بن الحارث بن مازن الزبيدي مائتين وخمسين سنة فقال في ذلك:

ألا يا سلم إني لست منكم ولكني امرء قومي شعوب

دعاني الداعيان فقلت هيا فقالا كل من يدعى يجيب

ألا يـا سـلم أعـياني قـيام وأعـيتني المكـاسب والذهـوب
وصـرت رذيـة فـي البـيت كـلا تأذى بـي الابـاعد والقـريب
كـذاك الدهـر والأيـام خـون لهـا فـي كـل سـائمة نـصيب

وعاش عوف بن كنانة الحلبي ثلاثمائة، فلمّا حضرته الوفاة جمع بنيه فأوصاهم ووعظهم ثم قال:

وما كـل ذي لب بـموتيك نـصحه ولاكـل مـؤت نـصحه بـلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عـند واحـد فـحق له مـن طـاعة بـنصيب

وعاش أكتم بن صفي أحد بني عمرو بن تميم ثلاثمائة وستين سنة، وقيل: مائة وتسعين، وأدرك الإسلام فأسلم، فقال في ذلك:

وإن أمرء قد عـاش تسـعين حـجة إلى مـائة لم يسأم العـيش جـاهلا
خـلت مـائتان غـير ست وأربـع وذلك مـن عـد اللـيالي قـلائل

وعاش عمر بن تميم مرة ثلاثمائة وثمانين سنة، وله خبر مع شابور ذو الأكتاف يأتي في فصل ملوك الفرس.

وعاش قس بن ساعدة الآيادي ستمائة سنة وهو القائل:

هل الغيث معطي الامن عند نزوله بحال مسيئ فـي الأمـور ومـحسن
ومـن قـد تـولى وقـد مـات ذاهـب فـهل يـنفعني ليـتني ولو أنـني

وكان امرء يعرف النبيّ صلى الله عليه وآله وينتظر ظهوره، ويقول: إنّ لله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه. فبينما رسول الله صلى الله عليه وآله بفناء الكعبة يوم فتح مكّة، إذ أقبل إليه وفد فسلّموا عليه، فقال: من القوم؟ قالوا: وفد من بكر بن وائل، قال: فهل عندكم علم من خبر قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فما فعل؟ قالوا: مات، [فقال:] الحمد لله ربّ الموت وربّ الحياة، كل نفس ذائقة الموت، كأنّي أنظر إلى قس بن ساعدة الأيادي وهو بسوق عكّاض على جمل أحمر، وهو يخطب الناس ويقول: اجتمعوا أيّها الناس فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتم فاستمعوا، فإذا ستمعتم فعوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا ألا إنّه من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت، إنّ في السماء خبراً وفي الأرض عبراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور[1]، وليل يدور، وبحار ماء تغور، يحلف قس ما هذا بلعب، وإنّ من وراء هذا لعجبا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فقاموا أم تركوا فناموا؟ يحلف قس يميناً غير كاذبة إنّ لله

(١) مار الشيء يمور موراً، أي تحرك وجاء وذهب.

دينا هو خير من الدين الذي أنتم عليه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رحم الله قساً يحشر يوم القيامة أمّة وحده، هل بينكم أحد يحسن من شعره شيئاً؟ فقال بعضهم: سمعته يقول:

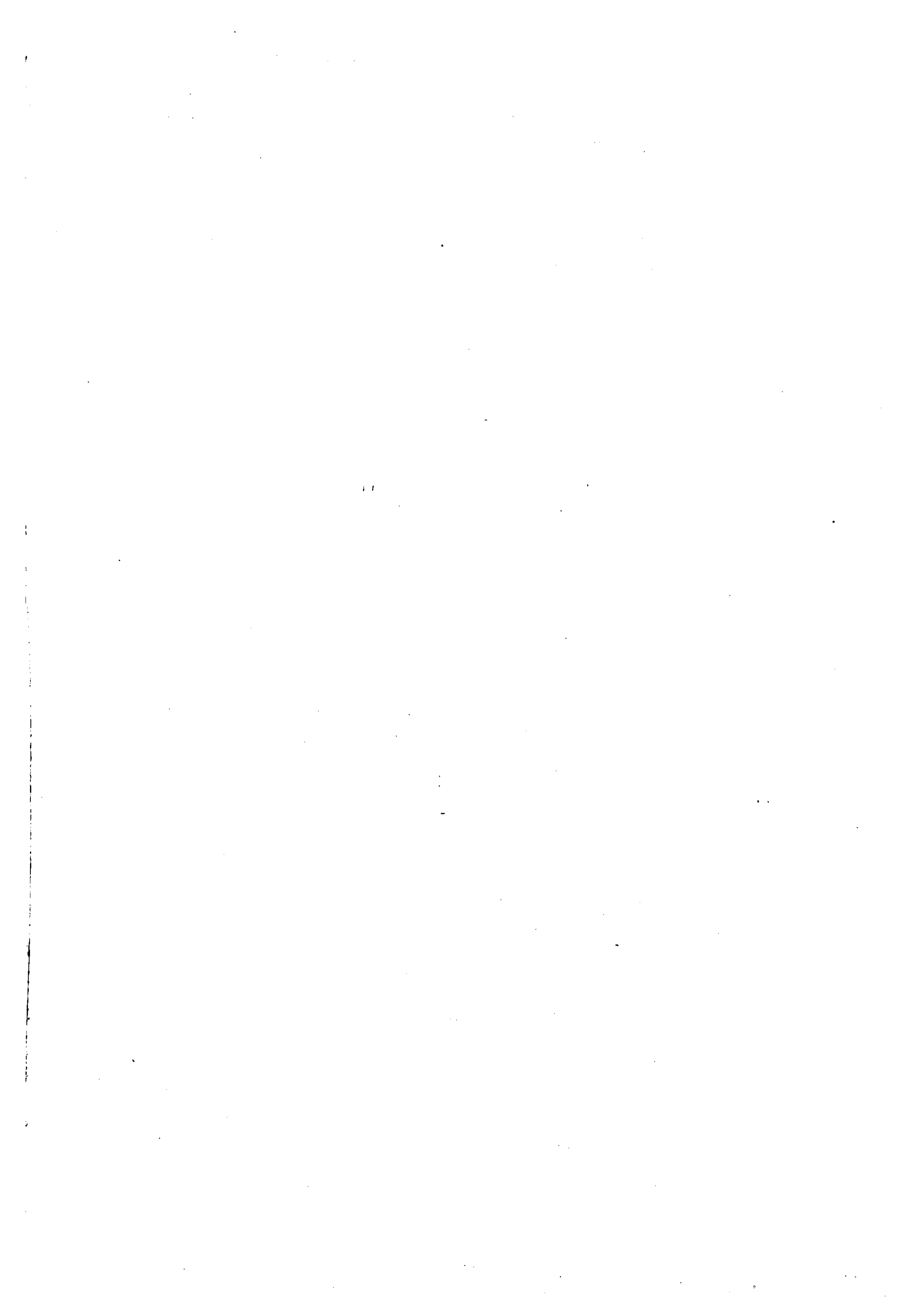
فـــي الأوليـــن الذاهـــبين ... مـــن القـــرون لنـــا بـــصائر

لمـــــا رأيت مـــــواردا ... للـــموت ليس لهـــا مـــصادر

ورأيت قـــــومي نـــحوها ... تـــمضي الأكـــابرا والأصـــاغر

لا يـــرجـــع المـــاضي إلي ... ولا مــــن البـــاقين غـــابر

أيـــقنت أنـــي لا مـــحالة ... حـــيث صـــار القـــوم صـــائر



الركن الثالث

في الملوك المتقدمين والأمم الماضين

ذكر أنّ الله سبحانه اختار من بني آدم فريقين وفضّلهما على عباده، وهم الأنبياء والملوك.

أرسل الأنبياء ليقيموا لعباده الدليل ويوضّحوا لهم السبيل، ويدلّوهم على الهدى يرودوهم عن الردى.

ونصّب الملوك ليحفظوا العباد من اعتداء بعضهم على بعض، وملّكهم أزمّة الأمر والنهى.

فالملك العادل إذا وجد فهو سرّ من أسرار الله تعالى وفيض من أنوار الربوبيّة، يناط به المراد ويماط به الفساد ويحاط به العباد، وقد اختص بمزايا أدناها سياسة الرعايا وحراسة البرايا، وهو في الحقيقة قائم برعاية عباد الله وحماية بلاده وحفظ أحكامه، وقد ارتضاه من خليفته وأمرهم بطاعته وهو ظل الله في أرضه، وبه تقام شرائع الإسلام بنصب القضاة والحكّام.

والأشياء إنّما يعرف فضلها بثمراتها، فثمرت الملك والسلطنة، حراسة البلاد وسلامة العباد.

وسئل الاسكندر أرسطاطاليس إيّما أفضل للملوك الشجاعة أم العدل؟ فقال: إذا عدل الملك لم يحتج إلى الشجاعة.

وسئل ذو القرنين أي شيء من ملكك أنت أكثر به سروراً؟ فقال: شيئان أحدهما العدل والإنصاف، والثاني أكافئ من أحسن إليّ بأكثر من إحسانه.

ويجب على الملك أن يكون له خمسة أشياء يتحصّن بها، أحدها وزير صالح يتحصّن برأيه، والثاني سيف قاطع يتحصّن نجده، والثالث فرس سابق يتحصّن بظهره، والرابع امرأة حسناء يتحصّن بفرجها، والخامس قلعة منيعة يتحصّن بها إذا أحيط به.

ومن لوازم الملك الكاتب والكتابة ثلاث طبقات، إنشاء جيش وديوان أموال، فكاتب الإنشاء من قواعد المملكة وصاحبها معدود من أكبر الأعوان، قائم لإتمام المقاصد الترجمان، نازل منه منزلة القلب واللسان من الإنسان ضارب في أعشار العلوم بالقدح المعلّى، راكب من مطايا الفضل المحل الأعلى، فمن مواد صناعته معرفته الآيات القرانية وأسباب نزولها، وعلم الأحاديث النبويّة

وكنه مدلولها، وفهم سير الملوك ومعرفة الحكم والأمثال، والإحاطة بوقائع العرب وأيامها على التفصيل.

وأنساب العرب وهي على ستة أقسام طبقات:

شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة. فالفخذ يجمع الفصائل، والبطن يجمع الأفخاذ، وهكذا والشعب طرف النسب الأعلى، والفصيلة طرفه الأدنى، فعدنان مثلاً شعب فمنه تشعب القبائل، ومضر منها قبيلة ثم منها العماير، فقريش منها عمارة ثم من العماير البطن فمنها عبدمناف بطن، ثم من البطون الأفخاذ، فمنها عبدالمطلب فخذ، ثم من الفخذ القبائل، فمنها عبدالله أبو النبي صلى الله عليه وآله.

والإجمال والتوسع في	عملي المعاني والقريض
ومرتبتي الصريح والتعريض	ليجعل في كل مقام ما يليق به

قال عمرو بن مسعدة: وكان قد حظي في صناعة البلاغة بأوفر نصيب، أمرني المأمون أن أكتب بين يديه كتاباً إلى بعض العمّال، على يد رجل له به عناية لحاجة الرجل عند المكتوب إليه، وقال أوجز ما استطعت وبالغ في حقّه، فكتبت كتاباً إليك بكتاب واثق بمن كتب إليه، معني بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله والسلام.

فلمّا وقف عليه المأمون وقع منه بموقع عظيم، فالتعبير بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة شاهد للكاتب برجحان عقله وكمال فضله، فهذا النوع من الإيجاز معدود من الإعجاز. وهذا بعض لوازم الملوك.

وذكر أبو محمّد عبدالمجيد بن عبدون الحضرمي، في قصيدته التي ندب بها بني الأفطس حين جرّعهم الحمام كأسه، وعدّ كثير من الملوك الذين دنت إليهم الأيام، وألحقت شمسهم عند الظهيرة بالظلام وأوّل القصيدة:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك معذرة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة	فالبيض والسمر مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه	يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دنياك نومتها	فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي أقال الله عثرتها	من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة	منا جراح وان زاغت عن البصر
تسر بالشيء لكن كي تغر به	كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر

كـم دولة وليت والنـصر يـخدمها — لم يبق منها وسل عن ذلك من خبر
هـوت بـدارا وكـفت غـرب قـاتله — وكـان غـضبا عـلى الأمـلاك ذا أثـر
واسترجعت من بني ساسان وماوهبت — ولم تـدع لبـني يـونان مـن أثـر
واتـبعت أخـتها طسـما وعـاد عـلى — عـاد وجـرهم مـنها نـاقص المـرر
ومـا أقـالت ذوي الهيئات مـن يـمن — ولا أجـارت ذوي الغـايات مـن مـضر
ومـزقت سـبأ فـي كـل قـاصية — فـما التـقى رائـح مـنها بـمبتكر
وأنـفذت فـي كـليب حكـمها ورمت — مـهلهلاً بـين سـمع الأرض والبـصر
ولم تـرد عـلى الظـليل صحته — ولا ثـنت أسـدا عـن ربـها حـجر
ودوخت آل ذبـيان واخـوتهم — عبسا وعـضت بـني بـدر عـلى النهر
وألحـقت بـعدي بـالعراق عـلى — يـد ابـنه الأحـمر العـينين والشـعر
واشـرقت بـخبيب فـوق قـارعة — وألصـقت طـلحة الفـياض بـالعفر
ومـزقت جـعفر بـالبيض واختلست — مـن غـيلة حـمزة الظـلام للـجزر
وبـلغت يـزد جـرد الصـين واختزلت — عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ولم تـرد مـواضـي رسـتم وقـنا — ذي حاجب عنه سعدا في انتها العمر
وخضبت شيب عـثمان دمـا وخـطت — إلى الزبـير ولم تسـتحي مـن عـمر
ولا رعت لأبـي اليـقضان صـحبته — ولم تـزوده إلّا الضـيح فـي الغـمر
وأجـزرت سـيف أشـقاها أبـا حسـن — وأمكـنت مـن حسـين راحتي شـمر
وليـتها إذ فـدت عـمرا بـخارجـة — فـدت عـليا بمن شـاءت مـن البشـر
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن — أتت بـمعضلة الألبـاب والفكـر
فـبعضنا قـاتل مـا اغـتاله أحـد — وبـعضنا سـاكت لم يـؤت مـن حـصر
وعـممت بـالظبا فـودي أبـي حسـن — ولم تـرد الردى عـنه قـنا زفـر
وأردت ابـن زيـاد بـالحسين فـلم — يـقى بشسـع له قـد طـاح أو ظـفر
وأنـزلت مـصعبا مـن رأس شـاهقة — كـانت بـها مـهجة المـختار في وزر
ولم تـراقب مكـان ابـن الزبـير ولا — رعت عـياذته بـالبيت والحـجر
لم تـدع لأبـي الذبـان قـاصية — ليس اللـطيم لهـا عـمرو بـمنتصر
وأظـفرت بـالوليد بـن اليـزيد فـلم — تـبقى الخـلافة بـين الكأس والوتـر
ولم تـعد قـضب السـفاح نـابية — عـن رأس مـروان أو أشـياعه الفجر
وأسـبلت دمـعة الروح الأمـين عـلى — دم بـفخ لآل المـصطفى هـدر

وأشـرقت جـعفراً والفـضل يـنظره والشـيخ يـحيى بـريق الصـارم الذكـر
وأخفرت في الأمـين العـهد وانـتدبت لجـعفر بـابنه والأعـبد الغـدر
وروعت كـل مـأمون ومـؤتمن وأسـلمت كـل مـنصور ومـنتصر
وأعـثرت آل عـبّاس عـبيدهم بـذيل ريـاء مـن بـيض ومـن سـمر
ولا وفت بـعهود المسـتعين ولا بـما تـأكـد للـمعتز مـن وزر
وأوثـقت فـي عـراهـا كـل معتمدٍ وأشـرقت بـقذاهـا كـل مـقتدر
بـني المـظفر والأيـام لا بـرحت مـراجـلا والورى مـنها عـلى سـفر
سـحقاً ليـومكم يـوماً ولا حـملت بـمثله ليـلة فـي مـقبل العـمر
مـن للأسـرة أو مـن للأعـنة أو مـن للأسـنة يـهديها إلى الثـغر
مـن للـبراعـة أو مـن للـيراعـة أو مـن للسـماحة أو للـنفع والضـرر
من للعدى وعوالي الخط قـد عـقدت أطـراف ألسـنها بـالعي والحـصر
وطـوقت بـالمنايا السـود بـيضهم فأعجب بذاك ومـا مـنها سوى الذكـر
أو دفـع كـارثة أو دفـع آزفـة أو رفـع حـادثة تأتـى عـلى القُـدر
ويـح السـماح وويـح الجـود لو سـلما يـا حسـرة الديـن والدنـيا عـلى عـمر
سـقت ثـرى الفـضل والعـباس هـامية يـعزى إليـهم سـماحاً لا إلى المـطر
ثـلاثة مـا رقـى النسـران حـيث رقـوا وكـل مـا طـار مـن نسـر ولم يـطر
ثـلاثة مـا رأى العـصران مـثلهم فـضلاً ولو عـززوا بـالشمس والقـمر
ومـر مـن كـل شـيء مـنه أطـيبه حـتى التـمتع بـالآصال والبكـر
أيـن الجـمال الذي غـضت مـهابته قـلوبنا وعـيون الأنـجم الزهـر
أيـن البـناء الذي أرسـوا قـواعـده عـلى دعـائم مـن عـز ومـن ظـفر
أيـن الوفـاء الذي أصـفوا شـرائـعه فـلم يـرد أحـد مـنها عـلى كـدر
كـانوا رواسـي أرض اللـه مـنذ نـاوا عـنها استـطارت بـمن فـيها ولم تـقر
كـانوا مـصابيحها دهـرا فـمنذ خـبوا اهـدى الخـليقة يـا للـه مـن سـدر
كانوا سخاء الدهـر فـاستهوتهم خـدع منه بـأحلام عـاد فـي خـطى الحـضر
من لي ومـن بـهم إن اطـنبت مـحسن ولم يكـن وردهـا يـفضي إلى صـدر
مـن لي ومـن بـهم إن اطـنبت نـوب ولم يكـن ليـلها يـفضي إلىٰ سـحر
وثـلمة مـن طـلوب الثـأر مـدركه لو كـان ديـنا عـلى ديـان ذي عسـر
مـن لي ومـن بـهم لو عـطلت سنن واخـفيت السـن الاقـلام والسـير

عـلى الفـضائل إلا الصـبر بـعدهم ... سـلام مـرتقب للأمـر مـنتظر
يـرجـو عسى وله فـي أختها طمع ... والدهـر ذو عـقب شـتى وذو غـير
قـرطت آذان قـاريها بـفاضحة ... على الحسان حصى الياقوت والدرر

ومن ذكر المقتدر إلى آخر القصيدة لم يأت له شرح، وما تقدم منها شرحه عبدالملك بن عبدالله ابن بدرون الحضرمي في كتابه المعروف بشرح طوق الحمامة.

فصل
في أيام الملوك الفرس

وكانوا أفخم الملوك دولة وأعظمهم سيرة وأسبقهم ملكاً، وهم ولد فارس بن ارم بن سام بن نوح، وقيل: ولد فارس بن ياسور بن سام بن نوح، وقيل: من ولد هدرام بن أرفخشد بن سام بن نوح، وأنّه ولد له بضعة عشر رجلاً كلّهم كانوا فرساناً شجعاناً، فسمّوا الفرس بالفروسية، وفي ذلك يقول خطاب بن معلّى الفارسي:

وبنا سمى الفوارس فرساً ... ثم منا مناجب الفتيان

وقيل: إنّ الفرس من ولد بوّان بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح عليه السلام، وبوّان هذا إليه ينسب شعب بوّان وهو أحد المواضع المشهورة بالحسن وكثرة الأشجار وتدفّق الأنهار والمياه، وهو ببلاد فارس وفيه يقول أحد الشعراء من أبيات يصفه:

إذا اشرف المكروب من رأس طلعة ... على شعب بوان أفاق من الكرب

ولا خلاف بين الفرس أنّ الجميع من ولد كيومرث الذي ترجع إليه فارس، كما ترجع المروانيّة إلى مروان، والعباسيّة إلى العباس، وكيومرث عندهم هو الذي ابتدأ منه النسل مثل آدم عندنا، ويذكرون أنّ الملك لم يزل فيهم خلاف تقطع حصل في مدة يسيرة لا يعتد بها، ولعل مدّة غلبة الإسكندر عليهم نحو أربعمائة سنة.

ومن الناس من زعموا أنّ ملوك الفرس أربعة أصناف: الصنف الأوّل: من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية، والصنف الثاني: من كيان إلى دارا وهم الكيانية، والصنف الثالث: ملوك الطوائف وهم الاشغانية، والصنف الرابع: الساسانية، ومن الناس من جعلهم صنفين:

والصنف الأوّل: كيومرث إلى دارا بن دارا قتيل الإسكندر.

والصنف الثاني: من أرد شير بابك إلى يزدجرد بن شهريار المقتول في أيام عثمان بن عفّان.

وأوّل ملوكهم على ما ذكر كيومرث من ولد ارم بن سام بن نوح لصلبه، أو من ولد لاوذ بن ارم بن

سام بن نوح، قيل: أنّه أوّل ملك من بني آدم، وكان السبب في ملكه أنّه لمّا كثر البغي والظلم في الناس، اجتمع كبارهم ورأوا أنّه لا يقيم أمر الناس إلّا ملك يرجع إليه فيما يأمر وينهى، فمشوا إليه وقالوا له: أنت أكبر أهل زمانك وبقيّة أنبياء، والناس قد بغى بعضهم على بعض وأكل القويّ الضعيف، فضم أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا.

وأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترك الخلاف عليه. فصنعوا له تاجاً ووضعوه على رأسه، فكان أوّل من وضع التاج على رأسه. فلمّا استوثق له الأمر، قال: إنّ النعمة لا تدوم إلّا بالشكر، وإنّا نحمد الله على أياديه، ونشكره على نعمه، ونرغب إليه في مزيده، ونسأله المعونة على ما رفعنا إليه من حسن الهداية إلى العقل الذي يجمع الشمل ويصفو العيش، فتقووا بالعدل وانصفوا من أنفسكم يوردكم إلى أفضل ما في نعمتكم، فلم يزل قائماً في أمر الناس حسن السيرة فيهم أربعين سنة حتّى مات.

وكان ينزل اصطخر من أرض فارس، واختلف في مقدار عمره فمنهم من قال: إنّه عمّر ألف سنة، وإنّ ملكه بعد الطوفان بمائة وستين سنة.

ثم ملك بعده ابنه أو ابن ابنه أو أخوه أوشهنج، وكان أوّل ملكه بعد الطوفان بمأتي سنة. وهو أوّل من رتّب الملك، ووضع الخراج، ولبس التاج، وجلس على السرير، وكان ينزل الهند، وملك أربعين سنة.

ثم ملك بعده ابن ابنه طهمورث وسلك سيرة جدّه، وكان ينزل يحارب الجن، وهو أوّل من كتب بالفارسية، وكان ينزل بنيشابور، وفي أيامه ظهر بوداسف ـ الذي أحدث دين الصابئة ـ، وكان ملكه ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أخوه لأبويه جمشيد، ومعنى جم القمر، ومعنى شيد الشعاع أي شعاع القمر. ملك الأقاليم السبعة، ووضع المكوس واتخذ الملاهي والمغنّين، وهو الذي أحدث السروج والسلاح وعدّة الحرب والأعمال العظيمة ـ وكان النمرود بن كنعان من عمّاله ـ وكان ينزل بفارس وفي أيامه أحدث النيروز، وكان ملكه ستمائة سنة، وقيل: سبعمائة، وقيل: تسعمائة وتسعين سنة، وادّعى الإلوهية ثم ادّعاها الفرود.

ثم ملك بعده بيوراسب بن أروانداسف بن بغلداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن فرس بن كيومرث، وهو الدهاك، وقد عرّب اسمه فقيل: الضحّاك ذو الحيتين، وكان ظالماً غشوماً متعديّاً جبّاراً، صاحب مكر ودهاء وسحر، وكان مدّة ملكه ألف سنة إلى أن قتله أفريدون صبراً كما قيل:

وكذلك الضحاك اغفل حرمة ... فرماه افريدون في الاصفاد

ثم قتله وسمّى ذلك اليوم الذي قتله فيه المهرجان، وأصله المهرماه، أي: نفس الملك ذهبت،

ولكنّه عرّب فرد مهرجان وهو أوّل الميزان.

ثم ملك بعده أفريدون ودامت مدّة ملكه خمسمائة سنه، وكان حسن السيرة جيّد الإسم والرسم والصيت الحسن وإقامة العدل، وقسّم الأرض بين ولده، وكانوا ثلاثة: سلم وطوخ وإيران، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم:

وقسمنا ملكنا في دهرنا	فسمة اللحم على ظهر الوضم
فجعلنا الشام والروم الى	مغرب الشمس إلى الملك سلم
ولطوخ جعل الترك له	فبلاد الترك يحويها النعم
ولإيران جعلنا عنوة	فارس الملك وفزنا بالنعم

ثم ملك بعده منوجهر، صاحب العلم والأعمال الكثيرة والأمور العظيمة، وكان مدّة ملكه مائة وعشرين سنة، وكان فرعون موسى الوليد بن مصعب عاملاً له.

ثم ملك بعده منوجهر بن إيران بن أفريدون، وكان ينزل بابل وهي العراق، وكان في زمن موسى ابن عمران عليه السلام.

ثم ملك بعده سهم بن إيران بن أفريدون، وكان ملكه ستين سنة.

ثم ملك بعده افراسياب بن استياس[1]، وكانت الأتراك تسميه كنكالب[2]، وكانت له الشجاعة وتسيّر العساكر بالليل، وسياسة العباد وحفظ البلاد وبالخيل والرجال، وكان مدّة ملكه سبعين سنة أو اثنى عشر سنة، وكان مسكنه بابل.

ثم ملك بعده زومر[3]، وكان مدّة ملكه ثلاثين سنة، وكان مسكنه بابل من العراق.

ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس، وأمّه من سبط بنيامين بن يعقوب، وكان مسكنه بابل، ومدة ملكه عشرين سنة.

ثم ملك بعده كيقباذ بن زاب، وكان له تدبير الجنود والعساكر والشفقة على الرعيّة، وكان ينزل بلخ، وهو أوّل من أخذ العشر من الأرض، وكان ملكه مائة وعشيرن سنة.

ثم ملك بعده كيكاوس بن كنانة[4] بن كيقباذ، صاحب الهمّة العالية واليد الباطشة، وكان ينزل بلخ عمره مائة وعشرين سنة. وكان له ولد في غاية الجمال اسمه سياوش، فهوته زوجة أبيه فأبى

---

(١) في تاريخ ابن خلدون افراسياب بن أشك، وفي الكامل افراسياب بن فشنج.

(٢) هكذا في النسخة الخطية، ولم أعثر عليه في المصادر التاريخية.

(٣) في المخطوط رسمها (دره)، وما اثبتناه من تاريخ ابن خلدون، وفي تاريخ الطبري والكامل في التاريخ (زو)، وفي نهاية الارب ذكر مدة ملكه كان ثلاث سنين.

(٤) هكذا في المخطوط، وفي تاريخ ابن خلدون كيكاوس بن كينية، وفي نهاية الأرب كيقابوس بن كينة، وفي أدب الخواص كيباشين بن كيانية.

عليها وأدّى بها الحال إلى إغضاب الله عليه، واتفقت له أمور أدّت إلى هلاكه.

ثم ملك بعده كيخسرو بن سياوش[١]، وكان له حسن القيام والقعود وتمشية الكبار من الأمور، والزهد في الدنيا بعد نيل المراد منها، وكان ينزل بلخ وهو الذي بنى بلخ الحسنى، وكان ملكه ستين سنة.

ثم ملك بعده ابنه بستاسف[٢]، وكان منزله بلخ، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وكان بخت نصر من عماله.

ثم ملك بعده بشتاسب[٣] وهو الذي يزعمون أنّه باق في جليد، وفي أيامه ظهر زرادشت صاحب كتاب المجوس الذي ادعى فيهم النبوّة، وكان من خدام شعيب، ومال بشتاسب إلى مذهب زرادشت، وكان ملكه مائة وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده اردشير بهمن بن اسفنديار بن بشتاسب، وكان صاحب الحقد والجهد والحرب. ويقال: أنّ أمّه من ولد طالوت الملك، وأنّه الذي بعث بخت نصر إلى الشام، وكان بخت نصر مروزبانه على العراق.

وكان ملك بهمن اثنى عشر سنة، وقيل: مائة وخمساً وعشرين سنة.

ثم ملكت بعده ابنته جمانة[٤]، وكانت صاحبة رأي وتدبير، ولها حروب كثيرة وسياسة مشهورة، وكان ملكها ثلاث سنين، وقال الغزالي: سبع عشر سنة.

ثم ملك بعدها أخوها دارا بن بهمن، صاحب الهزيمة والجزع والجبن، وكان ينزل بابل، وكان ملكه اثنى عشر سنة، وقال الغزالي: إحدى وأربعين سنة.

ثم ملك بعده دارا بن دارا، وكان له قود العسكر، وترتيب الحشم، وإقطاع الولايات، وكانت الملوك من كل جبل وصنف من زمن بستاسف تؤدي الجزية إلى ملوك فارس، وذلك أنّ بخت نصر كان مرزباناً لبستاسف الملك الفارسي، والمرزبان عندهم ملك على ربع من أرباع الملك، قد دوّخ الأرض وذلّل الملوك من كل أمّة لملوك الفرس.

فلمّا ظهر الإسكندر، الملك اليوناني امتنع أن يؤدي لملوك فارس ماكانت تؤديه الملوك قبله لها.

---

(١) في نهاية الارب: سياوخش.

(٢) اثبتناه من نسخة مشهد، وفي نسخة مكتبة السيد المرعشي (لباسيف). وفي تاريخ الطبري ونهاية الأرب في فنون الادب لهراسب وكان بخت نصر من عماله.

(٣) في النسخة الخطية (كهساسب)، وما اثبتناه من تاريخ الطبري، وذكر ان زرادشت ظهر بعد ثلاثين سنة من ملكه.

(٤) هكذا في المخطوط وفي نهاية الارب (جماني)، وفي تاريخ الطبري والكامل والمنتظم (خمانى).

وكان الإسكندر كثير الهمّة واسع الرأي، له الطرق في العلم والأسفار البعيدة والعلوم الدقيقة، وفتوح البلاد وقهر الملوك، وكان في زمن دارا بن دارا فمنعه من تلك الجزية، فخرج دارا لقتاله ونهض الإسكندر لاستقباله فالتقيا ببلاد الجزيرة، فاقتتلا سنة كاملة.

وكان دارا قد ملّه قومه وأحبّوا الراحة منه، فلحق كثير منهم بالإسكندر وأطلعوه على عورته، وقوّوه عليه. ثم وثب على دارا حاجباه فقتلاه وتقرّبا برأسه إلى الإسكندر، فأمر الإسكندر بقتلهما، وقال: هذا جزاء من تجرأ على ملكه.

وقيل: أنّه غدر به صاحب شرطته فساقه إلى الإسكندر.

فقال له الإسكندر: بما اجترأ عليك صاحب شرطتك؟

فقال: بترك إهانته وقت إساءته، وإعطائي إيّاه وقت الإحسان اليسير من فعله نهاية رغبته.

فقال الإسكندر: نعم العون على صلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيب بالأموال، وأصلح منه الترهيب وقت الحاجة إليه. ثم أنّ الإسكندر أمر به فقتل.

وقيل: أنّه لمّا هزمه الإسكندر فرّ جريحاً، فخرج في طلبه في ستة آلاف حتى أدركه، ثم لم يلبث دارا أن هلك من جرحه، فأظهر الإسكندر عليه الحزن ودفنه في مقابر الملوك، وكان ملكه ثلاثين سنة، وقيل: سبعين سنة، فانتثر ملك فارس بقتل دارا وكان منتظماً وتفرّق وكان مجتمعاً.

واحتوى الإسكندر على ملك فارس، وتزوّج ابنة ملكهم دارا، واجتمعت له مملكة الغرب، وبنىٰ الإسكندرية، ورأس على سائر اليونان، وقصد قتل جميع ملوك الفرس، فأشار إليه إشارة أرسطاليس وتلميذه أرسطو، أن يبقي من الفرس نوّاباً عنه ليقع بينهم التشاجر، فلا يجتمعون على واحد منهم بتملك، فقبل ذلك منهما! وملك منهم عشرين ملكاً على الفرس، وهم المسمّون بملوك الطوائف، وبلغوا على ما يزيد على سبعين ملكاً، في نحو خمسمائة سنة واثنى عشر سنة واشتهرت منهم، وكان آخرهم أردشير بن بابك، ثم انقرضت اليونان ورجع ملك فارس إلى بني ساسان كما قال ابن عبدون:

هوت بدارا وفلت غرب قاتله وكان غضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت لبني ساسان ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر

ثمّ ملك بعدهم أردشير بن بابك من ولد ساسان أردشير بهمن، وكان ساسان قد خرج زاهداً في أيام أبيه بهمن، ورعى الغنم ونزل عن الملك لأخيه دارا، وبهذا أردشير بن بابك انقضت ملوك الطوائف وغلب عليهم أردشير، وقتل الاردوان[1] واجتمع له جميع ملك الطوائف، واعتدلت به

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١١٢/٤، تاريخ الطبري: ٤٧٨/١. وهو ملك النبط، يقال له: بابا، انظر معجم البلدان ٣٢٩/٢، والتنبيه والاشراف للمسعودي: ٩٣، وتاريخ اليعقوبي: ١٥٩/١.

قوّة الفرس واليونان، وكان بين أردشير وبين الهجرة الشريفة المحمّدية أربعمائة سنة، وكان أردشير آخر ملوك الطوائف الذين كانوا بين الفرس الأوّل والفرس الآخر.

وكان على اصطخر، وكان ملوك الطوائف قد تغلب كل ملك على جهته وأراد الملك لنفسه، وكان سبب ذلك أنّ الإسكندر لمّا غلب على دارا وقتله ومزّق ملك الفرس، كتب إلى معلّمه أرسطاطاليس يستشيره في أمر الفرس، فكتب إليه يعزل له وليّ كل واحد من أكابرهم على جهته، فإنّهم يتنافسون في الملك ولا يجتمعون على واحد، فمتى خالفك واحد منهم كانت إزالته عليك خفيفة، فلم يزالوا كذلك أربعمائة سنة لم يجمعهم ملك واحد. فلمّا قام أردشير بأمرهم بعد أن كابد منهم مشقة كثيرة، قال: إنّ كلمة فرقتنا أربعمائة سنة لكلمة مشؤومة يعني كلمة أرسطاطاليس[١].

وكان أعظم ملوك الطوائف ملوك الأشغانية، وكانوا أحد عشر ملكاً، وكان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في أيام الملك الثاني منهم واسمه سابور بن اشغان، وكان أردشير قد كتب إلى ملوك الطوائف كتابا يدعوهم إليه، يقول فيه:

بسم الله ولي الرحمة، من أردشير ملك الملوك المستأثر دونه بحقّه المغلوب على تراث آبائه، الداعي إلى قوام دين الله وسنّة المستنصر بالله، الذي وعد المحقين الفلح، وجعل لهم العواقب، الى من بلغه كتابي هذا من ملوك الطوائف، سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق، وإنكار الباطل والجور، فمنهم من أقرّ له بالطاعة، ومنهم من تربّص حتى قدم عليه، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره إلى القتل والهلاك حتى استوثق له الأمر.

فكان من جملة من تأبى عليه الأشغانية، فأقسم أن لا يبقي منهم أحداً أن غلب عليهم رجلاً كان أو امرأة، فلمّا غلب عليهم لم يبق منهم أحداً إلّا من أخفى نفسه ونسبه.

وكان قد أخذ في جملة من أخذ منهم ابنة ملكهم، وكان حسنها بارعاً وكانت عاقلة، ولمّا وقعت عينه عليها، قال لها: أنت من بنات ملوكهم؟ قالت: بل من خدمهم، فاصطفاها لنفسه، فحملت منه فلمّا علمت الحمل أشهرت نفسها، وقالت: إنّي ابنة ملكهم، فأمر شيخاً من رجاله يقال له [هرجند ابن سام][٢] أن يودعها في بطن الأرض ـ إشارة إلى قتلها ـ فقالت للشيخ: إنّي حبلى من الملك ولا تبطل زرع الملك، فأخذها وعمل لها سرباً تحت الأرض وجعلها فيه، ثم عمد إلى مذاكيره فجبها ووضعها في حق وختم عليه. ورجع إلى الملك وقال: قد أودعتها بطن الأرض ودفع إليه

(١) فضائل مصر المحروسة: ١/٤.

(٢) اثبتناه من كتاب الطبري، وفي الكامل في التاريخ (هرجد بن أسام)، ونهاية الارب في فنون الأدب (هرجند بن سام)، وفي النسخة الخطية (جندبا).

الحق، وقال لي: فيه وديعة وأرغب من الملك أن يودعها إلى خزانة الملك، وأقامت الجارية في ذلك السرب إلى أن وضعت غلاماً فسمّاه الشيخ شاپور ـ ولد الملك ـ فسمّاه الناس سابور.

وبقي أردشير هذا دهراً لم يولد له ولد، فرآه الشيخ يوماً حزيناً مفكراً فقال له: ما أحزنك؟ أسرك الله تعالى أيّها الملك وعمرك، ما هذا الحزن الذي آراك فيه؟ فقال: من أجل أنّه لم يولد لي ولد؛ يرث ملكي، فقال الشيخ: أيّها الملك إنّ لك عندي ولداً طيّباً فادع بالحق، فدعا به ففض ختمه فإذا فيه مذاكير الشيخ، وكتاب فيه أنّه لمّا أمرني الملك بقتل المرأة الأشغانية التي علقت من ملك الملوك أردشير، لم أر أن أبطل زرع الملك الطيّب فأودعتها بطن الأرض كما أمرني، وتبرأت إليه من نفسي لئلا يجد عائب إلى عيبها سبيلاً؛ فسرّ أردشير بذلك سروراً شديداً.

وأمر الشيخ عند ذلك أن يجعل الغلام بين مائة غلام من أشباهه في الهيئة، ثم يدخلهم عليه، ففعل الشيخ ذلك فعرفه أردشير من بينهم وقبلته نفسه، ثم أمرهم أن يلعبوا بالصولجان في حجرة الايوان، فدخلت الكرة إلى داخل الايوان فاحجمة الغلمان على دخول الايوان، فدخله فأمر أردشير عند ذلك أن يعقد التاج على رأسه(١).

وكان لسان الفرس الأوّل الفهلوية وهي من اللغات التي لم يبق لها مترجم.

وكان أردشير من أهل العقل والمعرفة وله أشياء رتّبها واقتدى بها بعده المتأخرون من الملوك والأكابر، وكان قد رتّب أصحابه على ثلاث طبقات، الطبقة الأولى: على نحو من عشر أذرع مجلسهم عن مجلسه وهم بطانته وندماؤه ومحدّثوه، والطبقة الثانية: على عشر أذرع من هؤلاء وهم وجوه المرازبة وملوك الكور، والطبقة الثالثة: على مقدار عشر أذرع من الثانية وهم رجال الحرب وفرسانه، وكان يقول: ما من شيء أضرّ على ملك أو رئيس أو ذي معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع؛ لأنّه كما أنّ النفس تصلح على مخالطة الشريف الأريب الحسيب، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس الوضيع، حتى يقدح ذلك فيها، كما أنّ الريح إذا هبّت فمرّت بالطيّب حملت طيباً تحيا به النفوس وتقوى جوارحها، كذلك إذا مرت بالنتن فحملت ألمت به النفس وأضرّت به إضراراً تاماً، والفساد أسرع إليها من الصلاح، كما أنّ الهدم أسرع من البناء(٢).

وممن حفظ من وصيّة أردشير لإبنه شاپور عند نصبه إيّاه للملك، قال له: يا بني إنّ الملك والدين إخوان لا غنى لواحد منهما عن صاحبه، فالدين أس الملك والملك حارسه، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١١٤/٤.

(٢) مروج الذهب: ١٠٥/١.

ومما حفظ من مكاتباته من أردشير ملك الملوك، إلى الكتاب الذين هم تدبير المملكة، والفقهاء الذين هم عماد الدين، والأساورة الذين هم حماة الحرب، والحرّاث الذين هم عمارة الأرض، سلام عليكم نحن كاتبون إليكم بوصيّة فاحفظوها، لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو، ولا تحبّوا الاحتكار فيشملكم القحط، فكونوا لأبناء السبيل مأوى تَؤُوا غداً في المعاد، وتزوّجوا من الأقارب فإنّه أمسّ للرحم وأقرب للنسب، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنّها لا تدوم على أحد، ولا تهتمّوا لها؛ فلن يكن إلّا ما شاء الله، ولا ترفضوها؛ فإنّ الآخرة لا تنال إلّا بها[١].

وكانت مدّة ملكه أربع عشرة سنة وستة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه شاپور وظهر في أيامه ماني الزنديق بن قرمل[٢] تلميذ قاردون، وقال بالاثنين إله النور وإله الظلمة، وادعى النبوّة، وتبعه خلق كثير وهم المسمّون بالمانونية، فرجع شاپور إلى مذهب ماني والقول بإله النور وإله الظلمة، ثم عاد إلى دين المجوسية وترك مذهب ماني، وضايقته ملوك اليونان والروم غير دقيانوس وكتب الفلسفة ونقلها بالفارسية واستخرج الملهاة المسماة بالعود، وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: إحدى وثلاثين سنة وستة أشهر وثمانية عشر يوماً.

ثم ملك بعده ابنه هرمز وهو الذي يدعى هرمز البطل، وكان بطلاً عظيماً.

وكان له وزير في بعض بلاده، فكتب إليه الوزير إنّه قد وصل إلينا من جانب البحر تجّار معهم اللؤلؤ والياقوت والجواهر النفيسة، وإنّي قد اشتريت منهم برسم الخزانة بمائة ألف دينار، والآن قد حضر فلان التاجر يطلب الجواهر بربح كثير، فإن رغب الملك في ذلك فليرسم بما يراه.

فكتب هرمز إليه مائة ألف ومائة ألف مثلها ليس لها في أعيننا قيمة لنرغب فيها، فإذا نحن عملنا بالتجارة فمن يعمل بالعمارة، فانظر أيّها الجاهل لنفسك ولا تعد لمثل هذا، ولا تخلط في أموالنا درهماً واحداً ولا دانق من وجوه التجارات، فإنّ ذلك حرام على الملك في حياته وبعد مماته. وكانت مدّة ملكه سنة، وقيل: سنة وعشر أشهر. وقال الغزالي: كان ملكه ثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه بهرام ثلاث سنين. وقال الغزالي: كان ملكه إحدى وعشرين سنة.

ويقال: أنّه أتاه ماني الزنديق فعرض عليه مذهب الثنوية فأجابه احتيالاً منه عليه، إلى أن أحضر له دعاته المتفرقين في البلاد الذين يدعون الناس إلى مذهبه الخبيث فقتلهم جميعاً، وصلب ماني على باب مدينة من مدن بالعراق، وكان يدعى ذلك الباب بباب ماني، وفي أيام ماني ظهر اسم الزنادقة الذين نسبت إليهم الزندقة، وذلك أنّ المجوس كان لهم كتاب يسمّونه السناء والضياء، وكان له شرح يسمّونه الزند. فكان من أتاهم بزيادة على ما في كتابهم سمّوه زنديقاً، فلمّا جاءت العرب

---

(١) نثر الدر: ٢/٥٢.

(٢) في مروج الذهب ١/١٨٠، والملل والنحل ١/٧٩ ماني بن فاتك، وهو الموافق في أغلب المصادر التاريخية.

أخذت هذا المعنى من الفرس فعرّبته قالت زنديق. فالثنوية الذين يقولون بإله النور وإله الظلمة هم الزنادقة، فألحق هذا الإسم بسائر من اعتقد القدم في العالم، وأبى حدوثه وأنكر البعث، والزنادقة يزعمون أنّ الخير والشر والصلاح والفساد إنّما حصل بامتزاج النور بالظلمة، ولو لم يمتزجا لماكان وجود العالم، ولا يزالا ممتزجين إلى أن يتخلص الخير إلى عالمه والشر إلى عالمه.

وكان الذي أتى المجوس بهذا الكتاب المذكور زرادشت الذي تزعم الفرس أنّه نبيّها المرسل إليها، وكان زرادشت في زمان الفرس الأوّل قبل دارا بن دارا قدر مأتي سنة.

وكان زرادشت هذا خادم شعيب النبيّ عليه السلام، فخالف شعيباً، فدعا عليه شعيب فمرض زرادشت، وكان صاحب حدثان ونيرنجات وسحر كثير، وكان يخبر ببعض الكوائن قبل أن تكون، مما كان سمعه من شعيب وقت خدمته إيّاه. وادعى في المجوس النبوّة، وعمل لهم كتاباً زعم أنّه أنزل عليه، وكتبه بماء الذهب في ألف جلد رق، وجعل كلامه فيه يدور على نيف وسبعين حرفاً، فلم يقدر أحد منهم على قرائته، فأحضره لهم ويسمى مختصر الزند، فعبروا بذلك مدّة إلى أن قام ماني بدين الثنويّة، فسمته المجوس زنديقاً وسموا أصحابه زنادقة، إذ زاد في شرعهم الذي شرّعه لهم زرادشت فقتله بهرام وصلبه.

ثم ملك بعد بهرام ابنه بهرام البطل، وأقبل في أوّل ملكه على القصف واللهو واللذات والنزاهة والصيد، لا يفكّر في ملكه ولا في رعيّته، حتّى خربت البلاد وقلّت الزراعة ونقصت بيوت الأموال وخلت القرى من السكان.

فلمّا كان في بعض الأيام، ركب إلى بعض منتزهاته وصيده، فجنّه الليل وهو يسير نحو المدائن بالعراق، وكانت ليلة مقمرة فدعا بالموبذ ـ والموبذ عند المجوس كالراهب[1] عند اليهود والقس عند النصارى ـ لأمر خطر بباله، فجعل يحدثه فتوسطا في مسيرهم بين خرابات كانت من أُمهات الضياع، وقد خربت في ملكه لا أنس بها إلّا البوم، وإذ بوم يصيح وآخر يجاوبه في بعض تلك الخرابات، فقال الملك بهرام للموبذ: أترى أحداً من الناس أعطى فهم هذا الطائر المصوت في هذا الليل؟ فقال: أنا أيّها الملك، الموبذ ممن خصّه الله تعالى بذلك، فقال له: ما الذي يقول هذا الطائر؟ وما الذي يقول الآخر؟ فقال الموبذ: هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى، يقول لها: لو أمتعتيني نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى، ويبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون الترحّم علينا، فأجابته البومة: إنّ الذي دعوتني عليه هو الحظ الأكبر والنصيب الأوفر في العاجل والآجل، إلّا أنّي أشترط عليك خصالاً إن أنت أعطيتنيها أجبتك إلى ذلك، فقال لها الذكر: وما تطلبينه منّي؟ قالت: أن تقطعني من خرابات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت في أيام هذا الملك السعيد، فقال

---

(١) في مخطوطة مكتبة السيّد المرعشي «كالربى»، وما اضفناه من نسخة «قدس رضوي».

الذكر: إن دام هذا الملك السعيد أقطعتك منها ألف قرية، فما تصنعين بها؟ قالت: في اجتماعنا كثرة الولد وكثرة النسل، فنُقْطِع كل ولد من أولادنا قرية من هذه الخرابات، فقال لها الذكر: هذا أسهل أمر سألتيه منّي، وأنا مليء بذلك ما دام هذا الملك حيّاً.

فلمّا سمع الملك كلام الموبذ عمل الكلام في نفسه واستيقظ من نومه، وفكّر فيما خوطب به، فنزل من ساعته، ونزول الناس لنزوله وخلا بالموبذ، فقال له: أيّها القائم بأمر الدين، والناصح للملك والمنبه له على ما أغفله من أمور ملكه، وإضاعته من أمور بلاده ورعيّته، ما هذا الكلام الذي خاطبتني فيه وحرّكت منّي ما كان ساكناً، فقال له الموبذ: صادفت في الملك السعيد جدّة سعدٍ فيها العباد والبلاد، فجعلت الكلام مثلاً وموقظاً على لسان الطائر عند سؤال الملك إيّاي عمّا سأل، فقال له الملك: أيّها الناصح اكشف عن هذا الغرض مالمراد منه؟ فقال: أيّها الملك إنّ الملك لا يتمّ إلّا بالشريعة والقيام لله تعالى بطاعته، ولا قوام للشريعة إلّا بالملك، ولا غنى للملك إلّا بالرجال، ولا قيام للرجال إلّا بالمال، ولا سبيل للمال إلّا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلّا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الباري تعالى وجعل له قيّماً وهو الملك، فقال له الملك: أمّا ما وصفت فهو حق فأبِنْ لي عمّا إليه تقصد، وأوضح لي في البيان، فقال: نعم، أيّها الملك عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل الباطنة، فعمدوا إلى ما تعجل من غلّاتها، فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة، والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحَيْف على الرعيّة وقلّة العمارة فارتحلوا عن ضياعهم، وقلّت الأموال وهلكت الجنود والرعيّة، وطمع في ملك فارس من طاف بها من الملوك والأمم، لعلمهم بانقطاع المواد التي بها يستقيم دعائم الملك، فلمّا سمع الملك ذلك أقام في موضعه ثلاثة أيام، وأحضروا الوزراء والكتّاب وأرباب الدواوين، فانتزع الضياع من أيدي الخاصة والحاشية وردّت إلى أربابها، وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم، وعمرت البلاد وأخصبت الأرض وكثرة الأموال عند الجباة، وقويت الجنود وانقطعت مواد الأعداء.

وأقبل الملك يباشر الأمور بنفسه فحسنت سريرته وعظمت هيبته وانتظم ملكه، حتى كانت أيامه كالأعياد لما عمّهم من الخصب وشملهم من العدل، وكان ملكه سبع عشرة سنة[1].

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام المعروف بالبطل، وكان ملكه أربعين سنة وأربعة أشهر، وهو الذى يقال له شاهنشاه.

وذكر أنّ بعض الأكاسرة هذا أو غيره صعد ذات يوم مكاناً عالياً من قصره فأشرف منه على منازل الرعيّة، فرأى فتاة جميلة في بعض المنازل ففتن بها، فسأل عنها، فقيل له: هذه فلانة زوجة

---

(١) مروج الذهب: ١٠٩/١، اعلام الناس بما وقع للبرامكة للاتليدي: ١٢/١.

خادمك فلان، فطلبه وأرسله بكتاب إلى بعض العمّال فمضى الخادم ونسي الكتاب، فرجع من الطريق وأخذ الكتاب ورأى شيئاً من أثر الملك في منزله فشغل قلبه ومضى بالكتاب، وكان الملك قد جاء إلى منزل الخادم لقصد زوجته، فرحبّت به ودعت له وقبّلت الأرض بين يديه، فراودها فأبت، وقالت: أيّها الملك إن رضيت هذا الأمر لنفسي فلم أرضه لك، لأنك ملك الملوك وفعل القبيح لا يليق بالملك، وأنا زوجة بعض خدمك الذين لا ترضى مواكلتهم، أما سمعت قول الشاعر:

سأترك ماءكم من غير ورد | وذاك لكثرة الوراد فيه
إذا وقع الذباب على طعام | رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء | إذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن | ولا يرضى مواكلة السفيه

فأصرّ على ذلك ولم يرتدع، فقالت له: اما سمعت قول الآخر:

قل للذي شفني الغرام به | وصاحب الجهل غير مصحوب
تالله لا قال قائل أبداً قد | يأكل الليث فضلة الذيب

فرجع الملك عنها، فلمّا قدم زوجها من سفره أخرجها إلى عند أبيها فرافعه إلى القاضي في مجلس الملك، وقال: هذا الرجل اشترى منّي بستاناً وتصرّف فيه وفكّ ختمه، وشمّ من زهره، وأكل من ثمره، وردّه عليّ بغير سبب، فقال الرجل: بل رأيت أثر الأسد فيه فخفت أن يفترسني، فقال الملك: لا تخف نعم البستان بستانك، دخله الأسد مرة واحدة ولم يذق منه شيئاً، فطب نفساً وردّ بستانك إليك فردّ زوجته إليه، وأخبرته بالحال فزاد فيها حبّاً وظنّ القاضي أنّ الدعوة على بستان.

ثم ملك بعد بهرام ابنه نرسي تسع سنين، وقيل سبع سنين وخمسة أشهر.

وذكر أنّ كل من تقدّم هذا الملك كان ينزل جند سابور من بلاد خوزستان.

ثم ملك بعد نرسي ابنه هرمز، وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر، ومات وزوجته حامل ولم يكن له ولد، فعقدوا التاج على ما في جوفها فولدت شابور.

ثم ملك بعد هرمز ابنه شابور ذو الأكتاف، وكان خلّفه والده حملاً في بطن أمّه، وقام الوزراء بأمر التدبير، فغلبت العرب من ولد إياد بن نزار على سواد العراق، وكان يقال لإياد: طبق لإطباقها على البلاد، وملكها يومئذٍ الحارث بن الأغر الإيادي، وكانت إياد يصيّفون بالجزيرة ويشتّون بالعراق.

فلمّا بلغ شابور من السنّ ست عشرة سنة، أعدَ أساورته إلى الخروج إليهم والإيقاع بهم، وكان في جيش شابور رجل منهم يقال له لقيط، فكتب إلى إياد شعراً ينذرهم به ويعلمهم خبر من يقصدهم فقال:

سلام في الصحيفة من لقيط | على من بالجزيرة من إيادي

فــان الليث يأتـيكم دلاقـا ... فـيحسبكم له سوق النفادى
أتـاكـم مـنهم سـبعون ألفـاً ... يــجرون الكـتائب كـالجراد

فلم يعبؤا بكتابه وسراياهم تكر نحو العراق وتُغير على السواد، فلمّا تجهّز القوم نحوهم، أعاد إليهم كتاباً ثانياً يخبرهم فيه، أنّ القوم قد عسكروا وحشدوا، وأنّهم سائرون إليكم، وكتب إليـهم شعراً ينذرهم به، يقول فيه:

أبـلغ إيـاد وحـلل فـي سـراتـهم ... أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
ألا تـــخافون قـــوماً لا أبـاً لكـم ... مشـوا إليكـم كأمـثال الدّبـا سُـرعا
فـــــقلّدوا أمـــــركم لله ودكـــم ... رحب الذراع بأمر الحـرب مـضطلعا

فأوقع بهم شاپور وعمّهم القتل، وما فلت منهم إلّا نفر لحقوا بأرض الروم، وخلع أكتاف كثير منهم، فسمّي بذلك شاپور ذو الأكتاف، ووصل إلى الإحساء والقطيف، وقتل في العرب وسفك من دمائهم ما لا يحصى.

وسار إلى اليمامة وقتل بها، وجعل لا يمرّ على ماء للعرب إلّا طمّه، ومرّ في مسيره على البحرين وفيها يومئذٍ بنو تميم، فأمعن في قتلهم وهرب بنو تميم، وكان شيخها يومئذٍ عمرو بن تميم بن مرّ، وله يومئذٍ من العمر ثلاثمائة سنة، وكان يعلّق في عمود البيت في قفة قد اتخذت له، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلّا أن يتركوه في ديارهم، وقال: ها أنا هالك اليوم أو غد، وماذا بقي من عمري؟ ولعل الله أن ينجّيكم من سطوة هذا الملك المسلّط على العرب بسبّي، فتركوه في ديارهم وهربوا.

فلمّا أصبحت خيل شاپور الديار لقوها خالية، فلمّا سمع عمرو صهيل الخيل جـعل يـصيح بصوت ضعيف فأخذ وجيء به إلى شاپور، فلمّا وضع بين يديه نظر إلى دلائل الهرم ومرور الأيّام عليه [ظاهرة فقال][١] له: من أنت أيّها الفاني؟ قال: أنا عمرو بن تميم بن مر، وقد بلغت من الكبر ما ترى، وقد هرب الناس منك لإسرافك في القتل، فآثرت الفناء على يديك، لألحق بمن مضى من قومي، ولعل الله يجري على يديك فرجهم، وأنا أسألك عن أمر إن أذنت لي فيه قلته، فقال شاپور: قل ـ فسمع ـ، فقال عمرو: ما الذي حملك على قتل رعيتك ورجال العرب؟ فقال شاپور: أقتلهم لما أرتكبوا من [أخذ] بلادي وأهل مملكتي، فقال عمرو: فعلوا ذلك ولست عليهم بـقيّم، فـلمّا بلغت رجعوا عمّا كانوا عليه من الفساد هيبة لك، قال شاپور: وأقتلهم لأنّا نجد في مخزون علمنا وما سلف من آبائنا إلينا إنّ العرب ستدلوا علينا، فقال عمرو: هذا أمر تتحققّه أم تظنه؟ قال: بـل أتحققّه ولابدّ أن يكون، قال: فلم تسيء إليها؟ والله لأن تبقي على العرب وتحسن إليها ليكافئون

(١) لم ترد في النسخة الخطية، وما اثبتناه من المصدر.

قومك عند إدالة الدولة إليهم بإحسانك، وأنت إن طالت بك المدّة كافؤك عند مصير الأمور إليهم إن كان حقّاً وإن كان باطلاً، فلم تعجل الإثم وتسفك دماء رعيتك؟ قال شاپور: الأمر صحيح والرأي ما قلت يا شيخ، ولقد صدقت في القول ونصحت في الرأي، ثم أمر فنادى منادي شاپور بالأمان ورفع السيف. ويقال أنّ عمراً بقي بعد هذا الوقت ثمانين سنة[1].

ثم سار شاپور إلى أرض الروم، وفتح المدن وشنّ الغارات وقتل خلقاً من الروم، وغنم وسبى وهادته أم قسطنطين ملك الروم، ووقع الصلح بين فارس والروم.

فقال شاپور لمن معه: إنّي أريد أن أدخل إلى أرض الروم متنكّراً، لأعرف أخبارهم وسيرهم ومالك بلادهم، فإذا بلغت من ذلك حاجتي انصرفت إلى بلادي وأسير إليهم بالجنود، فحذّروه التغيير بنفسه فلم يقبل ذلك منهم.

وسار متنكراً حتى دخل القسطنطينة فصادف وليمة لقيصر ملك الروم، قد اجتمع فيها الخاص والعام، فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وقد كان قيصر أمر مصوراً أتى عسكر شاپور فصوّر صورة شاپور وجاء بها إلى قيصر، فأمر بها فصوّرت على آنيّة الشراب من الذهب والفضة، وأتى بعض من كان على المائدة بكأس، فنظر إلى الصورة التي على الكأس وكان شاپور مقابله على المائدة، فعجب من اتفاق الصورتين وتقارب الشبهين، فقام إلى قيصر فأخبره فمثل شاپور بين يدي قيصر، فسأله عن خبره؟ فقال: أنا من أساورة شاپور هربت منه لأمر خفته فيه، فلم يقبل ذلك منه وقدم إلى السيف فأقرّ بنفسه، فقيّده وجعله في جلد بقرة قريب السلخ.

وسار قيصر في جنوده وحمل شاپور معه حتى توسّط العراق، وافتتح المدن وشن الغارات وعقر النخل وانتهى إلى مدينة شاپور، وقد تحصّن بها وجوه فارس فنزل عليها وحضر عيد النصارى، فغفل الموكّلون بأمر شاپور وأخذ منهم الشراب، وكان بالقرب من شاپور نفر من أسارى الفرس فخاطبهم بالفارسية فعرفوه فأمرهم أن يحل بعضهم بعضاً، وشجّعهم وأمرهم أن يصبّوا عليه زقاق الزيت ففعلوا فلان الجلد وتخلص.

وأتى إلى سور المدينة فراطن أساورته فعرفوه ورفعوه إليهم بالحبال، ففتح خزائن السلاح وخرج على الروم وهم مطمئنّون، فكبس جيشهم عند ضرب النواقيس، فانهزم الروم وأتى بقيصر أسيراً فاستحياه وأبقى عليه، وضم إليه من أُسر من أصحابه وأمرهم بغرس الزيتون بالعراق بدلاً من النخل الذي عقروه، ولم يكن الزيتون قبل ذلك بالعراق، وفي فعل شاپور وتغييره بنفسه ودخوله أرض الروم، قال بعض المتقدمين من شعراء الفرس:

---

(١) مروج الذهب: ١/١٨١.

وكـان شـاپور صفوا في أرومته أختير منها فأضحى كفو مختار
إذ كان بالروم جاسوساً يجول بها حزم البرية من في كيد مكار
فاستأسروه وكانت كبوة عجباً وزلة سبقت من غير عثار
واصبح الملك الرومي مغتزيا أرض العراق على هول وأخطار
فراطن الفرس بالأبواب فافترقوا كما تجاول أسد الغار بالغار
فجذ بالسيف أهل الروم فامتحقوا لله درك من طلاب أوتار
إذ يغرسون من الزيتون ما حصدوا من النخيل وما حفرا بمنشار

وقيل أنّ سابور هذا هو الذي بنى الإيوان المعروف بالمدائن ـ بإيوان كسرى ـ إلى الآن، وقيل: بناه أنوشروان.

وكانت مدة ملك شابور أربعين سنة وأربعة أشهر. وذكر صاحب سلوان المطاع لشاپور قصة عجيبة جرت له لمّا أسره قيصر ملك الروم، فيها أمثال ومواعظ وحكم من وزيره.

ثم ملك بعد شاپور أخوه أردشير بن هرمز وتقدّم أنّ هرمز لمّا مات لم يكن له ولد إلّا شاپور خلّفه حملاً في بطن أمه، ولعل ولده أردشير هذا خلّفه والده حملاً أيضاً مثل أخيه، فكان ملك أردشير إلى أن خلع أربع سنين، وقال الغزالي: كان ملكه مائة وعشرة سنين والله أعلم.

ثم ملك بعده ابن أخيه شاپور بن شاپور، فكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وكانت له حروب كثيرة مع ولد إياد بن نزار وغيرها من العرب، وفيها قال شاعر إياد:

على رغم شاپور بن شاپور أصبحت قبابُ إياد حولها الخيل والنعَمْ

ثم ملك بعده بهرام ابنه الذي كان يدعى شاهنشاه[1]، وكان ملكه عشرة سنين، وقيل: إحدى عشرة سنة.

ثم ملك بعده يزدجرد المعروف بالأثيم. وكان صاحب الظلم والجور والفساد، وكان فظٌ غليظ القلب خشن الجانب شديد التكبّر، فاجتمع قومه ودعوا الله عليه وسألوه أن يعجّل لهم الفرج ويريحهم منه، فرأوا فرساً أقبل حتى وقف على بابه، فطاف الناس حوله متعجّبين من حسنه، فأخبروه بذلك فقام ينظر إليه فأعجبه وأمر بإسراجه وإلجامه، فلمّا أسرج مسح وجهه وناصيته واستدار حوله فركصه ركصة أصاب بها كبده، فقتله ثم ملأ الفرس فوجه جرياً فلم يدرك، فكان ملك يزدجرد إلى أن هلك إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، وقيل: اثنين وعشرين سنة إلّا شهرين.

ثم ملك بعده ابنه بهرام المعروف ببهرام جور، وكان له النظر التام في أحوال الرعيّة والرميّ عن

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: كرمانشاه.

القوس والصيد واللعب والاشتغال بالعشرة والشرب، وكان من أهل الشدة والبأس على أعدائه.

ويقال أنّه دخل الهند متنكراً فمكث فيها حيناً لا يعرف حتّى بلغه أنّ فيها فيلاً هائجاً بموضع قد قطع السبيل وأهلك الناس، فسألهم أن يدلّوه عليه، فرفع أمره إلى الملك فأرسل معه رسولاً فلمّا انتهيا إليه صعد الرسول إلى شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل، فخرج إليه الفيل فجعل بهرام يرميه ويثبت النشّاب بين عينيه، ثم دنى منه وضربه بشفرته وجذبه جذبة خرّ منها الفيل ميّتاً، ثم اجتزّ رأسه وأقبل به الملك، فحيّاه الملك وأحسن إليه، ثم أن ملكاً من أعداء ذلك الملك أقبل نحو ديار الملك الذي كان بهرام عنده، فجزع ذلك الملك من كثرة جنود الملك الآتي نحوه، فقال له بهرام: لا يهولنك أمره؛ وركب بهرام وقال لاساورة الهند: أحرسوا ظهري وانظروا إلى عملي، وكانوا قوماً لا يحسنون الرمي وأكثرهم رجّالة، فحمل عليه بهرام حملة هزمهم، ثم جعل يضرب الرجل منهم فيقطعه نصفين، ويأتي الفيل فيضرب وجهه ومنكبه، ويتناول الرجلين فيضرب بأحدهما الآخر فيموتان معاً، ويرمي فلا يقع له نشّابة في الأرض، فولّوا أمامه منهزمين، وحمل أصحابه الذين كانوا يحرسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم.

فأنكحه ملك الهند ابنته وجعل له محلة الدكن ومكران[1] وما يليهما من أرض السند وأشهد له بذلك.

ثم انصرف بهرام إلى مملكته ولم يزل تحمل إليه أموال تلك البلاد، ثم سار نحوه خاقان ملك الترك بجنود عظيمة، فهزمه بهرام في جمع يسير من قومه، وأخذه أسيراً ثم قتله وأنشد:

أقول له لما فضضت جموعه ... كأنك لم تسمع بصولات بَهرَام
وأني حامي ملك فارس كلها ... وما خير ملك لا يكون حام

وكان نشوء بهرام مع العرب، وكان يقول الشعر بالعربية، ويتكلم بلغات كثيرة، وكان على خاتمه مكتوب بالأفعال تعظم الأخطار ومن شعره:

لقد علم الأنام بكلِّ أرض ... بأنهم قد اضحوا لي عبيدا
ملكت ملوكهم وقهرت منهم ... عزيزهم المسوّد والمسودا
فتلك أسودهم تسعى حيارا ... وترهب من مخافتي الورودا
وكنت إذا تشاوس ملك الأرض ... عبأت له الكتائب والجنودا
فيعطيني المقادة أو أوافي ... به: شكوا السلاسل والقيودا

وكان ملك بهرام ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: تسع عشرة سنة، وملك وهو ابن عشرين سنة، وغاص هو وفرسه في حماه في بعض أيام صيده، فجزعت عليه فارس لما كان عمّها من عدله

---

(١) في تاريخ الطبري، ونهاية الارب في فنون الأدب، والمنتظم: (الديبل ومكران).

وشملها من إحسانه ورأفته برعيته.

ثم ملك من بعده ابنه يزدجرد، وأحضر حين ولي الملك رجلاً من حكماء عصره كان عنده يأخذ من أخلاقه ويقتبس الرأي منه يسوس به رعيته.

فقال له: أيها العاقل ما صلاح الملك؟

قال: الرفق بالرعيّة، وأخذ الحقّ منهم في غير مشقّة عليهم، والتودد إليهم بالعدل، وأمن السبيل، وإنصاف المظلوم من الظالم.

قال: فما صلاح الملك؟

قال: وزراءه وأعوانه إن صلحوا صلح وإن فسدوا فسد.

فقال له: إنّ الناس قد أكثروا في أسباب الفتن فصف لي ما الذي يسبّبها ويسكّنها؟

فقال الحكيم: يسبّبها ويحميها جرأة العامّة، ويولّدها استخفاف الخاصّة، ويؤكدها انبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسر، وأمل معسر، وغفلة ملتذّ، ويقظة محروم، والذي يسكّنها أخذ العدّة لما يخاف قبل حلوله، وإيثار الجدّ حين تكرار الهزل، والعمل بالحزم في الغضب والرضا. ثم هلك يزدجرد وكان ملكه تسع عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

ثم ملك بعده ابنه فيروز فنازعه في الملك أخوه هرمز فقتل فيروز أخاه هرمز، وظهر في أيامه غلاء عظيم، وغارت الأعين، ويبس النبات سبع سنين، ثم أعاد الله الخير أحسن ما كان.

ثم أنّ فيروز غزا اخنشور ملك الهياطلة وهُم بين بخارى وسمرقند، فاحتال عليه ملك الهياطلة حتى أخذه أسيراً، ثم عاهده على أن يخلي سبيله ولا يغزوه بعد ذلك ولا يقصده بمكروه، ووضع في أقصى تخوم أرض الهياطلة صخرة، وأخذ على فيروز عهداً أن لا يجاوز تلك الصخرة، فعاهده فيروز على ذلك فأطلقه. فلمّا رجع فيروز إلى مملكته أخذته الحميّة الجاهليّة والأنفة فعزم على غزو الخنشوار مرة أخرى، واطلع وزرائه على ذلك فحذّروه النكث وخوّفوه عاقبة البغي، فما ردّه ذلك عمّا هو فيه، فأذكروه العهود التي أخذها عليه الخنشوار، فقال لهم: إنّما حلفت أن لا أتجاوز تلك الصخرة، فأمر أن تحمل أمام جنوده وأن لا يتجاوزها أحد.

وسار نحو الخنشوار فقال له عالمه: لا تفعل أيّها الملك فإنّ ربّ العالمين يمهل الملوك على الجور ما لم يأخذوا في هدم ركن من أركان الشريعة، فإن أخذوا في ذلك لم يمهلهم، وأنّ العهود والمواثيق ركن من أركان الشريعة فلا تتعرض له بسوء، فلم يلتفت فيروز وركب هواه في معصية أصحابه حتى انتهى إلى مكان الصخرة، فالتقى الجمعان فانهزم فيروز وظفر به الخنشوار أو قتله. وكان ملكه سبعة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ابنه بلاس فنازعه في الملك أخوه قباذ، فغلب بلاس على أخيه قباذ، فهرب قباذ

إلى خراسان ليطلب من خاقان ملك الترك أن يعينه على أخيه، فماطله أربع سنين ثم وجّه معه جيشاً، فلمّا قدم المدائن وجد أخاه بلاس قد هلك وكان ملكه أربع سنين، وكان حسن السيرة.

ثم ملك بعده أخوه قباذ بن فيروز، وفي أيامه ظهر مزدك الزنديق وادعى النبوّة، وأمر الناس بالتساوي في الأموال والاشتراك في النساء، وأطاعه قباذ وعظم ذلك على الناس، فقال مزدك: إنّ الله جعل الأرض وما فيها للعباد بالسويّة، فتظالم الناس وبغى بعضهم على بعض.

وانضم إلى مزدك جماعة وقالوا: نحن نقسّم بين الناس ونرد على الفقراء حقوقهم من الأغنياء، فكانوا يدخلون على الرجل فيغلبونه على أمواله ونسائه فيأخذونها ويقسّمونها، فوثب رجل من الأشراف يعرف بابن ساخورا في جماعة من أصحابه على مزدك فقتله[1]. وفي تاريخ روض المناظر أنّ مزدك بقي حتى قتله أنوشروان بن قباذ.

وخلع الناس قباذ وولّوا أخاه جاماسف الحكيم صاحب علم النجوم، وبقي في الملك سنة ونصف، ثم انتصر قباذ بالهياطلة وعاد إلى ملكه، وحبس أخاه جاماسف وقتل قاتل مزدك، فأنتشر ملكه وأدبر أمره ولم يبق ناحية إلّا خرج فيها خارجي، ثم هلك قباذ على ذلك وكان ملكه أربعين سنة.

ثم ملك بعده ابنه كسرى انوشروان فخر ملوك إيران، صاحب العدل والإنصاف والإحسان والجود والإمتنان، فعدل وقتل مزدك الزنديق وكل من تبعه على دينه الخبيث، وصحّت دولته وأعاد الأمور على أحوالها، وعمل بسيرة اردشير بن بابك، وفتح الرها مدينة هرقل، واذعن قيصر له بالطاعة، وقتل الهياطلة وأعاد ملك سيف بن ذي يزين الحميري عليه، وقتل ملك الحبشة مسروق بن أبرهة الأشرم، وبنى سور الباب والإيوان، وجعل ممد السور من جوف البحر مقدار ميل، وبناه على الزقاق بلبن الحديد والرصاص، وكلمّا ارتفع البناء نزلت الزقاق إلى أن استقرت في قعر البحر، وارتفع السور على الماء فغاصت الرجال حينئذٍ بالخناجر إلى تلك الزقاق، فشقّوها وتمكّن السور على وجه الأرض في قعر البحر.

وذكر المسعودي أنّ هذا السور كان باقياً في سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، وسمّي هذا السور الذي في هذا البحر الصد، وجعله في البر على جبل القبخ أربعين فرسخاً حتى انتهى إلى طبرستان، وعلى كل ثلاثة أميال من هذا السور باب من حديد، وأسكن من دخاله أُمّة من الناس ترعى ذلك الباب وما يليه من السور، وذلك لدفع الأمم المتصلة بذلك الجبل من أنواع الأمم، منهم: الخزر واللان والترك والبرغز وغيرهم، ولمّا بنى أنوشروان هذا السور هابته الملوك من أقطار الأرض وراسلته وهادته، وكان ممن ورد عليه رسول ملك الروم قيصر بهدايا ولطائف، فنظر إلى إيوانه

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٢٣/٤.

وحسن بنيانه، فرأى اعوجاجاً في ترابيعه. فقال: كان يحتاج هذا الصحن أن يكون مربّعاً، فقيل له: أنّ عجوزاً لها منزل في جانب الاعوجاج وأنّ الملك راودها على بيعه وأرغمها في الثمن فأبت ولم يكرهها وبقي الاعوجاج، قال رسول قيصر: هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء.

وكتب إليه ملك الصين من يعفور ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر، الذي يجري في صحنه نهران يسقيان العود والكافور، الذي توجد رائحته على فرسخين، والذي تخدمه بنات ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل أبيض، إلى أخيه كسرى أنوشروان، وأهدى إليه فرساً وعليه فارس من درّ منضّد، عينا الفارس والفرس من ياقوت أحمر، وقائم سيف الفارس من زمرّد منضّد بالجوهر، وثوب حرير صيني فيه صورة الملك على أيوانه، وعليه حلّته وتاجّه على رأسه، وقدّامه الخدم بأيديهم المذابُّ والصورة منسوجة بالذهب، وثوب لازوردي فيه سفط من ذهب، تحمله جارية تغيب في شعرها، تتلألأ جمالاً، وغير ذلك مما تهديه الملوك لأمثالها.

وكتب إليه ملك الهند من ملك الهند أعظم ملوك الشرق، صاحب قصر الذهب وأبواب الياقوت والدرّ. إلى أخيه كسرى أنوشروان ملك فارس صاحب التاج والراية، وأهدى إليه ألف رطل من العود القماري، الذي يذوب في النار كما يذوب الشمع، ويختم عليه كما يختم عليه الشمع، وجاماً من الياقوت الأحمر فتحته شبراً مملوءاً درّاً، وعشر أمنان كافور[١] كالفستق وأكبر من ذلك، وجارية طولها سبعة أذرع تضرب أشفار عينيها خديها، وكأنّ بين أجفانها لمعان البرق مع اتقان شكلها، مقرونة الحاجبين لها ظفائر على الأرض تجرّها، وفراشاً من جلود الحيّات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْي[٢]، وكان كتابه في لحاء الشجر المعروف بالكاذي مكتوباً بالذهب الأحمر، وهذا الشجر بأرض الهند والصين له لون حسن ورائحة طيّبة، تكاتب فيه ملوك الصين والهند أمثالها من الملوك.

وكتب إليه ملك التبت من ملك التبت ومشارق الأرض المتاخمة للصين والهند، إلى أخيه كسرى أنوشروان المحمود السيرة والقدر، ملك المملكة المتوسطة للأقاليم السبعة. وأهدى إليه أنواعاً من عجائب الأرض، منها مائة جوشن تبتية، ومائة ترس مذهبّة، وأربعة آلاف نفجة من نوافج المسك الغزلاني[٣].

وولد النبيّ محمّد ﷺ في السنة الثانية والأربعين من ملك أنوشروان، وقال: ولدت في زمن الملك العادل.

وقال: زيّن الله السماء بثلاثة: الشمس، والقمر، والكواكب، وزيّن الأرض بثلاثة: العلماء، والمطر،

---

(١) في المخطوط (لؤلؤ)، وما اثبتناه من المصدر.

(٢) الوشي: نقش الثوب من كل لون.

(٣) مروج الذهب ١/١١٧.

والسلطان العادل[١].

وتأسّف على موت أربعة على كفرهم انوشروان لعدله، وحاتم الطائي لكرمه، وامرؤ القيس لشعره، وعنتر العبسي لشجاعته.

ومات انوشروان سنة ثمان وثمانين وثمانمائة من غلبة الإسكندر، وكان ملكه ثمانية وأربعين سنة، وكان يسمى كسرى الخير.

وقال الغزالي: إنّ المأمون كشف عن تربة كسرى أنوشروان وفتح تابوته وفتّشه ونظر إلى صورة وجهه بماء الحسن، وبدنه لم يتغير ولم يبل منه شيء، وثيابه بجدّتها ما تغيّرت ولا تمزّقت، وخاتمه في إصبعه فصه من الياقوت الأحمر مكتوب عليه به مه نه مه به[٢]، فأمر المأمون أن يغطّى بثوب منسوج بالذهب، فغطّاه الخادم وأخذ الخاتم من اصبع كسرى، فلمّا علم المأمون بذلك أعاد الخاتم، وقتل الخادم وقال: أراد العبد أن يفضحني بحيث يقال: أنّ المأمون كان نبّاشاً فتح تربة كسرى وأخذ خاتمه من اصبعه[٣].

ثم ملك بعد كسرى أنوشروان ابنه هرمز، وأمّه فاقم بنت خاقان ملك الترك، وقيل: بنت ملك من ملوك الخزر، وكان ملكه اثنى عشر سنة، ثم خلع وسملت عيناه واعتقل مدّة ثم خنقه ابنه ابرويز، وهو أوّل ملك سملت عيناه.

ثم ملك بعده أبرويز ويُعرف بكسرى، وهو الذي خنق أباه واستعمل اللهو واللذات وجمع الخزائن وكنز الكنوز والسلاح، ثم خالف عليه بهرام جوبين وأراد أن ينتقم منه لأبيه، فهرب أبرويز إلى ملك الروم واستنجد به وعاد إلى ملكه، وجمع أموالاً عظيمة، وتزوّج شيرين المغنية، وبنى قصر شيرين بين حلوان وخانقين، وخرج في بعض أعياده وقد صفّت له الجيوش وفيما صفّ له ألف فيل، وقد أحدقت به خمسون ألف فارس دون الرجّالة، فلمّا أبصرته الفيلة سجدت له، فما رفعت رؤسها حتى جذبت بالمحاجن وراطنها الفيّالون بالهندية، وطالت مدّته وعتى وتجبّر حتّى ضجر الناس منه، فخلعوه بعد ثمانية وثلاثين سنة من ملكه.

ثم كبس في داره وخرجت عليه الرعيّة وأقاموا ولده شيرويه، فأحضر أباه أبرويز، وقال له: لا تعجب إن أنا قتلتك فإنّي أقتدي بك في قتلك أباك، ثم أمر بقتله، وقتل شيرويه جميع إخوته وكانوا تسعة عشر.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩٧/١١.

(٢) في المخطوط (.٢ .٢ .٢ .٢ .٢)، وما اثبتناه من الأصل.

(٣) التبر المسبوك في نصيحة الملوك: ٦٦، الباب الأوّل.

وكان وزير أبرويز القائم بأمره بزرجمهر الحكيم[1]، وله وصايا وحكم ومواعظ وكلام كثير في أيدي الناس، وقيل: كان وزيراً لكسرى أنوشروان، وكان لمّا بلغ عمره خمس عشر سنة، دخل على كسرى وقد جلست الوزراء على كراسيّها والمرازبة في مجالسها، فوقف وحيّا الملك، ثم قال:

الحمد لله المأمول نعمه، المرهوب نقمه، الدال عليه بالرغبة إليه، المؤيّد الملك بسعوده في الفلك حين رفع شأنه، وعظم سلطانه، وأنار به البلاد، وأغاث به العباد، وقسّم به في التقدير وجوه التدبير، فرعى رعيّته بفضل نعمته، وحماها بالموبلات، وأوردها المعشبات، وأدارها على الآكلين، وألفها بالرفق واللّين، إنعاماً من الله تعالى عليه، وتثبيتاً لما في يديه، ونسأله أن يبارك له فيما آتاه، وتخيّر فيما استرعاه، ويرفع قدره في السماء، ويسير ذكره على وجه الماء، حتّى لا يبقى له منآوئ، ولا يوجد له مساوي، واستوهب الله له حياة لا تنغيص فيها، وقدرة لا يحيد عنها، وملكاً لا بؤس فيه، وعافية تدوم له البقاء، وتكثر له النماء، وعزّاً يؤمّنه من انقلاب رعيّته، أو هجوم بليّته، فإنّه مؤتى الخير ودافع الشرّ، فأمر الملك أن يحشّى فمه نفيس الجوهر[2].

ولم يمنعه حداثة سنّه أن استوزره الملك وقلّده خيره وشرّه، وقال له يوماً: ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: العقل، فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل يستره، قال: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره، قال: فإن لم يكن؟ قال: خلق حسن يعاشر به الناس، قال: فإن لم يكن؟ قال: منيّة عاجلة تريحه وتريح منه.

ثم أنّ هذا الوزير ترك دين المجوس ورجع إلى دين عيسى فقتله كسرى لذلك. ووجّه في منطقته كتاباً فيه إذا كان القدر حقّاً فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.

وفي أيام أبرويز كانت الهجرة الشريفة المحمّدية، وأرسل رسول الله ﷺ إلى أبرويز كتاباً مع عبدالله بن حذافة يدعوه إلى الإسلام، فمزّق الكتاب وأرسل إلى باذان عامله باليمن يأمره بالركوب عليه[3].

فقال رسول الله ﷺ: إنّ ربّي أخبرني أنّ كسرى أبرويز قتله ابنه شيرويه. وكان ملك أبرويز ثمانية وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده ابنه قباذ المعروف بشيرويه القابض على أبيه والقاتل له، والفرس تسمّيه المشؤوم، لكونه قتل أباه، وقتل جميع إخوته وكانوا تسعة عشر كأنّهم عوالي الرماح قد كملوا

---

(١) في النسخة الخطية (بوزر)، وما اثبتناه من تاريخ ابن خلدون، وهو الموافق لما في البصائر والذخائر.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٤١/٤.

(٣) المختصر في أخبار البشر: ٩٤/١.

خلقاً وخُلقاً.

وكان شيرويه صغير الجثّة، رديء الخلق، سيّء المزاج، كثير الأمراض، وكان ملكه إلى أن هلك ستة أشهر، وأُمّه بنت قيصر ملك الروم، وكان هلاكه سنة سبع من الهجرة.

ثم ملك بعده ابنه أردشير وهو ابن سبع عشرة سنة، فسار إليه شهريار مقدم الفرس من أنطاكية، وكان إقطاعه الشام فقتله، وكان ملكه خمسة أشهر أو سنة.

ثم ملك بعده قاتله شهريار نحو من عشرين يوماً، وجلس على السرير فقامت عليه عظماء الفرس، وأنزلوه عن السرير لأنّه لم يكن من بيت الملك، وربطوا في رجليه حبلاً فجروه إقبالاً وإدباراً ثم قتل، وقيل: اغتالته إبنة أبرويز التي يقال لها: أزرميدخت. ثم ملكت بعده بوران بنت أبرويز فهلكت عن قريب[1].

ثم ملك بعدها خسرو من بني عمّ كسرى أبرويز، وقيل: كسرى بن قباذ، فلم يهتد للملك فأقام أقل من شهر وقيل ثلاثة أشهر، ثم قتل.

ثم ملكت بعده ابنة أبرويز الأخرى أزرميدخت[2]، وكانت من الجمال على غاية، فخطبها فرّخ شاه فأبت، ثم أجابته إلى الاجتماع به ليلاً، فلمّا جاء إليها قتلته. فجمع ولده رستم عسكره وكان نائباً على خراسان فقصدها فقتلها، وكانت مدة ملكها ستة أشهر، وقيل: سنة وأربعة أشهر.

ثم طلبوا فلم يجدوا إلّا رجلاً من عقب أردشير بن بابك اسمه كسرى بن مهرخشنش، فملّكوه عليهم فلم يلق به الملك فقتلوه بعد أيام.

ثم طلبوا فلم يجدوا إلّا رجلاً اسمه فيروز يزعم أنّه من نسل أنوشروان، فوضعوا التاج على رأسه فلم يسع رأسه، فقال: ما أضيق هذا؟ فتطيروا من كلامه فقتلوه.

ثم ملك فرخ زاد خسرو من أولاد أنوشروان ستة أشهر، ثم قتلوه.

ثم طلبوا فوجدوا واحداً من أولاد شهريار من أولاد يزدجرد، اسمه يزدجرد كان مختفياً في إصطخر حين قتل أعمامه أخوهم شيرويه فملّكوه عليهم، فكان ملكه كالخيال وكانت الوزراء تدبّره، وضعفت مملكة الفرس جداً. وغزت المسلمون بلادهم إلى أن قتل يزدجرد بمرو.

ويذكر من خبره لمّا وصل سعد بن أبي وقّاص إلى العذيب، أمر أن ينقل أمواله إلى الصين، وأقام هو في عدّة من الجند وقلّة من المال بنهاوند، وذلك سنة أربع عشرة في خلافة عمر، وخلّف على

---

(١) المنتظم: ٣٧٩/١، بروج الذهب: ١٢٤/١، وفي المخطوط (توران).

بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ملكها فقال: «لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»، بحار الأنوار ٢١٣/١٥، المحلى لابن حزم ٤٦/١. وذكر في معجم البلدان: انها ملكت أربعة أشهر ثم سمت وماتت.

(٢) الكامل في التاريخ: ٥٠٠/١، وفي المخطوطة (ارزميدوب).

المدائن أخاً لرستم، وسرّح رستم لقتال سعد بالقادسية في أربعمائة ألف مقاتل، فلمّا بلغه هزيمة سعد لرستم وقتله أيّاه، علم أنّ مدّتهم قد تصرّمت، فهرب وجعل لا يستقر بموضع من مدائنه، ثم دخل إلى الصين ثم رجع إلى بلاده.

فلمّا كان في أيام عثمان وخرج الأحنف بن قيس إلى خراسان، وافتتح بها هراة عنوة ومشى نحو مرو وكان بها يزدجرد، فهرب من مرو إلى الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك، وإلى عارك[1] ملك الصغد أن يعيناه، ثم خرج هو من الروذ إلى بلخ، فخرج الأحنف بن قيس في طلبه حتى التقى معه ببلخ، فهزمه الأحنف بن قيس وقد كان يزدجرد لمّا وصل رسوله إلى خاقان وإلى عارك، أقبلا في الترك والصغد ومن انضم إليهما من الطوائف من الخزر وغيرهم، إذ كان شأن الملوك أن ينجد بعضهم بعضاً، فلقيا يزدجرد منهزماً فرجع معهما إلى خراسان.

فلمّا بلغ خبرهم إلى الأحنف بن قيس وكثر عددهم، استند إلى جبل ليقاتلهم من جهة واحدة، فأقبل الترك ومن تبعهم حتى نزلوا بفنائه، فكانوا يغادونه القتال ويراوحونه مدّة ويرجعون إلى معسكرهم، فخرج الأحنف ذات ليلة حتى وقف على عسكر الترك وهو منفرد، فلمّا أصبح الصبح خرج من الترك فارس وحده ومعه طبل يضرب فيه، وعليه طوق ليقف على بعد من عسكره كالطليعة، وكان من سنّة الترك أن لا يتحركوا من عسكرهم حتى يخرج منهم ثلاثة، كل واحد منهم مطرق ومعه طبل يضرب فيه، فلمّا خرج الأوّل حمل عليه الأحنف فقتله وأخذ طوقه ووقف مكانه، ثم خرج الثاني والثالث فصنع بهما مثل ذلك؛ والترك لا علم لهم بما صنع بفرسانهم، فلمّا خرجوا وجدوا فرسانهم صرعى؛ فلمّا رآهم خاقان تطيّر من ذلك، وقال: قد طال مقامنا وقد أُصيب منّا هؤلاء الثلاثة الأنفار؛ فما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، ثم أمر أصحابه بالانصراف عن يزدجرد. جمع الترك والصغد والخزر وغيرهم منفضّين إلى بلادهم، وبقي في الفرس وحدها. وهذا معنى قول ابن عبدون:

وبلغت يزدجرد الصين واختزلت عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر

فانصرف يزدجرد إلى مرو، فسأل مرزبانها وأهلها مالاً فمنعوه من ذلك، فلمّا كان الليل هجموا عليه فقتلوا عدّة من أصحابه وفرّ هو بنفسه على وجهه، حتى انتهى إلى منزل رجل طحّان على نهر شطّ - يقال له المرغاب - فآوى إليه ليلاً، فلمّا نام قام الطحّان إليه فقتله وأخذ سلاحه وثيابه وألقى جسده في المرغاب، فلمّا أصبحوا أهل مرو تبعوا أثره حتى خفى عليهم عند منزل الطحّان فأخذوه، فأقرّ لهم بقتله وأخذ سلاحه فقتلوا الطحّان وأهل بيته، وأخرجوا يزدجرد من المرغاب وجعلوه في تابوت وحملوه إلى اصطخر فدفنوه بها، وذلك لتسع سنين خلت من خلافة عثمان بن

(١) في تاريخ ابن خلدون، والبداية والنهاية: (غورك)، وابن الاعثم (غوزك).

عفان، سنة أحدى وثلاثين من هجرة سيد المرسلين من بني عدنان صلى الله عليه وآله، ومن على منواله. وانتسخ ملك الفرس بالإسلام إلى يوم القيام، وكان ملك يزدجرد عشرين سنة أو ستاً وثلاثين سنة والله أعلم.

فصل
في أيام ملوك اليونان

قيل: هم من جملة الروم من ولد صوفر بن العيص[1] بن إسحاق بن إبراهيم.

وقال أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: إنّ يونان أخو قحطان بن عابر ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، فردّ عليه أبو العباس الناشئ في قصيدة بقول فيها:

أبا يوسف اني نظرت فلم أجد ... على الفحص رأيا منك صح ولا عقدا
وصرت حكيما عند قوم إذا أمرؤ ... بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
كفرت بالحاداً بدين محمّد؟ ... لقد جئت شيئاً يا أخا كندة اداً
وتخلط يوناناً بقحطان ضلةً ... لعمري لقد باعدت بينهما جدا

وكان يونان جبّاراً عظيماً وسيماً جسيماً، جزل الرأي، كثير الهم، جليل القدر، ولمّا كبر خرج يطلب موضعاً يسكنه، فأتى إلى موضع من الغرب فأقام به هو ومن معه من ولده، فكثر نسله إلى أن أدركه الموت، فجعل وصيّته إلى الأكبر من ولده، واسمه: حربيوس، فقال له: يا بني إنّي راحل عنك وقد وليتك على إخوتك، فعليك بالجود فإنّه قطب الملك، ومفتاح السياسة، وباب السيادة، وكن حريصاً على اقتناء الرجال بالإنعام عليهم تكن سيّداً رشيداً، وإيّاك والحَيَدَ عن الطريقة المثلى التي بني عليها العقل، فإنّه من تركها وقع في المهالك، فلمّا مات يونان بقي ابنه بعده في مكانه، فملك عليهم وكثر نسلهم فغلبوا على بلاد المغرب من بلاد الإفرنج والنوكبرد وأجناس الأمم من الصقالبة وغيرهم.

وذكر بطليموس في كتابه: أنّ أوّل ملك من ملوكهم، اسمه: فيلبس أو فليس أو فيلقوس، وتفسيره صاحب العرش، وكان ملكه سبع سنين. ثم ملك بعده ابنه اسكندر الملك، وليس بصاحب الخضر، وكان حكيماً عالماً شاباً مدبّراً كثير الهمّة واسع الرأي، كان عضباً على الأملاك ذا أثر، وهو الذي غلب على دارا بن دارا وقتله وتزوّج ابنته، وملك بلاد فارس ودوّخ الأرض وذلّت له

---

(١) انظر: المختصر في أخبار البشر، وصبح الأعشى، وفي الكامل في التاريخ، وتاريخ دمشق: (الاصفر بن اليفر)، ومروج الذهب: (الاصفر بن النفر).

الملوك، وسار نحو الهند وقتل ملكها الأعظم فور صاحب مدينة المناكير، فلمّا دانت له ملوكها بلغه أنّ بأقصى ديارها ملك من ملوكها ذا حكمة وسياسة وإنصاف لرعيته، وأنّه ليس في بلاد الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله، يقال له: كند، وكان قاهر لنفسه، مانع لها من الشهوة والمعصية، فكتب إليه الإسكندر كتاباً، يقول فيه: أمّا بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فإن كنت قائماً فلا تقعد، وإن كنت ماشياً فلا تلتفت حتى تدخل في طاعتي، وإلّا مزّقت ملكك وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند قبلك.

فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب بأحسن جواب وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنّه قد اجتمع عنده أشياء لم يجتمع عنده غيره مثلها، فمن ذلك جارية لم تطلع الشمس على صورة أحسن منها، وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحدّة مزاجه، وحسن قريحته، واعتداله في بنيته، واتساعه في علمه، وطبيب لا يخشى معه داء، ولا شيء من العوارض إلّا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية، وحل العقدة التي عقدتها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسي، وإن كانت بنية الإنسان وهيكله غرضاً قد نصبت في هذا العالم للآفات والحتوف، وقدح إذا ملأته ماء شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شيء، وأنا منفذ جميع ذلك إلى الملك وسائر إليه بعد ذلك.

فلمّا قرأ الإسكندر كتابه وسمع جوابه، قال: كون هذه الأشياء عندي ونجاة هذا الحكيم من صولتي، أحب إليّ من أن لا يكون عندي ويهلك، فأنفذ إليه الإسكندر جماعة حكماء من اليونان والروم في عدّة من الرجال، وقال لهم: إن كان صادقاً فيما كتب به فاحملوا إليّ ذلك واتركوه في موضعه، وإن رأيتم الأمر بخلاف ذلك وإنّه أخبر عن الشيء بخلاف ما هو به، فقد خرج عن حد الحكمة فأشخصوه إليّ.

فمضى القوم نحوه فلمّا انتهوا إلى مملكة الملك الهندي، خرج إليهم وتلقاهم بأحسن لقاء، وأنزلهم أحسن منزل، فلمّا كان في اليوم الثالث من قدومهم، جلس لهم مجلساً خاصّاً للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة، فقال بعضهم لبعض: إن صدق في الأولى صدّقناه فيما بعدها مما ذكر، فلمّا أخذت الحكماء مراتبها واستقرت بها مجالسها، أقبل عليهم مباحثاً لهم في أصول العلوم الفلسفية وفروعها، وعلى كم يحتوي العلم الفلسفي في أصوله، وإلى كم يتفرع وأطال الخطب في مناظرتهم، ثم أخرج الجارية التي وعد بها إليهم فلمّا ظهرت لأبصارهم لم يقع طرف أحد منهم على عضو من أعضائها فيتعدى بصره إلى غيره، اشتغالاً بحسن ذلك العضو عمّا سواه، حتّى خاف القوم على عقولهم، ثم أنّ كل واحد منهم رجع إلى نفسه وقهر سلطان هواه، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدم الوعد به وصرفهم.

فساروا بالفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم، فلمّا وصلوا إلى الإسكندر أمر بإنزال الطبيب والفيلسوف ونظر إلى الجارية، فحار عند مشاهدتها، فأمر قيِّمَة جارية بالقيام عليها، ثم

صرف همّه إلى الفيلسوف وإلى علم ما عنده وعلم ما عند الطبيب، وقصّ عليه الحكماء ما جرى لهم معه من المباحثة في العلوم الفلسفية فأعجبه ذلك.

وتأمّل أغراض القوم ومقاصدهم ثم أراد محنة الفيلسوف على حسب ما أخبر عنه ملكه، فأجال فكره فيما يختبره به، فدعا بقدح فملأه سمناً ولم يجعل للزيادة عليه سبيلاً، ودفعه إلى الرسول، وقال له: إحمله إلى الفيلسوف ولا تكلّمه بشيء، فلمّا دفعه الرسول إليه دعا الفيلسوف بألف إبرة فغرزها في السمن وصرفها إليه، فأمر الإسكندر بسبك تلك الإبر متساوية الأجزاء وردّها إليه، فأمر الفيلسوف ببسطها وجلائها حتى صارت حسبما ترد، صورة مقابلها لصفائها كالمرآة وردّها إلى الإسكندر، فدعا الإسكندر بطشت وجعل تلك المرآة فيه وصبّ عليها الماء حتى غمرها وردّها إليه، فأخذها الفيلسوف وعمل منها كالطرجهارة[١] مجوفة حتى طفت على الماء وصرفها إليه، فملأها الإسكندر تراباً وردّها إليه، فلمّا نظر الفيلسوف إلى التراب تغير لونه وبكى، ثم ردّها إلى الإسكندر ولم يضع فيها شيئاً.

فلمّا كان في صبيحة اليوم الثاني جلس الإسكندر جلوساً خاصاً، ودعا بالفيلسوف ولم يكن رآه قبل ذلك، فلمّا أقبل نظر الإسكندر إليه فإذا هو رجل طويل القامة، رحب الجبين، معتدل البنية، حسن الجسم، فقال في نفسه: هذه بنية تضاد الحكمة، فإذا اجتمع له حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحد أهل زمانه، فأشار الفيلسوف بإصبعه بنحو وجهه ووضعها على أرنبة أنفه، وأسرع نحو الإسكندر ثم حيّاه بتحيّة الملوك، فأشار إليه بالجلوس، ثم قال له: لم أدرت إصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك، قال: علمت أنّك تقول في نفسك إذا نظرت إلى حسن صورتي واتقان بنيتي قلت: ما تجتمع هذه الخلقة مع الحكمة، وإذا اجتمعت كان صاحبها أوحد أهل زمانه، فأريتك مصداقاً لما سنح ذلك، كما أنّه ليس في الوجه غير أنف، فكذلك ليس في ديار الهند على هذه الصفة غيري.

فقال له الإسكندر: حسن ما تأتى لك، فما بالك حتى بعثت إليك بالقدح مملوءاً بالسمن غرزت فيه الإبر ورددته إليّ؟ قال الفيلسوف: علمت أنّك تقول في نفسك إنّ قلبي قد امتلأ علماً فليس لأحد فيه مستزاد، فأخبرتك أنّ علمك سيزاد فيه كما زادت هذه الإبر في هذا السمن، قال: فما بالك حين علمت لك الإبر كرة صنعت منها مرآة صقيلة وصرفتها إليّ؟ قال: علمت أنّك تقول إنّ قلبي قد قسا من سفك الدماء والاشتغال بهذا العالم، فلا يقبل العلم ولا يرغب فيه، فأخبرتك أنّي سأعمل الحيلة في ذلك كما جعلت من الكرة مرآة مرية للأجسام، قال: فما بالك حين جعلتها في تطشت وصببت عليها الماء، جعلتها طافية على الماء؟ قال الفيلسوف: علمت أنّك تقول، أنّ الأيّام

---

(١) الطرجهارة: الفنجان الصغير: مختار الصحاح: ٢٠٦.

قد قصرت والأجل قريب، ولا يدرك العلم الكثير في المهل القليل، فأخبرتك أنّي سأعمل الحيلة في ذلك في غير مدة طويلة، كما جعلت هذه المرآة الراسية في الماء طافية عليه في أسرع وقت، قال: فأخبرني حين ملأت لك الإناء تراباً لم ردّدته عليّ ولم تحدث فيه شيئاً؟ قال الفيلسوف: علمت بأنّك تقول: ثم الموت فإنّه لابدّ منه، فأخبرتك أن لا حيلة لي فيه.

فقال الإسكندر: قد أجبتني عن مرادي في جميع ذلك ولأحسنن إلى الهند من أجلك، وأمر له بجوائز كثيرة.

فقال له الفيلسوف: لو أحببت المال لما كنت عالماً؛ ولست أدخل على علمي ما يضادده، فإنّ حرمة الفتنة توجب الخدمة، وقد ملكت أيّها الملك الحكيم بسيفك أجسام رعيتك فاملك قلوبهم بإحسانك فهو خزانة سلطانك، فإنّك إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل، فاحترز من أن تقول فلا تفعل، فالملك السعيد من ملك الرعية بالرغبة والرهبة، وأشبه الأشياء عن أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان.

فخيّره الإسكندر في المقام معه أو الانصراف إلى بلده، فاختار الرجوع إلى موضعه.

وأمّا القدح فملأه الإسكندر ماء ثم أورد عليه الناس فشرب منه جميع العسكر، فلم ينقص شربهم منه شيئاً، فيقال أنّه كان معمولاً من خواص الروحانية مما تدّعيه الهند، ويقال: أنّه كان لآدم أبو البشر، بورك له فيه حين كان بأرض سرنديب من بلاد الهند، فورث عنه إلى أن انتهى إلى هذا الملك الهندي[1].

وأمّا الطبيب فإنّه كان له معه مناظرات كثيرة في صنعة الطب، دلّت على ثبوت قدمه في علمه، وكان كما وصف صاحبه أو كاد أن يزيد.

وسار الإسكندر راجعاً من سفره يؤم المغرب، فلمّا وصل إلى مدينة شمرون، وقيل: إلى الصين أو إلى العراق مات وحمل إلى الإسكندرية، ودفن بها وهو ابن ست وثلاثين سنة، وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا، وتملّك على سائر الملوك وهو ابن أحدى وعشرين سنة، وذلك بمقدنية وهي الآن مصر، وملك غالب المعمور.

واختلف في مدّته فذكر الخوارزمي في تاريخه أنّه كان قبل الهجرة بتسعمائة وثلاثة وثلاثين سنة.

وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أنّ بينه وبين الهجرة أربعمائة سنة. ثم ملك بعده بطليموس المنطقي.

ومعنى بطليموس: أشدّ الحرب، وكان حكيماً عالماً شابّاً مدبّراً، وكان ملكه عشرين سنة، وقيل:

---

(١) مروج الذهب ١/١٣٠.

أربعين، وهو أوّل من اقتنى البازات ولعب بها. ثم ملك بعده بطليموس الثاني وهو فيلودقوس ومعناه: محب أخيه، وكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة، وقيل: ستة وعشرين سنة. وهو الذي نقلت له التوراة من العبرانية إلى اليونانية، وهو أصحّ نسخ التوراة؛ لأنّه اتفق عليها اثنان وسبعون عالماً منهم.

ثم ملك بعده بطليموس المعروف بمحب الأب، سبعة عشر سنة أو خمساً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس صاحب علم الفلك والنجوم، أربعة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس محب الأم، خمسة وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندري، اثنى عشر سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الجذعاني[١]، سنتين.

ثم ملك بعده بطليموس الجوال، ثمان سنين.

ثم ملك بعده بطليموس الحارث[٢]، ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندروس، ثلاث سنين.

ثم ملك بعده بطليموس فيلوذفوس، ثمان سنين.

ثم ملك بعده بطليموس الثاني عشر، واسمه سوسي، وقيل: الحرث[٣]، تسعاً وعشرين سنة.

وهذه التسمية بطليموس لملوك اليونان، ككسرى للفرس، وقيصر للروم، وخاقان للترك، وعارك[٤] للصغد، وطرخان للخزر، ورتبيل للسند، وتبع لليمن، وفرعون لمصر، وجالوت لبني كنعان، وهيرودس لبني إسرائيل، والنجاشي للحبشة، وخليفة لملوك الإسلام.

ثم ملكت بعده الحرث[٥] ابنته بطرة[٦]، وكانت حكيمة متفلسفة معزّة للعلماء، معظّمة للحكماء، وكان لها تصانيف في الحكمة والطبّ والزينة وغير ذلك، مترجمة باسمها ومنسوبة إليها، وكان لها زوج يقال له: بطليموس وكان مشاركاً لها في ملك مصر.

فسار إليها قيصر ملك الروم وحاربها، وقتل زوجها وعمل الحيلة في أخذها لعلمه بحكمتها ليتعلم منها، فراسلها فعلمت مراده فطلبت حيّة من بين الحجاز ومصر والشام ترعي الإنسان، وتنفر نحوه أذرعا كالريح، وتلدغه فيموت من فوره، فأتيت بحيّة من تلك الحيّات، فلمّا كان اليوم الذي

---

(١) في مروج الذهب: (الجديد).

(٢) في مروج الذهب: الحديث.

(٣) في مروج الذهب (الحديث)، وفي نهاية الارب (الحرب).

(٤) في النسخة الخطية (عارك)، وفي البداية والنهاية وتاريخ ابن خلدون: غورك، وابن الاعثم (غوزك).

(٥) في مروج الذهب (الحديث)، وفي نهاية الارب (الحرب).

(٦) في نهاية الأرب: (قلو بطر)، ومروج الذهب: (كليوباترا).

علمت أنّ قيصر يدخل فيه إلى قصرها، أمرت بأنواع الرياحين والزهور أن يبسط في مجلسها وقدّام سريرها، وجلست على سرير ملكها ووضعت تاجها على رأسها، وعليها سائر ثيابها وزينتها، وفرّقت حشمها وخدمها، وقرّبت يدها من الإناء الذي فيه الحيّة، فضربتها فماتت مكانها، وخرجت الحيّة من الإناء فلم تجد مذهباً تذهب فيه لاتقان ذلك المجلس بالرخام والمرمر، فاستترت بين تلك الرياحين والزهر.

فدخل قيصر حتى انتهى إلى مجلسها، فنظر إليها وهي جالسة والتاج على رأسها فلم يشكّ أنّها تنطق، فدنا منها فتبيّن له أنّها ميتة، وأعجب بتلك الرياحين فمدّ يده إلى كل نوع منها يلتمسه ويشمّه، ولا يدري ما سبب موتها وهو متأسف على ما فاته منها، فبينما هو كذلك إذ نفرت عليه الحيّة من بين الرياحين فرمته بسمّها، فيبس شقّه الذي ضربته فيه فعجب من قتلها لنفسها، وبما كادته به من إلقاء الحيّة بين الرياحين كما قال ابن عبدون:

تسر بالشيء لكن كي تغر به ‏ ‏ ‏ ‏ كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر

وكان ملكها اثنين وعشرين سنه، ثم غلبت الروم على ملك اليونان، وكانت مدة ملك اليونان من بعد الإسكندر مائتين وخمساً وسبعين سنة، وهم ثلاثة عشر ملكا آخرهم هذه المرأة.

فصل
في أيام ملوك الروم

وهم بنو الأصفر روم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأوّل من اشتهر منهم بالملك غاليوش ثم بوليوش ثم ملك اغشطش الذي غلب على ملكه اليونان، وابتدأ باشتداد الملك في الروم. فلقّبت قيصر لأنّ أمّه ماتت وهي حاملة به فشقّ بطنها، وأخرج وكان يفتخر على سائر الملوك بأنّ النساء لم تلده من مكان البول، ومعنى قيصر بقي وصار بعده لقباً لملوك الروم بنو الأصفر، وكان ذلك لمضيّ مائتين وثمانين سنة لغلبة الإسكندر، وملك اغشطش ديار مصر والشام، ودخلت بنو إسرائيل تحت طاعته.

ولاثنين وأربعين سنة خلت من ملكه ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

ثم ملك بعده طيباريوس وهو باني طبرية.

ثم عانيوس وفي أيامه رفع المسيح عيسى عليه السلام إلى السماء.

ثم ملك قلديوس، ثم نارون، ثم ساسانوس، ثم طيطوس الذي خرّب القدس الخراب الثاني، ثم دومطيتوش، ثم ياروس، ثم طرايابوس، ثم أدريانوس وكان في أيامه بطليموس صاحب كتاب

المحبطى ثم تجذّم ومات، ثم ملك ايطيثيوس، ثم مرقوس، ثم مرقوس قومودوس وفي أيامه ظهر دين النصارى في الروم، وكان في أيامه جالينوس، ثم ملك قوطنجوس، ثم سيوارس، ثم ايطيثيوس الثاني، ثم الإسكندروس، ثم يليميوس، ثم خورديانوس. ثم دقيانوس.

ومنه هربت الفتية إلى الكهف وهم سبعة وثامنهم كلبهم، ستة من وزراء دقيانوس، أسماءهم يمليخا، ومكشلينيا، ومشلينيا، هؤلاء أصحاب يمين دقيانوس، ومرنوش، وشاذنوش، ودبرنوش، أصحاب يساره، وكان يستشيرهم، والسابع الراعي الذي وافقهم، واسم كلبهم قطمير، واسم مدينتهم أفسوس[١].

ثم ملك غاليوس، ثم لريانوس، ثم قلوذيوس، ثم أذرفاس ومات بصاعقة، ثم قرونوس، ثم قاروس، ثم دقلطيانوس وهو آخر عبدة الأصنام من ملوك الروم، وبعده تنصرّوا.

ثم ملك قسطنطين المظفر، فانتقل من الرومية إلى البيزنطية[٢]، فعمّر سورها وسمّاها قسطنطينة، وجمع الأساقفة ووضع الشرائع النصرانية[٣]، وسارت أُمّه هيلاني إلى القدس، وأخرجت من بيت المقدس خشبة الصليب، وأقامت عيداً عنده سمّوه عيد الصليب، وجعلت عيداً في أوّل الميزان، وسمّوه عيد الصليب وبنيت عنده كنائس، منها: قمامة[٤]، وبنت كنيسة حمص، وكنيسة الرها.

ثم ملكت أولاده الثلاثة بعده، ثم ملك لكتابوس، ثم يونيانوس وهو الذي اصطلح مع شاپور الملك الفارسي، ثم ملك لنطيانوس، ثم أنونيانوس، ثم خرطيانوس، ثم ثاوذوسيوس الكبير ثم أرقاذيوس، ثم أونوريوس، ثم ثاوذوسيوس وفي أيامه انتبه أصحاب الكهف، بعد أن ﴿**لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً**﴾[٥][٦].

روي أنّ يهودياً سأل عليّاً عن مدّة لبثهم فأخبره بما في القرآن، فقال: إنّا نجد في كتابنا يعني التوراة أنّهم لبثوا ثلاثمائة، فقال عليه السلام: «ذاك بسنيّ الشمس، وهذا بسنيّ القمر»[٧].

وعن معاوية أنّه غزا الروم فمرّ بالكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤٣٣/٧.

(٢) في المخطوط (الرطفة) وما اثبتناه من الأصل.

(٣) وكان عددهم الفان وثمانية وأربعون اسقفاً.

(٤) وتعرف بكنيسة القيامة.

(٥) سورة الكهف: ٢٥.

(٦) المختصر في أخبار البشر: ٤٠/١.

(٧) الطبري في تفسير جوامع الجامع ٤١٢/٢، والبغوي في تفسيره: ١٥٨/٣.

عباس: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى من هو خير منك، فقال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[١]، لما ألبسهم الله من الهيبة، ولعظم اجرامهم ووحشة مكانهم، فبعث أناساً فلمّا دخلوا جاءت ريح فأحرقتهم[٢].

وباب الكهف مقابل لبنات النعش لا تقربه الشمس.

ثم ملك مرقيانوس، ثم النطيس، ثم لاون، ثم زينون، ثم أسطيثيانوس وهو الذي عمّر أسوار مدينة حماة، ثم يسطينينوس الثاني، ثم ماريقوس، ثم قوقاس، ثم هرقل واسمه بالرومي أرقليس[٣].

وكانت الهجرة الشريفة المحمّدية في السنة الثالث عشرة من ملكه، وبقي إلى خلافة عمر، وهلك وانتهت به دولة الرّوم، وظهر الإسلام بظهور سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

فصل
في أيام ملوك أوّل من ملك مصر بعد الطوفان

بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، ثم ولده مصر وبه سمّيت، ثم ولده قفط، ثم أخوه أتريب وهو باني مدينة عين شمس، ثم أخوه صا، ثم تدراس، ثم ابنه ماليق، ثم ابنه حرابا، ثم ابنه كلكلى وهو أوّل من جمّد الزئبق وصنع الزجاج، ثم حريبا بن ماليق، ثم طوليس وهو فرعون إبراهيم الذي وهب هاجر لسارة حين حماها الله تعالى منه كما تقدّم ذكره، ثم أخته[٤] جورياق، ثم زلفا بنت مامون فغزتها العماليق من الشام، وأخذ مصر منها الوليد بن دومع العمليقي، قيل: هو أوّل من تسمّى بفرعون فصار بعده لقباً لكل من ملك مصر وعبد البقر ثم مات. وملك مصر بعده ولد الريان، وهو فرعون يوسف عليه السلام، الذي آمن به واستوزره وبنى الهرمين بمصر وأودعها أمواله، ثم ملك ابنه دارم، ثم كاسم بن معدان العمليقي، وقصد أن يهدم الهرمين فأخبرته الحكماء أنّ خراج مصر لا يفي بذلك، وإنّهما قبران لشيث وهرمس فأمسك عنهما.

ثم قصد هدمهما خماروية بن أحمد بن طولون أمير مصر في دولة بني العباس، فأشار إليه ثقاته أن لا يتعرّض لذلك، فإنّه ما تعرض أحد لهدمهما فطال عمره، فلجّ في ذلك وأمر ألفاً من الفعلة أن يطلبوا الباب فكانوا يعملون سنة فوجدوا بلاطة قائمة من مرمر، فقدّروا أنّها الباب فقلعوها فإذا

---

(١) سورة الكهف: ١٨.

(٢) تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي: ٣٠١، تفسير الرازي: ١١٣/٢١.

(٣) المختصر في أخبار البشر: ٤١/١.

(٤) في المخطوط (أخوه)، وما اثبتناه من المصدر.

عليها كتابة يونانية فلم يهتدوا لقراءتها، فقال أبو عبدالله المدني[١] أحد حفاظ الدنيا أعرف في بلد الحبشة، أسقفاً قد أتى عليه ثلاثمائة وستون سنة يعرف هذا الخط.

فكتب خمارويه إلى ملك الحبشة يسأله أن يحمل هذا الأسقف إليه، فأجابه أنّ هذا شيخ قد طعن في السن وقد حطّمه الزمان، ونخاف عليه من حركة السفر أن يتلف، وفي بقائه لنا شرف وفرح، فإن كان لكم شيء يقرأه ويفسّره فاكتبوا بذلك، فحملت البلاطة إلى بلاد الحبشة، فقرأها الأسقف وفسّرها بالعربية. فإذا فيها مكتوب أنا الريان بن دومع[٢]، خرجت في طلب علم النيل، لأعلم فيضه ومنبعه، ومعي أربعة آلاف ألف رجل، فسرت ثمانين شهراً إلى أن انتهيت إلى الظلمات والبحر المحيط بالدنيا، فرأيت النيل يقطع البحر ويعبر فيه، ولم يكن له منفذ وتماوت أصحابي وبقيت في أربعة آلاف رجل، فخشيت على ملكي فرجعت إلى مصر، وبنيت الأهرام والبراني، وبنيت الهرمين وأودعتهما كنوزي وذخائري، وقال في ذلك شعراً وكتب على البلاطة:

وأدرك علمي بعض ما هو كائن ... ولا علم لي بالغيب والله أعلم
وأيقنت ما حاولت ايقان صنعة ... وأحكمته والله أقوى وأحكم
وحاولت علم النيل من كل فيضه ... فأعجزني والمرء بالعجز ملجم
ثمانين شاهورا قطعت مسايحا ... وحولي بنو حجر وجيش عرمرم
إلى ان قطعت الجن والانس كلهم ... وعارضني لج من البحر مظلم
فايقنت أن لا منقذ بعد منزلي ... لذي همة بعدي ولا متقدم
فأبت إلى ملكي وأرسيت ثاويا ... بمصر والأيام بؤس وأنعم
أنا صاحب الأهرام في مصر ... كلها وباني برانيها بها والمقدم
تركت بها آثار ملكي وحكمتي ... على الدهر لا تبلى ولا تهتدم
وبها كنوز جمة وعجائب ... وللدهر إمر مرة وتهجم
سيفتح أقفالي ويبدي عجائبي ... ولي لربي آخر الدهر ينجم
بأكناف بيت الله تبدو أموره ... ولابدّ أن تعلوا ويسمو به السم
ثمان وتسع واثنتان وأربع ... وتسعون أخرى من قتيل وملجم
ومن بعد هذا كر تسعون تسعة ... وتلك البراني تستخر وتهدم
وتبدي كنوزي كلها غير أنني ... على مثل هذا الفعل لا اتندم
وخرق مقالي في صخور قطعتها ... ستبقى وافنى بعدها ثم اعدم

(١) في البحار (المديني).
(٢) في البحار (دومغ).

فحينئذٍ قال أبو الجيش خمارويه بن أحمد: هذا شيء [ليس][1] لأحد فيه حيلة إلّا للقائم من آل محمّد، وردّت البلاطة إلى مكانها كما كانت، ثم أنّ أبا الجيش بعد ذلك بسنة قتله طاهر الخادم على فراشه وهو سكران[2].

ثم ملك الوليد بن مصعب فرعون موسى عليه السلام، قيل: هو من العمالقة، وقيل: من القبط، وهو الذي ادعى الربوبية، وكان هامان وزيره، وملك ثمانين سنة. ثم ملكت بعده العجوز دلوكة من بنات ملوك القبط، وانتهى إليها علم السحر وطال عمرها. ثم ملك بعدها صبي اسمه دركون بن ملطوسس. ثم بودس، ثم بقاس، ثم مرينا، ثم أستاذس، ثم بطلوس بن ميكاكيل، ثم يولة واسمه شيشاق. ثم لم يشتهر بعده غير فرعون الأعرج الذي صلبه بخت نصر ثم ولّاه من جهة الفرس، وكان منهم كشروس، ثم طخارست الطويل وفي أيامه كان بقراط الحكيم، وتوالت عليها نوّاب الفرس إلى ظهور الإسكندر، ثم نوّاب اليونان، ثم نوّاب الروم إلى ظهور الإسلام.

فصل
في أيام ملوك اليمن

قيل: سمّي اليمن يمناً لأنه عن يمين الكعبة، وقال قطرب النحوي: ـ تلميذ سيبويه ـ إنّما سمّي اليمن يمناً ليمنه، والشام لشؤمه، وقيل: إنّما سمي اليمن يمناً؛ لأنّ الناس حين تفرّقت لغاتهم ببابل تيامن، بعضهم يمين الشمس وبعضهم شمالها.

وتفرّقت أولاد نوح عليه السلام، ونزل اليمن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، فملك اليمن وهو أوّل من لبس التاج من ملوك اليمن، وولد له أحد وثلاثون ذكراً، وأمّهم امرأة واحدة اسمها حَيّ بنت روق بن قزاره بن منقذ بن سويد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام.

واختلف في لسان قحطان، فقيل: كان عربيّاً، وقيل: كان سريانيّاً.

ثم ملك بعد قحطان ولده يعرب، وهو أوّل من نطق بالعربية.

ثم ملك بعد يعرب ابنه يشحب.

ثم ملك بعد يشحب ابنه عبدشمس، فأكثر الغزو في أقطار البلاد، فسمّي سبأ، وبنى مدينة سمّيت باسمه، وكان ملكه أربعمائة وأربعاً وخمسين سنة، وولد له عشر ذكور تيامن منهم ستة: كندة، والأشعرون، والأزد، ومذحج، وحمير، وأنمار، وتشأم أربعة: لخم، وجذام، وغسّان، وعاملة.

---
(١) اثبتناه من المصدر.
(٢) بحار الأنوار ٢٤٥/٥١.

ثم ملك بعده سبأ ابنه حمير، وكان أشجع أهل زمانه، وأفرسهم، وأكثرهم جمالاً، وسمّي حمير لكثرة لبسه الثياب الحمر، وكان ملكه خمسين سنة.

ثم ملك بعده أخوه كهلان بن سبأ، فكان ملكه ثلاثمائة سنة.

ثم ملك وائل بن حمير، ثم السكسك بن وائل، ثم يعفر بن السكسك، ثم وثب على اليمن ذورياش عامر بن باران بن عوف بن حمير، ثم نهض من بني وائل النعمان بن يعفر بن السكسك، فاجتمعت عليه الناس وطرد عامر بن باران وعظمت دولته ولقّب بالمعافر لقوله:

إذا أنت عافرت الأمور بقدرة بلغت معالي الأقدمين المقاول

ثم ملك بعده ابنه اشمح.

ثم شداد بن عاد بن ألماطاطا بن سبأ، واتسع ملكه وبلغ أقصى الغرب، وبنى المدائن العظيمة والآثار.

ثم ملك أخوه لقمان بن عاد.

ثم أخوه ذو سدد، ثم ابنه الحرث ذو سدد، ولقّب بالرائش، وغزا الهند والترك وفرش القتلى على وجه الأرض، وذكر النبي صلى الله عليه وآله في شعره فقال:

ويملك بعدنا رجل عظيم نبي لا يرخص في الحرام
يسمى أحمداً ياليت أني أعمر بعد مخرجه بعام[1]

وكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة، وفي عصره مات لقمان بن عاد صاحب النسور.

ثم ملك ابنه ذو القرنين الصعب بن الرائش الحميري، المذكور في القرآن، ومكّن له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، فملك المشرق والمغرب ولذلك سمّي ذو القرنين، أو لأنّه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، أو لأنّه انقرض في أيامه قرنان من الناس، أو لأنّه رأى في منامه أنّه يدنوا من الشمس فيضع يديه على قرنيها، في مشرقها ومغربها، فقصّ رؤياه على قومه فسمّوه بذي القرنين، أو لأنّ قومه ضربوه على قرنه فغاب عنهم، ثم رجع إليهم فضربوه على القرن الآخر، ويعزى هذا القول إلى عليّ عليه السلام، وعنه أيضاً: أنّه كان له ذوابتان من الذهب، وقيل سمي بذي القرنين لبلوغه أطراف الأرض، وأنّ الملك الموكّل بجبل قاف سمّاه بذلك، ويحكى هذا عن ابن عباس، وقيل: كان له قرنان أي ظفيرتان.

وقيل: كان لتاجه قرنان، ويحتمل أنّه لقّب بذلك لشجاعته، كأنّه ينطح أقرانه.

واختلف في نبوّته مع الاتفاق على إيمانه.

وهو الذي بنى سدّ يأجوج ومأجوج بين جبلين في أواخر الشمال، في منقطع أرض الترك،

(١) المعارف: ٦٢٧.

وقيل: من وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلي مؤخرها البحر المحيط، فحفر الأساس حتى بلغ الماء، وارتفاع السد مائتان ذراع، وطوله ألفا ذراع، وعرضه نحو من خمسين ذراعاً، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد، أي: من قطعه الكبار بينها الحطب والفحم، حتى ساوى أعلى الجبلين ثم وضع المنافيخ عليه، حتى صار الجدار كالنّار، فصبّ النحاس المذاب عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً ﴿**قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ**﴾[1].

وبقي ذو القرنين في سيره خمسمائة سنة، وقبض عند الأُمّة الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، وهم من قوم موسى عليه السلام، في نواحي الصين، وقد ذكر اسمه لبيد في شعره فقال:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً ... بالحنو في جدثٍ أميم مقيم

ثم ملك بعد ذي القرنين ابنه أبرهة، ويقال له: ذو المنار لأنّه أوّل من ضرب المنار على طريقه في مغاراته، ليهتدي بها إذا رجع، وكان ملكه مائة وثلاثة وثمانين سنة.

ثم ملك ابنه اقرن[2].

ثم أخوه ذو الاذعار عمرو بن ذي المنار، وسمّي بذي الاذعار لأنّه غزا بلاد النسناس، ورجع إلى اليمن بقوم من سبيهم وجوههم في صدورهم، فذعر الناس منهم فسمى بذي الاذعار.

ثم ملك شرحيل من ولد السكسك، ثم ابنه الهدهاد، ثم ابنته بلقيس التي تزوجها سليمان، ويقال: أنّ أمّها كانت جنيّة، وكان ملكها مائة وعشرين سنة.

ثم ملك بعدها عمّها ناشر بن عمرو، ويعرف بناشر النعم لإنعامه على الناس، وكان شديد البأس عظيم السلطان، خرج غازياً نحو الغرب حتى أتى وادي الرمل الجاري، فوجّه جيشاً في الرمل فهلكوا ولم يعد منهم أحد، فأمر بصنم من نحاس فصنع وكتب في صدره بالمسندي[3]، وهو القلم القديم ليس ورائي مذهب فأرجع، فكان ملكه خمساً وثمانين سنة، وخالف المسعودي في بعض ذلك.

ثم ملك إفريقشس وغزا نحو المغرب، حتى أتى طنجة ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم اليوم من الغرب، وكانت البربر بقية من قتلهم يوشع بن نون، وإفريقش هذا هو الذي بنى أفريقية، وبه سمّيت افريقية، وكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة.

ثم ملك بعده ابنه شمر، وسمّي شمر يرعش لارتعاش كان به، وخرج نحو العراق ثم توجّه يريد

---

(١) سورة الكهف: ٩٨.

(٢) في تاريخ ابن خلدون: (افريقش)، وفي مروج الذهب، والمختصر في أخبار البشر: (افريقس).

(٣) في صبح الأعشى: (بالمسند).

الصين، ودخل الصغد وهدّمها فسمّيت شمركند أي شمر خرّبها، فعرّبت فقيل: سمرقند وفيه يقول دعبل بن علي الخزاعي يفتخر باليمن:

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الشاش كانوا كاتبينا
وهم سموا بشمر سمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا

وكان ملك شمر مائة وسبع وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده ابنه تبع الأقرن، وغزا بلاد الروم حتى بلغ وادي الياقوت فمات قبل أن يدخلها، وكان ملكه ثلاثاً وخمسين سنة أو مائة وثلاثاً وستين سنة.

ثم ملك بعده ابنه كليكرب، وكان ملكه ثلاثمائة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ابنه تبع الأوسط، واسمه أسعد بن كليكرب، وهو الذي حارب الأوس والخزرج بيثرب، فكانوا يقاتلونه بالنهار ويضيّفونه بالليل، فلمّا رأى ذلك منهم قال: لا ينبغي أن نقاتل هؤلاء، والله إنّهم قوم كرام، وكان قد جاءه حبران من أحبارهم ذوا ربطة، راسخان في العلم حين سمعا ما يريد من أهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيّها الملك لا تفعل فإنّك إن تردّها حيل بينك وبينها، ولم يؤمن عليك من عاجل العقوبة، فقال: ولم ذلك؟ قالا لأنّها مهاجر نبيّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره فرأى أنّ لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة وتبعهما على دينهما، وقال للأوس والخزرج:كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبيّ، أمّا أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه، وقال في شعره:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بارئ النسم
فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم
وكنت عذابا على المشركين أسقيهم كأس حتف وغم

وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها من خيبر إلى مكة ـ وهي طريقه إلى اليمن ـ حتّى إذا كان بين عسفان وفخ أتاه نفر من هذيل، فقالوا له: أيّها الملك ألا ندلّك على بيت مال بدار غفلته الملوك قبلك، فيه الؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضّة، قال: بلى، قالوا: بيت بمكة تعبده أهلها ويصلّون عنده.

فلمّا أجمع رأيه على ذلك، أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له: ما أراد القوم إلّا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم في الأرض بيتاً لله اتخذه لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه القوم، لتهلكنّ ومن معك جميعاً، قال: فماذا تأمراني أن أصنع عنده إذا قدمت عليه، قالا: تصنع عنده ما تصنع أهله، تطوف حوله وتعظّمه وتحلق رأسك عنده، وتذلل له حتى تخرج منه، قال: فما يمنعكما عن ذلك، قالا: أما والله إنّه لبيت أبينا إبراهيم، وإنّه لكما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي تهرق عنده، وهم أنجس أهل الشرك، فعرف

نصحهما وصدقهما، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم.

ثم مضى حتى دخل مكة، وطاف بالبيت، ونحر عنده، وحلق رأسه، وأولم بمكة ستة أيام ينحر بها للناس ويطعم أهلها، ويسقيهم العسل، ورأى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف، ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاءة والوصائل، فكان تبع فيما يزعمون أوّل من كسا البيت، وأوصى به جرهم وأمرهم بتطهيره، ولا يقرّبوا منه دماً ولا ميتاً ولا تقربه حائض، وجعل له باباً ومفتاحاً.

ثم خرج متوجّها إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين، إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه من دين موسى عليه السلام، فأبوا عليه حتّى تحاكموا إلى النار ـ وكان باليمن على ما يزعمون نار تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، تأكل المبطل ولا تضرّ المحق ـ فخرج قومه بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم، وخرج الحبران بمصاحفهما التوراة في أعناقهما متقلدانهما، حتّى قعدوا جميعاً للنّار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النّار فلمّا أقبلت إليهم حادوا عنها وهابوها، فذمرهم من حضرهم من الناس، وأمروهم بالصبر لها فصبروا، حتّى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قرّبوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما لم تعرق جباههما ولم تضرّهما، فأصفقت عند ذلك حمير على دين اليهودية، ولهذا كان أصل اليهود باليمن، ومات تبع وكان ملكه ثلاثمائة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ابنه حسان، وهو الذي قتل زرقاء اليمامة، وأفنى جديسا وكان ملكه خمساً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده أخوه عمرو بن تبع، فكان ملكه أربعاً وستين سنة.

ثم ملك عبد كلال بن ذي الاعواد.

ثم تبع بن حسان الأصغر، ثم ابن أخيه الحرث، ثم مرثد بن كلال، ثم ابنه وكيعه.

ثم ملك أبرهة بن الصباح بن ربيعة، ويكنّى شيبة الحمد[1] وكان ملكه ثلاثاً وتسعين سنة.

ثم ملك صهبان بن محارب.

ثم ملك عمرو بن ذي قيفان، الذي كان له سيف عمرو بن معدي كرب الزبيدي المعروف بالصمصامة، وكان ملكه تسع عشر سنة.

وذكر أنّ ملك الروم أهدى إلى الرشيد ثمانين سيفاً قلعية، فأمر الرشيد بإحضار صمصامة عمرو ـ لتحقر عند الروم سيوفهم ـ بحضور ملك الروم، فجعل السياف يقطع بها السيوف سيفاً كما تقطع

---

(١) في المخطوطة (الخير)، ولم أعثر عليه في كتب التواريخ، والمذكور هو (شيبة الحمد) انظر مروج الذهب ١٩٩/١.

الفجل، ثم أراهم حدّ الصمصامة فإذا ليس به فلل ولا أثر من تقطيع تلك السيوف.

ثم ملك بعده الخبيعة ذو شناتر[١]، ولم يكن من أهل بيت الملك، وأغرى بالأحداث من بين الملوك، فكان يطالبهم بما تطالب به النسوان، ولم يزل على هذه الطريقة المذمومة، حتّى بعث إلى ذرعة ذي نواس بن تبان[٢] بن أخي حسان، وكان صبيّاً صغيراً جميلاً، فلمّا أتاه رسوله عرف ما يريد منه، فأخذ سكّيناً لطيفاً فخبأها بين قدمه ونعله، فلمّا خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نواس فوجأه بالسكين حتى قضى عليه، ثم احتز رأسه وجعله في كُوَّة كان يشرف منها على عبيده إذا قضى حاجته من الغلام الذي يكون عنده، ويضع سواكاً في فيه، فصنع ذو نواس به ذلك، ثم خرج على العبيد فقالوا له: ذو نواس أرطب أم يباس؟ فقال لهم: سلوا الرأس الذي في الكوّة يخبركم، واتركوا ذا نواس، وخرج فلمّا رأوا ما فعل ذو نواس بالخبيعة قالوا: ما ينبغي أن يملك علينا غيره الذي أراحنا من هذا الفاسق، فملّكوه عليهم.

ويقال: أنّ اسمه يوسف وهو صاحب الأخدود **﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾**[٣]، أي: يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصّروا فيما أمرهم به، وذلك أنّه لمّا تنصّر أهل نجران أغزاهم ذو نواس هذا اليهودي الحميري، فأحرق في الأخاديد من لم يرتدّ إلى اليهودية، وكان يلقي فيها كل من لا يتهوّد، وهي تضرم ناراً.

وهو آخر ملك من ملوك اليمن، وكان ملكه مأتين وستين سنة، وجميع ما ملكوا من السنين ثلاثة آلاف واثنين وعشرين سنة.

ثم غلبت الحبشة على اليمن فملكها منهم ثلاثة أرباط بن أصخم عشرين سنة، ثم أبرهة الأشرم صاحب الفيل خمسين سنة، ثم ابنه يكسوم سنتين، ثم ملكها مسروق بن أبرهة، فسار سيف بن ذي يزن الحميري إلى هرقل ملك الروم، وبقي عنده عشرة سنين ينتظر النجدة منه فلم ينجده، فسار إلى كسرى أنوشروان فجهّز معه أحد مقدّمي الفرس، فطرد الحبشة من اليمن بعدما ملكوها اثنين وسبعين سنة.

ثم ملك سيف بن ذي يزن ملك أجداده باليمن، وامتدحه الشعراء وأتاه وفد من قريش، منهم عبدالمطلب بن هاشم وأميّة بن عبد شمس، وعبدالله بن جدعان، وأسيد بن خويلد بن عبدالعزى، ووهب بن عبدمناف، وأميّة بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، فقدموا عليه صنعاء فاستأذنوا فإذا

---

(١) في الكامل في التاريخ وفي القاموس (لختيعة)، وفي البداية والنهاية لخنيعة ذي شناتر، وفي سيرة ابن هشام والطبري (لخيعة).

(٢) في المخطوط (بيان)، وفي تاريخ ابن خلدون والاعلام للزركلي: (تبان).

(٣) سورة البروج: ٥ ـ ٧.

هو برأس قصر يقال له: غمدان، فلمّا دخلوا عليه أنشده أُميّة بن أبي الصلت قصيدته التي منها:

لا يقصد الناس إلّاكابن ذي يزن إذ خيم البحر للأعداء أحوالا
وافى هرقل وقد شالت نعامته فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
لله درهم من فتية صبروا ما إن رأيت لهم في النّاس أمثالا
بيض مرازبة علت أساورة أسد ترتب في الغيضات أشبالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعا برأس غمدان داراً منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

ثم أنشده أُمية بن عبد شمس:

جلبنا النصح تحمله المطايا على اكوار اجمال وفوق
مقلقلة مرافقها تعالى إلى صنعا من فج عميق
تؤمُّ بنا ابن ذي يزن وهذى ذوات بطونها أم الطريق
ونرعى من مخايله بروقا مواصلة الوميض إلى بروق
فلمّا وافقت صنعا صارت بدار الملك والحسب العريق
إلى ملك يدر لنا العطايا بحسن بشاشة الوجه الطليق

ثم دنا عبدالمطلب منه فاستأذنه في الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلّم مع الملوك فقد أذنّا لك، فقال: الله أحلّك أيّها الملك محلاً رفيعاً منيعاً شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أُرومته، وعزيت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه في أكرم موطن، وأطيب موضع، وأحسن معدن، فأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذي تخصب به، ورأسها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعلفها الذي ترجع إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلن يخمل من أنت سلفه، وأن يهلك من أنت خلفه، نحن أيّها الملك حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشفك الكرب، الذي فَدَحَنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال: وأيّهم أنت أيّها المتكلم، قال: أنا عبدالمطلب بن هاشم، قال: ابن اختنا؟ قال: نعم، قال: ادن منّي، فدنا منه، فأقبل على القوم وعليه، وقال: مرحباً وأهلاً، وناقة ورجلاً ومستناخا سهلاً، وملكاً وربحلاً[1]، يعطي عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، وأنتم أهل الليل وأهل النهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم، ثم قال: انهضوا إلى دار الضيافة

---

(١) ربحلا: كثير العطاء.

والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف.

ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبدالمطلب فأدنى مجلسه وأخلاه، ثم قال له: يا عبدالمطلب إنّي مفض إليك من سر على أمر لو كان غيرك لم أبح له به، ولكن رايتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوّياً حتّى يأذن الله فيه فإنّ الله بالغ أمره، إنّي أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واجتبيناه لنا دون غيرنا، خبراً عظيماً وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامّة، ولرهطك كافّة، ولك خاصّة.

فقال عبدالمطلب: مثلك أيّها الملك سر وبر، فما هو فداك أهل الوبر زمنا بعد زمن.

فقال: إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه علامة شامة، كانت له الإمامة ولكم به الدعامة إلى يوم القيامة.

فقال عبدالمطلب: أبيت اللعن لقد أبت بخبر ما آب بمثله وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من أسراره ما أزداد به سروراً.

فقال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد فيه اسمه محمّد، يموت أبوه وأُمه، ويكفله جدّه وعمّه، وقد ولد سراً[1] والله باعثه جهراً، وجاعل له منّا أنصاراً، ليعزّ بهم أولياءه، ثم ويذلّ بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستفتح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، ويعبد الرحمن، ويزجر الشيطان، قوله فصل، وحكمة عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبدالمطلب: أيّها الملك عزّ جدّك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهل الملك ساري بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح.

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب، إنّك يا عبدالمطلب لجدّه غير كذب، فخر عبدالمطلب ساجداً.

فقال له: أرفع رأسك ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرته لك؟

فقال: كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوّجته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام فسمّيته محمداً، مات أبوه وأُمه وكفلته أنا وعمّه.

فقال ابن ذي يزن: إنّ الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك وأحذر عليه من اليهود، فإنّهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنّي لست آمن من أن تدخلهم النفاسة ليكون لهم الرئاسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون أو أبناهم. ولولا علمي أنّ الموت مدركني قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي، حتى

---

(١) في اغلب المصادر (مرارا).

أصير بيثرب دار ملكي نصرة له، لأني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق، أنّ يثرب دار ملكه وبها استحكام أمره، وأهل نصرته، وموضع قبره، ولولا أنّي أخاف فيه الآفات وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره في هذا الوقت، ولأوطأت أسنان العرب عقبه، ولكنّي صارف إليك عن غير تقصير منّي بمن معك.

ثم أمر لكل رجل من القوم بعشر أعبد، وعشرة إماء، وجنس من البرود، ومائة من الأبل، وخمسة أرطال ذهب، وعشر أرطال فضّة، وكرش مملوّة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال له: إذا حال الحول فأتني، فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول بعد مولد النبيّ، قيل: بسنتين.

ثمّ لم تزل عمّال الفرس بعد سيف بن ذي يزن، تداول على اليمن من قبل أنوشروان وابنه هرمز وأبرويز، إلى أن كان آخرهم باران الذي أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وآله، وصار اليمن للإسلام ويقال: أنّ رجلاً قال لعبدالله بن عمرو بن العاص: إنّ حمير تزعم أنّ تبعاً منهم؟ فقال: نعم والذي نفسي بيده، فإنّه في العرب كالأنف بين العينين، وكان منهم سبعون تبعاً، وكان النعمان بن بشير الأنصاري ينشد في ذلك ويقول:

لنا من بني قحطان سبعون تبعاً ... أطاعت لنا بالرغم منها الأعاجم

وهم الذين قال فيهم ابن عبدون:

وما أقالت ذوي الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر

وغايات مضر سبقت جميع الغايات إذ منهم النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه، الذين أتاهم الله الملك العظيم وأنزل فيهم الآيات.

فصل
في أيام ملوك سبأ

وهم ولد عبدشمس بن يشحب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، الذي أكثر الغزو في أقطار البلاد، فسمّي سبأ لكثرة السبي الذي رجع به إلى اليمن، وبنى مدينة سمّيت باسمه، وولد له عشرة ذكور، سكن الشام منهم أربعة: لخم، وجذام، وعامله، وغسان، وسكن اليمن منهم ستة: كندة، ومدحج، وحمير، والأشعر، والأزد، وأنمار، وبعضهم عد طي مكان حمير، وهم الذين تفرّقوا في البلاد كما قال ابن عبدون:

ومزقت سبأ في كل قاصية ... فما التقى رائح منها بمبتكر

وقد ذكر الله تمزيقهم في كتابه العزيز فقال: ﴿لقد كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا ـ عن الشكر ـ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ـ إلى قوله ـ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[١]، حتى لحق غسان منهم بالشام وعامله بالجبل، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان، ومدحج وكندة بالعراق. وكانت مساكنهم بأرض مأرب من بلاد اليمن، وكانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد.

وكانوا يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة ستة أشهر.

وكانت المرأة منهم إذا أرادت أن تجتني من ثمارها شيئاً، وضعت مكتلها[٢] على رأسها وخرجت تمشي تحت الثمار، وهي تغزل أو تعمل ما شاءت، فلا ترجع حتى يمتلئ مكتلها من التمر الذي يتساقط طيباً.

وكان أوّل من خرج منهم من اليمن في أيام تمزيقهم، ملكهم عمر بن عامر مزيقيا من الأزد من ولد كهلان بن سبأ، وسمّي مزيقيا لأنّه كان يمزّق كل يوم البذلة[٣] التي يقلعها تكبّراً؛ لئلّا يلبسها أحداً بعده.

وكان سبب خروجه أنّه كانت له زوجة كاهنة، يقال لها: طريفة الخير، وكانت رأت في منامها أو في كهانتها أنّ سحابة غشيت أرضهم، فأبرقت وأرعدت ثم أصعقت، فأحرقت كلّ ما وقعت عليه، ففزعت طريفة لذلك فزعاً شديداً، وأتت زوجها عمرو بن عامر وهي تقول: ما رأيت اليوم أزال عنّي النوم؛ رأيت غيماً أرعد وأبرق ثم أصعق، فما وقع على شيء إلّا احترق، فلمّا رأى عمرو ما داخلها من الفزع سكّنها، ثم دخل حديقة له ومعه جارية من جواريه، فبلغ ذلك طريفة فخرجت إليه ومعها وصيف لها اسمه سنان، فعرض لها ثلاث مناجيد منتصبات على أرجلهن، واضعات أيديهن على أعينهنّ ـ وهنّ دواب تشبه اليرابيع ـ، فقعدت طريفة إلى الأرض واضعة يديها على عيينها، وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرني، فلمّا ذهب أخبرها فانطلقت مسرعة، فلمّا وصلت إلى خليج الحديقة التي فيها عمرو، وثبت من الماء سلحفة فوقعت على الطريق على ظهرها، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع، وتستعين بذنبها فتحثوا التراب على بطنها، وتقذف بالبول قذفاً، فلمّا رأتها طريفة جلست إلى الأرض، فلمّا عادت السلحفة إلى الماء، عادت طريفة إلى أن دخلت على عمرو، فحين رآها عمرو استحى منها، وأمر الجارية بالتنحي، ثم قال لها: مالك يا طريفة الخير؟ فكهنت وقالت: والنور والظلمة، والأرض والسماء، إنّ الشجر لهالك وليعودن الماء كما كان في

(١) سورة سباء: ١٥ ـ ١٩.

(٢) المكتل: الزنبيل الكبير.

(٣) البذلة: بالكسر ما لا يصان من الثياب والثوب الخلق.

الزمن السالك، قال عمرو: ومن أخبرك بهذا؟ قال: أخبرتني المناجيد بزمان شديد، يقطع فيه الوالد الولد، قال: فما تقولين؟ قالت: أقول قول الندمان اللهفان، لقد رأيت سلحفة تجرف التراب جرفاً، وتقذف بالبول قذفاً، فدخلت الحديقة فإذا الشجر من غير ريح يتكافأ. قال: وما ترين في ذلك؟ قالت: هي داهية دهياء من أمور جسيمة ومصائب عظيمة. قال: وما هي ويلك؟ قالت: أجل، إنّ فيه الويل، وما لك فيه من نيل، فإنّ الويل فيما يجيء به السيل، فألقى عمرو نفسه عن فراشه، وقال: ما هذا يا طريفة؟ قالت: هو خطب جليل، وحزن طويل، وخلف قليل، وتركه أحسن، والهرب منه أجمل، قال: وما علامة ما تذكرين؟ قالت: علامته أن تذهب إلى السد فإذا رأيت جرذاً يكثر في السد الحفر بيديه، ويقلب برجليه مراجل الصخر، فاعلم أنّه قد غمر الغمر ووقع الأمر. قال: وما هذا الذي تذكرين؟ قالت: وعد من الله نزل وباطل بطل، ونكال بنا نكل، فبغيرك يا عمرو فليكن النكل.

فانطلق عمرو إلى السد يحرسه، وفإذا الجرذ والفأر يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً، فرجع إلى طريفة وهو يقول:

أبصرت أمراً عاد لي منه ألم   وهاج بي من هوله برح السقم
من جرذ كعجل خنزير الأجم   أو كبش صرم من افاريق الغنم
يسحب صخراً من جلاميد العرم   له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سجلا من الصخر قصم

فقالت طريفة: وإنّ من علامة ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر في زجاجة فتوضع بين يديك، فإنّ الريح تملأها من تراب البطحاء في سهل الوادي ورمله، وقد علمت أنّ الزجاجة مظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح. فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه، فلم يمكث إلّا قليلاً حتى امتلأت من تراب البطحاء ورمل الوادي، فأخبر طريفة بذلك، ثم قال لها: متى يكون هلاك السد؟ قالت: فيما بينك وبين سبع سنين، قال: ففي أيّها يكون؟ قالت: لا يعلم ذلك إلّا الله عزّ وجلّ، ولو علمه أحد لعلمته، ولا يأتي على ليلة فيما بيني وبين السبع سنين إلّا ظننت هلاكه في مسائها أو غدوها.

ثم رأى عمرو في النوم سيل العرم، فعلم أنّ ذلك واقع بهم وأنّ بلادهم ستخرب، فكتم ذلك عمرو وأخفاه وأجمع على بيع كل شيء له من الأملاك بأرض مأرب، ويخرج منها هو وولده.

ثم خشي أن تنكر الناس عليه ذلك، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه، وإذا ضربه أن يرفع الولد يده فيضربه، ثم صنع طعاماً وبعث إلى أهل مأرب من يدعوهم ويخبرهم أنّ عمرو صنع يوم مجد وذكر، فاحضروا طعامه فحضروا عنده، فلمّا جلسوا للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما أمره، فجعل أمر يأمره فلا يأتمر وينهاه فلا ينتهي، فرفع عمرو يده فلطم وجه ابنه، فرفع الولد يده فلطم وجه أبيه في المحفل، فصاح عمرو يا ويلاه يوم فخر عمرو يهنه صبي

ويضرب وجهه! وحلف ليقتله.

وكان اسمه مالكاً فلم يزالوا بعمرو يرغّبون إليه حتّى ترك قتله، وقال والله لا أقيم بموضع صنع بي هذا، ولأبيعن أموالي حتى لا يرث بعدي شيئاً، فقال الناس: اغتنموا غضبة عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فابتاع الناس منه كلّ ما كان له بأرض مأرب.

وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن(١) سيل العرم، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم فلمّا أكثروا البيع أنكر الناس ذلك، فامسكوا عن الشراء.

فلمّا اجتمعت لعمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم، وخرج من اليمن، وخرج لخروجه خلق كثير، فساروا حتّى انتهوا إلى مكة، فأقاموا بها وحولها. فأصابتهم الحمى فدعوا طريفة فشكوا إليها، فقالت لهم: قد أصابني الذي تشكون وهو مفرق بيننا. قالوا: فما تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا همّ بصيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد وكانت الأزد، ومن كان ذا جلد وقسر وصبر على أزمات الدهر، فعليه بالأراك من بطن مر وكانت خزاعة، ومن كان يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل(٢) فليلحق بيثرب ذات النخل وكانت الأوس والخزرج، ومن كان يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق، وكنوز الأرزاق، والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق وكان الذي سكنوها إلى جذيمة الأبرص، ومن كان بالحيرة آل محرق، ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك والتأمير، وملابس التاج والحرير فليلحق ببصرى وغوير - وهما من أرض الشام - وكان الذي سكنوها آل جفنة من غسّان. ونزل عمرو بن عامر وقومه أرض عكّا، فحاربهم أهلها ثم اصطلحوا ولبثوا بها حتّى مات عمرو بن عامر مزيقيا، وعمره ثمانمائة سنة، أربعمائة سوقةً وأربعمائة ملكاً، وتفرّقوا على البلاد، فمنهم: من سار إلى الشام وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقيا، ومنهم: من سار إلى يثرب وهم أبا قبيلتي الأوس والخزرج وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر مزيقيا، وسار مالك بن فهم إلى العراق، ونزلت طي جبل طي، ونزلت ولد ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر تهامة، فسمّوا خزاعة لانخزاعهم عن إخوانهم من أهل اليمن.

ثم أرسل الله تعالى على سدّ مأرب سيل العرم، الذي ذكره في كتابه. والعرم: السد، كان قد بناه لقمان الأكبر، أو ملك من ملوك حمير، وكان مرصوفاً بالحجارة والرصاص والحديد، وكان فرسخاً طولاً في فرسخ عرضاً. وقيل: العرم الجرذ لأنّه نقب عليهم سكرا(٣) ضربته لهم بلقيس فحقنت(٤) به

---

(١) في النسخة الخطية (مثال)، وما اثبتناه من مروج الذهب.

(٢) المحل الجرب. الجوع الشديد. كنى بها عن النخل.

(٣) السكر: بالكسر فالسكون: السد.

(٤) أي: حبست.

ماء الشجر، وتركت فيه ثقباً على قدر ما يحتاجون إليه والله أعلم.

فصل
في أيام ملوك الشام

أوّل من سكن الشام من عرب اليمن ملوك غسّان، وكانوا عمالاً للقياصرة على عرب الشام، وأصل غسّان من بني الأزد من ولد كهلان بن سبأ، تفرّقوا من اليمن بسيل العرم ونزلوا على ماء بالشام، يقال له: غسّان، فسمّوا به وأخرجوا عرباً كانوا قبلهم من الشام، يقال لهم: الضخاعمة من سليم، وكان ابتداء ملك غسّان قبل الإسلام بما يزيد على أربعمائة سنة، وأوّل من ملك منهم جفنة ابن عمرو بن ثعلبة من ولد مزيقيا، ودانت له قضاعة وتنقل الملك في أبنائه. فملك منهم سبعة وثلاثون ملكاً في مدة ستمائة وست عشرة سنة، إلى أن كان آخرهم جبلة بن الأيهم الغساني، الذي تنصّر في زمن عمر بعد إسلامه على يده في السنة الثالثة من خلافته، وقدم عليه من الشام إلى المدينة في جماعة من قومه وعشيرته، ودخل في زيّ حسن وتلقّاه جمع من المسلمين وقيّدت الجنائب بين يديه ولبس أصحابه الديباج.

فحجّ جبلة مع عمر فوطئ رجل من فزارة طرف رداء جبلة فلطمه جبلة فهشم أنفه، فقال له عمر: افتد نفسك وإلّا أمرته فلطمك، فقال جبلة: وكيف ذلك وأنا ملك وهذا سوقة! فقال عمر: إنّ الإسلام جمعكما وسوّى بين الملك والسوقة في الحد، قال: انظرني ليلتي هذه، فأنظره ليلته فسار جبلة ليلاً إلى الشام بخيله ورجاله، ثم وصل القسطنطينة ولحق بهرقل ملك الروم ومعه خمسمائة من قومه فتنصّروا جميعاً، ثم ندم جبلة على فعله ذلك وأنشد:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
فكنفني فيها اللجاج ونحوه ... فبعت بها العين الصحيحة بالعوز
فياليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيرا في ربيعة أو مضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

ولمّا تنصّر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينة، أقطعه هرقل الأموال والضياع وبقي ما شاء الله.

ثم أنّ عمر بعث إلى هرقل رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجزية، فلمّا أراد الرسول الانصراف، قال له هرقل: ألقيت ابن عمّك هذا الذي أتانا راغباً في ديننا؟ قال: ما لقيته، قال: القه ثم

ائتني أعطك جواب كتابك.

قال الرسول: فذهبت إلى باب جبلة فإذا عليه من القهارمة والحجاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل، فلم أزل أتلطّف في الإذن حتى أذن لي. فدخلت عليه فرأيته أصهب اللحية ذا سبال، وكان عهدي به أسود اللحية والرأس، فأنكرته فإذا هو قد دعا بسحالة الذهب فذرها على لحيته حتى عادت صهباً، وهو جالس على سرير من قوارير قوائمه من الذهب، فلمّا عرفني رفعني معه على السرير، وجعل يسألني عن المسلمين فذكرت له خيراً، وقلت له: قد أضعفوا أضعافاً على ما تعهد، قال: وكيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بأحسن حال، فرأيت الغم في وجهه لمّا ذكرت له سلامة عمر.

ثم انحدرت عن السرير، فقال لي: لم تأبَ الكرامة التي أكرمناك بها؟ فقلت: إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) نهى عن هذا، قال: نعم (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولكن نق قلبك من الدنس ولا تبالي على ما تقعد.

فلمّا سمعته يقول: صلى الله عليه وآله وسلّم طمعت في إسلامه، فقلت له: ويحك يا جبلة ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبعد ما كان منّي! قلت: نعم، قد فعل رجل من فزارة أكثر مما فعلت، ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام فقبل ذلك منه، وخلّفته بالمدينة مسلماً، قال: ذرني من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوّجني عمر ابنته، ويولّيني الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام، قال: فضمنت له التزويج ولم أضمن له الأمر.

قال: ثم أومئ إلى خادم كان على رأسه فذهب مسرعاً فإذا خدم قد جاؤا يحملون الموائد وفيها الطعام، ونصبت موائد الذهب وصحائف الفضة، فقال لي: كل فقبضت يدي، وقلت: إنّ رسول الله نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضّة، قال: نعم صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن نق قلبك وكل فيما أحببت، قال: فأكل في الذهب، وأكلت في الخلنج، ثم جيء بطشوت الذهب وأباريق الفضة فغسل يديه في الذهب، وغسلت في الصفر، ثم أومئ إلى خادم بين يديه، فمرّ مسرعاً فسمعت حسّاً فإذا خدم معهم كراسي مرصعة بالجوهر، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، ثم جاءت الجواري عليهنّ تيجان الذهب المرصّعة بالجوهر، فقعدن عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسي، ثم جاءت جارية كأنّها الشمس على رأسها تاج على ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه قط، وفي يدها اليمنى جامة فيها المسك الفتيت، وفي يدها اليسرى جامة فيها ماء الورد، فأومأت تلك الجارية إلى الطائر الذي على تاجها وصفرت به، فطار حتى نزل على صليب تاج جبلة، فلم يزل يرفرف حتى نفض جميع ما في ريشه عليه، فضحك جبلة من شدة سروره حتى بدت ثناياه، ثم التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه، فقال لهنّ: بالله اضحكنا فاندفعن يغنّين ويخفقن عيدانهنّ

وينشدن:

لله درّ عـــصابة نـــادمتهم يـوماً بـجلق فـي الزمـان الأوّل
يسقون من برد الرصيب نديمهم راحا تـصفق بـالرحيق السلسل
أولاد جـفنة حـول قـبر أبـيهم قبر ابـن مـارية الكـريم المـفضل
يـغشون حـتى مـا تـهر كـلابهم لا يسألون عـن السـواد المـقبل
بـيض الوجـوه كـريمة أخـلاقهم شـم الأنـوف مـن الطـراز الأوّل

قال: فضحك جبلة حتى بدت ثناياه، ثم قال لي: أتدري لمن هذه الأبيات؟ قلت: لا ، قال: هذه لحسّان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وآله، ثم أشار إلى الجواري اللواتي عن يساره، وقال لهنّ بالله ابكينا فاندفعن يغنين ويخفقن عيدانهن وينشدن:

لمـــن الدار اقـفرت بـمعاني بـين أعـلا اليـرموك والحـماني
ذاك مغنى لآل جفنه في الدهر مــحلاً لحــادث الزمـــان

قال: فبكى حتى سالت الدموع على لحيته، ثم قال لي: أتدري لمن هذه الأبيات؟ قلت لا ، قال: هذه لحسّان بن ثابت، ثم أنشد الأبيات التي أوّلها:

تنصرت الأشراف من أجـل لطـمة وما كان فيها لو صبرت لهـا ضـرر

ثم سألني عن حسّان بن ثابت أحيّ هو؟ قلت: نعم، فأمر له بكسوة ولي كذلك، وأمر لحسّان بمال ونوق موقّرة برا برا، ثم قال لي: إن وجدته حيّاً فادفع إليه الهديّة وأقـرأه مـني السـلام، وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله وانحر النوق على قبره.

فلمّا رجعت أخبرت عمر بخبره، وما اشترط عليّ وما ضمنت له، فقال عمر: فهلّا ضمنت له الأمر من بعدي، فإذا أفاء الله به قضى عليكم بحكمه، وطلب عمر حسّاناً ودفع إليه الهدية فامتدح جبلة، منها:

ان ابن جـفنة مـن بـقية مـعشر لم يـــعرهم آبــاؤهم بــاللوم
لم يـنسني بـالشام إذ هـو ربـها كـــلا ولا مـــتنصرا بـــالروم
يعطي الجـزيل ولا يـراه عـنده إلّا كـــبعض عـطية المـذموم

قال: ثم جهّزني عمر إلى هرقل مرة ثانية، وأمرني أن أضمن لجبلة جميع ما يشترطه عليّ، فلمّا دخلت القسطنطينة وجدت الناس منصرفين من جبروته، فعلمت أنّ الشقاء قد كتب عليه في أم الكتاب[1].

---

(١) خزانة الأدب: ٨٧/٢، الوافي بالوفيات: ١٥٠٤/١.

فصل
في أيام ملوك الحيرة

وهي بلدة بالعراق وسمي العراق عراقاً لكثرة انصباب الأنهار إليه، وهو مأخوذ من عرقوي الدلو.

وأوّل من ملك الحيرة مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن الأزد بن الغوث بن نبت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وكان قد خرج من اليمن مع عمرو بن عامر مزيقيا حين خرجوا بسيل العرم، فانحاز مالك بن فهم إلى الحيرة وملكها عشرين سنة، ثم ملكها أخوه عمرو مدّة، ثم ملك جذيمة بن مالك بن فهم، وكان به برص فلقّبوه بجذيمة الأبرص وجذيمة الوضّاح، وعظم شأنه. وكان ينزل الأنبار وينادم الفرقدين. ويقال: أنّه أوّل من عمل المنجنيق من الملوك، وكانت له أخت اسمها رقاش فتحابت هي وصاحب مجلس شراب أخيها عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي من إياد، فخطبها من أخيها جذيمة حالة السكر فأجابه، فدخل بها في الحال، فلمّا أفاق عظم ذلك عليه، فهرب عدي بعدما حبلت منه رقاش، ويقال: أنّه ظفر به وقتله فأنشد أخوها جذيمة:

خبريني رقاش لا تكذبيني أبحر زنيت أم بهجين
أم بعبد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدون

فقالت: بل من خيار العرب، فولدت غلاماً وسمته عمراً وأحبّه جذيمة، فاختطفته الجن فيما يقال واستهوته دهراً طويلاً، ثم أحضره رجلان يقال لهما: مالك وعقيل ابنا فارح كانا يقصدان جذيمة بهديّة، فنزلا على ماء ومعهما قيّنة يقال لها: أم عمرو، فتعرّض لهما عمرو بن رقاش وقد طالت أظفاره وأشعاره وساءت هيأته، فجلس إليهما وهما يأكلان، فمدّ إليهما يده مستطعماً فناولته أم عمرو طعاماً فأكله، ثم مدّ يده ثانية، فقالت: إن يعط العبد كراعاً يتبع ذراعاً؟ ناولت صاحبها من شرابها وكان على شمالها فقال عمرو بن رقاش:

عدلت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراه اليمينا
وما شرّ الثلاثة أم عمرو كصاحبك الذي لا تصحبينا

فقالا له الرجلان: من أنت؟ فانتسب لهما ففرحا به وأقبلا به إلى خاله جذيمة مسرورين، وكان خاله جذيمة قد جعل الجعائل لمن أتاه به ففرح به خاله، وقال لهما: لكما حكمكما فاحتكما، فقالا : منادمتك ما بقيت، فكانا نديمان جذيمة فضرب بهما المثل حتى قيل:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

ويقال: أنّهما نادماه أربعين سنة، فما أعادا عليه حديثاً مما حدّثاه به مرّة أخرى، بل كانا يحدّثانه بحديث جديد لم يسمعه منهما قبل ذلك.

وغزا جذيمة ملك الحيرة عمرو بن الضرّاب بن حسّان العمليقي ملك الجزيرة وقتله، وكانت له بنت اسمها الزباء، فملكت الجزيرة بعد أبيها، واحتالت على جذيمة وأطمعته في نفسها، حتى حضر إليها فقتلته وأخذت بثأر أبيها. ثم ملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن رقاش، وهو أوّل اللخمين، وأخذ في ثأر خاله جذيمة بالحيلة، وكان لجذيمة عبد اسمه قصير بن سعد، فقال لعمرو: اضرب ظهري واقطع أرنبة أنفي واتركني وإيّاها، فجذع عمرو أنف قصير وضربه بالسياط فهرب إلى الزباء على تلك الحالة على أنّه مغاضباً لعمرو، فصار من جملة رجالها، وأظهر لها النصح والاجتهاد في حوائجها، فقرّبته وصار يتّجر لها ويحضر لها من أموال مواليه يريها أنّه ربحها، حتى ألف أحمالاً من الصناديق فيها ألفا رجل من أنجاد الرجال ومعهم سيوفهم ودروعهم، وحملهم على ألف جمل وأتى بهم على طريق يقال لها الغوير.

فلمّا قرب من حصنها تقدّم إليها فأعلمها أنّه أتاها بمال صامت فأشرفت على شرفات قصرها تنظر إلى الجمال فرأتها تنزع أرجلها من أوصال لثقل ما عليها فارتابت الزباء من ذلك وانشأت تقول:

ما للجمال مشيها رويدا أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا باردا شديدا أم الرجال جثما قعودا

فلمّا دخلوا حصنها خرجوا من الصناديق وقتلوا الزباء، وأخذ قصير بثأر مولاه جذيمة وفي ذلك يقول الملتمس:

ومن طلب الأوتار ما حز أنفه قصيراً ورام الموت بالسيف بيهس

وطالت مدّة عمر بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي، الذي أُمّه رقاش في الملك مائة سنة. ثم ملك بعده ابنه امرؤ القيس ستين سنة. ثم ملك عمرو بن أمرؤ القيس من ولد عمرو بن امرؤ القيس - ولقب بالمحرق لأنّه كان يعذب بالنار - وكانت أُمّه مارية التي يضرب المثل بقرطيها، فيقال: قرطي مارية. ثم ملك بعده ابنه النعمان قائد الفرس خمساً وستين سنة. ثم ملك بعده النعمان بن المنذر، فارس حليمة وهو الذي بنى قصراً سمّاه الخورنق، وعدّد الفوارس، وكردس الكرادس، وكان عدي ابن زيد بن أيوّب العبادي التميمي، قد دخل أرض الروم رسولاً من قبل الفرس، وتنصّر واقتبس من علومهم وقرء الكتب المنزلة، وعاد فحضى عند النعمان بن المنذر، وجلس عنده في أعلى المراتب، وكان النعمان معجباً بالزهر المسمّى بشقائق النعمان، وإليه ينسب لأنّه كان يتبع رياضه ويحميه.

وقصد يوماً من أيام الربيع غبا سماه شقيقة قد كساه النور في منابتها، فنور حمرته وخضرته وتموجه لهبوب النسيم عليه، وتناثر قطر الندا من أرجائه، فرآه منظراً بهجاً فأمر فبسط له بإزاء تلك الشقيقة بساطاً موشى من الحرير، فكأنما كان روضة مختلفة بأصناف الزهر، ونصب عليه قبة من الديباج الأحمر، قد حشيت من المقاعد والحشايا والنمارق والمساند بما يضاهيها ويجانسها، ولبس من الحرير المصبوغ أفضل ما يمكنه، وجلس في تلك القبة، مواجهاً للشقيقة وحوله ندماؤه وملهوه وعنده عدي بن زيد، فشرب وطرب ودبت فيه الرحاح وارتاح، ثم أقبل على عدي فخاطبه، فنادمه عدي بما أيقضه من غفلته.

فركب النعمان من ساعته فسايره عدي إلى أن مرّ بقبور بظاهر الحيرة، فقال عدي للنعمان: أيّها الملك أتدري ما تقول هذه القبور؟ قال: لا ، فقال عدي: إنّها تقول: أيّها الراكب المجنون على الأرض المجدون، كما أنّكم كنا، وكما نحن تكونون، فلمّا سمع النعمان مقالته، راجعته فكرته وظهر عليه الانكسار، ثم مرّ بشجيرات متناوحات بينهنّ ساحة فيها عين جارية، فقال عدي: للنعمان أبيت اللعن، أتدري ما تقول هذه الشجرات؟ فقال: ما تقول؟ فقال عدي إنّها تقول بلسان حالها:

من رآنا فليحدث نفسه ... أنّه موف على قرن الزوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ... لا ولا تأبى لها صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر كالماء الزلال
والأباريق عليها فدم ... وعتاق الخيل تردي في الجلال
عمروا دهراً بعيش حسن ... آمني دهرهم غير عجال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ... وكذاك الدهر يودي بالرجال
وكذا الأيام ترقى بالفتى ... في طلاب العيش حالا بعد حال[1]

فلمّا بلغ النعمان قصره وأشرف على ما حول الخورنق، قال: لعدي أكلّ ما أرى إلى نفاد وزوال؟ فقال عدي: إنّ الملك قد علم أنّ الأمر على ما ذكره، فقال النعمان: فأي خير يكون في ملك آخره إلى نفاد يفنى ويبيد، ثم قال لعدي: إذا كان السحر فاحضر، فإنّ عندي خبر أطلعك عليه.

فلمّا كان السحر حضر عدي، فوجد النعمان قد لبس مسحاً وأخذ أهبّة السياحة، وتنصّر وترهّب وساح في الأرض، فودّعه عدي فذهب ولم يعلم له خبر، فذكّره عدي بن زيد في شعره بقوله:

أيّها الشامت المعير بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... أم أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس: ٢٤٨/١.

اين كسرى فخر الملوك أنوشروان أم ايـــن قـــبله شـــابور
وبـــني الأصـــفر الكـرام مـلوك الروم لم يـــبق مـــنهم مـــذكور
وآخـــو الحـــضر إذ بـــناه وإذا دجـــلة تـــجبى إليـه والخـابور
شـــاده مـــرمرا وجـــلله كـلساً فـــللطير فـــي ذراه وكـــور
لم يـــهبه ريب المـــنون وبـــاد المـــلك عـــنه وبـابه مـهجور
وتـــذكر رب الخـورنق إذ أشـرف يـــوما وللـــهدى تـــفكير
ســـره مـــاله وكـثرة مـا يـملك والبـــحر مـــعرضا والســـدير
فـارعوى قـلبه وقـال فـما غـبطة حـــي إلى المـــمات يـــصير
ثـم بـعد الفـلاح والمـلك والعزة وارتـــهم هـــناك القـــبور
ثـــم صـارواكـانهم ورق جـف فألوت بـــها الصـبا والدبـــور

وكان ملك النعمان خمساً وثلاثين سنة. ثم ملك بعده ابنه الأسود، وهو الذي أنتصر على غسّان عرب الشام، ولمّا أراد أن يعفو عنهم ويطلق من أسر منهم، أنشده أبو أذينة قصيدته التي منها:

مـا كـل يـوم يـنال المـرء ما طـلبا ولا يســـوّغه المـــقدور مـا وهـبا
وأنصف الناس في كل المواطـن من سـقى العـادين بـالكأس الذي شـربا
وليس يـــظلمهم مـن راح يـضربهم بـحد سـيف بـه مـن قبلهم ضـربا
والعـــفو إلّا عـــن الأكـفاء مكـرمة مـن قـال غـير الذي قـد قلته كـذبا
قـتلت عـمراً وتسـتبقي يـزيد لقـد رأيت رأيـــاً يـــجرّ الويـل والحـربا
لا تـــقطعن ذنب الأفـعى وتـرسلها إن كـنت شـهماً فـأتبع رأسـها الذنـبا
هم جردوا السيف فـاجعلهم له جـزراً وأوقـدوا النـار فـاجعلهم لهـا حـطبا
إن تـعف عـنهم يـقول الناس كـلهم لم يـعف حـلماً ولكـن عفوه رهـبا
هـــمو أهـــلة غســـان ومـجدهم عـال فـإن حـاولوا مـلكاً فـلا عـجبا
وعـــرضوا بـــفداء واصـــفين لنـا خـيلا وإبـلاً تـروق العـجم والعـربا
أيـــحلبون دمـــاً مـــنا وتـــحلبهم رسـلا لقـد شـرفونا فـي الورى حـلبا
فـــعلام تـقبل مـنهم فـدية وهـم لا فـــضة قـــبلوا مـــنا ولا ذهـبا[1]

وكان ملكه عشرين سنة، ثم ملك بعده ابنه المنذر واسم أُمه ماء السماء سمّيت بذلك لحسنها وجمالها، فعرفوا بعد ذلك ببني ماء السماء، وهذا المنذر بن ماء السماء هو الذي طرده قباذ ملك فارس، وولي مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندي، لعدم موافقة له على الدخول في دين مزدك

(١) الحماسة البصرية: ٣٩/١، المختصر في أخبار البشر: ٤٤/١.

الزنديق، فلمّا ولي أنوشروان وقتل مزدك. أعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة ـ زالت دولة الكنديين. وكان ملك المنذر بن ماء السماء أربعاً وثلاثين سنة، ثم ملك بعده ابنه عمرو مضرط الحجارة أربعاً وعشرين سنة، وفي أيامه ولد النبي المصطفى ﷺ.

ثم ملك بعده ابنه المنذر ستين سنة. ثم ملك بعده قابوس بن المنذر ثلاثين سنة. ثم ملك بعده أخوه النعمان بن المنذر الذي يقال له: أبيت اللعن، ويكنّى أبا فارس، وهو صاحب النابغة الذبياني، وصاحب الغريين[١]، وذلك أنّه كان له نديماً يقال لأحدهما عمرو بن مسعود، والآخر خالد بن المطل[٢] الأسديّان، فسكر ذات ليلة فأمر بدفنهما حيين، فلمّا أصبح سأل عنهما فأخبر بخبرهما، فبنى عليهما بناء وجعل لنفسه يوم بؤس ويوم نعيم، من أجل ذلك فإذا لقيه أحد يوم نعيمه أحسن إليه وأغناه، وإذا لقيه أحد يوم بؤسه قتله وأرداه وطلى بدمه ذلك البناء، وهو موضع معروف بالكوفة.

واتفق أنّ رجلاً من طي خرج يطلب لأطفاله ما يسدّ به حاجتهم، فحصل له بعض مطلوبه. فصادف الملك النعمان في يوم بؤسه، فلمّا رآه الطائي أيقن بالهلاك، فقال: حيا الله الملك إنّ لي صبية صغاراً وأهلاً جياعاً، وقد أرقت ماء وجهي في تحصيل هذه البلغة الحقيرة لهم، وقد أقدمني سوء حظي هذا اليوم العبوس، وقد قربت من مقر الصبية والأهل أيأذن لي في إيصال هذه البلغة إليهم، وأوصي بهم أهل الحسنى من الحيّ لئلّا يضيعوا؟ وعليّ عهد الله أن أرجع إلى الملك مساء وأسلّم نفسي بين يديه.

فقال له النعمان: لا إذن لك إلّا أن يضمنك رجل معنا، فإن لم ترجع قتلناه. فالتفت الطائي إلى شريك بن عدي نديم النعمان وقال له:

يا شريك بن عدي ... ما من الموت انهزام
بل الأطفال صغار ... عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار ... وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم ... أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد ... لي بضمان والتزام
ولك الله بأني ... راجع قبل الظلام

(١) في المخطوط (العمروين)، والصحيح الغريين، انظر: الروض الانف ومروج الذهب، وانما سمي الغريين لحسنهما في ذلك الزمان معجم البلدان: ١٩٨/٤.

(٢) في المخطوط (عمرو بن المضلل)، وما اثبتناه من كتاب معجم البلدان وبغية الطالب، وفي الأغاني (خالد ابن المضلل)، وفي سيرة بن هشام (خالد بن نضلة).

فقال شريك للملك النعمان: عليّ ضمانه. فمرّ الطائي مسرعاً، فلمّا قرب المساء. قال النعمان لشريك: جاء وقتك فتأهب للقتل، فقال شريك: هذا الشخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي، وإن لم يكن فأمر الملك. فمثل، فإذا الطائي يشتد في عدوه، ويقول: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي فعدوت، ثم قال: أيّها الملك مر بأمرك! فأطرق النعمان رأسه ثم رفعه، وقال: والله ما رأيت أعجب منكما، أمّا أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقام، وأمّا أنت يا شريك فما تركت لأحد سماحة، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة، ألا فإنّي قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك، فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فعددت قولهمو من الإضلال
إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه تلاف نفسك؟ فقال: ديني، فمن لا وفاء له لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده إلى أهله[1].

ثم أنّ كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر بسبب قتله لعدي بن زيد بن أيوب بن زيد مناة من تميم، وكان على دين النصرانية من عبّاد الحيرة وكان شاعراً، وفيه قال أبو عبيدة بن عمرو ابن أبي العلاء: هو في الشعراء كسهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري مجاريها، وهو أوّل من شبّه أباريق الخمر بالظباء، وكان ترجماناً لأبرويز، وكاتبه بالعربية، وأشار عليه بتولية النعمان المنذر من بين أخوته، وكان أقلهم وأحقرهم، ثم اتّهمه النعمان في السعي عليه فاحتال حتى صار بيده فحبسه، فقال في الحبس:

أبلغ النعمان عني مالكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري
لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

فقتله النعمان بالعراق، وكان شيخاً كبيراً، فلم يزل زيد بن عدي يتوسل بكلّما يقدر عليه من الحيل، حتى صار في منزلة أبيه عند كسرى أبرويز، فذكر زيد لكسرى نساء إلى المنذر ووصفهنّ له بالجمال والأدب، فكتب أبرويز إلى النعمان يخطب منه اخته أو بنته، فلمّا قرأ النعمان الكتاب، قال: وما يصنع الملك بنسائنا؟ وأين هو عن مها السواد؟ وكان الواصل إليه بالكتاب زيد بن عدي، فقال له: أبيت اللعن إنّما أراد الملك أن يشرّفك، ولو علم أنّك لا تريد ذلك لم يتعرض له، ولكنّي ساعتذر عنك له، فقال له النعمان: أفعل فإنّك تعلم ما على العرب في زواج العجم من الفضاضة، فلمّا رجع زيد إلى أبرويز حرّف له كلام النعمان وأخرجه أقبح مخرج، فقال أبرويز: ربّ رجل قد صار من الطغيان إلى أكثر من هذا، فلمّا بلغ كلامه إلى النعمان علم أنّه غير ناج منه، ففرّ بنفسه حتى

(١) المستطرف في كل فن مستطرف: ٢٠١/١.

صار إلى طي، لصهر كان له فيهم، ثم خرج من عندهم حتى أتى بني رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحرث بن قطيعة بن عبس، فقالوا له: أقم عندنا فإن مانعوك بما نمنع به أنفسنا، فجزاهم خيراً، ورحل عنهم ومشى إلى كسرى أبرويز ليرى فيه رأيه، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

ألم تـرَ للـنعمان كَـانَ بِـنَجْوَة ... من الدهر لو أن امرأً كَانَ نَـاجِيَا

فغير عنه مـلك عشـرين حـجة ... من الدهر يَوم واحد كان غَاوِيَا

فـلم أر مسـلوباً له مـثل مـلكه ... أقَل صديقاً مـعطياً أو مُـوَاسِـيَا

خَلاَ أن حياً من رَوَاحَة حافظوا ... وكـانوا أُنَـاساً يَـتَقُونَ المَـخَازِيا

يسيرون حتى جَيّشوا عند ثَارِهِ ... هِجَانَ المطايا والعتاق المَذَاكِيَا

فَجَازَاهُـمُ خيراً وأثـنى عـليهِمُ ... وودَّعــهم تــوديع أنْ لاَ تَـلاقِيا

فسار النعمان حتى أتى المدائن، فصفّ له كسرى ثمان آلاف جارية عليهنّ المصبغات صفّين، فلمّا صار النعمان بينهنّ قلن له: أما فينا للملك غنىً عن مها السواد؟ فعلم النعمان أنّه غير ناج. ولقيه زيد بن عدي، فقال له النعمان: أنت فعلت هذا بي؟ لئن تخلصت لأسقينّك بكأس أبيك، فقال له زيد: امض نعيماً فقد أخيْتُ لك أخيَّةً لا يقطعها المهر الأرن! فأمر كسرى بالنعمان فحبس في ساباط المدائن من أرض العراق، ثم أمر به فرمي بين أرجل الفيلة فوطئته حتى مات، وكـان النعمان أبرص أحمر العينين والشعر، كما قال ابن عبدون:

وألحقت بعدي بـالعراق عـلى ... يد ابنه أحمر العـينين والشـعر

كما قال صاحب أبو قردودة الطائي: يحذّر رجلاً يقال له ابن عمّار من النعمان:

لقد نهيت ابن عـمار فـقلت له ... لا تقربن أحمر العينين والشعره

إن الملوك متى تنزل بساحتهم ... يوماً تطربك من نيرانهم شـرره

وكان ملك النعمان اثنين وعشرين سنة، وهو آخر ملوك الحيرة مـن اللـخمين، وكـانوا عـمّالاً للأكاسرة على عرب العراق، كما كانت ملوك غسّان عمّالاً للقياصرة على عـرب الشـام، ومـلك الحيرة بعد النعمان أياس بن قبيصة وأتى الله بالإسلام. وأخذ الحيرة بعد منه خالد بن الوليد في عهد أبي بكر، وعلى هذا فمولد النبي ﷺ بعد ملك عمرو بن المنذر أو ملك ولد عمرو أقل مما ذكر.

وبقيت الحرقة بنت النعمان بن المنذر حتى دخلت على سعد بن أبي وقاص بالقادسية، في جوار لها وعليهنّ المسوح والثياب السود، فلم تتميز له الحرقة من جواريها، فقال: أيتكنّ الحرقة؟ فقالت الحرقة: ها أنا أيّها الأمير، أنّ الدنيا دار قلقة وزوال فما تدوم على حال، إنّا كنّا ملوك هذه الأرض يجبى إلينا خراجها ويطيعنا أهلها مدى المدّة وزمان الدولة، فلمّا أدبر الأمر صاح بنا صائح

الدهر، فصدع عصانا وشتت ملأنا، وكذا الدهر ـ يا سعد ـ إنّه ليس من قوم أتحفهم بخيرة إلّا أردفهم بغيرة، ولا أسعفهم بفرحة إلّا أعقبهم بترحه ثم أنشدت:

فكنا نسوس النّاس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأفّ لدينا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

وبينما الحرقة تخاطب سعداً إذ دخل عمرو بن معدي كرب الزبيدي على سعد فنظر إلى الحرقة، فقال لها: أنت الحرقة التي كانت تفرش لك الأرض من قصرك إلى بيعتك بالديباج المبطن بالوشى؟ قالت: نعم يا عمرو، وإنّ للدهر عثرات تلحق السيّد من الملوك بالعبد المملوك، وتخفض ذا الرفعة وتذل ذا المنعة، وإنّ هذا أمر كنّا ننتظره، فلمّا حلّ بنا لم ننكره وأنشدت:

الدهر يومان ذا أمن وذا حذر والعيش شطران ذا صفوا وذا كدر
وكل لذة عيش لا دوام لها وعند صفوا الليالي يحدث الكدر
يا ذا الذي بصروف الدهر عيرنا هل عائد الدهر إلّا من له خطر
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وكم على الأرض من خضراء مورقة وليس يرجم إلا ما له ثمر

فصل
في أيام ملوك كندة

فأوّلهم الحرث آكل المرار من ولد زيد بن كهلان بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان بن عامر ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وكان سبب ملكهم على بني وائل، قطع بعضهم أرحام بعض. فاجتمع رؤساءهم، فقالوا: إنّ سفهاؤنا قد غلبوا علينا حتى أكل القوّي الضعيف، ولا يليق منّا ذلك؛ فالرأي أن نملّك علينا ملكاً نعطيه الشاة والبعير، فيأخذ للضعيف حقّه من القويّ، ويردّ على المظلوم من الظالم ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون فيفسد ذات بيننا، ولكنّا نأتي تبعاً فيملك علينا من شاء، فأتوه وذكروا له أمرهم، فملك عليهم الحرث بن عمرو بن حجر الكندي جد أمروٴ القيس الشاعر، وكان ينزل بطن عاقل وهو واد من أودية بكر بن وائل، وسمّي الحرث بآكل المرار لأنّ عبداً أسود أغار عليه بالليل فأخذ زوجته، فأعجبت به وخافت أن يستنقذها الحرث منه، فقالت للعبد: انج قبل التبع فكأنّي بالحرث قد لحقك كأنّه جمل آكل المرار، فما كان إلّا ساعة حتّى أدركهما الحرث

فاستنقذها منه، وقال لها: هل أصابك؟ قالت: نعم، وما اشتملت النساء على مثله، فأمر أن تربط إلى فرس وتركض حتى قطّعها.

فالحرث وبنوه ملوك كندة، وهذا الحرث هو الذي كان ولّاه قباذ ملك فارس موضع المنذر بن ماء السماء حين وافقه على دين مزدك الزنديق، وكان قد عظم شأن الحرث بذلك وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل، وملك ابنه حجر على بني أسد وبني خزيمة، وملك باقي بنيه على سائر العرب، وامرؤ القيس الشاعر هو ابن حجر بن الحرث هذا، فلمّا أعاد أنوشروان المنذر بن ماء السماء إلى ملك الحيرة وطرد الحرث، زالت دولة الكنديين وبقي منهم امرؤ القيس الشاعر، وسمّي بالملك الضليل لأنّه ترك ملكه وخرج يطلب من قيصر ملك الروم جيشاً يأخذ به ثأر أبيه، وكانوا بني أسد قد قتلوا أباه حجراً يوم مأقط وفي ذلك يقول أمرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه:

أرقب لبرق بليل أفل　　　يلوح سناه بأعلى الغلل

بنو أسد قتلوا ربهم　　　ألا كل شيء سواه جلل

ومن أجل هذا قال أبو محمّد بن عبدون:

ولم ترد على الضليل صحته　　　ولا ثنت أسدا عن ربها حجر

وكانت العرب تسمّي السيد والملك عليهم الرب، وكان الذي قتله منهم قبيلتان، يقال لإحديهما: مالك والأخرى كاهل، ولذلك قال أمرؤ القيس:

والله لا يذهب شيخي باطلا　　　حتى أبير مالكاً وكاهلاً

القاتلين الملك الحُلاحلا　　　خير معد نسباً ونائلا

وكان الذي تولّى قتله منهم علباء بن الحارث أحد بني كاهل، وفيه يقول: أمرؤ القيس:

واقتلهم علباء كان حريصا　　　ولو ادركته صفرا لو طاب طاب

وقصد امرؤ القيس قتل بني أسد وبني كاهل، وكان لا يعلم أحداً بإقدامه عليهم، فلمّا كانت الليلة التي يصبح فيها على بني كاهل، بادر مخافة أن يصل إليهم خبره، فجعل القطا ينفر فيمر على علباء، فقالت ابنته: يا أبت ما رأيت كالليلة قطاً قط! فقال لها أبوها علباء: لو ترك القطا ليلاً لنام، ثم ارتحل عن موضعه ذلك، وبنو كنانة في ديارهم، فأصبح امرؤ القيس بهم وهو يظّن أنّهم بنو كاهل، فأوقع فيهم السيف فلمّا عرفهم كفّ عنهم وهو يقول:

إلّا يا لهف نفسي على أثر قوم　　　هم كانوا الشفاء فلم يصابوا

فتفرّقت عن امرؤ القيس جموعه ولم يؤويه أحد، فقصد السموءل بن عاديا اليهودي فأكرمه وأقام عنده مدّة، ثم سار إلى قيصر ملك الروم وأودع أدرعه عند السموءل، وأنشد في مسيره

قصيدته المشهورة التي منها:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقون بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عودته من عند قيصر في بلاد الروم، عند جبل يقال له: عسيب، وأنشد عندما أيقن بالموت:

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

وقيل: أنّ قيصر سمّه في حلّة مسمومة أرسلها إليه مع رجل من بني أسد اسمه الطمّاح، فلمّا لبسها تقطّع لحمه فمات بأنفره من بلاد الروم وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا

ويقال: أنّ الطمّاح سمّ تلك الحلّة، وقال له: يقول لك الملك البس هذه الحلة لتتشرف بها وسيأتيك نصره، وإنمّا فعل الطمّاح ذلك إبقاء على قومه، إذ كان قيصر قد وعده بأن ينصره على بني أسد والله أعلم.

فجاء الحرث بن أبي شمر الغساني إلى السموءل وطلب منه أدرع امرؤ القيس فأبى، وكان ابن السموءل أسيراً عنده، فقال: إن لم تعطنيها قتلت ابنك، فأبى فقتل ابنه فأنشد السموءل:

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيتُ

ودلائل الوفاء سبع: أداء الأمانات، وبر الآباء والأُمهات، وصلة ذوي القرابات، والنزاع إلى الوطن، والجزع على فقد السكن، والحزن لأخلاق الشباب، واللبس لأخلاق الثياب.

فصل
في أيام ملوك الحجاز وأنسابهم

سمّي الحجاز حجازاً إذ كان حاجزاً بين اليمن والشام، وأوّل من ملك الحجاز جرهم بن عوف بن زهير بن أنس بن الهميسع بن خمير بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان وقيل جرهم أخو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

قال صاحب تاريخ روض المناظر: إنّ قحطان لمّا ملك اليمن ملك أخاه جرهم الحجاز، واستمر ملك الحجاز في أبنائه إلى أن تزوّج إسماعيل عليه السلام منهم، وكان من حديث جرهم أنّه لمّا تفرّقت القبائل من اليمن لقحط شديد كان بها في الزمن الأوّل، فخرج من اليمن من القبائل العماليق

وجرهم فيممت العماليق نحو تهامة، وعليهم السميدع بن هوبر بن لاوي بن قنطور بن كركر، واشتدّ بهم الجهد فأقبل السميدع يرتجز ويحثهم فيما قد نزل بهم فقال:

سيروا بني الكركر في البلاد   إني أرى الدهر لفى فساد
قد سأر من قحطان ذو الرشاد   وادخلوا مكة بالسعاد

ثم أتوا مكة ونزلوا على زمزم، فتسامعت بهم جرهم وعليهم الحارث بن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هيى بن بعث بن نبت جرهم[1]، فنزلوا أعلى مكة والعماليق نزلوا أسفلها وكان السميدع يعشر من ناحية، والحارث يعشر من ناحية، فكانت بين الحارث والسميدع حروب كثيرة، فكانت الدائرة للعماليق على جرهم ثم اصطلحوا.

ثم كانت ولاية البيت الحرام بعد نابت بن إسماعيل في ملوك جرهم نحو ثلاثمائة سنة، وقيل خمسمائة وستين سنة، فكان أوّل من ملك منهم مضاض بن عمرو مائة سنة. ثم ملك ابنه عمرو مائة وعشرين سنة. ثم ملك ابنه الحرث مائة سنة، ثم ملك مضاض الأصغر بن عمرو أربعين سنة. ثم بغت جرهم في الحرام وطغت حتى فسق رجل منهم بإمرأة في البيت الحرام، وكان الرجل يدّعى باساف والمرأة تدعى نائلة، فمسخهما الله حجرين صُيِّرا بعد ذلك وثنين وعُبِدَا تقرباً إلى الله تعالى بهما، ثم بعث الله على جرهم الرُّعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم، وكثر أولاد إسماعيل وصاروا ذو قوّة ومَنَعَة فَغَلبوا على أخوالهم جرهم، فأخرجوهم من مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ فأنشد عمرو بن الحارث بن المضاض الجرهمي هذه الأبيات:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزلنا   صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت   بعز فما يحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا   فليس لحي غيرنا ثم فاخر
فإن تنثن الدنيا علينا بحالها   فإن لها حالا وفيها التشاجر

ثم قال أيضاً يخاطب بكرا وغبشاناً من ولد إسماعيل عليه السلام:

يا أيها الناس سيروا إن قصركم   أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطي وأرخوا من أزمتها   قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنا أناسا كما كنتم فغيرنا   دهر فأنتم كما كنا تكونونا

ثم أنّ جرهماً لحقوا ببلاد جهينة، فأتاهم في بعض الليالي السيل في واد يعرف بإضم، فذهب

---

(١) هكذا في المخطوط. وفي مروج الذهب: ابن هينى بن نبت بن جرهم.

بهم فذكّرهم أميّة بن الصلت الثقفي في شعره بقوله:

وجـرهم دمـنوا تـهامة فـي الدهـ ـــر فســالت بـجمعهم إضـم

وكانت طائفة من جرهم نزلت نجران، منهم الأفعى الجرهمي وهو الذي لمّا أشرف نزار بن معد ابن عدنان على الموت أوصى بماله لبنيه، وهم مضر الحمراء وربيعة الفرس، وإياد الشمطاء وأنمار الحمار، وقسّمه بينهم كما يأتي، وقال لهم: يا بني إن اختلفتم في الميراث فعليكم بالأفعى فسيروا إليه ليحكم بينكم، فلمّا مات أبوهم اختلفوا في الميراث.

فساروا طالبين الأفعى، فعثروا في طريقهم على أثر بعير، فقال مضر: هذا أثر بعير أزور، فقال ربيعة: نعم وأبتر، فقال إياد: نعم وأعور، فقال أنمار: نعم وشرود، فلقيهم في طريقهم إنسان، فسألهم هل رأيتم بعيراً ضالاً؟ فقال له مضر: هل كان بعيرك أزور؟ قال: نعم، فقال له ربيعه: أكان بعيرك أبتر؟ قال: نعم، فقال له إياد: أكان بعيرك أعور؟ قال: نعم، فقال له أنمار: أكان بعيرك شرود؟ قال: نعم، فأين بعيري؟ قالوا: ما رأينا لك بعيراً فاتبعهم حتى وصلوا إلى الأفعى، فقال له: أيّها الملك أنصفني من هؤلاء القوم؟ فإنّهم مروا على بعيري فأخذوه ثم جحدوا فيه، وقصّ عليه قصّتهم ووصفهم فأقسموا له ما رأينا بعيرك، فقال لهم الأفعى: فكيف عرفتم صفته ولم تروه؟! فقال مضر: رأيت أثر بعير يمكن يده الواحدة في الأرض أكثر من الأخرى؛ فعلمت أنّه أزور، فقال ربيعة: ورأيـة بـعره مجتمعاً فعلمت أنّه أبتر، أي: بلا ذنب، فقال إياد: ورأيته يمرّ بالكلأ فيأكل من الجانب الواحد ولا يأكل من الآخر، فعلمت أنّه أعور، فقال أنمار: ورأيته يمرّ بالروضة من الكلأ فلا يأكل منها، ويمرّ بما دونها من العشب فيرتع بها، فعلمت أنّه شرود، فقال الأفعى للرجل: صدّق القوم ليسوا بأصحاب بعيرك.

ثم سألهم عن قصّتهم فأخبروه بما أوصاهم أبوهم، وبما أعطى لكل واحد منهم. فقال: ومثلكم يحتاج أنّ يقسّم أحد بينهم، فقالوا: على قولك اعتمدنا، فقسّم بينهم الميراث على ما بلغه من قسمة أبيهم، فأعطى لمضر القبة الحمراء وما شاكلها من أبل وذهب فسمّي مضر الحمراء، وأعطى ربيعة الفرس والسلاح وما شاكلها فسمّي ربيعة الفرس، وأعطى إياد الجارية الشمطاء والفضة والغنم والإبل البيض فسمّي إياد الشمطاء، وأعطى أنمار الحمير والبغال وما شاكلهما من الدواب فسمّي أنمار الحمار.

ثم أنزلهم في دار الضيافة ووكّل بهم من يسمع كلامه ويحفظه ويخبره به. وأمر صاحب غنمه أن يذبح لهم خروفاً من أسمن خرفانه، وأمر صاحب شرابه أن يسقهم شراباً من أطيب شرابه، وأمر صاحب عسله أن يطعمهم عسلاً من أطيب عسله، فلمّا أكلوا وشربوا قالوا: لحم طيّب سمين، فقال أحدهم: لولا أنّه أرضعته كلبة، وقالوا: شراب طيّب، فقال الثاني: لولا أنّ داليته على قبر، وقالوا:

عسل طيّب، فقال الثالث: لولا أنّ نحلته وضعته في هامة جبار، ثم قالوا: هذا ملك كريم، فقال الرابع: لولا أنّه ولد من غير أبيه.

فقصّ عليه الموكّل بهم جميع كلامهم، فأرسل إلى الغنّام فسأله عن اللحم، فقال: لمّا طلبت أسمن الغنم لم يكن عندي أسمن من الذي ذبحته لهم، وكانت أُمّه قد ماتت فكان يرضع مع الجراء من الكلبة، وسأل صاحب الشراب، فقال: ليس عندي شراب أطيب من شراب الدالية التي على قبر جدّك فأخذت لهم منه، ثم سأل صاحب العسل، فقال: كان عندي عسل طيب إلّا أنّ نحلته كانت وضعته في هامة جبار فأخذت لهم منه، ثم أنّ الملك دخل على أُمّه، فقال: أصدقيني من أبي وإلّا قتلتك في هذه الساعة؟ فقالت له: إنّ أباك الذي تنسب إليه كان قد كبر وخشيت أن يموت ويذهب الملك، وكان عندي فتى من أقاربه وسيماً فمكّنته من نفسي حتى علقت بك، ثم قتلته. فخرج إليهم وأمرهم بالانصراف، وقال: هؤلاء من شياطين الإنس.

وبانقراض جرهم حين حملهم السيل بإضم[1]، انقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وأقارب جرهم، ولم يبق من العرب إلّا من كان من عدنان وقحطان.

والعرب كلّهم ثلاثة أقسام وهم الذين ضلّت علينا أخبارهم وبادوا وهم: عاد وثمود وجرهم الأُولى. وعاربة وهم الذين قبل إسماعيلعليه السلام كطسم وجديس. ومستعربة وهم ولد إسماعيل وسمّوا مستعربة لأنّ إسماعيلعليه السلام لم تكن لغته عربية، بل عبرانيّة فلمّا تزوّج من جرهم الثانية ولد له اثنا عشر ولداً منهم قيدار الذي هو في عمود النسب المحمّدي، فتوجّه أخواله من جرهم وعقدوا له الملك بالحجاز وسدانة البيت الحرام.

وأنساب العرب الموجودة يجمعها كلها قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوحعليه السلام، فنزح عن قحطان أبناؤه جرهم ومن نسله عبدالمدان، والعرب ومن نسله سبأ واسمه عبد شمس[2]، وتفرّع من سبأ أبناؤه حمير وكهلان وعمرو وأشعر.

وعاملة فمن حمير ملوك اليمن المذكورون، ومنهم قضاعة، ومنهم بنو كلب الذين من مشاهيرهم زهير بن شريك، وحارثة أبو زيد مولى رسول الله الذي قتل بمؤتة، ومن قضاعة جهينة، وتنوخ، وبنو سليح، وبنو نهد، ومن كهلان أحياء كثيرة منهم ملوك الحيرة، وملوك كندة، وخزاعة، المشهورة منها سبعة:

أوّلها: الأزد وهم الغسانيون، والأوس، والخزرج ـ وهم الأنصار ـ، وبارق، ودوس، والعتيك، وغافق، ومن دوس أبو هريرة واسمه عمرو بن عامر أو عبدالرحمن بن صخر.

---

(١) قال ابن السكيت: إضم: واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، وأعلى إضم، القناة التي تمر دوين المدينة.

(٢) الروض الانف ١/٥٠، سيرة ابن هشام ١/١٠.

وثانيها: طي واسمه أدد، ومنها: جديلة، وتيهان، وبولان، وسلامان وهني وسدوس، ومن طي زيد الخيل، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيد الخير، وحاتم المشهور بالكرم.

وثالثها: مدحج، واسمه مالك بن أدد، ومنها: خولان، وجنب، وبنو سعد العشيرة، سمّي بذلك لأنّه لم يمت حتى ركب معه من ولده ثلاثمائة فارس، وكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتي، دفعاً للعين عنهم. وزبيد قبيلة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، والنخع منهم الأشتر النخعي صاحب علي عليه السلام، واسمه مالك بن الحارث، والقاضي شريك بن عبدالله، وسنان بن أبي سنان النخعي قاتل الحسين عليه السلام، وعنس قبيلة الأسود العنسي الكذّاب الذي ادعى النبوّة في اليمن، وعمّار بن ياسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ورابعها: همدان، ولهم صيت في الجاهلية والإسلام ومنهم: الحارث الهمداني صاحب علي عليه السلام.

وخامسها: كندة، ومنهم: القاضي شريح، ومنهم السكاسك، والسكون.

وسادسها: بنو مراد.

وسابعها: بنو أنمار، ومنهم: خثعمة، وبجيلة قبيلة جرير بن عبدالله البجلي الصحابي، وكان حسن الوجه حتى سمّي يوسف الأُمة، وفيه يقول القائل:

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة

وللعرب رجال مشهورة ووقائع مذكورة يأتي ذكرها، فمن مشاهيرهم عمرو ابن لحي بن حارثة من الأزد كان كبير الحجاز، وهو أوّل من بحر البحائر، وسيب السوايب، وحوّل الأصنام فوق الكعبة وعبدها وغيّر دين إسماعيل عليه السلام، وكان له صاحب من الجن يأتيه بالأخبار وبالمغيّبات، وإليه تنسب خزاعة سمّيت بذلك لأنّها انخزعت عن غيرها من قبائل اليمن الذين تفرّقوا أيدي سبأ سباهنّ سيل العرم، ونزلت بالقرب من مكة وحصلت لهم سدانة البيت والرئاسة، وبقيت معهم إلى أن أسكره قصي بن كلاب رجلاً منهم اسمه أبو عبثان واشترى منهم مفاتيح الكعبة، بزق خمر فقيل في ذلك:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر وأثواب وأبراد

ومنهم: زهير بن جناب الكالبي عاش عمراً طويلاً، وغزا غطفان لأنّهم بنو حرماً مثل حرم مكة، وظفر بهم بعد حروب كثيرة وخرّب حرمهم، ومنهم: كليب بن ربيعة وأخوه مهلهل وزهير بن جذيمة العبسي، وابنه قيس أصحاب الحروب الآتي ذكرها. ومنهم: بكر بن وائل، وجدّه ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان، وكان لنزار أربعة أبناء، مضر الذي هو في عمود النسب المحمّدي، وربيعة الفرس، وإياد، وأنمار، فمن إياد كعب الإيادي وكان يضرب بجوده المثل،

وقيس بن ساعدة الإيادي، وكان يضرب بفصاحته المثل. ومن بكر بن وائل بنو شيبان وطرفة العبدي الشاعر. وبنو حنيفة ومنهم مسيلمة الكذّاب ومالك بن نويرة، وقتلا في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد، وكان لهم صنم من عجوة فأكلوه في غلوه فقيل:

أكلت حنيفة ربّها زمن التقحم والمجاعة

ومن ربيعة الفرس بنو عنزة أهل خيبر، وبنو أسد الذين قيل فيهم:

ما سرنى أن أُمي من بني أسد وأن لي كل يوم ألف دينار
قوم إذا استنبح الاضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار
فضيقت فرجها بخلاً ببولتها فما تبول لهم إلّا بمقدار

وولد لمضر على عمود النسب الياس، وعلى غيره قيس غيلان، وغيلان اسم فرسه، وقيل: اسم كلبه، ونتج من قيس المذكور قبائل كثيرة، منهم: هوازن ومقدمهم يوم حنين مالك بن عوف النضري، وبنو كلاب وصار منهم أصحاب حلب، أوّلهم: صالح بن مرادس، ومنهم: قبائل عقيل الذين منهم ملوك الموصل، ومنهم: بنو عامر وصعصعة وخفاجة أمراء العراق. وجشم الذين منهم دريد بن الصمة وكان مع المشركين يوم حنين. وبنو هلال الذين منهم سليم بن قيس الهلالي، وروي عن علي عليه السلام. ومنهم ثقيف الذين منهم أُمية بن الصلت، والمختار بن أبي عبيد، والحجاج بن يوسف وقيل فيهم:

أضل الناسبون أبا ثقيف فما لهم أبٌ إلّا الضلال

ومنهم: بنو نمير، وباهلة، ومازن، وغطفان، وبنو عبس الذين منهم عنترة العبسي، وادّعاه أبوه شداد بعد أن كبر. ومنهم: قبائل سليم وبنو ذبيان الذين منهم النابغة الذبياني. وبنو فزارة الذين منهم حصن الممدوح بقول زهير:

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وبنو عدوان الذين منهم ذو الإصبع العدواني الشاعر، وولد للياس على عمود النسب مدركة وعلى غيره طابخة، وأُمهما خندف نسبوا إليها وصار من طانجة بنو تميم وبنو ضبة وبنو مزينة اسم أمهم، وولد لمدركة خزيمة على عمود النسب وعلى غيره هذيل، ومنهم: عبدالله بن مسعود وأبو ذؤيب الشاعر الهذلي، وولد لخزيمة كنانة على عمود النسب، وخارجاً عنه أسد وإليه ينسب كل أسدي، وولد لكنانة النضر على عمود النسب، وخارجاً عنه ملكان وعبد مناة، ومنه بنو غفّار رهط أبي ذر الغفاري، وصار من عمرو العمريون، ومن عامر العامريون، ومنه مالك أبو فراس. ومن بطون كنانة الأحابيش فهم عرب لأحبوش كما يتوهم كثير من الناس، وولد للنضر مالك لم يشتهر غيره، وولد لمالك فهر، قيل: هو قريش سمّي به لشدّته شبهاً لدابة تخرج من البحر، يقال له: القرش، تأكل

كل دواب البحر، كما قيل:

وقريش هي التي تسكن البحر — بها سميت قريش قريشاً
تأكل الغث والسمين — ولا تترك منه لدى جناحين ريشا
هكذا في الانام حي قريش — يأكلون الأنام اكلا كشيشا
ولهم آخر الزمان نبي — يكثر القتل فيهم والخموشا
تملأ الأرض خيله ورجال — يحشرون المطي حشرا كميشا

وولد لفهر غالب على عمود النسب، وخارجاً عنه محارب والحارث، فمن محارب بنو محارب، ومن الحرث بنو الخلج، منهم: أبو عبيدة بن الجرّاح الفهري، وولد لغالب على عمود النسب لؤي، وخارجاً عنه تيم الأدرم، والأدرم الناقص الذقن، ومنه بنو الأدرم، وولد للؤي كعب على عمود النسب، وخارجاً عنه سعد وخزيمة والحارث وعامر وأُسامة، فمن عامر عمرو بن عبد ود ـ فارس العرب الذي قتله عليّ يوم الخندق ـ، وولد لكعب مرة على عمود النسب، وخارجاً عنه هصيص وعدي، فمن هصيص بنو جمح، منهم: أُمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف عدو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وبنو سهم منهم: عمرو بن العاص. ومن عدي بنو عدي منهم: عمر بن الخطاب وابن أخيه سعيد بن زيد بن الخطاب، وولد لمرة كلاب على عمود النسب، وخارجاً عنه تيم ويقظة. فمن تيم بنو تيم ومنهم: أبو بكر بن أبي قحافة، وطلحة بن عبدالله. ومن يقظة بنو مخزوم، نسب خالد بن الوليد، وأبي جهل بن هشام، وولد لكلاب قصي على عمود النسب، وخارجاً عنه زهرة، ومنه: بنو زهرة نسب سعد بن أبي وقاص، وآمنة بنت وهب أم رسول الله، وعبدالرحمن بن عوف، وعظم قصي في قريش، وارتجع مفاتيح الكعبة من خزاعة كما تقدّم شرحه، وأثل مجد قريش ورئاستهم، وولد لقصي عبدمناف على عمود النسب، وخارجاً عنه عبدالدار، وعبد العزى، فمن عبدالدار بنو شيبة، ومنهم: النضر بن الحارث ـ عدو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ومن عبدالدار خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وورقة بن نوفل، ومن عبدالعزى الزبير بن العوام، وولد لعبد مناف هاشم على عمود النسب، وخارجاً عنه عبد شمس، والمطلب، ونوفل، فمن عبد شمس أُميّة، ومنه بنو أُمية، منهم: عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أمية، ومنهم: معاوية ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أُمية، وعتبة بن ربيعة بن عبدشمس، وبنت عتبة هند أُم معاوية، ومن المطلب المطلبيون، منهم: محمّد بن إدرس الشافعي إمام الشافعة صاحب مذهبهم، ومن نوفل النوفليون، وولد لهاشم عبدالمطلب على عمود النسب، وخارجاً عنه أسد والد فاطمة أم علي عليه السلام، وصار عبدالمطلب بن هاشم كبير قريش وشيخها.

وكانت الحبشة لمّا ملكوا اليمن ـ كما تقدّم شرحه ـ بنى أبرهة الأشرم لهم كنيسة عظيمة بصنعاء،

وقصد أن يصرف الحجّ إليها وتبطل الكعبة الحرام. فجاء رجل من العرب وأحدث فيها فغضب أبرهة وقصد الكعبة ومعه ثلاثة عشر فيلاً يقال: لكبيرهم محمود، فلمّا وصل للطائف أرسل الأسود ابن مقصود إلى مكة فاستاق أموالها ومعها عبدالمطلب بن هاشم، وقالوا: هذا سيّد قريش فأكرمه أبرهة ونزل عن سريره وأجلسه، وقال له: ما تريد؟ قال: أن تردّ عليّ أباعري، فقال أبرهة: كنت أظنّ أنّك تطلب أن لا أخرّب الكعبة، فقال: إنّما أنا ربّ الأباعر فأطلبها، وللكعبة رب يحميها، فردّ عليه أباعره فعاد بها إلى مكة، وأمر الناس بالتحرز وأخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول من أبيات:

يا رب ان المرء يحفظ رحله ... فـاحفظ رحـالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا ... فأمـر مـا بـدا لك

فلمّا وصل أبرهة إلى المغمس[1] في منتصف المحرم سنة إحدى وثمانين وثمانمائة لغلبة الإسكندر، وصدّ الله الفيل كلمّا وجّه نحو الكعبة أحجم، وإذا أعدل عنها أقدم، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾[2] طيورا سوداء صفر المناقر خضر الأعناق طوالها، وقيل: بلقاء أشباه الخطاطيف أو الوطاويط نشأت من جانب البحر، ولها خراطيم كخراطيم الطير وأكفّ الكلاب وأنياب السباع، كل واحدة بحجر في منقارها وحجرين في رجليها، فقال عبدالمطلب: طير غريبة أشباه اليعاسيب لا نجديّة ولا حجازيّة ﴿أَبَابِيلَ﴾، أي: كثيرة متتابعة أو مختلفة الألوان ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ﴾، أي: من طين منحجراً، ومن سماء الدنيا واسمها سجيل، مثل حصى الخذف، وقيل: فوق العدس ودون الحمصّ، مخططة بحمرة مثل جزع اليمن مكتوب عليها أسماء أصحابها، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾، أي: كزرع أكله الدود، قيل: كانت الحجر تثقب البيضة والفارس والفرس وتغور في الأرض، أصابت الكل إلّا أبرهة أصابت أنامله، فبلغ صنعاء ثم ورم صدره وهلك، وأنشد أبو طالب:

ان آيات ربنا ساطعات ... لا يماري فيهن إلّا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ... مر يعوي كأنه معقور

فصل
في وقائع العرب

للعرب وقائع عظيمة انقرض في بعضها أكثرهم، كطسم وجديس وعاد وثمود وجرهم الأولى

---

(١) المغمس: موضع قرب مكة في طريق الطائف.

(٢) سورة الفيل: ١.

والعماليق كما قال ابن عبدون:

وأتبعت أختها طسماً وعاد على عاد وجرهم منها ناقص المرر

قال الشارح عبدالملك بن عبدالله بن بدرون الحضرمي أخت طسم هي جديس فإنّ طسماً هو: طسم بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام، وجديس بن عامر بن سام ابن نوح عليه السلام، وهم العرب العاربة، وكان منزلهما جميعاً اليمامة، واسمها في ذلك الوقت جو، وكان الملك عليها رجل من طسم يقال له: عملوق، وكان غشوماً ظلموماً لا ينهاه شيء عن هواه.

فأتته يوماً امرأة من جديس اسمها هزيلة ابنة مازن مع زوج لها اسمه ماشق، وكان قد طلّقها وأراد أخذ ولده منها فأبت عليه، فترافعا إلى الملك عملوق ليحكم بينهما، فقالت هزيلة: أيّها الملك هذا ولدي حملته تسعاً ووضعته دفعاً وأرضعته سبعاً ولم أنل منه نفعاً، حتى إذا تمّت فصاله واستوفت خصاله أراد أن يأخذه منّي قسراً، ويسلبنيه قهراً، ويترك يدي منه صفراً، فقال زوجها: أيّها الملك قد أخذت المهر كاملاً، ولم أنل منه طائلاً إلّا ولداً جاهلاً، فافعل ما أنت فاعلاً، فأمر الملك ان يقبض على الولد، وينتزع منهما ليجعل في غلمانه، وقال: يا هزيلة ابغيه ولداً ولا تنكحي بعد زوجك أحداً، فقالت هزيلة: أمّا النكاح فبالمهر، وأما السفاح فبالقهر، ومالي أرب[1] في واحد منهما وانشأت تقول:

اتيت أخا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكماً هزيلة ظالما
لعمري لقد احكمت لا متورعا ولا فهما عند الحكومة عالما
ندمت فلم أقدم على متزحزح وأصبح زوجي حائر الرأي نادما

فلمّا وصل الشعر إلى عملوق، غضب وأقسم أن لا تهدى عروس في جديس إلى بعلها، حتّى يكون هو الذي يبدؤ بها، فإن كانت بكراً افتضّها، وإن كانت ثيباً واقعها، وهذا البغض منه في جديس أراد أن يذلّها، فلم يزل على ذلك دهراً، حتى أهديت عفيرة ابنة غفّار الجديسة أخت الأسود بن غفّار سيد جديس إلى بعلها، فحملت إلى عملوق على عادته ومعها الفتيات يغنّين:

إبدي بعملوق فقومي واركبي وبادري الصبح لأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب

فلمّا افتضها وخلّ سبيلها، خرجت على قومها في دمائها شاقة جيبها من قبله ودبرها وهي تقول:

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس
يرضى بهذا يا لقومي حرٌّ أهدى وقد أعطى وساق المهر

---

(١) أرب: أي حاجة.

لأخـذة المـوت كـنا بـنفسه خـير لمـن يـفعل ذا بـعرسه

ثم قالت تحرض جديساً على طسم

أيـصلُح مـا يأتـى عـلى فتياتكم وأنـتم رجـال فيكم عـدد النمل
أيصلح تمشي فـى الدمـاء بـناتكم صبيحة زفت في النساء إلى البعل
فـإن أنـتم لم تـغضبوا عـند هـذه فكونوا نساء لا يفقن مـن الكـحل
فـدونكم طـيب العـروس فـإنما خلقتم لأثـواب العـرائس والغسـل
فــلو أنــنا كـنا رجـالاً وكـنتم نســاء لكـنا لا نـقر عـلى الذل
فـقبحاً وشـيكا للـذي ليس دافـعاً ويختال يمشي بيننا مشـية الفـحل
فـموتوا كـراماً واصـبروا لعـدوكم بحرب تلظى بـالضرام مـن الجـزل
وإلّا فــخلّوا بــطنها وتــحملوا إلى بـلد قـفر ومـوتوا مـن الهـزل
ولا تجزعوا يا قوم في الحرب انها تـقوم بأقـوام كـرام عـلى رجـل
فـيهلك فـيها كـلّ نكس مـواكـل ويسـلم فـيها ذو النـجابة والفـضل

فلمّا سمعت بذلك جديس غضبوا غضباً شديداً، فقال لهم الأسود بن غفار: وكان مطاعاً في قومه، يا جديس إن لم تطيعوني فيما آمركم به لأتكئن على سيفي هذا حتى يخرج من ظـهري، فقالوا له: السمع والطاعة نطيعك في كل ما تريد، فقال: لقد علمتم أنّ طسماً ليسوا بأعزّ مـنكم، ولكن ملك صاحبهم عليكم وعليهم هو الذي يذعننا لهم بالطاعة، ولولا ذلك ما كان لهم علينا من فضل، ولو امتنعتم منهم لماكان لهم عليكم من سلطان، فقالوا: قد قبلنا قولك، ولكن القوم أكثر عدّة منّا وعدداً، فقال: إنّي صانع لهم طعاماً ثم أدعوهم إليه، فإذا صاروا في منزلي نهضنا إليهم بأسيافنا، فأنفرد أنا بملكهم، وينفرد كل رجل منكم برجل منهم ونقتلهم عن آخرهم، فقالت عفرة لأخـيها الأسود: لا تفعل هذا! فإنّ الغدر ذلّة وعار، ولكن كاثروا القوم في ديارهم فتظفروا أو تموتوا كراماً، قال: لا، ولكن نمكر بهم فيكون ذلك أمكن منهم.

ثمّ أنّ الأسود صنع طعاماً وأمر قومه أن يدفنوا سيوفهم في الرمل حيث صنع لهم الطعام، ثم دعا عملوقاً وقومه فلمّا توافوا استأثرت جديس السيوف مـن حـيث دفـنوها، وتـواثـبوا عـليهم وقتلوهم جميعاً، فلم يفلت منهم إلّا رجل واحد اسمه رياح بن مرة، فذهب إلى حسّان بن تـبع ـ ملك اليمن ـ فاستغاث به فوعده النصر، ونادى في حمير بالمسير وأخبرهم بما صنعت جديس بطسم، فقالوا: ما لنا في هذا من أرب وهم عبيدك أيّها الملك، فقال حسّان: أرايتم لو كان هذا فيكم لكان حسناً لملككم أن يهدر دمائكم؟ وما علينا في الحكم إلّا أن ننصف بعضهم من بعض، فقام فرسانهم وقالوا: الأمر أمرك أيّها الملك، فمرنا بما أحببت، فأمرهم بالمسير فساروا حتى إذا كانوا من

اليمامة على ثلاث ليال، قال رياح بن مرة لحسّان أبيت اللعن: إنّ لي أُختاً متزوجة في جديس، تبصر الراكب على مسيرة ثلاث مراحل، وأنا أخاف أن تنذر قومها بك، فمر قومك أن يقتلع كل إنسان منهم شجرة من الأرض ويضعها أمامه على السرج، فأمرهم حسّان بذلك ففعلوا ثم ساروا حتى إذا كانوا على ثلاث ليال من جو.

قالت رياح ـ واسمها زرقاء اليمامة ـ: ياجديس لقد سارت إليكم الشجر، قالوا: وما ذاك؟ قالت: إنّي أرى شجراً ومن ورائه بشراً، وإنّي لأرى رجلاً من وراء شجرة ينهش كتفه، وآخر يخصف نعله، فكذّبوها وغفلوا عن أخذ هبة الحرب فقالت:

خذوا حذركم يا قوم ينفعكم ... فليس ما قد أرى سهلاً فيحتقر

إنّي أرى شجراً من فوقه بشر ... فكيف يجتمع الأشجار والبشر

صفوا الطوائف منكم قبل داهية ... من الأمور التي تخشى وتنتظر

إنّي أرى رجلاً في كفه كتف ... ويخصف النعل خصفاً ليس يعتذر

ثوروا بأجمعكم في وجه أولهم ... فإن ذلك منكم فاعلموا ظفر

وغوروا كل ماء دون منزله ... فليس من دونه نحس ولا ضرر

أو عاجلوا القوم عند الليل إن رقدوا ... ولا تخافوا لهم حربا وإن كثروا

فلم يفعلوا واستبعدوا ذلك، فلمّا كان حسّان من اليمامة على مسيرة ليلة، عبّى جيشه ثم صبّحهم فاستباح اليمامة قتلاً وسبياً، وهرب الأسود بن غفار حتى نزل بطيئ، فأجاروه من كل من يطلبه وهم لا يعرفونه، وقبيلته في طيئ معروفة مذكورة. ثم أنّ حسّان لمّا فرغ من جديس أمر بزرقاء اليمامة فنزعت عيناها فإذا فيها عروق سود، فسألها عن ذلك؟ فقالت له: كنت أكتحل بحجر أسود، يقال له الإثمد وبسببه قوي بصري، فصلبت على باب جو، وقال: سمّوا جو باليمامة فسمّيت اليمامة من ذلك الوقت. وفي ذلك يقول رياح بن مرة الطسمي: لمّا أخذ بثأره:

غدر الحي من جديس بطسم ... آل طسم بما تدان تدين

قد أتيناهم فيوم بيوم ... تركوا فيه مثل ما تركو بي

ليت طسماً على منازل منها ... تعلم أنّي قضيت عنها ديوني

وانقرضت طسم وجديس كعاد وثمود **﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾**[1] وهم قوم عاد بن عوض بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام. وتقدّمت أخبارهم في فصل هود وصالح، وقد أخبر الله تعالى عن شدّتهم وبطشهم وما بنوه من الأبنية المشيّدة التي تدعى على مر الدهور بالعادية، وكان عاد رجلاً جبّاراً عظيماً جسيماً تزوّج ألف إمرأة، ورأى من

(١) سورة الحاقة: ٥ و٦.

صلبه أربعة آلاف ولد، وكان يعبد القمر، وكانت بلاده متصلة باليمن، وهي بلاد الأحقاف إلى بلاد سنجار إلى بلاد عمان إلى بلاد حضرموت، وذكر جماعة من الإخباريين ممن عنى بأخبار العرب أنّ عاداً لمّا توسّط العمر، اجتمع إليه الولد وولد الولد ورأى العاشر من ولده، ثم عمّر ما شاء الله تعالى بعد ذلك من زمانه في إحسانه لرعيته، فلمّا بلغ عمره ألف سنة ومائتي سنة مات.

ثم كان الملك من بعده في الأكبر من ولده وهو شدّاد بن عاد الذي ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى بحر عمان، وكان ملكه تسعمائة سنة، وهو الذي بني أرم ذات العماد المذكور في سورة الفجر، ذكر أنّه بناها بعد أن جمع لها الفعلة من كل موضع، وتأنّق في بنيانها على ما يذكر لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل الأنهار في أزقّتها تجري في قنوات الفضّة، وأتمّ بنائها في ثلاثمائة سنة، وغرس فيها أنواع الثمار، فلمّا جاء الخبر بتمام بنائها تجهّز للمسير نحوها برجاله ومن يختص به، ونظر فيما يحتاج لسكناها، فتم جهازه في عشرة أعوام لاستعداده لذلك، فلمّا صار على فرسخ منها أرسل الله تعالى عليه وعلى من معه صيحة أهلكتهم، حتى ما بقي منهم أحد ولا عين تطرف، فهي خالية إلى الآن وربّما وقع عليها بعض من يتيه في تلك الأرض فيدخلها، ولقد ذكر أنّه ضلّت - لرجل في زمن عمر بن الخطاب يعرف بفلان بن فلان - إبل فخرج في طلبها حتى وقع عليها، فدخلها ومشى فيها فذكر من عجائبها عجباً، وأنّ بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب، فلمّا وصل الخبر إلى عمر سأل كعب الأحبار بن مانع، هل سمع في الكتب المتقدمة بذكر مدينة بنيت على وصف ما وصفه ذلك الرجل الذي دخلها؟ فقال: نعم، ووصف له قصّتها، فقال: ويدخلها رجل في أيامك أو قد دخلها وهي أرم ذات العماد التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز.

وللعرب وقائع عظيمة وأعظمها يوم مرج حليمة بين غسّان ولخم، بلغ كل فريق عدد لا يحصى، وعظم الغبار حتى احتجبت الشمس، وكادت النجوم ترى في خلاف جهة الغبار.

ثم أوارة - اسم جبل - وهو أنّه كان بين المنذر بن أمرؤ القيس - ملك الحيرة - وبين بكر بن وائل حرب، فظفر المنذر ببكر، وحلف أنّه لا يزال يذبح فيهم حتى يسيل دمهم من رأس أوارة إلى حضيضه فبقي يذبح والدم يجمد، فسكب عليه الماء حتى برت يمينه.

ثمّ يوم ذي‌قار وكان في سنة أربعين من مولد النبيّ المختار، وقيل: عام وقعة بدر، وسببه أنّ كسرى أبرويز لمّا غضب على النعمان بن المنذر وقتله، كان سلاحه مودعاً عند هانئ بن مسعود البكري فطلبه أبرويز، فقال: لا أؤدّي أمانتي. فبعث إليه الهرمزان في ألفين من الأعاجم وألف من بهرام، فجمع لهم بكر بن وائل والتقوا بذي قار، فجرت وقعة عظيمة كسرت فيها الأعاجم وانهزموا. وأكثرت الأشعار العرب في هذا اليوم. وجد بكر بن وائل ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان.

وللعرب رجال مشهورة ووقائع مذكورة فمن مشاهيرهم: كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير

ابن جشم من ولد ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان، وكان اسمه وائل وهو الذي يقال في المثل: فلان أعز من كليب وائل وبلغ من عزّه في قومه أنّه كان لا توقد نار مع ناره، ولا يورد أحد إبلاً مع إبله، ولا ترعى إبل غريبة في حماه، وكان له حما مسافة يوم في يوم مما يلي في الأرض غسّان من تهامة يسميه المعمر، فاجتمعت عليه معد كلّها وملّكوه على أنفسهم فبغى عليهم، ودخل يوماً في حماه يمشي فوجد قنبرة قد باضت في الحمى فقال يخاطبها:

يــالك مــن قــنبرة فــي معمرِ خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونــقري ان شــئت أن تــنقري قد غفل الصياد عنك فـابشري

فنزل شخص من جرهم على خالة جساس واسمها البسوس بنت منقذ بن سليمان المنقذي، وأرسل ناقة له اسمها السراب ترعى فدخلت حي كليب، فوطأت عش القنبرة فكسرت بيضها، فلمّا علم كليب أنّ الناقة صنعت ذلك رماها بالنشّاب فخرم ضرعها، فوضعت البسوس يدها على رأسها وصاحت وا ذلاه! بسبب نزيلها الجرهمي فانتصر جساس بن الحارث بن عباد لخالته البسوس، وكان جساس يسمى حامي الجار، مانع الديار، فركب فرسه وأخذ رمحه بيده، وركب معه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرس له ومعه معبله[1]، ومضيا حتى دخلا على كليب في حماه وهو منفرد، فطعنه جساس فقصم صلبه، ثم طعنه عمرو بن الحارث فوقع كليب يفحص برجليه، ثم قال لجساس: أغثني بشربة ماء. فقال له: قد تجاوزت الأحص وماءه، وفي ذلك يقول عمرو بن الأهتم:

وان كــليب كــان يـظلم قـومه فأدركــــه مــــثل الذي تـــرياني
فلمّا حشاه الرمح كف ابن عمه تــــذكر ظـــلم الأهــل أي أوانِ
وقـال لجسـاس اغـثني بشـربة وإلّا فـــخبر مــن رأيت مكـانِ
فقال تجاوزت الأحـص ومـاءه ومـاء شـبيب وهـو غـير دفـان

وفي ذلك يقول النابغة الجعدي:

أبـلغ عـقالا ان خـطة داحس لتكفيك فاستأخر لهـا أو تـقدم
كليب لعمري كان أكـثر نـاصر وأيسر ذنباً مـنك ضـرج بـالدم
رمى ضرع ناب فاستمر بـطعنة كحاشية الثوب اليماني المسهم
وقـال لجسـاس أغـثني بشـربة تــدارك بــها منّا عـليّ وأنـعم
فقال تجاوزت الأحـص ومـاءه ببطن شبيب وهو غـير مـتوسم

وكان جساس بن أُخت كليب، وكان بين مهلهل أخو كليب وبين همام أخو جساس من الأخوة

(١) في المخطوطة (معتله)، والصحيح ما أثبتناه. ومعبلة: وهو نصل عريض طويل.

والوداد والمحبة ما شاء الله، وكان لا يكتم أحدهما على صاحبه خبراً كائناً ما كان، خيراً كان أو شراً، فلمّا قتل جساس كليباً كان ذلك اليوم همام عند مهلهل في شرب، فأرسلت بكر إلى همام رسولاً يخبره بخبر كليب وجساس مخافة عليه من مهلهل، فلمّا أتاه الرسول ساره بذلك، فتغيّر وجه همام، فقال له مهلهل: فيما ذا جاء الرسول؟ قال: أخبرني أنّ أخي جساس قتل أخاك كليباً، فظنها مهلهل كذباً، فقال: أست جساس أضيق من ذلك، فقام همام: ولحق بقومه مخافة على نفسه.

فلمّا تحقق مهلهل الخبر شمّر لحرب بكر بن وائل، وجمع قبائل تغلب وترك النساء وانعزل عنهنّ، وحرم على نفسه الثمار والقمار والخمر، وأرسل رجالاً من تغلب إلى بكر يعتذر إليهم فيما وقع، ويعرض عليهم أربع خصال، فأتت رسله الحارث بن عباد أبا جساس وهو في جماعة من قومه، فقالوا لهم: أنّكم أتيتم عظيماً في قتلكم كليباً لأجل ناقة من الإبل، وقطعتم بيننا وبينكم الرحم، وإنّا كرهنا العجلة عليكم دون الاعتذار إليكم، ونريد نعرض عليكم أربع خصال فيها مخرج لكم ومقنع لنا، فقال الحرث: وما هي؟

قالوا: تحيي لنا كليباً أو تدفع لنا جساساً نقتله به، أو هماماً أخاه فإنّه كفؤ له، أو تمكنّا من نفسك فإن فيك وفاء دمه، فقال: أمّا إحياء كليب فلا سبيل إليه، وأمّا جساس فإنّه غلام طعن طعنة على عجل، ثم ركب فرسه ومضى فلا أدري أي بلاد احتوت عليه، وأمّا همام فإنّه أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وخال عشرة، كلّهم فرسان لقومهم، فلن يسلّموه إليّ فأدفعه إليكم - يقتل بجريرة غيره -، وأما أنا فما هو إلّا أن تجول الخيل غداً جولة فأكون أوّل قتيل بينهم، فما أتعجل من الموت. وليكن عندي خصلتان، أمّا أحدهما: فهؤلاء بني الباقون علقوا في عنق من شئتم منهم جبلاً فانطلقوا به إلى رجالكم، فاذبحوه ذبح الخروف، وإلّا فألف ناقة سود المقل، أقيم لكم بها كفيلاً من بكر بن وائل، فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت القول، تبذلنا صغار ولدك، نأخذه وتسومنا اللبن بدم كليب. ووقعت الحرب بين بكر وتغلب، واعتزلها الحارث بن عباد أوّلاً وأنشأ مهلهل يرثي أخاه ويقول:

كليب لا خير في الدنيا وما فيها ... إذا أنت خلّيتها فيمن يخليها
نعى النعاة كليباً لي فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنايعه ... ماكل آلائه يا قوم أحصيها
القائد الخيل تردى في أعنتها ... رهواً إذا الخيل لجت في تعاديها
يضر هزون من الخطي مدمجة ... كمتاً أنابيبها شهباً حواليها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقت الأرض فانهالت بمن فيها

قال أيضاً يرثي كليباً من قصيدة طويلة:

بـات ليلي بـالأنعمين طـويلاً أرقب النـجم سـاهراً لا يـزولا
كـيف أهـدأ ولا يـزال قـتيلا مـن بـني وائـل يـنسي قـتيلا

ولم يزل مهلهل يطلب بثأر أخيه كليب، ولا يبالي بمن يقتل من بكر حتى قتل بحير بن الحارث ابن عباد، وقال: هذا بشسع نعل كليب، وقيل: أنّ الحارث قال لولده بحير: اذهب يا بني إلى خالك مهلهل ليقتلك بكليب واحقن الدماء بيننا، فلمّا ذهب إليه قتله، وقال: هذا بشسـع نـعل كـليب، فعوتب على ذلك وأنشد:

أليـلتنا بـذي حسـم أنـيري إذا أنت انقضيت فـلا تـحوري
فـإن يك بـالذنائب طـال ليلي فـقد أبكـي مـن الليـل القـصير
فـلو نـبش المـقابر عـن كـليب فـلا خـير بـالذنائب أي زيـرِ
هـتكت بـيوت بـني عُـباد وبعض الغَشْم أشـفى لـلصدور
على أنْ ليس عدلا من كـليب ولو بـرزت مـخبأة الخـدور
ولولا الريح أُسمع أهـل نـجد صـليل البـيض تـقرع بـالذكور

ولمّا بلغ الحرث قتل ولده بحيرة، قال: نعم القتيل، قتيل أصلح بين بني وائل، وظنّ أنّ مهلهلاً قد أدرك بثأر أخيه كليب وجعله كفوْاً له، فقيل له: إنّما قتله بشسع نعل كليب، فغضب الحارث عند ذلك وتولّى حرب تغلب بنفسه من ذلك الوقت، وكان يقال له: فارس النعامة ـ والنعامة اسم فرسه ـ وأنشأ يقول:

كـل شـيء مـصيره للـزوال غـير ربـي وصـالح الأعـمال
قـل لام البـحير تـبكي بـحيرا قـبح الله خـاله مـن خـال
قـل لام الاعـدام تـبكي بـحيرا حـيل بـين الرجـال والامـال
لم أكـن من جـناتها عـلم الله وإنـي لبـحرها اليـوم صـال
قـربا مـربط النـعامة مـني ثـم ادنـوا حـبالها من حـبال
قـربا مـربط النـعامة مـني قـرباها وقـربا سـربالي
قـرّبا مـربط النـعامة مـني لقـحت حـرب وائـل لحـيال
وقـربا مـربط النـعامة مـني ان بـيع الكـريم بـالشسع غـال

وهي قصيدة طويلة نحو مائة بيت كور فيها قربا مربط النعامة منّي في خمسين بيتاً، وكان أوّل يوم شهده الحرث بنفسه من تلك الأيّام، يوم قضة وهو يوم محلاق اللمم وفيه يقول طرفة العبدي:

سـائلوا عـنا الذي يـعرفنا بـقوانـا يـوم مـحلاق اللـمم
يوم تبدوا البيض عـن أسوُقها وتـلحق الخـيل اعـاريج الـنعم

وإنّما سمّي يوم محلاق اللمم؛ لأنّ الحارث بن عباد، ويقال له: مرة، لمّا قتل ابنه بحير اجتمعت إليه بكر بن وائل، وكان فارسهم المطاع وأشجعهم، فقال لهم: احملوا معكم نسائكم وليكنّ من ورائكم، فإذا وجدن جريحاً منّا سقينه وأطعمنه، وإذا وجدن جريحاً منهم قتلنه، فقالوا: ومن أين يتميز لهنّ بكر من تغلب؟ فقال لهم: احلقوا رؤسكم لتمتازوا بذلك، فحلقت بكر رؤسها بأجمعها إلّا جحدر بن ضبيعة[1] ـ وكان من فرسانهم ـ، فقال لهم: اتركوا لمتي وأقتل لكم أوّل فارس يقدمهم، فقتل ذلك اليوم فارسين طعن أحدهما بسنان رمحه، والآخر بعقبه وهما عمرو وعامر التغلبيان، وكانا في أوّل القوم، ثم أنّه صرع بعد ذلك، فلمّا رأينه نساء بكر ولم يكن حلق، ظنّوه من تغلب فأجهزن عليه، وانكشفت في ذلك اليوم تغلب، وهو أوّل يوم ظهرت فيه بكر على تغلب، وكان الظهور في جميع أيامهم لتغلب على بكر، حتى ظنوا أنّه الفناء، وكان لهم من الأيام قبل ذلك يوم النهر، ويوم الذنائب، وهو أكبر أيامهم، ويوم واردات، وفيه قتل همام بن الحارث أخو جساس، فمرّ به مهلهل فرآه مقتولاً، فقال: والله ما قتل بعد كليب رجل أعزّ عليّ فقداً منك، وكان همام ربّاه صغيراً، ولمّا تولّى الحارث بنفسه وولّى الهزائم على تغلب، أسر في بعض الأيام مهلهلاً ـ وهو لا يعرفه من السلاح ـ فقال له الحرث: دلّني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك؟ قال: نعم، قال اتا مهلهل بن ربيعة فجزّ الحرث ناصيته وتركه، وهكذا كانت العرب تفعل وتفتخر بذلك، فيقول الرجل منهم جززت من نواصي الفرسان كذا وكذا، وفي أسره يقول الحرث:

لهف نفسي على عدي ولم أعرف عديّاً إذ أمكنتني اليدان

وعدي وهو مهلهل وإنّما سمّي مهلهلاً؛ لأنّه أوّل من هلهل الشعر، أي رقّقه وهو خال أمرؤ القيس الشاعر وخال جساس وهمام، وكان جساس بن عم كليب وأُخته بنت الحرث تحت كليب، وأم جساس أُخت كليب، وكان الحارث قد آل على نفسه أن لا يصالح تغلباً حتى تكلّمه الأرض، فلمّا كثرت وقائعه في تغلب ورأت تغلب أنّها لا تقوم له، حفروا سريا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلاً وقالوا له: إذا مرّ بك الحارث فغنّ بهذا البيت:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنايتك بعض الشر أهون من بعض

فلمّا أتى الحرث ذلك الموضع، اندفع الرجل ينشد هذا البيت، فقيل لحارث وكنيته أبو المنذر قد بر قسمك فابق بقيّة قومك، ففعل وأصطلحت بكر وتغلب بعد أن دامت الحرب بينهم أربعين سنة، وقتل جساس وهمام وغيرهما ففر مهلهل بنفسه فنزل بمدحج على قوم يقال لهم: جنب، فأجاروه من بكر بن وائل وكان الذي أجاره منهم اسمه معاوية الخير الأرقم، وتزوّج ابنة مهلهل بعد

---

(١) في المخطوط (جحد بن ضعة)، وما اثبتناه من المصدر.

أن أبى ذلك، فأكرهوه وساقوا له في المهر قبّة من أدم وفي ذلك يقول مهلهل:

يعز على تغلب بما لقيت ... أُخت بني الأكرمين من جشم

أنكحها فقدها الأرقم في ... جنب وكان الحباء من أدم

لو بأبانين جاء يخطبها ... ضرج من أنف خاطب بدم

وقيل: مهلهل في مكان لم يطلع عليه أحد كما قال ابن عبدون:

وأنفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر

وذلك أنّه اشترى عبدين فغزا بهما حتى طال عليهم الغزو وأحبّا الراحة منه، فأجمعا على قتله بموضع قفر، فلمّا شعر بهما ولم ير لنفسه منجاً، قال لهما: أما إذا عوّلتما على قتلي فابلغا عنّي هذه الرسالة، فقالا له: هات رسالتك، فقال: إذا وصلتما إلى أهلي فاقرؤهم السلام وقولا لهم:

من مبلغا عني بأن مهلهلاً ... لله دركما ودر ابيكما

فلمّا قتلا وانصرفا نحو أهله، قالوا لهما: ما فعل الله بسيدكما؟ قالا مات بأرض كذا وكذا فدفناه بها، فقيل لهما: ما أوصى بشيء حين مات؟ قالا أوصانا بكيت وكيت، وأنشدا البيت فلم يدر أحد ما أراد، فقالت ابنته: ما كان والله أبي روى الشعر ولا سفساف الكلام، وإنّما أراد أن يخبركم أنّ العبدين قتلاه وإنّما معنى هذا البيت:

من مبلغ عني بأن مهلهلاً ... اضحى قتيلا في الفلاة مجدلا

لله دركما ودر ابيكما ... لا يبرح العبدان حتى يقتلا(١)

فقتل العبدان بعد أن أقرّا بقتله، فكانا هما وسيدهما كما قال الشاعر:

ولو علموا ما يعقب البغي قصروا ... ولكنهم لم ينظروا في العواقب

ومن رجال العرب ووقائعهم زهير بن جذيمة العبسي، كان عظيماً متجبراً فقتله خالد بن كلاب، فقام ابنه الملك قيس لأخذ ثأر أبيه، فنزل بالحجاز واشترى حصاناً اسمه داحس، وفرساً يقال لها: الغبراء، ونزل على حذيفة بن بدر الفزاري، وكان له فرسان، يقال لهما: الخطار والحنفاء، فقصد حذيفة أن يسابق مع فرسي قيس بن زهير فامتنع قيس، فأبى حذيفة إلّا المسابقة، فأحضرت الأربعة بموضع يقال له: ذات الأجناد، وكان المضمار أربعين يوماً، والرهن مائة بعير، والميدان مائة غلوة، والغلوة أبعد رمية بسهم، وأرسلوا الأربعة من رأس الميدان، فسبق داحس سبقاً بيّناً، وكان حذيفة قد أكمن من يعترض داحساً إن هو سبق، فاعترضوه وضربوه على وجهه فتأخر فقال قيس:

بما لاقيت من حمل بن بدر ... وأخوته على ذات الأصاد

هم فخروا علي بغير فخر ... وردوا دون غايته جوادي

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: ٤/٢٠٢.

وسبقت أيضاً الغبراء، فأنكر حذيفة ذلك كلّه وادعى السبق، وبعث ابنه مالكاً إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق، فأخذه قيس فقتله وعلّق يده في عنان فرسه، فرجعت الفرس غائرة واليد معلقة في العنان، فاجتمع الناس وحملوا ديّته مائة ناقة عشراء، وزعموا أنّ الربيع بن زياد العبسي تحمّلها في ماله وأعطاها لأهله، ثم أنّ حذيفة بعد أن أخذ ديّة ابنه، أخبر أنّ مالك بن زهيراً خافياً نازلاً بمكان يعرف بالسرية، فمشى إليه حذيفة فقتله وكان من أنجاد الرجال، وفيه قال عنتر بن شدّاد العبسي:

فلله عيناً من رأى مثل مالك | عقيرة قوم إذ جرى فرسان
فليتهما لم يرسلا قيد غلوة | وليتهما لم يركضا لرهان

وكان مالك بن زهير زوج أخت حذيفة بن بدر، وهي أم فرقة التي يضرب بها المثل لمنعها، فيقال: أمنع من أم فرقة، لأنّها كانت تعلق في بيتها سبعين سيفاً لذوي محارمها، فلمّا قتلت بنو ذبيان قوم حذيفة مالك بن زهير، قال لهم أخوة قيس بن زهير: ردّوا علينا مالنا إذ قتلتم مالكاً بمالك، فأبى حذيفة أن يرد عليهم شيئاً وقال:

ليس بيني وبين قيس عتاب | غير طعن الكلى وضرب الرقاب

وكان الربيع بن زياد العبسي نازلاً في بني ذبيان، فقال لهم: بئسما فعلتم إذ قبلتم الديّة ثم غدرتم، فقالوا له: لولا أنّك جار لنا لقتلناك، أخرج عنا، فخرج عنهم ابن ذبيان، فتناهضت ذبيان وعبس للحرب، وعلى بني ذبيان حذيفة بن بدر، وعلى بني عبس الربيع بن زياد، وكان بينه وبين قيس بن زهير، عداوة على درع كان غصبها منه الربيع بن زياد، فلمّا أخافته ذبيان اصطلح مع قيس، وقال له ولقومه فإن قلت:

حربكم أمست عواناً | فإني لم أكن ممن جناها
ولكن ولد سؤدة أرثوها | وحشوا نارها لمن اصطلاها
فإني غير خاذلكم ولكن | ساسعى الآن إذ بلغت مداها

وولد سؤدة هم بنو بدر بن فزارة بن زيد، فالتقوا بمكان يسمى المريقب، وجرت وقعة عظيمة وفي ذلك يقول عنتر العبسي:

يا دار عبلة بالجواء فكلمي | وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

ثم اجتمعت ذبيان وأجلافها، فالتقوا بذي حُسَا بوادي الصفا من أرض الشربة، فهربت بنو عبس وخافت أن لا تقوم بجمعهم، فأتبعهم حتى لحقوهم، فقال لهم: التفاني. غدرتم بنا من قبل المريقب، فأشار قيس بن زهير على الربيع بن زياد أن لا يناجزهم، وأن يعطوهم رهائن حتى ينظروا في أمرهم، ففعلوا أن تكون رهائنهم عند سبيع بن عمرو، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان. فدفعت

إليه عبس ثمانية من صبيانهم وانصرفوا، وكان رأي الربيع بن زياد مناجزتهم، وفي ذلك يقول الربيع:

أقـول ولم أمـلك لعـبس نـصيحة   أرى مـا نـرى والله بـالغيب أعـلم

أتبقي على ذبيان فـي قـتل مـالك   فقد حشَّ جاني الحرب ان تتضرم

فمكثت رهائنهم عند سبيع بن عمرو حتى أدركته الوفاة فقال لابنه مالك: يا بـني إنّ عـندك مكرمة لا تبيد، إن أنت أحتفظت بها وهم هؤلاء الغلمة، فكأنّي بك إذا أنا متّ أتاك خالك حذيفة وعصر لك عينيه، وقال: هلك سيدنا، ثم يخدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تسلّمهم إياه أبداً، إن خفت ذلك فاذهب بهم إلى قومهم.

فلمّا مات سبيع أطاف حذيفة بابنه مالك فاختدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم موضعاً يقال له اليعمرية، فجعل يبرز كل يوم غلاماً منهم فينصبه غرضاً للسهام، ويقول له: نادِ أباك فينادي أبـاه حتى يموت.

فلمّا علم قيس بن زهير بذلك صاح في قومه فجاؤا حتى أشرفوا على حذيفة، فلم تزل الحرب تستعر بينهم والدماء يكثر إلى أن التقوا إلى جانب نهر يقال له: جفر الهباءة، فاقتتلوا من بكرة إلى انتصاف النهار، وكثر بينهم الحرب فهرب حذيفة بن بدر وقومه، فعاد قيس بن زهير وقـومه فـي أثرهم حتى أدركوهم وهم في النهر، وقيس يقول لبيكم لبيكم ـ إجابة للصبية الذين كانوا يقتلونهم وهم ينادون آبائهم ـ وكان في النهر حذيفة بن بدر، وأخوه حمل بن بدر، ومالك أخوهما، وورقاء بن هلال، وحنش بن وهب، فوقف عليهم عنتر العبسي، فحال بينهم وبين خيلهم، ثم تواترت فرسان عبس، فقال حمل بن بدر: ناشدتك الله والرحم يا قيس، فقال قيس: لبيكم لبيكم فعرف حذيفة أنّه لن يدعهم فانتهر أخاه حملاً، وقال له: عليك بالمأثور من الكلام، ثم قال لقيس بن زهير: والله لئن قتلتني لا تصطلح غطفان بعدي، فقال: أفسدها الله ولا أصلحها الله، وجاءه قرواش بمعبلة[1] فضربه ضربة فقصم صلبه، وأبتدره الحارث بن زهير وعمرو بن الأصلع فاجهزا عليه. وقتل الربيع بن زياد حمل بن بدر، فقال قيس بن زهير يرثيه ويقول:

سـيعلم أن خـير النّـاس مـيت   عـلى جـفر الهـباءة لا يـريم

ولولا ظـلمة مـا زلت أبكـي   عـليه الدهـر مـا طلع النـجوم

ولكـن الفـتى حـمل بـن بـدر   بـغى والبـغي مـرتعة وخـيم

أظـن الحـلم دل عـلى قـومي   وقد يـستجهل الرجـل الحـليم

ومـارست الرجـال ومـارسوني   فـمعوج عـلي ومسـتقيم[2]

---

(١) معبلة: وهو نصل عريض طويل.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦٥.

ثم قال في بني بدر:

فإن أكُ قد شفيت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلّا بناني[١]

وهذا معنى قول ابن عبدون:

ودوخت آل ذبيان وإخوتهم عبساً وعضت بني بدر على النهر[٢]

وذبيان وعبس كانا أخوين ابنا بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومثّلت بنو عبس بحذيفة بن بدر كما مثّل هو بالصبيان فقطعوا ذكره وجعلوه في فمه، وقطعوا لسانه وجعلوه في أسّته وفي ذلك يقول قائلهم:

فان قتيلاً بالهباءة في استه صحيفة إن عاد للظلم ظالم

متى تقرأوها تهدكم من ضلالة وتعرف إذا ما فض عنه الخواتم[٣]

وكانت الحرب قد ركدت بينهم أربعين عاماً لم تنتج ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب، وفي تلك الحروب ظهرت شجاعة عنتر بن شداد العبسي وأنشد:

دع ذكر عبلة في الزمان الأوّل وإذا نزلت بدار ذل فارحل

وإذا بليت بظالم كن ظالما وإذا لقيت ذوي الجهالة فاجهل

فلمّا أُصيب أهل الهباءة استعظمت بنو غطفان قتل حذيفة بن بدر، فاجتمعوا إلى ابنه حصن وابن حصن هذا هو عيينة بن حصن من المؤلّفة قلوبهم الذين أعطاهم النبيّ وفضّلهم على غيرهم ليتآلفهم بذلك، وهو الذي يسمى الأحمق المطاع فعرفت بنو عبس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان، فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا بأخوالهم من بني حنيفة.

ثم انتقلوا إلى بني سعد قبيلة حليمة السعدية، فأرادو الغدر بهم، فلمّا علمت بذلك بنو عبس قدموا ظعنهم ووقفت فرسانهم بموضع يقال له: الفروق، وأبلى فيه عنتر بلاء اشتهر له بعد ذلك، وكان قد اجتمع عليهم في ذلك اليوم جمع كثير، فقيل له كم كنتم يوم الفاروق؟ فقال: مائة لم يقلّوا فيضعفوا ولم يكثروا فتكون لهم النصرة[٤].

ثم لم يزالوا كذلك إلى أن صلح بينهم عوف بن عمر ومعقل بن سميع، وفيها يقول زهير بن أبي سلمى:

---

(١) الاصابة في معرفة الاصابة: ٤٩٣/٢.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب: ٩٣/٢.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٨٧/٤.

(٤) العقد الفريد: ٢٩/١.

تــداركــتما عــبسا وذبــيان بــعدما تــفانوا ودقــوا بــينهم عــطر مــنشم

وساح قيس بن زهير في الأرض وتنصّر وترهّب، وبقي ولده فضالة حتى أدرك رسول الله ﷺ، وقدم عليه وعقد له الولاية على قومه.

فصل
في الأمم من العرب والعجم

أمم العرب في الجاهلية أصناف: صنف أنكر الخالق، وقال: بالطبع المحيي والدهر المفني، وصنف اعترف بالخالق وأنكر البعث، وصنف عبد الأصنام، وقالوا: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾**(١).

فكانت ود لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمدحج، ونسر لذي الكلاع بحمير، ويعوق لهمدان، واللاّت لثقيف بالطائف، والعزّى بمكة لقريش وبني كنانة، ومِناة للأوس والخزرج بيثرب، وهبل أعظم أصنامهم لخزاعة كان على الكعبة، وإساف ونائلة على الصفا والمروة(٢).

وقيل: أنّ هذه الأصنام كان بعضها أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلمّا ماتوا صوروا صورهم بتركابهم، فلمّا طال الزمان عبدوهم من دون الله، وانتقلت إلى العرب وكان من العرب من يميل إلى الصابئة، ومنهم من يميل إلى اليهودية، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجن، وكانوا يعتقدون في الأنواء اعتقاد المنجمين، وكانت علومهم الأنساب، والتواريخ، والأنواء، وتعبير الرؤيا، وكانوا على أشياء توافق شريعة الإسلام لا ينكحون الأُمهات ولا البنات ولا يجمعون بين الأُختين ويعيبون الزواج بامرأة الأب ويسمّونه الضيزن، ويحجون البيت الحرام على هيئة الإسلام، ويغتسلون من الجنابة، ويواظبون على المضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء، وحلق العانة ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والختان، ويقطعون يد السارق اليمنى، ويفرقون رؤسهم، يكتبسون في كل ثلاثة أعوام شهراً.

وأمّا أُمّة السريان والصابئة، فهم أقدم الأُمم، كان كلام آدم وبنيه بالسرياني، يقال: أنّ الصابئة أخذوا دينهم عن شيث وإدريس، ولهم كتاب يسمّونه صحف شيث، يذكر فيه محاسن الأخلاق، مثل: الصدق والكرم والشجاعة والتعصب للغريب وأشباه ذلك، ويأمر بها ويذكر فيه الرذائل وينهى عنها، ولهم سبع صلوات، خمس كخمس المسلمين، والضحى، والسابعة عند تمام ست ساعات

---

(١) سورة الزمر: ٣.

(٢) المختصر في أخبار البشر: ٦٣/١.

من الليل، ويشترطون النية ولا يخلطون صلاة بغيرها، ويصلّون على الجنازة من غير ركوع ولا سجود، ويصومون شهراً هلالياً عند حلول الشمس الحمل، يصومون من ربع الليل الأخير إلى غروب الشمس، معظّمون مكة شرّفها الله تعالى وأهرام مصر، ويحجّون مكاناً بظاهر حران[١].

وأعيادهم خمسة: عند نزول زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، بيوت شرفها الله. وأعظم أعيادهم يوم نزول الشمس الحمل، ونبستهم إلى صابي ابن إدرس، المدفون بالهرم الثالث من أهرام مصر.

قال ابن حزم: والدين الذي انتحله الصابئة أقدم الأديان، والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث، فبعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالدين الذي نحن عليه الآن.

قال الشهرستاني: والصابئة تفضّل الروحانيين يعني الملائكة ضد الحنفية ملّة إبراهيم في تفضيل الجسمانيين يعني البشر والله أعلم.

وأمّا أمّة القبط، فهم من ولد حام بن نوح عليه السلام، سكناهم ديار مصر، كانوا صابئة فعبدوا الهياكل والأصنام، وكانت منهم العجوز دلوكة من بنات ملوك القبط، ملكت عليهم بعد فرعون موسى عليه السلام وانتهى إليها علم السحر، وطال عمرها[٢].

وكان منهم علم الطلسمات والنيرنجيات والمرائي المخرقة للعقول والكيمياء[٣].

وأمّا أمّة الفرس، فهم ولد فارس بن أرم بن سام بن نوح، وهم ملّة قديمة يقال لعلمائها: الكيومرتية، أثبتوا لها قديماً وسمّوه يزدان، يعنون به الله، وإلهاً مخلوقاً من الظلمة وسمّوه: أهرمن، يعنون به إبليس، يعظّمون النور حتى عبدوا النار، ويحترزون من الظلمة ولا برحوا كذلك حتى ظهر زرادشت الذي ادعى النبوّة في المجوس، فقالوا: بالباري تعالى وأنّه خالق النور والظلمة، وأنّه واحد لا شريك له، وأنّ الخير والشر والصلاح والفساد إنّما حصل بامتزاج النور بالظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، ولا يزالا ممتزجين إلى أن يتخلص الخير إلى عالمه والشر إلى عالمه. وقبلة زرادشت إلى المشرق، وهذا دين المجوس كما تقدم عند ذكر ملوكهم.

ولهم أعياد، منها: النيروز، وهو خمسة أيام، أوّلها: اليوم الأوّل من كانون، والتيركان، والمهرجان في أوّل الميزان، وهو اليوم الذي قتل فيه أفريدون الضحّاك، وسمّاه المهرجان، والفروردجان، وركوب الكوسج، وذلك أنّه كان يأتي إليهم في أوّل الربيع رجل كوسج، راكب على حمار، قابض على غراب، يتروح بمروحة، يودّع الشتاء وله ضريبة يأخذها، ومتى وجد بعد ذلك ضرب، ولهم

(١) المختصر في أخبار البشر: ٥٢/١.

(٢) المختصر في أخبار البشر: ٣٦/١.

(٣) في تاريخ مختصر الدول، والمختصر من أخبار البشر: والمرائي المحرقة والكيمياء.

السرو ليلة يوقد فيها النار ويشرب حولها، ولهم عيد النيروز وهو أوّل الحمل حدث في أيام ملكهم جمشيد، وكان في نصف الحوت فردّه ملك شاه السلجوقي في دولة بني العباس إلى أوّل الحمل.

وأمّا أُمة اليونان فهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، أو من جملة الروم من ولد صوفر بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ولم يكن لهم ذكر إلّا وقت أميرس الشاعر اليوناني في سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام، وبلادهم الربع الشمالي الغربي، والغربي والشرقي يتوسطهما الخليج القسطنطيني، وكانوا أهل شعر وفصاحة، وفيهم صارت الفلسفة وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم، المنطقية والطبيعية والإلهيّة والرياضية، وكانوا يسمّون العلم الرياضي جومطريا، وهو مشتمل على علم الهيئة والهندسة والحساب واللحون والإيقاع، وكان العالم منهم بهذه العلوم يسمّى فيلسوفاً، ومعناه محب الحكمة، لأنّ فيلو: محب، وسوفا: الحكمة[1].

والعلم الفلسفي ينقسم إلى أربعة أنواع: إحدها الرياضيات، والثاني المنطقيّات، والثالث الطبيعيّات، والرابع الإلهيّات.

فأمّا الرياضيات فأربعة أنواع، أحدها علم الحساب، والثاني علم الهندسة، والأصل فيه النقطة، وهي فيه كالواحد في علم الحساب، والثالث علم النجوم، والرابع علم الموسيقى؛ وهو علم تأليف الألحان.

أمّا العلوم المنطقيّات فخمسة أنواع: الأوّل معرفة صناعة الشعر وأنواع بديعة، والثاني معرفة صناعة الخطابة، والثالث معرفة صناعة الجدول، والرابع صناعة معرفة البرهان، الخامس معرفة المغالطة في المناضرة والجدال.

وأمّا العلوم الطبيعيّات فسبعة أنواع: أحدها علم المبادئ الجسمانية وهي خمسة أشياء: الهيولى، والصورة، والزمان، والمكان، والحركة. والثاني علم السماء والأرض وهي ماهيّة جواهر الأفلاك والكواكب، في كيفيتها وتركيبها وعلّة دورانها، وهل يقبل الكون والفساد كما تقبل الأركان الأربعة التي دون فلك القمر أم لا؟ وما علّة حركات الكواكب واختلافها في السرعه والإبطاء؟ وما علة سكون الأرض في وسط الفلك في المركز؟ وهل خارج العالم جسم آخر أم لا؟ وهل في العالم موضع فارغ لا شيء فيه؟ وما شاكل هذه المباحث. والثالث علم الكون والفساد وهو معرفة جواهر الأركان الأربعة التي هي: النار والهواء والماء والأرض. والرابع علم حدوث الجواهر بتغييرات الهواء، وتأثيرات الكواكب بحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان الأربعة وانفعالاتها بعضها ببعض بقدرة الله تعالى. والخامس علم المعادن التي تنعقد من البخارات المنخنقة في بطن الأرض، والعصارات المتحللة من الهواء. والسادس علم النبات على اختلاف أنواعه وهيئاته وأشكاله

---

(١) المختصر في أخبار البشر: ١/٥٣.

واختلاف صنوفه وطعومه ورائحه وخواصّه ومنافعه ومضارّه. والسابع علم الحيوان وهو معرفة كل جسم يتغذى ويحسّ ويعيش ويتحرك على اختلاف أنواعه، وما شاكل ذلك مما ينسب إلى علم الطبيعيّات، كعلم الطب والبيطرة وسياسة الدواب والسباع والطيور والنسل وعلم الصنائع أجمع داخل في علم الطبيعيّات.

وأمّا العلوم الإلهيّات فخمسة أنواع.

أوّلها: معرفة الباري سبحانه وتعالى بجميع صفاته، وأنّه أوّل كل شيء، وآخركل شيء، والعالم بكل شيء، والخالق لكل شيء، وأنّه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

والثاني: علم الروحانيات من الجواهر البسيطة العقلية، وهي الصورة المجردة من الهيولى المستعملة للأجسام المطهرة، ومعرفة ارتباط بعضها ببعض، وقبض بعضها عن بعض، وهي أفلاك روحانية تحيطة بأفلاك جسمانية.

والثالث: علم النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض السابعة.

والرابع: علم السياسة وهي خمسة أنواع.

أوّلها: السياسة النبوية، والسياسة الملوكية، والسياسة العامية، والسياسة الخاصية، والسياسة الذاتية.

فأمّا السياسة النبوية، فالله سبحانه وتعالى يختص بها من يشاء من عباده ويهدي لاتباعهم من يشاء، ﴿**لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾[١]، ﴿**لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ**﴾[٢].

وأمّا السياسة الملوكية فهي: حفظ الشريعة على الأُمة، وإحياء السنّة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأمّا السياسة العاميّة فهي: الرئاسات على الجماعات، كرئاسات الأمراء على البلدان، وقادة الجيوش، وترتيب أحوالهم على ما يجب وينبغي من رم الأمور وإتقان التدبير.

وأمّا السياسة الخاصة فهي: معرفة كل إنسان أمر نفسه وتدبير أمر أولاده وغلمانه وخاصته، وما يليه من أتباعه وقضاء حقوق الإخوان.

وأمّا السياسة الذاتية فهي: أن يتفقّد الإنسان أفعاله وأقواله وشهواته وأخلاقه، فيزمها بزمام عقله، وغضبه وما شاكل ذلك.

والخامس من العلوم الإلهيات: كعلم المعاد وكيفية انبعاث الأرواح وقيام الأجساد وحشرها

---

(١) سورة الرعد: ٤١.

(٢) سورة الانبياء: ٢٣.

للحساب يوم الدين: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(١)، ومعرفة جزاء المحسنين، وعقاب المسيئين.

وأوّل علماء اليونان: أبيدقليس كان في زمن داود عليه السلام، وفيثاغورس كان في زمن سليمان عليه السلام، يزعم أنّه أخذ الحكمة من معدن النبوّة، وأنّه وصل إلى مقام الملك، وسمع حفيف الفلك. وقال: ما سمعت شيئاً ألذّ من حركة الأفلاك، ولا رأيت أبهى من صورتها.

ومنهم: ثاليس الملطي، وكان في زمن بخت نصر في أيام الفرس الأوّل.

ومنهم: أبقراط الحكيم وكان في سنة مائة وست وتسعين لبخت نصر قبل الهجرة بألف ومائة وبضع وستين سنة، وكان يقول خمس لا تشبع منها خمس، عين من نظر، وانثى من ذكر، وأذن من خبر، وأرض من مطر، وعالم من علم.

ومنهم: سقراط كان قد عرض عن الدنيا وأقام بغار ونهى عن عبادة الأوثان، وكان يقول: خمسة أشياء يهلك الإنسان فيها: نفسه خديعة الأصدقاء، والانقلاب من العلماء، واحتقار الرجل نفسه، واحتمال تكبّر من لا يسوى، واتباع الهوى. فألجأت العامّة ملكهم فحبسه ثم سقاه سمّاً فمات.

فقام مقامه تلميذه أفلاطون صاحب الفراسة، وكان يصوّر له صورة إنسان لم يره قبل ولا عرفه، فيقول صاحب هذه الصورة: من أخلاقه كذا وكذا، ومن همّته كذا. فيقال: أنّه صورة له صورته فلمّا عاينها، قال: هذه صورة رجل يحبّ الزنا، فقيل له أنّها صورتك. فقال: نعم، لولا أنّي أملك نفسي لفعلت فإنّي محبّ فيه.

ومنهم: أرسطوطاليس الحكيم المطلق المشهور، تلميذ أفلاطون، قيل له: أي صديق أوثق؟ وأي صاحب أوفق؟ فقال: الصديق الأمين أوثق، والصاحب القديم الحكيم أوفق، وتدبير العقلاء أفضل.

ومنهم: الإسكندر الملك اليونان اشتغل على أرسطوطاليس خمس سنين، ونال من الفلسفة ما لم ينله غيره من تلامذة أرسطوطاليس، وسئل الإسكندر، لم تكرم معلّمك فوق إكرام أبيك؟ فقال: لأنّ أبي سبب حياتي الفانية، ومعلّمي سبب حياتي الباقية.

ومنهم: أرسطو تلميذ أرسطوطاليس.

ومنهم: الإسكندر الأفردوسي كان بعد أرسطو، وكان من كبار الحكماء.

ومنهم: إقليدس الصوري، صاحب التحرير وكتاب الاستقصات، كان أيضاً بعد أرسطو في أيام البطالسة، وليس هو بمخترع كتاب أقليدس، بل جامعه ومحرره.

وأمّا بطليموس وجالينوس فمتأخران عن زمن اليونان، بطليموس قبل جالينوس بقليل وأدرك بطليموس.

---

(١) سورة المطففين: ٦.

قال بقراط: مثل من آتاه الله الحكمة وهو يعمل بحرصه لجمع المال، كمثل رجل لا يكون في نفسه ذا صحّة وسلامة فيتعبها بالتعب والعناء، لأنّ ثمرة الحكمة الراحة والعلو، وثمرة المال التعب والبلاء.

وأمّا أُمة اليهود بنو إسرائيل وهو: يعقوب ومعناه: صفوة الله هم أصل هذه الأُمّة، وسمّوا يهوداً لقول موسى عليه السلام ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1]، وكتابهم التوراة، وهي أسفار، ذكر سبحانه في السفر الأوّل، مبدأ الخلق ثم الأحكام والحدود والمواعظ والقصص والأذكار، وقيل: ليس في التوراة صفة صلاة معلومة، ولا ذم الدنيا ولا الزهد فيها، ولا ذكر القيامة، ولا دار الآخرة، بل الأمر بالبطالة واللهو، وهو بعيد لأنّ فيها حكم الله، يحكم بها النبيّون، وتكون بهذه الصفة، وأنزل على موسى الألواح أيضاً، وهي ستة أو سبعة أو عشرة من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر أو صخرة صمّاء، وهي مختصر ما في التوراة، فلمّا ألقاها من شدة الغضب حين أخذ برأس أخيه هارون انكسرت، فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء، وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام، واليهود تدعى أنّ الشريعة لا تكون إلّا واحدة، بدأت بموت وختمت به، وإنّما كان قبل موسى كان حدوداً عقلية وأحكاماً مصطلحة، ومنعوا النسخ أصلاً فأكذبهم الله سبحانه بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[2].

وتلزمهم نبوّة موسى بمقتضى التوراة وهم فرق، فمنهم: الربانية، كالمعتزلة في المسلمين، والقراؤون، كالجبرية، والمشبّهة في المسلمين، والعنانية نسبوا إلى عانان بن داود عليه السلام، ومذهب العنانية أنّهم يصدّقون المسيح عليه السلام في مواعظه، ويقولون: إنّه من أنبياء بني إسرائيل المتعبّدين بالتوراة، ولم يدع الرسالة وإنّ الإنجيل ليس كتاباً منزلاً عليه، بل هو مقرر للتوراة، جمعه أربعة من أصحابه، وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا وهو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ومنهم: من يعرف برأس الجالوت وهو لقب الحاكم على اليهود بالعراق، وكان قبل ذلك لقبه هيردوس أو هردوس.

ومنهم: السامرة والكوستانية.

ولهم أعياد وصيام، منها: الفصح وهو الخامس عشر من نيسان عند كثير منهم، وهو أيام الفطر السبعة، لا يأكلون فيها الخمير، وهو يدور من ثاني عشر آذار إلى خامس عشر نيسان. ولهم عيد العنصرة بعد خمسين يوماً من عيد الفطر، وهو يوم حضر فيه مشايخ بني إسرائيل طور سيناء وسمعوا كلام الله عزّ وجلّ. ولهم عيد الحنكة ثمانية أيام. وعيد المظال سبعة أيام.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

والفرض من صيامهم صوم الكبور[١]، وهو: قبل غروب الشمس من تاسع تشرين بنصف ساعة، إلى غروب الشمس من عاشره بنصف ساعة لتمة خمسة وعشرين ساعة، وباقي صيامهم نوافل على هذه الصفة، وافترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقي في الهاوية[٢].

وأمّا أمّة النصارى فلهم في تجسد الكلمة مذاهب، منهم: من قال: أشرقت الكلمة على الجسد إشراق النور على الجسم المشف، وقائل انطبعت فيه انطباع النقش في الشمعة، وقائل تدرع اللاهوت بالناسوت، وقائل مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن بالماء[٣].

واتفقت النصارى على أنّ المسيح قتلته اليهود وصلبته وعاش بعد ذلك، ورآه شمعون الصفا وأوصى إليه، ثم رفعه الله إليه.

وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، أكبرهم ثلاثة: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.

فالملكانية: هم أصحاب ملكا الذي ظهر في بلاد الروم واستولى عليها[٤] يصرّحون بالتثليث، وأنّ المسيح ناسوت كل قديم من قديم، وأنّ القتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت معاً، وأطلقوا الأبوّة والبنوّة على الله تعالى وعلى المسيح، تعالى الله عن ذلك وتقدّس.

والنسطورية: هم أصحاب النسطور، وهم من النصارى بمنزلة المعتزلة من المسلمين، يقولون: بالإشراق لا بالامتزاج، وأنّ القتل والصلب وقعا على مجرد الناسوت دون اللاهوت.

واليعقوبية: هم أصحاب يعقوب البردغاني راهب القسطنطينية، يقولون: إنّ الكلمة انقلبت لحماً فصار الإله هو المسيح.

قال ابن حزم: وهم يقولون: إنّ المسيح هو الله، قتل وصلب وبقي العالم ثلاثة أيام بلا مدبّر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً قال جل وعلا: **﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾**[٥] خصّه الله تعالى بآيات كما خصّهم بها، فإن أحيى الموتى على يده، فقد أحيى العصى على يدي موسى وجعلها حيّة تسعى وهي أعجب، وأنّ خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأُم وهو أغرب.

قال ابن سعيد المعتزلي: البطارقة للنصارى بمنزلة الأئمة أصحاب المذاهب عندنا، والمطران القاضي، والأساقفة المفتيون، والقسّيس المقرئ، والجاثليق إمام الصلاة كالخطيب عندنا،

---

(١) معناه الاستغفار، انظر كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزي: ٢/٢٤٧.

(٢) المختصر في أخبار البشر: ١/٥٧.

(٣) الملل والنحل: ١/٦٨.

(٤) الملل والنحل: ١/٦٩.

(٥) سورة المائدة: ٧٥.

والشمامسة كالقوام والمؤذنون.

وصلواتهم عند الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء، ونصف الليل يقرؤون فيها بالزبور والمنزل على داود تبعاً لليهود في ذلك، وقد يسجدون في الركعة الواحدة خمس سجدات، ولا يتوضؤن للصلاة، ويقولون: إنّ الأصل طهارة القلب.

وصومهم الكثير تسعة وأربعون يوماً، أوّلها الاثنين الأقرب إلى الاجتماع الكائن فيما بين اليوم الثاني من شباط إلى الثامن[1] من آذار، ولهم طريق آخر أشهر من هذا، وهو أوّل اثنين يأتي بعد سادس عشري شهر هلالي، جاء فيه شباط هو ابتداء صومهم وتخصيصهم هذا الزمان؛ لأنهم يعتقدون أنّ يوم الأحد الموفى لخمسين يوماً من صيامهم يوافق اليوم الذي قام فيه المسيح من قبره، ويعتقدون أنّ يوم القيامة يكون في مثله، ومن يوم الأحد الذي قبل هذا الأحد إلى هذا الأحد ثمانية أيام تسمى عندهم الشعانين، أي: المسيح، يقولون: دخل المسيح في ذلك اليوم إلى القدس راكباً أتانه يتبعها جحش، واستقبله الناس وبأيديهم ورق الزيتون، يقرأ بين يديه التوراة والإنجيل، وأنّه اختفى عن اليهود يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وفيه غسل أيدي الحواريين وأرجلهم ومسحها بثيابه، فقالوا: يا روح الله كنّا نحن أحقّ بهذا، فقال: إنّ أحقّ الناس بالخدمة العالم، وإنّما تواضعت لكم هكذا لكي تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم، ثم قال: بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل.

ثمّ أصبح يوم الخميس وصار إلى منزل واحد من أصحابه، ثم خرج ليلة الجمعة إلى الجبل فسعى به يهوذا وهو أكبر تلامذته إلى كبير اليهود، وارتشى منهم بثلاثين درهماً. فألقى الله شبهه على غيره كما قدّمناه في فصله، وصلبوه ثلاث ساعات من يوم الجمعة أو ست ساعات، وتسمّى جمعة الصلوب، ثم دفنه يوسف النجّار ابن عم أُمّه مريم في قبر كان أعده لنفسه.

قالت النصارى: ومكث فيه إلى صبيحة يوم الأحد، فقام منه وهو عيدهم الأكبر ويتلوه العيد الأحد الجديد والسلاقا والفنطي قسطي، وعيد الصليب في أوّل الميزان، والميلاد في ليلة الخامس والعشرين من كانون الأوّل.

وكتابهم الإنجيل يتضمن أخبار المسيح من مولده إلى رفعه، كتبه أربعة من أصحابه متّي بفلسطين بالعبرانية، ومرقوس ببلاد الروم بالرومية، ولوقا بالإسكندرية باليونانية، ويوحنا بأفيس باليونانية أيضاً.

ولهم صيامات أخر كصوم السلحي، وصوم نينوى، وصوم العذاري وهو ثلاثة أيام، أوّلها: الاثنين الذي يلي الذبح، وفطرة الخميس.

---

(١) في المخطوط (الثاني)، وما اثبتناه هو الصحيح انظر: المختصر في أخبار البشر: ٥٨/١، مواهب الجليل ٥٠١/٦.

ودخل في دين النصارى أمم منها: الروم وهم بنو الأصفر، وهو روم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وكانوا على دين الصابئة إلى أن تنصّر ملكهم قسطنطين وحملهم على دين النصرانية، ومنهم: الأرمن وبلادهم مجاورة خلاط، ومنهم: الجركس والروس والبلغار، ومنهم: الفرنج وأصل بلادهم فرنجا، مجاورة لجزيرة الأندلس.

ولهم في بحر الروم جزائر منها: صقلية، وقبرص، وإقريطش، والبندقة، ومالطة.

وأمّا أُمّة الهند فمنها: الناسوية[1]، يعظّمون النار ويبيحون الزنا، ويسجدون للبقر، ومنهم: اليهودية لا يعافون شيئاً، ويمسحون أبدانهم بالرماد، ويحرّمون الذبائح، والنكاح، وجمع المال، ومنهم: عبدة الشمس، ومنهم: عبدة القمر، ومنهم: عبدة الأصنام، ومنهم: عبدة النار، ومنهم عبدة الماء، ومنهم: البراهمة أصحاب الفكر، يعلمون علم الفلك والنجوم على طريقة تخالف منجمي العجم، أكثر أحكامهم باتصالات الثوابت دون السيارة، يعظّمون الفكر ويقولون: هو التوسط بين المحسوس والمعقول، ويصرفونه عن المحسوسات حتى تتجلى لهم المغيبات بالرياضة البليغة المجهدة، وينكرون النبوّة منهم من يتقرب إلى النار بإلقاء نفسه فيها، وبإغراق نفسه في الماء خصوصاً في نهر كنك ـ ماء عندهم كماء زمزم عندنا ـ وهو نهر كبير حاد الانصباب، وقد منّ الله تعالى على أُمّة الهند بهدي جمهورهم إلى الإسلام، بحيث نقل ابن فضل الله في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) أنّه صار بدهلي على ألف مدرسة للعلم[2]، ووصف ملكهم بالعدل الوافر والكرم الزائد والفضل التام، وأنّه يحفظ كتاب الهداية في مذهبه، ويبحث مع العلماء، ويجلّهم ويقرّبهم ويبالغ في تعظيمهم.

فأمّا أُمة السند فهم غربي الهند، وهم قسمان: فقسم ببلاد اللان[3] والمنصورة والدبيل، والمسلمون غالبون عليها. وقسم يعرف ببلاد القشمير وأهلها يعبدون الأصنام، وكل من ملك السند يقال له: رتبيل[4].

وأمّا أُمّة السودان، فهم من ولد حام بن نوح عليه السلام، فأديانهم مختلفة، منهم: مجوس، ومنهم: عبدة الحيّات، ومنهم: أصحاب أوثان.

قال جالينوس: اختصوا بعشرة خصال: بفلفل الشعر، وخفّة اللحا، وفتح المنخرين، وغلظ الشفتين، وحدّة الأسنان، ونتن الجلد، وسواد اللون، وتشقق الكعاب، وطول الذكر، وكثرة الطرب،

---

(١) في الملل والنحل: الباسنوية، وفي المختصر في أخبار البشر: الباسوية.

(٢) المواعظ والاعتبار: ٣٥٥/٢، والروض المعطار في خبر الاقطار: ٤٢٨/١.

(٣) قال ياقوت في معجمه: اللان آخره نون بلاد واسعة في طريق أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر.

(٤) عمدة القاري: ٧٩.

فمنهم: الحبش وبلادهم تقابل الحجاز بينهما البحر، ويجاورهم من الجنوب الزيلع والغالب عليهم دين الإسلام، ويجاورهم من جهة الشمال والمغرب النوبة، ومنهم: لقمان الحكيم، وبلال بن حمامة، وذو النون المصري.

وأمّا أُمّة الصين فبلادهم واسعة، عرضها من بحر الصين في الجنوب إلى سد يأجوج ومأجوج، الذي بناه ذو القرنين في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك، وتشتمل الصين على الأقاليم السبعة. عندهم العدل، والسياسة، والعقل، وحذق الصناعة، قصار القدود، عراض الوجوه، عظام الرؤوس، منهم: عبدة أوثان، ومنهم: عبدة نيران، ومنهم: مجوس، مدينتهم الكبرى جمدان. وصين الصين نهاية في العمارة، ليس وراءه إلّا البحر المحيط، مدينتهم العظمى سيلي، وأخبارهم منقطعة عنّا[١].

وأمّا بنو كنعان فهم ولد كنعان بن مازيع بن حام بن نوح عليه السلام، نزلوا الشام حتى تبلبلت الألسن، وكل من ملك كنعان كان يسمى جالوت إلى أن قتل داود جالوت وآتاه الله الملك، وكان اسم جالوت كلياد.

وأمّا البربر فالأصح أنّهم طائفة من بني كنعان، سكنوا المغرب حين قتل جالوت، وتفرّقوا، وقبائلهم كثيرة. منها: كتامة الذين أقاموا دولة الفاطميين مع أبي عبدالله الشيعي. ومنهم: صنهاجة ملوك أفريقية. ومنهم: زناتة ملوك فارس كور وتلمسان وسجلماسة. ومنهم: المصامدة الذين أقاموا بنصرة محمّد بن تومرت العلوي، وبهم ملك عبدالمؤمن بن عليّ وبنوه بلاد المغرب والبربر مثل الأعراب في سكنى الصحاري، ولهم لسان غير العربي.

وأمّا عاد فهم ولد عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، نزلوا لمّا تبلبلت الألسن بحضرموت، وبلادهم يقال لها: الأحقاف متصلة باليمن وبلاد عمان. كانوا على نهاية من عظم الأجسام والتجبر، فأهلكهم الله تعالى بالريح العقيم، وبها ينسف الله الجبال يوم القيامة.

وأمّا العمالقة فهم ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، نزلوا بصنعاء اليمن حين تبلبلت الألسن، ثم تحولوا إلى الحرم، وأهلكوا من قاتلهم من الأمم، وكان منهم جماعة بالشام قاتلهم موسى عليه السلام ثم يوشع فأفناهم، وجماعة تخيّروا الحجاز، فأرسل إليهم موسى جيشاً وأمر بقتلهم عن آخرهم، فأبقوا منهم ابن ملكهم، ورجعوا إلى الشام وقد مات موسى عليه السلام، وقال لهم بنو إسرائيل: قد خالفتم نبيّكم فلا نؤويكم، فرجعوا إلى خيبر فصارت اليهود حلفاً: الأوس والخزرج، إلى أن جاء الإسلام[٢].

(١) المختصر في أخبار البشر: ٦/٢١.

(٢) المختصر في أخبار البشر: ٦٣/١.

فهؤلاء الملوك والأمم الذين ذكرناهم كانوا ملوك الأرض وأصحاب الدول، بلغوا من الدنيا مرادهم وصرفوا باللذات أوقاتهم ومضوا، وبقيت أسمائهم وأنسابهم وحكاية أفعالهم وخصالهم، فيجب على الإنسان أن يزرع في قلبه بذر الإيمان، ويطيع الملك الديّان وينقي عن نفسه العيوب، ويرجع إلى الله ويتوب، لاسيما الأكابر والملوك، فيحسنوا العشرة والسلوك، ولا يركنوا إلى هذه الدنيا القليل وفاءها الكثير بلاءها، ولا يغترّوا بأمانيها فإنّها لا تدوم على أحد، ولا يبقى فيها صالح، ولا يسلم من شرّها طالح كما قيل فيها:

انما هذه الحياة الدنيا متاع والسفيه والغوي من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

فقال الله خيرها ونعوذ به من شرها، والحمد لله وحده، وصلّى الله على محمّد وآله، ومن على منواله.

تمّ النصف الأوّل من كتاب الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك والحمد لله ربّ العالمين، وقد أخذه مؤلفه المشار إليه في صدر الكتاب من عدّة كتب معتبرة عند أولي الألباب وهي: مجمع البيان، وتفسير البيضاوي، والكشّاف، وخمسة تفاسير، ومن الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، وكمال الدين وتمام النعمة، وعلل الشرائع، وأمالي ابن بابويه وخصاله، وكشف الغمّة، وإرشاد المفيد، وإعلام الورى، والاحتجاج، وإرشاد العلّامة وكشكوله، والمهذب، والتنقيح، ومصارع الحسين، ووفاء الثارات، وكتاب ورّام، وديوان أمير المؤمنين، وصحيفة زين العابدين، ومفتاح الفلاح، ومصباح الكفعمي، ومناقب الخوارزمي، وسلوان المطاع، وكتاب عجائب المخلوقات، وكتاب رجال الميرزا، وكتاب الكمال في أسماء الرجال، وكتاب تحفة الإخوان في تقوية الإيمان، وكتاب نزهة الألباء في طبقات الأدباء، وكتاب جواهر العقل الفريد وبقية الملك الصنديد، وكتاب البشر المسبوك في نصائح الملوك، وتاريخ روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، وتاريخ ابن الأثير، وتاريخ ابن خلكان، وتاريخ شرح طوق الحمامة، وتاريخ المسعودي، وتاريخ الطبري، وأطواق الذهب للزمخشري، وعدّة كتب ومجامع. وكان فيه لحن يقرب إلى القليل، فصححت البعض منه حال الكتابة، لقوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾، مع أنّه سلّمه الله تعالى أجازني على ذلك وأراني المسالك، لأنّ النسخ المأخوذ منها سقيمة، والقلم أعانها إعانة عظيمة.

وأنا الأقل إبراهيم بن سليمان الموسوي الحسيني، كتبته بيدي لنفسي وللإخوان، والمرجو منهم إذا ظهر لهم ما طغى به القلم فليصلحه منهم أولوا العلم.

قد فرغ من تسويد هذه النسخة على يد أقل الخليقة، بل لا شيء في الحقيقة ابن محمّد أمين محمّد حسين في تاريخ شهر محرم الحرام من شهور ١٢٤٥.

الفهرس

الركن الأوّل: في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك ١

فصل في أيام آدم صفي ربّ العالمين ٢١

فصل في ذكر قصّة نوح عليه السلام ٢٩

فصل في أيام هود عليه السلام ٣٢

فصل في أيام صالح عليه السلام ٣٥

فصل في أيام إبراهيم عليه السلام ٣٧

فصل في أيام لوط عليه السلام ٤١

فصل في أيام إسماعيل عليه السلام ٤٤

فصل في أيام إسحاق عليه السلام ٤٦

فصل في أيام يعقوب ويوسف عليهما السلام ٤٨

فصل في أيام أيّوب عليه السلام ٥٨

فصل في أيام ذا الكفل عليه السلام ٦١

فصل في أيام شعيب عليه السلام ٦٢

فصل في أيام موسى وهارون عليهما السلام ٦٣

فصل في أيام يوشع عليه السلام ٧٦

فصل في أيام شمويل النبي عليه السلام ٧٧

فصل في أيام داود عليه السلام ٧٨

فصل في أيام سليمان عليه السلام ٨١

فصل في أيام أشعيا عليه السلام ٨٧

فصل في أيام يونس عليه السلام ٨٧

فصل في أيام إلياس عليه السلام ٩٢

فصل في أيام جرجيس عليه السلام ٩٣

فصل في أيام دانيال وعزير وأرميا عليهم السلام ٩٤

فصل في أيام زكريا عليه السلام ٩٥

فصل في أيام يحيى بن زكريا عليهما السلام ٩٦

فصل في أيام عيسى عليه السلام ٩٨

فصل في أيام المصطفى صلى الله عليه وآله ١٠١

فصل الأوصياء عليهم السلام ١٧٠
الركن الثاني: في أيام الأئمة المعصومين عليهم السلام وأعمار المعمرين ١٧٣
فصل أمير المؤمنين عليه السلام ١٧٣
فصل في أيام الحسن عليه السلام ٢٠٥
فصل في أيام الحسين عليه السلام ٢١١
فصل في أيام زين العابدين عليه السلام ٢٣٩
فصل في أيام الباقر عليه السلام ٢٤٣
فصل في أيام الصادق عليه السلام ٢٤٦
فصل في أيام الكاظم عليه السلام ٢٤٩
فصل في أيام الرضا عليه السلام ٢٥٤
فصل في أيام الجواد عليه السلام ٢٦١
فصل في أيام الهادي عليه السلام ٢٦٦
فصل في أيام العسكري عليه السلام ٢٧٠
فصل في أيام المهدي عليه السلام ٢٧٣
فصل في أعمار المعمرين ٢٧٨
الركن الثالث: في الملوك المتقدمين والأمم الماضين ٢٨٥
فصل في أيام الملوك الفرس ٢٨٩
فصل في أيام ملوك اليونان ٣١١
فصل في أيام ملوك الروم ٣١٧
فصل في أيام ملوك أوّل من ملك مصر بعد الطوفان ٣١٩
فصل في أيام ملوك اليمن ٣٢١
فصل في أيام ملوك سبأ ٣٢٩
فصل في أيام ملوك الشام ٣٣٣
فصل في أيام ملوك الحيرة ٣٣٦
فصل في أيام ملوك كندة ٣٤٣
فصل في أيام ملوك الحجاز وأنسابهم ٣٤٦
فصل في وقائع العرب ٣٥٣
فصل في الأمم من العرب والعجم ٣٦٥
الفهرس ٣٧٥